

مِيسَلَةُ شُرُوحَاتٍ وَمَوْلاَفَاتٍ مَعَانِي الشَّيْخِ صِرَاحِ الْفُوزَانِ (١٣)

شَرَحَ

كِتَابُ الْكِبَارِ

لِلْإِمَامِ / مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

الشَّرَحَ

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَمَةِ

الدَّكْتُورِ صِرَاحِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ

بِقَرَارِ اللَّهِ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ السَّامِعِينَ

اِعْتَنَى بِهِ وَأَشْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ

د. سَلْمَانُ جَابِرُ عُثْمَانِ الْمُجَاهِدِ السُّوْلَمِيَّ

بِقَرَارِ اللَّهِ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ السَّامِعِينَ

مَكْتَبَةُ الْأَمَلِ الدَّهْيَلِيَّةِ

السُّوَيْدِيَّةُ

الْإِثْرَانِيَّةُ الدَّهْيَلِيَّةُ

الزَّيَّاتِيَّةُ

شَرَحَ
كِتَابُ الْكِبَارِ
لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
بِقَرَارِ اللَّهِ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ السَّامِعِينَ

شیراز
کتاب الکبائر

دار التراث الذهبي للنشر والتوزيع، ١٤٣٩ هـ (ح)

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المجله، سلمان بن جابر بن عثمان

شرح كتاب الكبائر للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، /

سلمان بن جابر بن عثمان المجله، - الرياض، ١٤٣٩ هـ

٨٢٠ ص؛ ١٧ X ٢٤ سم

ردمك: ٢-٣-١١٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- الكبائر ٢- الحديث - مباحث عامة أ. العنوان

١٤٣٩/٩٨٦٢

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٩٨٦٢

ردمك: ٢-٣-١١٠١-٦٠٣-٩٧٨

حُقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

(١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م)



مكتبة الامام الذهبي للنشر والتوزيع

الفرع الرئيسي، حولي - شارع الملك - جميع البشري - ت، ٢٢٦٥٧٨٠٦
فرع الصالح، ت ٢٢٦١٥٠٤٦ - فرع الجواهر، الناصر مول، كلفون، ٩٥٥٥٨٦٠٨
فرع الفحيحيل، البرج الأخضر - شارع الديوس - كلفون، ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧
فرع الرياض، الملكة العربية السعودية التراث الذهبي - جوال ٠٠٩٦٦ ٥٥٧٧٦٥١٣٨
الخط الساخن، جوال، ٥٥٥٩٠ ٩٤٤٠ ٠٩٦٥



z.zahby74@yahoo.com



Imanzahby

شَجَرُ

كِتَابُ الْكِبَائِرِ

لِلإِمَامِ / مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الشَّجَرُ

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ

الدَّكْتُورِ صَالِحِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ

عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْ أَنَّكَ دُخِيتَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ

اِعْتَنَى بِهِ وَأَسْرَفَ عَلَى طَبْعِهِ

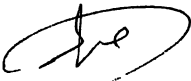
د. سَلْمَانُ جَابِرُ عُثْمَانِ الْمُجَاهِدِ السُّوَيْلِمِ

عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْ أَنَّكَ دُخِيتَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:
فقد أذنت لابننا وتلميذنا فضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم
بطباعة شرح كتاب الكبائر، للإمام محمد بن عبد الوهاب.
رجاء أن ينفع الله به، ويكتب لي وله الأجر.
وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: د. صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة


٥٩٤٢٩ / ١١١٥

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فهذا شرح لشيخنا العلامة صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور صالح ابن فوزان الفوزان، أثابه الله تعالى على كتاب الكبائر للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله وغفر له -، وقد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتابه جملة كبيرة من كبائر الذنوب العظيمة، مستنداً في ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو يذكر عنوان الكتاب، ثم يذكر الأدلة من الآيات من كلام الله - جل شأنه -، ومن الأحاديث الشريفة من كلام رسول الله ﷺ، وقد يذكر أحياناً بعض أقوال السلف الصالح من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين - رحمة الله عليهم -.

وقد ابتدأ كتابه بباب: (أكبر الكبائر)، وذكر بعض الأبواب الخاصة بالقلب مثل: الكبر، والعجب، والياس من روح الله، والأمن من مكر الله، وسوء الظن بالله، وقسوة القلب، وجحود النعمة ونحوه.

وذكر كبائر متعلقة باللسان مثل: الكذب، والنميمة، والغيبة، والبذاءة، والفحش، والتحدث بالمعصية.

وذكر كبائر تتعلق بمشاعر الإنسان وإرادته مثل: إرادة العلو والفساد، والحرص الذميم على المال والشرف، والحسد، والجبن، والبخل، وبغض الصالحين، وتمني المعصية، والفرح بها، والحرص عليها - نسأل الله السلامة والعافية -.

وذكر كبائر تتعلق بأفعال الإنسان وتصرفاته مثل: شهادة الزور، والشفاعة في الحدود، وترويع المسلم، والرشوة، وقتل النفس بغير حق.

وذكر كبائر تتعلق بالإمارة والولاية والجماعة مثل: الخروج عن جماعة المسلمين، وطاعة الأمراء، وغش الرعية.

وذكر كبائر تتعلق بالعلاقات الاجتماعية - كما تسمى في الوقت المعاصر - فهي تتعلق بالوالدين، والرحم، والزوج، والجار مثل: العقوق، والقطيعة، وأذى الجار، وإغصاب الزوج.

وذكر كبائر تتعلق بالمرأة مثل: سؤال المرأة الطلاق، وظلم المرأة واليتيم. وذكر غير ذلك مما تشهد له نصوص الوحي من القرآن والسنة؛ تحذيراً ونصيحاً للأمة من الوقوع والولوغ في مثل هذه الذنوب العظام وشر الخطايا والآثام، وتبييناً أن النجاة والفلاح والفوز باتباع هدي وطريق سيد الأنام، نبي الإسلام محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه الكرام.

وختم الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ كتاب الكبائر بباب جميل تحت عنوان: (ما جاء في إخوة الإسلام وحق المسلم على المسلم).

وما أحسن ما قاله الإمام ابن القيم عن كبائر الذنوب في كتابه الماتع الجواب الكافي، فقد قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْكَبَائِرِ: هَلْ لَهَا عَدَدٌ يَحْصُرُهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، ثُمَّ الَّذِينَ قَالُوا بِحَصْرِهَا اخْتَلَفُوا فِي عَدَدِهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: هِيَ أَرْبَعٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: هِيَ سَبْعٌ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: هِيَ تِسْعَةٌ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هِيَ إِحْدَى عَشْرَةَ، وَقَالَ آخَرُ: هِيَ سَبْعُونَ).

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّيُّ: جَمَعْتُهَا مِنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَوَجَدْتُهَا: أَرْبَعَةٌ فِي الْقَلْبِ، وَهِيَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْإِضْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ.

وَأَرْبَعَةٌ فِي اللِّسَانِ، وَهِيَ: شَهَادَةُ الزُّورِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ، وَالسَّخَرُ.

وَثَلَاثٌ فِي الْبَطْنِ: شُرْبُ الْخَمْرِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا.

وَاثْنَتَانِ فِي الْفَرْجِ، وَهُمَا: الزُّنَا، وَاللُّوَاطُ.

وَاثْنَتَانِ فِي الْيَدَيْنِ، وَهُمَا: الْقَتْلُ، وَالسَّرِقَةُ.

وَوَاحِدَةٌ فِي الرِّجْلَيْنِ، وَهِيَ: الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ.

وَوَاحِدٌ يَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْجَسَدِ، وَهُوَ: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ.

وَالَّذِينَ لَمْ يَخْضُرُوا بِعَدَدٍ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُلُّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ

فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مَا اقْتَرَنَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ وَعِيدٌ مِنْ لَعْنٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ عُقُوبَةٍ

فَهُوَ كَبِيرَةٌ، وَمَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا تَرْتَّبَ عَلَيْهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا أَوْ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ،

وَمَا لَمْ يَرْتَّبْ عَلَيْهِ لَا هَذَا وَلَا هَذَا فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا اتَّفَقَتِ الشَّرَائِعُ عَلَى تَحْرِيمِهِ فَهُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَمَا كَانَ

تَحْرِيمُهُ فِي شَرِيعَةٍ دُونَ شَرِيعَةٍ فَهُوَ صَغِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا لَعَنَ اللَّهُ أَوْ رَسُولُهُ فَاعِلُهُ فَهُوَ كَبِيرَةٌ.

وَقِيلَ: كُلُّ مَا ذُكِرَ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ النَّسَاءِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ: ٣١].

وَالَّذِينَ لَمْ يُقَسِّمُوها إِلَى كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ قَالُوا: الذُّنُوبُ كُلُّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجَرَاعَةِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتُهُ أَمْرُهُ كَبَائِرُ، فَالنَّظَرُ إِلَى مَنْ عَصَى أَمْرَهُ وَانْتَهَكَ حَاكِمَهُ يُوجِبُ أَنْ تَكُونَ الذُّنُوبُ كُلُّهَا كَبَائِرَ، وَهِيَ مُسْتَوِيَةٌ فِي هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ).

ومما يشار إليه أن إعداد هذا الكتاب وريعه والعائد من بيعه كله وقف لله عَزَّوَجَلَّ، وقد تم إعداد هذا الكتاب على نفقة الشيخ أبي عبد الرحمن مساعد ابن علي الشايحي، والشيخ أبي وائل محمد بن أحمد الفرحان، وزوجته الكريمة، وفقهم الله تعالى لنفع العباد والبلاد، وتقبل الله منهم أجمعين.

وجزى الله المؤلف الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ مع الشارح شيخنا العلامة المفضال صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان خيراً كثيراً وأجرًا كبيراً، والله نسأل أن يشركننا معهم في الأجر والثوبة، وجزى الله المتبرعين بأموالهم الوقفية في خير ما وقف له المال في العلم الشرعي، وصلى الله وسلم على نبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعنا معهم إلى يوم الدين.

كتبه

د. سَلْمَانُ جَابِرُ عَثْمَانِ الْمَجْلَهْمُ السَّوَيْلِمِ

عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْ أَلَزِمَهُ وَلَا أَهْلَ بَيْتِهِ وَلَا أَهْلَ بَيْتِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن الشيخ الإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ أَلْفَ مؤلفاتٍ كثيرة نادرة ومفيدة في بيان التوحيد وبيان الشرك، وفي بيان المعاصي والذنوب، وكل ذلك من باب النصيحة للمسلمين، والدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، والإصلاح في الأرض، وهذه طريقة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، والإنسان ما دام على قيد الحياة فإنه سيعمل ويتحرك، ولا يبقى ساكنًا وجامدًا لا يتحرك، لا بد أن يتحرك، ولا بد أن يعمل، فإما أن يكون عمله بالخير، وإما أن يكون عمله بالشر ولهذا بعث الله الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لدعوة الناس إلى الخير، وتحذيرهم من الشر.

والله جَلَّ وَعَلَا جعل دارين للجزاء: الجنة وهي دار المتقين العاملين بالطاعات، وجعل النار وهي دار الكافرين العاملين بالمعاصي والسيئات، وفرق بينهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية: ٢١-٢٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ

الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿ [ص: ٢٨]، الله جَلَّ وَعَلَا يميز بين أفعال عباده فلا يظلم أحداً، فالمحسن يضاعف له إحسانه، ويزيده من فضله وكرمه، والمسيء إما أن يعفو عنه، وإما أن يجازيه بالسيئة مثلاً.

قال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، السيئة يُجزى بمثلها ولا تُضاعف؛ لأن هذا عدل من الله جَلَّ وَعَلَا، والحسنة يضاعفها الله ويزيدها، ويُنمّيها فضلاً منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]، فالمضاعفة فضلٌ من الله، وجعل السيئة بمثلها عدلٌ من الله جَلَّ وَعَلَا.

والطاعات تنقسم إلى قسمين:

واجبات، ومستحبات.

فالواجب هو ما يُثاب فاعله ويُعاقب تاركه^(١).

والمستحب هو ما يُثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه^(٢)، هذه الطاعات.

(١) انظر في تعريف الواجب: العدة في أصول الفقه (١/ ١٥٩)، والفقيه والمتفقه (١/ ١٩١)، والبرهان في أصول الفقه (١/ ١٠٦)، والمستصفى (ص ٥٣)، وروضة الناظر وجنة المناظر (١/ ١٠٢)، وشرح مختصر الروضة (١/ ٢٦٥)، والبحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٢٣٣)، وشرح الكوكب المنير (١/ ٣٤٥).

(٢) انظر في تعريف المندوب: العدة في أصول الفقه (١/ ١٦٣)، والبرهان في أصول الفقه (١/ ١٠٧)، والمستصفى (ص ٦٠)، وروضة الناظر وجنة المناظر (١/ ١٢٤)، وشرح مختصر الروضة (١/ ٣٥٣)، والبحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٣٧٧)، وشرح الكوكب المنير (١/ ٤٠٣).

والذنوب تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ذنوبٌ كبار.

القسم الثاني: وذنوبٌ صغائر.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فالكبائر كثيرة، فاختلف العلماء في ضابط الكبيرة ما هو؟

فالأقرب في هذا أن كل ذنبٍ توعده عليه بغضب أو لعنة أو نار، أو قال فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس منا من فعل كذا»، فإنه كبيرة^(١)، وما عدا ذلك من المنهيات فإنه يكون من الصغائر، ومن اللمم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كِبِيرَ الْإِلَافِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، والصغائر تُسمى باللمم ﴿إِلَّا اللَّفْمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

إذا تهاون المسلم بالذنوب - وإن كان من الصغائر - فإنه يتحول إلى كبيرة بسبب تهاونه به وإقامته عليه تحول إلى كبيرة، فالمسلم يتجنب المنهيات كلها؛ حفاظاً على دينه وعلى ذمته، وابتغاء مرضاة الله سُبحانه وتعالى، فالمسلم يتجنب كل ما نهى الله عنه، وهذا سهلٌ يسير على من وفقه الله سُبحانه وتعالى، والدين - والحمد لله - واسع وكثير، والخير كثير، فليس بحاجة الإنسان إلى أنه يلجأ إلى الكبائر والمنهيات التي عليها وعيد، فكل ما ختم بغضب أو لعنة أو نار، أو عليه حد في الدنيا، أو وعيد

في الآخرة من المنهيات، فإنه من الكبائر، فعلى المسلم أن يتجنب المنهيات كلها؛ لأن الصغائر تتحول إلى كبائر، إذا تهاون الإنسان فيها وقام عليها.

وأما المعاصي، فهي تنقسم إلى أقسام:

منها: ما هو كفرٌ وشرك.

ومنها: ما هو كبيرة دون الشرك.

ومنها: ما هو صغيرة.

فأما الكفر والشرك هذا لا يغفره الله إلا إذا تاب صاحبه منه قبل أن يموت، إن مات عليه فهو خالدٌ مخلدٌ في النار ولا يُغفر له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، وأما الكبائر التي دون الشرك فهذه تحت المشيئة إن شاء الله غفر لصاحبها، وإن شاء عذبه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وأما الصغائر، وهي اللمم؛ فالصغائر تسمى الصغائر، وتسمى اللمم فهذه تُكفر بأشياء:

أولاً: الصلوات الخمس يُكفر الله بها السيئات الصغائر، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»^(١)، والله جَلَّ وَعَلَا حث على التوبة والاستغفار، وهذا مما يغفر الله به، التوبة يغفر الله بها، والاستغفار يغفر الله به الذنب، وإن كان كبيرة، وإن كان كفرًا وشركًا

(١) أخرجه مسلم (١٦) (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من تاب تاب الله عليه، من تاب وأصلح العمل، فإن الله يتوب عليه، وباب التوبة مفتوح بالليل والنهار ما لم يُغرغر العبد -تبلغ روحه الغرغرة-، فإن باب التوبة مفتوح أمامه^(١)، مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربها، فحينئذ لا يقبل من أحد توبة ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والذنوب تنقسم إلى: (كبائر، وصغائر)، وضابط الكبيرة ذكره الشيخ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو الذي اختاره المحققون من أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، والضوابط النفيسة تأتي، وقد أُلِفَ في الكبائر مؤلفات -منها: كتاب «الكبائر» للذهبي-، وصلت إلى أكثر من سبعين كبيرة، ومنها: كتاب «الزواجر عن اقتراف الكبائر» لابن حجر الهيتمي المكي بلغت عنده إلى أكثر من أربعمائة، أُلِفوا فيها مؤلفات، وبينوها من الكتاب والسنة، ومن جملة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الكتاب: كتاب الكبائر كبائر الذنوب.

وهذه الكبائر -كما ذكرنا- إن كانت شركًا بالله عَزَّجَلَّ أو كفرًا بالله فإنها لا تُغفر إلا بالتوبة، فمن مات ولم يتب فإنه خالدٌ مخلدٌ في النار لا يُغفر له، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٣٠٠/١٠) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغْ».

أما إن كانت هذه الكبائر دون الشرك، فعند أهل السنة والجماعة أنها تُفْسَق ولا تُكْفَر، وأن صاحبها يُحْكَم عليه بأنه فاسق، وأنه ناقص الإيمان لكن لا يكفر بها؛ بدليل أن الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهي لا تُكْفَر وإنما تُفْسَق، وتُنْقَصُ الإيمان ولهذا رتب الله عليها الحدود، مثل: السرقة، الزنا، شرب الخمر، القتل العمد، العدوان، مثل: قطاع الطريق، رتب الله عليها حدوداً، ولو كان مرتكبوها كفاراً، ما أقيم عليهم الحدود لقتلوا مرتدين، فإقامة الحد دليل على أنها ليست كفراً، وإنما هي كبائر ومعاصٍ تُقام الحدود المرتبة عليها، وهذه الحدود إما زواجر وإما جواهر.

بعض العلماء يقول: إنها جواهر فقط، وبعضهم يقول: إنها مكفرات، وإن أُقيم عليه الحد في الدنيا، فلا يُقام عليه مرة ثانية في الآخرة، أما الخوارج^(١) فهم يحكمون على مرتكب الكبيرة بالكفر والخلود في النار، ولا يفرقون بين كبيرة الشرك والكفر وبين كبيرة المعاصي، يقولون: الكبائر كلها مكفرات -والعياذ بالله-، وأصحابها مخلصون في النار، أخذوا بهذا في الوعيد، وتركوا

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يُخْفَرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتُهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامُهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَمُرُّونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ٥٤)، والمُلل والنحل (١١٤/١).

آيات المغفرة وآيات الوعد، فأخذوا بجانب من الأدلة، وتركوا جانباً؛ لعدم فقههم ومعرفتهم بالكتاب والسنة، واعتمادهم على فهمه دون رجوع إلى أهل العلم، وهذه نتيجة الانعزال عن أهل العلم، صورة مثل هذا صورة أصحاب الضلال.

والمعتزلة^(١) يقولون: إن مرتكب الكبيرة يخرج من الإيمان، ولكنه لا يدخل في الكفر، بل يكون في منزلة بين المنزلتين لا هو بمؤمن ولا بكافر، فإن مات ولم يتب فهو خالدٌ مخلدٌ في النار - كما تقول الخوارج -، فاجتمعوا مع الخوارج في جزائه في الآخرة، وخالفوهم في حكمه في الدنيا، ابتدعوا المنزلة بين المنزلتين - كما يقولون -^(٢).

(١) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذاً في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو ابن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.

وقد اختلفت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولأنهم أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.

انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص ١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٩١-٧٩٢).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (فَصُلِّ: وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكْفَرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي =

والمرجئة^(١) على النقيض من الخوارج والمعتزلة يقولون: ما يضر مع الإيمان معصية، الإيمان بالقلب وهو التصديق، وهو لا يزيد ولا ينقص، والمعاصي لا تضر ما دام أنه مؤمن بقلبه، فإن المعاصي لا تضره ولا تنقص إيمانه. هذا مذهب المرجئة؛ لأنهم لا يُدخلون العمل بحقيقة الإيمان، ويقولون: الإيمان هو الاعتقاد بالقلب، وبعضهم يقول: الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان، وبعضهم يقول: الاعتقاد بالقلب فقط، وبعضهم يقول: هو المعرفة حتى ولو لم يعتقد.

= وَالْكَبَائِرُ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْلَعْهُ بِالْمَعْرِوفِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وَقَالَ: ﴿وَلَنْ طَافِقَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَنَّبَهُمَا أَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمَا نِصْفَةٌ لِلَّذِينَ تَنَبَّهُوا عَلَيْهِمَا فَتَوَلَّىٰ سَاسُ الْأُمَمِ أَلَا هِيَ تَقُشُّ عَلَيْهُمَا وَلَوْ حَسْبُكَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الحجرات: ٨، ٩]، وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَا يَحْلُدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزَلَةُ بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَحَرَّ رَقَبَةً مُّؤْمِنَةً﴾ [النساء: ٩]. وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزِيهِ الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرُ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ». وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكِبِيرَتِهِ، فَلَا يُعْطَى الْإِسْمَ الْمُطْلَقَ وَلَا يُسَلَّبُ الْمُطْلَقُ الْإِسْمَ.

انظر: العقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٥١-١٥٢).

(١) المرجئة: قيل من الإرجاء، أي: من التأخير؛ لأنهم آخروا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل: من الرجاء؛ لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فرق شتى. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ١٣٢)، والفرق بين الفرق (ص ١٩٠).

والجهمية^(١) يقولون: الإيمان هو المعرفة، ولو لم يعتقد. هذا أشد أنواع الإرجاء، وكثير يقولون: الإيمان هو القول باللسان دون اعتقاد القلب. وهذا قول الكرامية^(٢)، فالمرجئة على اختلاف فرقهم الأربع لا يدخلون الأعمال بالإيمان، ويقولون: الإيمان هو التصديق بالقلب، ولا يزيد ولا ينقص، فإيمان أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثل إيمان أفسق الناس، فإنه ما دام أنه مؤمن بقلبه يكفي هذا عندهم، وهذا مذهب المرجئة وهو تفريط، فالخوارج مذهبهم إخراج وغلو، وهؤلاء مذهبهم تفريط وميوعة، وكلا الطائفتين ضالّ مخالف للحق، والصواب مذهب أهل السنة والجماعة المأخوذ من الكتاب والسنة^(٣).

(١) هم أتباع الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولا هم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرّاً عظيماً، وهو رأس في التعطيل قُتل سنة ١٢٨ هـ قتله سلّم بن أحوز. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ١٥٩)، والتعريفات للجرجاني (ص ١٠٨)، وفتح الباري (١٣/ ٣٤٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٥٩٠).

(٢) هو محمد بن كَرام -فتح الكاف وتشديد الراء-، وهو الذي تنسب إليه الفرقة الكرامية، وقد نسب إليه جواز وضع الأحاديث على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وكان يقول: الإيمان هو نطق اللسان بالتوحيد مجرداً عن عقد قلب وعمل جوارح، توفي سنة ٢٥٥ هـ. انظر: المنتظم (١٢/ ٩٧)، وتاريخ دمشق (٥٥/ ١٢٧)، والسير للذهبي (١١/ ٥٢٣)، والبداية والنهاية (١١/ ٢٠)، والأنس الجليل (١/ ٢٩٦)، وشذرات الذهب (٢/ ١٣١).

(٣) انظر: لمعة الاعتقاد (ص ٢٣)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٨٤). قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد طفت الأمصار ولقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم كلهم يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص» اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٧٣، ١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/ ٥٨، ٥٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٧، ٤٠٨)، وذكره السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢١٧)، وابن حجر في الفتح (١/ ٤٧).

فالخوارج والمعتزلة يُقال لهم: الوعيدية؛ لأنهم أخذوا بنصوص الوعيد، والمرجئة أخذوا بنصوص الوعد وتركوا نصوص الوعيد، أهل السنة والجماعة جمعوا بين نصوص الوعيد ونصوص الوعد، وهذا هو الحق، فالمعاصي لا يُقال: إنها لا تضر - كما تقوله المرجئة -، بل هي تضر وتنقص الإيمان وتُفَسِّق، ولا يُقال: إنها تُخرج من الملة - كما تقوله الخوارج والمعتزلة -، بل صاحبها مؤمن ناقص الإيمان، مؤمنٌ بإيمانه، فلا يُعطى الإيمان المطلق، ولا يُسلب منه مطلق الإيمان، لا يُعطى الإيمان المطلق - كما تقوله المرجئة -، ولا يُسلب منه مطلق الإيمان - كما تقوله الخوارج والمعتزلة -، فهذا أمرٌ مهمٌ جداً التفكير فيه ومعرفته، خصوصاً في هذا الزمان الذي التبس فيه الحق بالباطل، وظهر المتعاملون الذين يتعلمون على الكتب، ويعتمدون على فهمهم دون رجوع إلى أهل العلم.

وقد اختلطت عليهم الأمور، فظهر من يُكفرون الناس، وظهر من يتساهلون، وهم المرجئة على طريفي نقيض، فلا بد من معرفة الحق في هذا، والتمسك به؛ لئلا يتشدد الإنسان، فيكون مع المغالين، أو ينحرف ويكون مع المفرطين المتساهلين، بل يكون الإنسان معتدلاً في هذا الأمر، فإنه مزلة

= وقال أيضاً: «كُتِبَ عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل» اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٨٨٩)، وذكره ابن حجر في الفتح (١/ ٤٧٩).

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع عن الشافعي، انظر: مجموع الفتاوى (٣٠٨/ ٧). وقال ابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٣٨): «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان» اهـ.

أقدام ومضلة أفهام؛ لأن هؤلاء إذا حكموا على المسلمين بالكفر، استحلوا دماءهم وأموالهم، وشقوا عصا الطاعة، وحصل ما يحصل كما حصل من الخوارج من قبل، وإذا قالوا بقول المرجئة تسلط أهل الشر والكفر والنفاق، وقالوا: نحن مصدقون بقلوبنا، مع ارتكابهم الفواحش والعصيان، ومع هذا يقولون نحن مؤمنون، فكل المذهبين خطرٌ شديد على هذا الدين وأهله.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا من جملة الكتب التي أُلُفَّت في الكبائر، ما القصد من ذلك؟ حتى يتجنبها المسلم، يعرفها ويتجنبها؛ حفاظاً على دينه، وإبراءً لذمته، ورجاءً لثواب الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كِتَابُ الْكَبَائِرِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كِتَابُ الْكَبَائِرِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، فالكبائر لا تكفر إلا بالتوبة، وأما الصغائر فإن الله يعفو عنها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، يعني: ما دون الكبائر يكفره الله ويغفره.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، هذا دليل على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، وأن من اجتنب الكبائر كفر الله عنه الصغائر، وهذا وعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾، هذا وعد من الله، وفيه رد على الخوارج والمعتزلة، وبيان فساد مذهبهم، بزعمهم أن الكبائر تخرج مرتكبيها من الملة، وقد سبق بيان ذلك

بالتفصيل، وبيان أن الحق في ذلك هو مذهب أهل السنة والجماعة البعيد كل البعد عن الإفراط والتفريط وعن الغلو والتطرف.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢])، ومن الدليل على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر آية سورة النجم؛ ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: ٣٢]، (كَبَائِرُ الْإِثْمِ): المعاصي، (وَالْفَوَاحِشُ): جمع فاحشة وهي ما تنهى قبحة وشناعته^(١)، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ واللمم هي الصغائر، ثم قال: ﴿إِنَّ رَيْكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾، هذه الصغائر تُكفر بمكفرات كثيرة، ومنها اجتناب الكبائر؛ كما في هذه الآية، ومنها الصلوات الخمس، ومنها المصائب التي تنزل بالإنسان مكفرات، المصائب من الأمراض والأسقام، والهموم والأحزان، وموت الأقارب، كل هذا مما يُكفر الله به، وحتى الشوكة يُشاكها المسلم يكفر الله بها عنه من هذه الذنوب والصغائر^(٢)، وهذا من فضل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَيْكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾، وكذا قوله في الآية الأخرى من سورة الشورى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِيبُوا هُمْ يَقْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، هي دليل آخر على أن الآثام تنقسم إلى كبائر وصغائر

(١) انظر مادة (فحش) في: العين (٩٦/٣)، وتهذيب اللغة (١١١/٤)، والصحاح (١٠١٤/٣)، ومقاييس اللغة (٤٧٨/٤)، ولسان العرب (٣٢٥/٦).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رَوَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا».

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «الْكَبَائِرُ: كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ اللَّهُ بِنَارٍ أَوْ غَضَبٍ، أَوْ لَعْنَةٍ، أَوْ عَذَابٍ»^(١)، وَلَهُ عَنْهُ قَالَ: «هِيَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِضْرَارٍ»^(٢)، وَلِعَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْهُ: «هِيَ إِلَى سَبْعِينَ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ»^(٣).

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «الْكَبَائِرُ: كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ اللَّهُ بِنَارٍ أَوْ غَضَبٍ، أَوْ لَعْنَةٍ، أَوْ عَذَابٍ»)، كل ذنب نهى الله عنه، وتوعد عليه بالغضب أو باللعة أو بالنار فإنه من الكبائر، وما نهى الله عنه ولم يرتب عليه هذا الوعيد فإنه من الصغائر، وكلا الذنوب سيئ، سواء من الكبائر أو من الصغائر، فعلى المسلم أن يتقي الله، ويتجنب ما نهى الله عنه؛ محافظةً على دينه، وإيثاراً للسلامة.

الكبائر معاصٍ وهي: ما نهى الله عنه، ما نهى الله عنه هذا معصية ومحرم، لكن إن رُتب عليه وعيدٌ في الآخرة، أو حدٌ في الدنيا فإنه كبيرة، وإن لم يُرتب عليه عقوبة ولا وعيد فإنه معصيةٌ صغيرة يدخل في باب اللمم.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/٦٥٢)، وابن أبي حاتم (٣/٩٣٤، ٥٢١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٤٦٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٦/٦٥١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ: «الْكَبَائِرُ سَبْعٌ؟ قَالَ: «هِيَ إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ». وفي رواية: «إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِضْرَارٍ».

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢/١٩٧)، وفي تفسيره (١/٤٤٧)، وابن جرير (٦/٦٥١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (خَتَمَهُ اللَّهُ)، يعني: أي ختم ذكره بأن توعده الله عليه بالنار، أو لعن من فعله، أو لعنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا كبيرة، إذا لعن الله الإنسان على شيء أو الرسول فهو كبيرة.

(أو غضب) فغضب الله عليه، أو جاء وعيده بالغضب، وتوعده الله بالغضب فهذا كبيرة.

(أو حَدٌّ في الدنيا) مثل: القصاص، مثل: قطع يد السارق، مثل: رجم الزاني، أو جلد الزاني، مثل: قطع يد السارق، هذه الكبائر التي عليها حدود في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو غضب، أو لعن، أو نار، فهذه هي الكبائر، وما نهى الله عنه، ولم يُرتب عليه شيئاً من ذلك فإنه يدخل في باب الصغائر^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَهُ عَنْهُ قَالَ: «هِيَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِضْرَارٍ»)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الكبائر (هي إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ)، الكبائر ليست على حد سواء، فالكبائر تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كبائر عظيمة. القسم الثاني: كبائر دون ذلك.

هناك أكبر الكبائر، وهناك ما هو كبائر، وليس هو بأكبر الكبائر، فالكبائر تتفاوت، وأما عدها فيُرجع فيه إلى الكتاب والسنة، خذ الضابط هذا الذي ذكره ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وطبقه على المعاصي، فما وجدت أنه عليه

(١) قال ابن عبد القوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فما كان فيه حد في الدنيا أو توعده	بأخرى فسم كبرى على نص أحمد
وزاد حفيد المجد أو جا وصيده	بنفي لإيمان ولمن لمبعد

انظر: غذاء الألباب بشرح منظومة الآداب للسفاريني (١/٢٨٧).

شيء منها هو كبيرة، وما وجدت أنه منهي عنه، ولم يؤخذ عليه شيء منها فهو صغيرة وحرام.

وكما سبق ألف العلماء في هذا، الحافظ الذهبي ألف كتاب «الكبائر»، وأوصلها إلى أكثر من سبعين، وأظن ابن حجر الهيتمي أوصلها إلى أكثر من أربعمئة، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: (هِيَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ)، وأكبر الكبائر هي السبع الموبقات؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»^(١).

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِضْرَارٍ)، لا كبيرة مع الاستغفار؛ يمحوها الله بالاستغفار، فإذا استغفر الإنسان ربه بحضور قلب، غفرها الله له، ومحاها عنه، ولا يبقى عليه شيء منها مع الاستغفار، والاستغفار هو طلب المغفرة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(٢).

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ)، فمن استغفر الله صادقاً من قلبه تاب الله عليه، ومحا عنه ذنبه، والصغيرة لا يُتساهل بها ويُستمر عليها فإنها تعظم وتصير كبيرة، الصغائر ما يتساهل فيها الإنسان، ويقول: هذه صغائر؛ لأنه إذا تساهل بها، صارت كبائر، وقد تجره إلى الكبائر، فيحذر الإنسان

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والدارمي (٢٧٦٩)، وأحمد (٣٤٤/٢٠)، وابن أبي شيبة (٦٢/٧)، وعبد بن حميد (٣٦٠/١)، وأبو يعلى (٣٠١/٥)، والحاكم (٢٧٢/٤)، والبعغوي في شرح السنة (٩٢/٥).

من المعاصي الكبائر، والصغائر، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، قالوا: الكفر أكبر الكبائر، والفسوق هو الكبائر التي دون الكفر، والعصيان هي الصغائر.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (وَلَا صَغِيرَةً مَعَ إِصْرَارٍ)، يعني: مع المداومة، الصغيرة إذا داوم عليها الإنسان صارت كبيرة، لا صغيرة مع الإصرار عليها وعدم التوبة منها، فلا يتساهل الإنسان، ويقول: هذه صغيرة، وهذه صغائر، يتهاون بها، تتحول إلى كبائر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلِعَبْدِ الرَّزَاقِ عَنْهُ: «هِيَ إِلَى سَبْعِينَ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ»)، بعضهم يقول: هي سبع، وبعضهم يقول: هي سبعون، وبعضهم يقول: هي أربعمائة، والصحيح: أنه لا حصر لها، ولكن يؤخذ الضابط: ما عليه وعيد أو غضب أو لعنة أو نار من المنهيات فإنه من الكبائر، وما نُهي عنه ولم يُرتب عليه وعيد فإنه من الصغائر. فهي ما حُصرت بعدد، ولكن تنضبط بهذا الضابط الذي ذكر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، واختاره المحققون كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وغيره من أهل العلم^(١).



(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦٥١/١١)، وشعب الإيمان للبيهقي (٢٦٩/١)، وفتح الباري (١٨٣/١٢)، وشرح النووي على صحيح مسلم (٨٥/٢)، وعمدة القاري (٦٢/١٤).

بَابُ: أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ

فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ ^(١).

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ)؛ لَأَنَّ الْكِبَائِرَ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ: أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ، وَمِنْهَا كِبَائِرٌ دُونَ ذَلِكَ.

وَالسَّبْعُ الْمَوْبِقَاتُ هِيَ أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ، وَسُمِّيَتْ مَوْبِقَاتٍ؛ لِأَنَّهَا تَهْلِكُ صَاحِبَهَا؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسُّخْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّخْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ» ^(٢).

قوله: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟»، يَعْنِي: أَلَا أَخْبَرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْكِبَائِرَ تَخْتَلِفُ، مِنْهَا مَا هُوَ أَكْبَرُ، وَمِنْهَا مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ.

(قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ - وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَقَالَ - أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ)،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٥٤)، وَمُسْلِمٌ (٨٧).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٦٦)، وَمُسْلِمٌ (٨٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان متكئاً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم جلس اهتماماً بما سيقوله، فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، وما زال يكررها «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ» حتى تمنى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سكت؛ إشفافاً عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما ظهر عليه من التأثر والاهتمام.

فذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكبر الكبائر، وأولها الشرك بالله؛ لأنه لا يُغفر إلا بالتوبة، وصاحبه مخلص في النار بخلاف الكبائر التي دون الشرك، فإنها وإن عُدب صاحبها في النار فإنه لا يُخلص فيها، وقد لا يُعذب، يعفو الله عنه ولا يُعذب.

ثانيها: (عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ)؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا لما ذكر حقه ذكر حق الوالدين، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فحق الوالدين يأتي بعد حق الله جَلَّ وَعَلَا، فعقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الشرك، وهو الذي يلي الشرك -والعياذ بالله-، عقوق الوالدين يلي الشرك في المنزلة، كما أن حق الوالدين يلي التوحيد: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله: (وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَقَالَ - أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ)، والزور هو الكذب، وسُمي زوراً؛ لأن صاحبه يُزِينه ويُزوره ويُحسِنه حتى يُقبل^(١)، فالكذب يُزور

(١) انظر: العين (٧/ ٣٧٩ - ٣٨٠)، وتهذيب اللغة (١٣/ ١٦٣)، والصحاح (٢/ ٦٧٢ - ٦٧٤)، ومقاييس اللغة (٣/ ٣٦)، ولسان العرب (٤/ ٣٣٤).

وَيُحْسِنُ وَيُزِينُ حَتَّى يَظُنُّهُ النَّاسُ أَنَّهُ صَدَقَ، وَأَنَّهُ حَقٌّ، فَمِنْ أَعْظَمِ قَوْلِ الزُّورِ هُوَ الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَدَعَاءُ غَيْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ هِيَ الشَّهَادَةُ الْكَاذِبَةُ، وَمِنْ شَهَادَةِ الزُّورِ الشَّهَادَةُ الَّتِي يَشْهَدُ بِهَا عِنْدَ الْقَاضِي؛ لِأَجْلِ أَنْ يَحْكُمَ لِلْخَصْمِ بِهَا فَهَذِهِ شَهَادَةُ الزُّورِ، وَهَذِهِ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ، وَقَدْ تَسَاهَلَ النَّاسُ الْآنَ فِي الشَّهَادَةِ، وَيَفْزَعُونَ فِي الشَّهَادَةِ فِرْعًا وَمَعَاوَنَةً يَتَعَاوَنُونَ وَهِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ بَعْدَ الشَّرْكِ، وَأَنْتَ تَضُرُّ صَاحِبَكَ لِتَشْهَدَ لَهُ، أَنْتَ مَا تَنْفَعُهُ، تَضُرُّهُ؛ لِأَنَّكَ أَدْخَلْتَ عَلَيْهِ مَا لَا يَسْتَحِقُّ، وَأَخَذْتَ الْحَقَّ مِنْ صَاحِبِهِ، وَتَهَاوَنْتَ فِي حَقِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

شَهَادَةُ الزُّورِ خَطِيرَةٌ جَدًّا، وَلَكِنْ أَصْبَحَتْ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهَا مِنَ الْأُمُورِ السَّهْلَةِ الَّتِي يُفْزَعُ بِهَا لِصَدِيقِهِ وَقَرِيبِهِ وَصَاحِبِهِ، وَرَبِّمَا بَعْضُهُمْ قَالَ: هَذَا نَفْعٌ لَهُ وَإِعَانَةٌ لَهُ، وَمِنْهَا التَّزْكِيَاتُ الْبَاطِلَةُ أَنَّهُمْ يَزْكُونَ الشَّخْصَ وَهُوَ غَيْرُ أَهْلِ لِلتَّزْكِيَةِ، فَهَذِهِ مِنْ شَهَادَةِ الزُّورِ، إِذَا حَكَمْتَ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ طَيِّبٌ وَأَنَّهُ صَدُوقٌ وَأَنَّهُ صَاحِبٌ لَكَ وَهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ فَهَذَا مِنْ شَهَادَةِ الزُّورِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.



بَابُ: كِبَائِرِ الْقَلْبِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّجَرُ

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: كِبَائِرِ الْقَلْبِ)، الكبائر تنقسم إلى قسمين: القسم الأول: كبائر الجوارح في الظاهر، تُرى وتُسمع، مثل: الزنا، والسرقة، وقتل النفس.

القسم الثاني: كبائر من أعمال القلوب، لا تُسمع ولا تُرى، ولكنها تكون في القلوب، مثل: الكبر، والحسد، هذه من الكبائر، لكنها ليست أعمالاً من الجوارح، وإنما هي من أعمال القلوب، الكبر والاختيال والعُجب، وازدراء الناس، واحتقار الناس، وبُغض الحق، يكون يُبغض الحق، ويُبغض المعروف، ويجب المنكر، فهذا من أعمال القلوب، وهو كبائر -والعياذ بالله-.

فالكبائر تختلف، بعضها أشد من بعض، فهناك أكبر الكبائر -كما سبق-: الشرك بالله، قتل النفس، الزنا، هذه من أكبر الكبائر، وهي أكبر الكبائر، ثم تأتي بعدها بقية الكبائر، وهي كثيرة، كبائر الذنوب كثيرة، والمعافي من عافاه الله، ولكن الحمد لله باب التوبة مفتوح بالليل والنهار، فمن وقع في ذنب من الذنوب كبيرة أو صغيرة فيبادر بالتوبة، ويتوب الله عليه؛ كما في الحديث:

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

«التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(١)، وهذا من فضل الله علينا وعلى الناس، والموفق من وفقه الله، والمحروم من حرمه الله.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ»، لا ينظر إلى صوركم إنسان جميل أو كبير أو صغير، المنافقون من أحسن الناس صوراً، وهم في الدرك الأسفل في النار؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، عندهم فصاحة أو بلاغة، أيضاً: يعجبك قولهم، فهذا ليس دليلاً على صلاحهم.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ»، كون الإنسان جميلاً أو طويلاً، أو ما أشبه ذلك، أو شجاعاً قوياً، لا ينظر الله إلى هذا.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَمْوَالِكُمْ» كون الإنسان غنياً وعنده ملايين وأرصدة، الله لا ينظر إلى هذا، ولا يعتبره شيئاً، «لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، وهذا محل النظر من الله عَزَّ وَجَلَّ والاعتبار من الله، ينظر إلى قلب الإنسان: هل هو قلبٌ صالح أو قلبٌ فاجر؟

«وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»: هل عمله عملٌ صالح على موجب كتاب الله وخالص لوجه الله؟ صالح: أن يكون صواباً على سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يكون خالصاً لوجه الله، صواباً ليس فيه بدعة، صواباً على سنة رسول الله، ليس فيه بدعة، وخالصاً ليس فيه شرك، بهذين

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في الدعاء (١٨٠٧)، و في المعجم الكبير (١٥٠/١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢١٠/٤)، والبيهقي في الكبرى (٢٥٩/١٠).

الشرطين^(١)؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: هذا الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]: هذا الاتباع، محسن يعني: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بهذين الشرطين: إسلام الوجه لله - وهو الإخلاص -، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالله جَلَّ وَعَلَا لا ينظر نظر الاعتبار والجزاء لا ينظر إلى الأجسام وجمالها مع فساد القلوب وانحرافها، ربما يكون منهم جميل الجسم جميل المظهر، لكن قلبه فاجر فاسق، الله جَلَّ وَعَلَا لا ينظر إليه نظر إكرام، ونظر رحمة، وإنما ينظر إليه نظر غضب، قال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فهم عندهم جمال وحسن طلعة، ولكن قلوبهم فاسقة، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مِسْدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، فليست العبرة بجمال الجسم، قد يكون جسمه دميماً، وهو محتقر عند الناس، لكنه كريم عند الله؛ لأن قلبه طيب مؤمن صادق من الله عزَّ وجلَّ.

ولهذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَذْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ»^(٢)، ليست العبرة بالمظهر، وإنما العبرة بالمخبر، وكذلك الأموال ليست

(١) كما قال فضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يَقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ). انظر: الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (١/ ٥٠ - ٥١)، وحلية الأولياء (٨/ ٩٥)، وتفسير البغوي (٥/ ١٢٤ - ١٢٥)، واقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

محَل اعتبار عند الله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾
 [سبا: ٣٧]، ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا
 وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، فمحَل الاعتبار عند الله ليس
 جمال المظهر، وليس كثرة المال ولا علو المنصب، وإنما الاعتبار بالقلب، فالله
 تعالى ينظر إلى القلب وإلى العمل الصالح حتى وإن كان صاحب القلب
 الطيب والعمل الصالح ليس له منصب يُغري الناس ويعجبهم، بل ربما
 يكون محتقرًا عند الناس، وهو كريمٌ على الله جَلَّ وَعَلَا.



وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (١).

الشَّجْحُ

هذا الحديث يدل على أهمية صلاح القلب في الجسم، وأن العبرة ليست بجمال الجسم، وإنما العبرة بالقلب الذي في الجسم، فهذه المضغة أو هذه اللحمية التي هي صغيرة بالنسبة للجسم، هذه هي محل الاعتبار عند الله عز وجل.

وحديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طويل، وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْخَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَزْتَغَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً»، يعني: قطعة من اللحم.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا صَلَحَتْ» هذه القطعة.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ» تبعاً لها، فالقلب ملك الأعضاء،

القلب هو ملك الأعضاء، إن استقام استقامت الأعضاء، وإن فسد فسدت

الأعضاء. مضغة قطعة صغيرة، وهذا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ الْقِطْعَةُ الصَّغِيرَةُ يَصْلُحُ بِهَا هَذَا الْجِسْمُ الْكَبِيرُ، وَهَذِهِ الْأَعْضَاءُ الْكَثِيرَةُ.

مضغة: أي: قطعة لحم، إذا صلحت، فصارت قلباً سليماً طيباً معتبراً ذاكراً لله عَزَّوَجَلَّ، خائفاً من الله خاشعاً لله محباً للخير وأهل الخير مبغضاً للشر وأهل الشر، فهذا قلبٌ طيب، فهذا هو القلب السليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وقال في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]؛ سليم لله عَزَّوَجَلَّ من الشرك والغش والكبر والخداع والمكر، وغير ذلك من آفات القلوب، فإذا صلحت أعمال الجوارح كان دليلاً على صلاح القلب، وإذا فسدت أعمال الجوارح فهذا دليلٌ على فساد القلب؛ لأن القلب هو ملك الجوارح، والملك إذا صلح صلحت الرعية، وإذا فسد الملك فسدت الرعية، فكَذَلِكَ الْقَلْبُ لِلْجِسْمِ، وَلِهَذَا كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ مِنَ الدُّعَاءِ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فَتَقُولُ لَهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي ذَلِكَ، فَيَقُولُ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ وَمَا يُؤْمِنُنِي وَقُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؟ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلْبَهُ»^(١)، والراسخون في العلم يقولون:

(١) روى هذا الحديث عدد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منهم: أنس، وعائشة، وأم سلمة، وجابر، والنَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وحسنه، وابن ماجه (١٩٩) وصححه البوصيري، وأحمد (٩١/٦)، وابن حبان (٢٢٣/٣)، وابن أبي عاصم (ح ٢٢٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٩١٩٦)، (٢٩١٩٧)، (٢٩١٩٩)، والطبراني في الكبير (٧٥٩)، والأوسط (١٤٧/٢)، والحاكم في المستدرک (٧٠٦/١)، (٣٥٧/٤)، والبيهقي في الكبرى (٤١٤/٤)، وأخرجه البخاري (٧٣٩١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْلِفُ: لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ».

﴿ رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨]، فالقلب هو الأصل، وهو مصدر الخير أو مصدر الشر، ومصدر الصلاح للجسم أو الفساد للجسم.

بعض المغالطين أو المغرورين إذا قيل له: لماذا تخلق لحيتك؟ لماذا لا تصلي؟ قال: الإيـمان في القلب، وربما يستدل بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّقْوَى هَهْنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ^(١)، نعم الإيـمان بالقلب، ولكن إذا كان في القلب إيـمان صلح العمل، وصلاح الجوارح، وحلق اللحية وترك الصلاة والفروض هذا فساد يدل على أن القلب فاسد، وإذا صدر عن الجوارح وعن الجسم أعمال طيبة، فهذا دليل على أن القلب صالح، «إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»، فلا يكون صلاح في القلب مع فساد في الجوارح أبداً.



(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحَاسِدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِيعَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَخْفَرُهُ. التَّقْوَى هَهْنَا». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْفَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلَّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ».

بَابُ ذِكْرِ الْكِبَرِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾
 [النساء: ٣٦]، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]،
 وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

الشَّيْخُ

الكبر من آفات القلب ومن أعماله، فالكبر هو الترفع على الناس، وعدم قبول الحق^(١)، والله جلَّ وعَلا يقول: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، والكفار إنما كفروا ورفضوا اتباع الرسل من باب الكبر والترفع بأنفسهم ﴿أَبَشِّرْ يَهُودُونَ﴾ [التغابن: ٦] يقولون هذا في الرسل: ﴿أَبَشِّرْ يَهُودُونَ﴾ [التغابن: ٦]، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَ مَثَلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وهكذا يترفعون على الحق، ويتكبرون على الرسل، ويتكبرون على ربهم عَزَّجَلَّ، فالكبر مرضٌ خطير، وقل من يسلم منه، لكن الإنسان يقاومه بالتواضع، ويقاومه بالانكسار بين يدي الله عَزَّجَلَّ.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٩١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قَالَ رَجُلٌ: «إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَتَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦])، المختال من الاختيال، وهو الكبر^(١)، والفخور الذي يفخر بنفسه وبآبائه وأجداده ونسبه، يفتخر على الناس بنسبه وبحسبه وبمنصبه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾، معناها: أنه يُبغض المختال، ويُبغض الفخور، وهذه كبيرة، الاختيال والفخر من الكبر، والفخر بالأحساب والطعن في الأنساب هذا من أمور الجاهلية التي أخبر عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَزْنَعُ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطُّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»^(٢).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨])، وهذا تأكيد على الآية الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَبْسُ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]) يعني: فلبس النار منزل من تكبر على الله ولم يتبع رسله، فالنار أعدّها الله للمتكبرين، فلبس النار مَثْوَى المتكبرين يعني: مقامهم وجزاءهم، فجعل النار جزاءً للمتكبرين، وهذا فيه تحذير شديد من الكبر.



(١) انظر: شرح مشكل الآثار (١٤/١٨٧)، وتهذيب اللغة (٧/٢٢٩)، والصحاح (٤/١٦٩١)، ولسان العرب (١١/٢٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّيْخُ

هذا فيه الوعيد الشديد على المستكبر أنه لا يدخل الجنة وفيه كبر حتى يُمحّصه الله من الكبر، وليس معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث السابق: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٢) أن الإنسان لا يتجمل، أو الإنسان لا يطلب الرزق، لا لكن معناه: أنه يتجمل من غير كبر، يتجمل في ملبسه، يتجمل في جسمه، في هيئته، في منظره، الله جميل يحب الجمال، والكبر في القلب ليس في الجسم، قد يكون رثًا وفي القلب متكبر - والعياذ بالله -، وقد يكون نظيفًا جميلًا بهيًّا، وهو متواضع لله عَزَّجَلَّ، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أحسن الناس جسمًا ومنظرًا، وأنظف الناس، وأطيب الناس رائحة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس معنى هذا أن كل من كان جميلًا متجملًا أنه مستكبر، لا، هذا يرجع إلى القلب، وليس كل جميل ومتناسق يكون متواضعًا لله، والعالم المستكبر العالم الفقيه المستكبر - كما سيأتي - هذا من أبغض الناس عند الله عَزَّجَلَّ، عالمٌ يعني فقيه مستكبر «إِيَّاكُمْ وَالْكِبَرُ، فَإِنَّ

(١) سبق تخريجه (ص ٣٧).

(٢) سبق تخريجه (ص ٣٠).

الْكِبَرُ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ وَإِنَّ عَلَيْهِ الْعِبَادَةَ^(١)، عبادة رثة وهو متكبر، فليست العبرة بالمظاهر، العبرة بالقلوب، وإلا المظاهر فمطلوب منها حسن المظهر.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»، هذا وصفٌ لله جَلَّ وَعَلَا بأنه جميل، ويحب الجمال من عباده ومن خلقه، وأنهم يتجملون ويتزينون، ويظهرون بالمظهر الحسن، ويشكرون نعمة الله عليهم، خصوصاً إذا جاءوا للمساجد والمجامع يتجملون ويتطيبون، ويكونون في أحسن مظهر؛ شكراً لله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»، حتى ولو كان مظهره ليس جميلاً، فإذا كان يغمط الحق، ويحسد الناس، فإن هذا هو الكبر.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَطَرُ الْحَقِّ» يعني: كتمه، وعدم قبوله إذا تبين لك، وكثيرٌ من الناس لا يقبلون الحق - ولا حول ولا قوة إلا بالله-، تقول لهم قال الله، وقال رسوله، ولكن ما يقبلون، يتبعون أهواءهم وشهواتهم، أو يتبعون من يقلدونهم من رؤسائهم وزعمائهم وقادتهم، فلا يقبلون قال الله، وقال رسوله، يمكن يتبركون بالأحاديث وبالقرآن من باب التبرك، أما العمل، فلا يعملون على ما يُحْطَطُ لهم من رؤسائهم ومن قاداتهم، وحتى بعض طلبة العلم لو تقول له: أنت مخطئ، وهات الدليل، ما يتقبل، وهذا كبر.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٧٣) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الواجب أن المسلم إذا تبين له الحق أخذ به، وبادر العقل به، إذا تبين له الحق ولم يقبله يُصاب بالشرك -والعياذ بالله-، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنَقَلْبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةً﴾ [الأنعام: ١١٠]، تبين لهم الحق وصدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يقبلوا، فحكم الله عليهم بالكفر، فصار عدم تقبل الحق عقوبة لهم.



وَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ»^(١)، وَالْعُتْلُ: الْغُلِيظُ الْجَافِي، وَالْجَوَاطُ قِيلَ: الْمُخْتَالُ الضَّخْمُ، وَقِيلَ: الْقَصِيرُ الْبَطِينُ^(٢)، وَيَطْرُ الْحَقُّ: رَدُّهُ إِذَا آتَاكَ، وَغَمَطُ النَّاسِ: احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ^(٣).

الشَّجَّحْ

هذا الحديث فيه تفسير معنى الكبر: أنه بطر الحق وغمط الناس، وهذا تفسير من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذي لا يقبل الحق مستكبر، وكذلك الذي يحتقر الناس مستكبر، وقد ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذلك معنى كل من الْعُتْلُ وَالْجَوَاطُ.



(١) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١٨٧/١٧-١٨٨)، وفتح الباري لابن حجر (٦٦٣/٨)، وحاشية السندي على سنن ابن ماجه (٥٢٧/٢).

(٣) انظر: شرح النووي على مسلم (٩٠/٢)، وفتح الباري لابن حجر (٤٩٠/١٠-٤٩١)، ونخفة الأحوذى (١١٧/٦).

وَلَا تُحْمَدُ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَفَعَهُ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ»^(١).

الشَّرْحُ

الجنة هي عليون وهي للمتواضعين المؤمنين الصادقين، والنار سجيل في أسفل السافلين وهذه للكفار والمنافقين والمستكبرين، قال تعالى: ﴿فَيَتَسَاءَلُونَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢]؛ لأنهم تكبروا، فوضعهم الله حيث يريد، وأولئك تواضعوا، فرفعهم الله حيث يريد إلى أعلى عليين.



(١) أخرجه أحمد (٢٥٠ / ١٨)، وابن ماجه (٤١٧٦)، وابن حبان (٤٩١ / ١٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلِلطَّبْرَانِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَفَعَهُ: «إِيَّاكُمْ وَالْكِبَرَ، فَإِنَّ الْكِبَرَ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ وَإِنْ عَلَيْهِ الْعِبَاءَةُ». رُوَاهُ ثِقَاتٌ^(١).

الشَّيْخُ

في هذا الحديث أن الأمر ليس بالمظهر، فالإنسان يكون ما عليه جمال، ولا ثياب جميلة ويستكبر، فقير يكون عليه العباءة المرقعة وهو مستكبر! وقد يكون عليه الثياب الجميلة، والمظهر الحسن، وهو فقير عابد لله عزَّ وجلَّ، وجاء في الحديث الآخر: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أَشْمِيطُ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ بِضَاعَةً فَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِبَيْمِينِهِ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِبَيْمِينِهِ»^(٢).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشْمِيطُ زَانٍ» أي: الرجل الشائب كبير السن ويزني، لو كان شاباً ربما يُقال: غلبت عليه شهوة، لكن هذا شائب ويزني، فهذا دليل على أنه يحب الزنا، ما زنى من أجل قوة الشهوة فيه وإنما لأنه مذنب، ويجب المعاصي والسيئات، ويجب الدناءة، أشميط وزانٍ، فصغره تحقيراً له.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، والعائل هو الفقير، الغني ربما يتكبر، يغتر بمقامه ومظهره، لكن هذا فقير ما عنده شيء يغره، فدل على أن الكبر من سجيته وطبيعته، ليس عنده شيء يحمله على الكبر، لكن الكبر طبيعة فيه، وسجية فيه.

(١) سبق تخريجه (ص ٤٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (٨٢/٢) من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَابُ ذِكْرِ الْعُجْبِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: ذِكْرِ الْعُجْبِ)، العجب من جملة الكبائر، فهذا الكتاب هو كتاب الكبائر للإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، ومن جملة الكبائر العجب بأن يُعجب الإنسان أو الجماعة بأنفسهم، فإن العجب يهلك أهله، حتى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما أعجبوا بكثرتهم في حنين أصابهم ما أصابهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴿[التوبة: ٢٥-٢٦]، أنزل ملائكة تعين المؤمنين على قتال الكفار، فمكن الله المسلمين من الكفار في غزوة حنين على قبيلة هوازن.

الحاصل: أن العجب أمرٌ خطير على الإنسان وعلى المجتمع، فالواجب التواضع لله عَزَّ وَجَلَّ، وطلب النصر من الله، والإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والاستعانة به دون النظر إلى قوة الإنسان أو قوة الغزاة أو قوة الجماعة، إذا وكلهم الله إلى قوتهم انهزموا سلط الله عليهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: ذِكْرِ الْعُجْبِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا مِنْ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ وَالْقُرْبَاتِ وَالطَّاعَاتِ، الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَهُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ، لَا يَعْجِبُونَ بِعَمَلِهِمْ، وَإِنَّمَا يَخَافُونَ أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَلَا تَقْبَلَ، وَأَنْ يَكْلَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، فَصِفَةُ الْعَجَبِ صِفَةُ الْمُنْهَزَمِينَ الَّذِينَ يَعْجِبُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَبِقُوَّتِهِمْ وَبِجُنُودِهِمْ، نَعَمْ إِعْدَادُ الْعِدَّةِ وَتَرْتِيبُ الْجُنُودِ أَمْرٌ مُطْلُوبٌ، وَلَكِنْ لَا نَعْجَبُ بِقُوَّتِنَا وَشَجَاعَتِنَا، وَإِنَّمَا نَسْتَمِدُّ النُّصْرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



رُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «الْهَلَاكُ فِي اثْنَتَيْنِ الْقُنُوطِ وَالْعُجْبِ»^(١).

الشَّجُّ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْهَلَاكُ فِي اثْنَتَيْنِ)، الهلاك الذي هو العذاب والنار في اثنتين، ولا شك أن العذاب له أسبابٌ كبيرة وخصالٌ كبيرة، لكن هاتان الخصلتان هما أهم الصفات المسببة للهلاك: القنوط والعجب.

فالقنوط من رحمة الله فيه أن الإنسان إذا عمل أعمالاً سيئة ظن أن الله لا يغفر له، فيعظم ذنوبه، فإذا تعاظمت ذنوبه، هذا استكبار بعهد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، الإنسان مهما بلغ من الذنوب لا يقنط من رحمة الله، ومهما رأى من إنسانٍ من الوقوع في الذنوب، فإنه لا يحكم عليه بأنه لا يرحمه الله، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فعلى الإنسان أن يتوب إلى الله، ولا يقنط من رحمة الله كما أنه لا يُعجب بعملٍ له، وأنه أدى ما عليه، بل يعتبر نفسه مقصراً، ولا يأمن من عذاب الله، فيجمع بين الخصلتين وهما: الطمع في رحمة الله، والخوف من عذاب الله، فيجمع بين الخوف والرجاء، فلا يرجو الرجاء كما في طائفة المرجئة الذين يقولون: إن الأعمال لا يجب خلطها، والذنوب لا تضر، ولا يتبع طريقة الخوارج الوعيدية يقولون:

(١) هذا الأثر ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/٣٦٩) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقريباً منه عن سفيان بن عيينة في حلية الأولياء (٧/٢٩٨).

إن من فعل كبيرة من كبائر الذنوب يخرج من الإسلام، ويقنطون من رحمة الله، ويُقيدونه بالنار، هذه طريقة الخوارج طريقة القنوط، وطريقة الرجاء من غير خوف طريقة المرجئة، أما طريقة أهل السنة والجماعة، فهي الجمع بين الخوف والرجاء، يخافون من ذنوبهم، ويرجون رحمة الله، ولا يتركون التوبة، ولا يتركون العمل، ولا يقنطون من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، هذه طريقة أهل السنة والجماعة، وطريقة الرسل والمسلمين عموماً الجمع بين الخوف والرجاء، لا يخافون خوفاً يُقنطهم من رحمة الله، ولا يرجون رجاءً يؤمنهم من عذاب الله، هذه طريقة السنة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (الْهَلَاكُ فِي اثْنَتَيْنِ)، أي: الدمار والهزيمة والذلة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (الْقَنُوطُ) من رحمة الله.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَالْعُجْبُ) بالشجاعة والقوة والجنود، فلا يعجب الإنسان بنفسه، أو تعجب الدولة بقوتها، وإنما تعتمد على الله، وتتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ مع إعداد العدة وإعداد القوة، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾، أي: الكفار ﴿مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والقوة تختلف في كل وقت بحسبه، فكل وقت يستعد من القوة الممكنة فيه على أعداء الله مع الاعتماد والتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ.



عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُلٌ خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - يَقُولُهُ مِرَارًا - إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبْ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يُرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَحَسِيبُهُ اللَّهُ، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(١).

الشَّيْخُ

هذا الحديث فيه أنه لا يجوز مدح الإنسان بحضوره، فإن هذا قد يعجبه بنفسه، فيتجنب مدح الإنسان بحضرته، فلهذا لما مدح رجل رجلاً عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأثنى عليه قال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ»، وهذه كلمة لوم وتوبيخ.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»؛ لأنك مدحته في وجهه، وهذا يستدعي أن يعجب هذا الإنسان الممدوح بنفسه.

هذا في بيان أسباب العجب، فمن أسباب العجب مدح الإنسان في وجهه، فإن هذا يجعل الممدوح يتعاضم في نفسه، فيُعجب بعمله؛ لذلك يُكره العجب في النفس، أما أن يُثنى عليك في مغيبك، فهذا من الذكر الحسن من عادات المؤمنين، أما المدح في حضور الشخص فهذا لا يجوز؛ لأنه يحمل الشخص على الإعجاب بنفسه، ولهذا أنكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا الرجل الذي

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠).

مدح رجلاً حاضراً، قال له: «وَيْحَكَ، قَطَعْتَ عُقُقَ صَاحِبِكَ»، أهلكته بالمدح في حضوره، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكره أن يُمدح في حضوره؛ كما في الحديث: أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا خَيْرَنَا وَابْنِ خَيْرِنَا، وَيَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، إِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللَّهُ تَعَالَى، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»^(١)، فكان يكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يمدحوه وهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُمدح بحضوره، فكيف بمن هو دونه؟!

لأن الإنسان بشر وضعيف، فإذا مُدح في حضوره ثبت ذلك العجب بنفسه وبعمله، ولهذا جاء: «إِذَا لَقِيتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاخْتُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»^(٢)، وغالباً من يفعل ذلك هم المنافقون، فغالب من يمدح في الوجه هو المنافق المتملق، فلهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾^(٣) اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٠٠٦، ١٠٠٠٧)، وأحمد (٢٣/٢٠، ٢١/٢١٦، ٢١٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرج أبو داود (٤٨٠٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ قَالَ: «انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضُ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْزِئَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ».

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) عَنْ هَتَامِ بْنِ الْحَارِثِ: «أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ، فَعَمِدَ الْقَدَادُ فَجَنَّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا، فَجَعَلَ يَخْتُو فِي وَجْهِهِ الْحَضْبَاءَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاخْتُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ».

جُنَّةٌ ﴿[المنافقون: ١-٢]، أي: ستره، فغالب من يمدح الناس في وجوههم هم المنافقون وأهل التملق فيُحذَر منهم، يُحذَر من المداحين، والإنسان لا يُعجب بنفسه، ولا يسمح لأحد أن يمدحه، هذا من ناحية.

الناحية الثانية: أنك إذا مدحته زكيتَه على الله والله يعلم بحاله، ليس لك علم، فأنت زكيتَه على الله وأنت لا تعلم عن باطن حاله، ولا تعلم عن أعماله هذه، هل هي مخالفة لوجه الله أو لا؟ هل هي متقبلة أو لا؟ فأنت إذا مدحته زكيتَه على الله، وإذا كان ولا بد ذكرت محاسن أخيك في غيبته، فإنك تقول: أحسبه كذلك، أو هذا الذي يظهر لي، والله حسيبه، فالله هو الذي يحاسبه، ويعلم أعماله ونياته ومقاصده، هذا هو التأدب مع الله، وعدم تزكية أحدٍ على الله جَلَّ وَعَلَا، فالله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، فلا تُزكِّ نفسك، ولا تُزكِّ غيرك على الله جَلَّ وَعَلَا، لكن أنت ذاكر للمحسن، وتخاف على المسيء.

والحاصل أن المفهوم من هذا الحديث النهي عن الإفراط في مدح الآخرين، لأنه لا يُؤمَن عليهم من دخول العُجب إلى نفوسهم، واعتقادهم بأنهم يستحقون ذلك، مما يؤدي إلى تضييعهم العمل، وعدم إقبالهم على الطاعات اتكالا على ما وُصفوا به.



وَلَا أَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ الْحَارِثِ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُرَاوِدُونَنِي عَلَى الْقَصَصِ، فَقَالَ: «مَا شِئْتَ» كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَمْنَعَهُ، قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَنْتَهِيَ إِلَى قَوْلِكَ، قَالَ: «أَخْشَى عَلَيْكَ أَنْ تَقْصَّ، فَتَرْتَفِعَ عَلَيْهِمْ فِي نَفْسِكَ، ثُمَّ تَقْصَّ، فَتَرْتَفِعَ حَتَّى يُحِيلَ إِلَيْكَ أَنْكَ فَوْقَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الثُّرَيَّا، فَيَضَعَكَ اللَّهُ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ ذَلِكَ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله: (يُرَاوِدُونَنِي عَلَى الْقَصَصِ)، يعني: على الموعظة والتذكير وإلقاء الكلمات، فعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خشي عليه من العجب بنفسه، فمن أعجب بنفسه وتكبر وضعه الله عَزَّجَلَّ، من تكبر وضعه الله، ومن تواضع لله رفعه الله عَزَّجَلَّ، ويوم القيامة يحشر المتكبرون أشباه الذر يطوهم الناس بأقدامهم^(٢)؛ لأنهم تكبروا في الدنيا وأعجبوا بأنفسهم، فجزاهم الله يوم القيامة بأن أضعفهم، وجعلهم موطئ أقدام الناس؛ عقوبة لهم، وهذا مصير المتكبرين، فلهذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، هذا تحذير للوعاظ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢)، والنسائي (١١٨٢٧)، وأحمد (١١/ ٢٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٧) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيَسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَاةٍ أَهْلِ النَّارِ، طِبْنَةُ الْحَبَالِ».

الضعاف ألا يُعجبوا بأنفسهم، ولا يُعجبوا بعظهم وكلامهم، فيوصلهم ذلك إلى الترفع على الناس، هكذا قال لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يُرَاوِدُونِي عَلَى الْقَصَصِ)؛ أي: يطلبون مني القصص، يعني: الوعظ، القصص هو الوعظ، فعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَخْشَى عَلَيْكَ أَنْ تَقْصَّ فَتَرْتَفِعَ عَلَيْهِمْ فِي نَفْسِكَ، ثُمَّ تَقْصَّ فَتَرْتَفِعَ حَتَّى يُحِيلَ إِلَيْكَ أَنَّكَ فَوْقَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الثَّرِيَّا، فَيَضَعَكَ اللَّهُ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ ذَلِكَ»؛ جزاءً على الكبر والعجب، وكان يُروى عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان إذا تكلم أو خطب، فاعجبه كلامه سكت وقطع الحديث؛ خشيةً على نفسه من العُجب، الله المستعان.

فدعاة الله والخطباء والوعاظ عليهم أن يستشعروا هذا الأمر، وألا يأخذهم العُجب بكلامهم وإقبال الناس عليهم، ومدح من يحضر علمهم، لا يأخذهم العجب في هذا، بل عليهم بالتواضع والاعتراف بالتقصير، وأن يروا أن كلامهم هذا إنما هو قليل، ولم يسموا إلى حد المطلوب، وأنهم مقصرون، وأنهم يجهلون أكثر وأكثر مما يعلمون، فهذا تنبيه للخطباء والوعاظ والقُصاص والمتحدثين بأنهم لا يأخذهم العجب بكلامهم، أو بحضور الناس عندهم وكثرة الناس عندهم، ويأخذهم العجب بهذا.

وهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نصح هذا الرجل، هو لم يمنعه من الوعظ والقصص، لكنه أوصاه ألا يُبالغ؛ خشية أن يُعجب بكلامه ثم يترفع حتى يكون أبعد من الثريا في الارتفاع، ثم يضعه الله تحت أقدامهم يوم القيامة؛ لأنه جاء في

الحديث: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَغْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةَ الْخَبَالِ»^(١).



وَلِلْبَيْهَقِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخِفْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ»^(١).

الشَّجَرُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخِفْتُ عَلَيْكُمْ» من الذنب.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ»، يعني: من الذنب، وهو العجب - العجب بالنفس - تكميل النفس في المدح والثناء، ويرى الإنسان أنه فوق الناس، وأنه أحسن الناس، فمن كان كذلك أذله الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن تواضع لله وتطامن بنفسه رفعه الله عَزَّ وَجَلَّ.

الله جَلَّ وَعَلَا من رحمته أنه جعل الإنسان يُذنب، فالمسلم أو المؤمن يقع منه الذنب، وهذا فيه حكمة ومصلحة أن الإنسان لا يترفع ويتكبر، وكلما ذكر ذنبه تواضع، وخاف من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، الذنوب إذا كانت سبباً للتوبة، وسبباً للخوف من الله يترتب عليها مصلحة، فبئس الطاعة إذا كانت سبباً للترفع والتعالي، وصارت ضرراً على صاحبها فالذنوب قد يكون بها مصلحة؛ لأن الإنسان إذا تذكرها خاف من الله، وتاب إلى الله، وأما الطاعة فقد يُعجب الإنسان بها، فتحمله على الكبر والترفع، فهذا فيه دليل على أن وقوع الذنوب من بعض المسلمين تترتب عليه المصلحة، هي ضرر في نفسها، لكن يترتب عليها مصلحة الانكسار والتوبة والخوف من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى،

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩/٩).

فيدرك الذنب، ويتوب منه خيرٌ من المطيع المعجب، وأقرب إلى الله من المطيع المعجب بطاعته.

ولذلك لما تعاظم إبليس بنفسه جنى ذلك عليه اللعنة والطرده من رحمة الله، ولما تواضع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ واعترف بذنبه وتاب إلى الله فرفعه الله عَزَّجَلَّ، فصار في معصية هذا مصلحةً له، مصلحة لأدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه تواضع لله، وخاف من الله، وتاب إلى الله.



بَابُ ذِكْرِ الرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: ذِكْرِ الرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ)، من الكبائر الرياء والسمعة، فالرياء أن يعمل الأعمال الصالحة من أجل أن يراه الناس ويمدحوه، وهذه صفة المنافقين، قال الله جَلَّ وَعَلَا فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، فالرياء من صفات المنافقين، فالمسلم لا يُعجب بعمله، ولا يُعجب بنفسه، وإنما يرى نفسه ضعيفًا ومفتقرًا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يرى أنه قد استغنى عن الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى﴾ [العلق: ٦-٧]، فالرياء لما يُرى من الأعمال، ويُروى من الأعمال، والسمعة لما يُسمع من الأقوال، فالرياء في الأعمال والسمعة في الأقوال، وذلك بأن يتصدق حتى يُثنى عليه، أو يصلي ويقيم الليل، ويصلي النوافل حتى يُثنى عليه، فإذا أحب أن يطلع الناس على عمله ويُثنى عليه فهذا هو الرياء، وهذا يُحبط العمل الذي يقع منه، أو أن يجهر بالذكر، ويُحسن التلاوة من أجل أن يمدحه الناس، ويستمعوا إليه، ويصلوا في صفوف وراءه من أجل أن يكسب ثناءهم عليه، هذا من السمعة، وعلى الإنسان أن يخاف من الرياء والسمعة، ويخلص أعماله وأقواله لله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]).

قال تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، فالرسول بشر، ليس ملكًا من الملائكة؛ ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وليس له نصيب من الربوبية أو الألوهية، وإنما هو بشر، وينفي من يغلو بالرسول ويقول: ما هو ببشر، الرسول مخلوق من النور، هذا الرسول نور وليس بشرًا، هذا من الغلو في حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو يدعو لدين الله، ويأمل أن يُحْيِرَ من عذاب الله، وأن يدخله الجنة، الرسول لا يملك هذا، الذي يُدخل الجنة ويُنجي من النار هو الله إنما الرسل مبلّغ، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، من بني آدم، وكل الرسل من البشر، ما أرسل الله ملائكة لبني آدم، وإنما أرسل لهم البشر من جنسهم؛ من أجل أن يتفاهموا معهم ويفهموا لغتهم، وأن يدركوا حاجات البشر، وهذه الحكمة من أن الرسل من البشر.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، وهذا من رحمة الله أن أرسل لنا بشرًا مثلنا يحس بإحساسنا، ويتألم بألمنا، ويعرف ما يناسبنا، وأيضًا: يتكلم بلغتنا، وصورتهم مثل صورتنا، وليست صورة ملك من الملائكة، فهذا من رحمة الله، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، وهذا رد على الذين يغلون في الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، هذا أول فارق بيننا وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الرسول أوحى إليه من الله جَلَّ وَعَلَا، فُبَيِّنَ لنا ما يُوحِيه الله إليه.

﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾، وهو الله جَلَّ وَعَلَا لا أحد يشاركه، ﴿إِلَهُكُم﴾ المراد بإله هنا المعبود، ﴿إِلَهُكُم﴾، أي: معبودكم الذي يستحق العبادة هو الله جَلَّ وَعَلَا، فلا تصلح العبادة إلا لله، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾؛ يرجو لقاء ربه يوم القيامة، وهذا الكون كل الناس سيلقون ربهم، لكن المؤمن يلقي ربه بالخير، والمشرِك والكافر يلقي ربه بالشر والكفر، فاستعدوا لهذا اللقاء، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ بهذين الشرطين:

الشرط الأول: أن يعمل عملاً صالحاً، يعني: موافقاً لما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يعمل عملاً لم يشرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا رسوله، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ، عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢).

فالبدعة ليست عملاً صالحاً، وإنما هي عملٌ فاسد باطل مهما زينها أصحابها، فهي عملٌ باطل وليس صالحاً، وهذا شرط وهو المتابعة.

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلقاً في كتاب البيوع، باب: النجش (٣٥٦/٤) مع الفتح، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (٣١٧/١٣) مع الفتح.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (١٢٦/٤)، والدارمي (٩٥)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١٧٨/١)، والحاكم في المستدرک (١٧٦/١)، والبيهقي في الكبرى (١١٤/١٠).

والشرط الثاني: ألا يُشرك بعبادة ربه أحداً، فإن اجتمع الشرطان - المتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإخلاص لله عَزَّجَلَّ في العمل -، فإن الله يقبله، أما إذا اختل شرط من الشرطين فإن الله لا يقبله، فإذا كان العمل مبتدعاً، فإن الله لا يقبله، وإذا كان العمل غير مبتدع، لكنه غير خالص لله، فإن الله لا يقبله، فإن الله يقبل من كان عمله صالحاً خالصاً لوجه الله عَزَّجَلَّ.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، هذا هو الشرط من الآية، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، ومن الشرك الرياء، فإن الرياء شرك يسبق العمل الذي وقع فيه، هو ليس شركاً أكبر، ولكن هو شرك أصغر يقع من المسلم، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يخافون على أنفسهم من الرياء، أما رياء المنافقين فهذا يفسد العمل كله؛ لأن الرياء على قسمين:

القسم الأول: رياء المنافقين، وهذا ليس له أساس أبداً، يعملون بظاهرهم دون ما في قلوبهم.

القسم الثاني: الرياء الذي يصدر من المسلم ومن المؤمن، وهو أن يطرأ عليه حادث، وأن يطرأ في نفسه حب المدح وحب اطلاع الناس على عمله، فيفسد بذلك هذا العمل الذي وقع فيه.

ولذلك يحرص الإنسان على الإخلاص في العمل، وإذا طرأ عليه شيء من الهواجس وحب الشاء، فإنه يدفع بذلك ويتجنبه، ويتأكد أن هذا يحبط عمله فيتركه، يتركه ويخلص العمل لله عَزَّجَلَّ، ولا يضره ذلك، إذا ترك الرياء وأقبل على الله لا يضره ذلك، أما إن استمر معه فإنه يضره.

عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهَ بِهِ». أَخْرَجَاهُ^(١).
 قِيلَ: مَعْنَى: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ»، أَي: فَضَحَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
 وَمَعْنَى: «مَنْ يُرَائِي»، أَي: مَنْ أَظْهَرَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لِلنَّاسِ لِيُعْظَمَ عَنْدهُمْ.
 «يُرَائِي اللَّهَ بِهِ» قِيلَ: مَعْنَاهُ: إِظْهَارُ سِرِّ رِثَةِ لِلنَّاسِ^(٢).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ»، أَي: سَمِعَ النَّاسُ قراءته وتذكيره وكلامه، يريد بذلك المدح والثناء، سَمِعَ اللَّهَ بِهِ؛ عقوبةً له.
 قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمِعَ»، أَي: أَحَبُّ أَنْ يَسْمَعَ النَّاسُ ذَكَرَهُ اللَّهَ عَزَّجَلَّ، وَالسُّمُوعَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّمَاعِ؛ لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِحَاسَةِ السَّمْعِ، وَأَمَّا الرِّيَاءُ فَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِحَاسَةِ الْبَصَرِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ بِهِ؛ جَزَاءً لَهُ، بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ يَفْضَحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَسْمَعُ النَّاسُ ذِمَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هُوَ يَرِيدُ بِتَسْمِيْعِهِ الْعِظْمَةَ، لَكِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ هَذَا التَّسْمِيْعُ ذِلَّةً لَهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -.
 قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهَ بِهِ»، أَرَادَ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ بِعَمَلِهِ ويمدحوه.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُرَائِي اللَّهَ بِهِ»؛ عقوبةً له، وَالْجُزْءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَالرِّيَاءُ ضِدُّ الْأَعْمَالِ، يَرَائِي اللَّهَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧).

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢٠٨/١٠)، وفتح الباري (٣٢٦/١١)، وشرح النووي على مسلم (١١٦/١٨).

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، إِنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَاوُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَهُمْ جَزَاءً»^(١)، فيوم القيامة يكون هذا العمل كالدين على صاحبه، فيوم القيامة يُفْضَح فيه أعمال الخلائق، وإن كان في الدنيا يُرَائِي ولا يعلم الناس، ما يعلمون أنه مرء، يرونه يتصدق ويحسبونه مؤمناً، ويتصدق بنية صالحة، ويصلي بنية صالحة، ويقرأ القرآن، ويرون أنه يتقرب إلى الله، يسمعون من دون علم، أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه يعلم، فإذا كان يوم القيامة أظهر الله ما كان يخفيه في الدنيا، وفضحه أمام الناس الذين كانوا يُحْسِنُونَ بِهِ الظن.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (قِيلَ: مَعْنَى: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ»، أَي: فَضَحَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَمَعْنَى: «مَنْ يُرَائِي»، أَي: مَنْ أَظْهَرَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لِلنَّاسِ لِيُعْظَمَ عِنْدَهُمْ. «يُرَائِي اللَّهُ بِهِ» قِيلَ: مَعْنَاهُ: إِظْهَارُ سِرِّرَتِهِ لِلنَّاسِ)، يفضحه الله يوم القيامة وتكون أعماله مرفوضة، لا يُقْبَل منها شيء؛ لأنه فقد فيها الإخلاص.



(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٨/٥، ٤٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٤/٩) من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٣/٤) من طريق محمود ابن لبيد عن رافع بن خديج عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَهُمَا عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» (١).

الشَّجَرُ

يؤخذ من هذا الحديث أن العبرة ليست بصورة العمل، وإنما العبرة بالنية والقصد، قد تكون صورة العمل جيدة وحسنة، لكن نية صاحبه فاسدة، ولا يعرف الناس بذلك؛ يصلي ويصوم ويحج ويتصدق، هذا يدل على أنه صادق، لكن نية صاحبه غير ذلك، فلا فائدة من هذا العمل، لأن الأعمال بالنيات، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»، لا ما عمل بل ما نوى، فلا يُقبل عند الله إلا من كانت نية صاحبه خالصة لوجه الله، هذا كما في قوله: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا طرفٌ من حديث، وسبب الحديث أن رجلاً هاجر إلى المدينة، سافر -وهو عملٌ جليل مثل الجهاد في سبيل الله-، لكن هذا الرجل هاجر من أجل أن يتزوج امرأة يُقال لها: أم قيس، فهو هاجر من أجل أن يتزوجها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» يعني: يقصد بها الله ورسوله تكون مقبولة، «وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»، فليس لله عزَّ وجلَّ، وإنما هي لهذه المرأة، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ

إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»، فهذا تفريع على هذا الحديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى».

ولا بد أن ينظر الإنسان في عمله ونيته وقصده، فإن كان عنده شيء من الرياء فليتب إلى الله عَزَّجَلَّ ولا يستمر، فهذا حديثٌ عظيم، وقاعدة عظيمة من قواعد الشرع، ومن الأحاديث العظيمة التي يدور عليها أصول الإسلام وفقهه، فهو حديث له شأن عظيم ومنزلة كبيرة عند العلماء؛ ولهذا فقد تناولوه بكثير من الشروح والتعليقات النافعة، ويكتبونه في مقدمة مؤلفاتهم تذكيراً^(١).



(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٤٩/١٨)، والمقصد الأرشد لابن مفلح (١٠٩/١)، وجامع العلوم والحكم (٦١/١)، وفيض القدير للمناوي (٤٢٥/٣).
وافتح به جماعة من أهل العلم كتبهم، منهم: عبد الغني المقدسي في (عمدة الأحكام)، والبعثي في (شرح السنة)، وعقد النووي في فاتحة كتبه (المجموع شرح المذهب) (٣٥/١) فصلاً قال فيه: (فصل في الإخلاص والصدق وإحضار النية في جميع الأعمال البارزة والخفية). وانظر: فتح الباري (١١/١)، والسنن الأبين (ص ٣٥).

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

الشَّجَرُ

في هذا الحديث دليل على تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»، فهذا الرجل مع أنه يقاتل في سبيل الله وقُتل في سبيل الله، وصورة عمله أنه من أجل الأعمال يقاتل في سبيل الله

لإِعلاء كلمة الله واستُشهد، ومعروفٌ ما للشهيد عند الله، لكن لما كانت نيته ليست لله صار هذا العمل حابطاً، بل يوم القيامة سُحب إلى النار - والعياذ بالله -، لماذا؟ لأنه ما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وإنما قاتل ليُقال: هو جريء، ويوصف بالشجاعة، ففي هذا أن الصفات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد وجه الله تعالى بذلك مخلصاً له.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلِمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَى بِهِ فَعُرفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ، وَعَلِمْتُهُ وَقَرَأْتَ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُنْقِيَ فِي النَّارِ»، وأما في العلماء وطلبة العلم الذين يطلبون العلم لوجه الله عملهم كما في الحديث: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ»^(١)، وإذا كان قصد طالب العلم وجه الله فإنه يحصل على الأجر ويتعلم، الذي سلك طريقاً يلتمس به علم، أما إذا كان قصد المتعلم من أجل أن يحصل على الشهادة، هذا - والله - يريد الدنيا،

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (١٩٦/٥)، والدارمي (٣٤٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/٢٢٤)، والبيهقي في شعب الإيوان (٢/٢٦٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَكُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَبِيبَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطَّةٍ وَافِرٍ».

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥]، أو يتعلم من أجل أن يصير له منزلة عند الناس، ويُقال: هو عالم، فهذا يكون من أهل النار -والعياذ بالله-، سواء كان قصده طمع الدنيا أو قصده الرياء.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ يُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يُصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(١)، الذي يتعلم العلم من أجل أنه يُمدح، أو لأجل أن يحصل على الوظيفة، أو لكسب غير المال، فهذا يريد الدنيا، والذي يريد المدح هذا يريد الرياء، فهذا حتمًا أراد الدنيا، الأول من الممكن أنه حصل شيئًا من الدنيا، لكن الذي يُرائي ما حصل دنيا ولا دينًا -والعياذ بالله-، فمن تعلم العلم ليُجاري به العلماء، أو ليُمَارِيَ به السفهاء، فهو في النار، هذا المرائي.

والناحية الثانية: تعليم العلم، الذين يدرسون للناس، هل طالب العلم يبلغ عن الله ورسوله وينفع الناس؟ فالملائكة تصلي على معلم الناس الخير، تصلي وتستغفر له حتى الإنسان في البحر، تستغفر لمن يُعلم الناس الخير، إذا كان قصده تعليم الناس من أجل هدايتهم ونفعهم ولتبليغ الحاجة، فهذا من خير الناس ومن خير العلماء، وأما إن كان قصده الرياء والمدح والثناء والمظهر، فهذا يكون من أهل النار، وإن كان عالمًا ومعلمًا هو من أهل

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤)، وابن ماجه (٢٥٣)، وأحمد في المسند (١٨٩/٣)، من حديث

النار بأي شيء؟ بقصدهم به، هذا يرائي بعمله وعلمه وتعليمه فيكون من أهل النار.

قال صلى الله عليه وسلم: «وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأَتَيْ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكَتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

وهذا الحديث الصحيح فيه هؤلاء الثلاثة الذين ظاهر أعمالهم أنها خالصة لله: الأول: المجاهد في سبيل الله، والثاني: العالم المعلم، والثالث: الغني المتصدق، ولا شك أن الصدقة لها أجرٌ عظيم وثوابٌ عظيم، والله جَلَّ وَعَلَا أثنى على المتصدقين، ووعدهم بمضاعفة الأجر، وهذا إذا صلحت نيتهم، أما إذا كانت نيتهم المدح، وأن يُقال: هو جواد، وهو محسن، وهو متصدق، وهو متبرع، هو مواطنٌ صالح، وإلى آخره، هذا ماله في الدنيا، أما في الآخرة فليس له ثوابٌ، عند الله عزَّ وجلَّ، تنبها لهذا.



وَلَلْتَرْمِذِي فِيهِ: أَنَّ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَمِعَهُ بَكَى وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا﴾ ﴿هود: ١٥﴾^(١).

الشَّيْخُ

هذا معاوية أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابي الجليل لما سمع هذا الحديث بكى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهكذا أهل الخشية والخوف من الله إذا سمعوا الوعد والوعيد، فإنهم يتأثرون بذلك؛ لأن هذا حديثٌ خفيف، فهذا معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكى لما سمع هذا الحديث؛ خوفاً من أن يقع فيه، مع أنه صحابيٌّ جليل خاف على نفسه أن يقع في معنى هذا الحديث، فالإنسان يخاف على نفسه من المخالفة من سوء النية والقصد، النية والقصد هما أساس العمل، وإذا كان هؤلاء الثلاثة الذين أعمأهم من أجل الأعمال يُسحبون إلى النار يوم القيامة بسبب نياتهم التي ليست لله عزَّ وجلَّ.

ثم تلا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الآية مصداقاً للحديث: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ ﴿هود: ١٥-١٦﴾، فالحديث يُصادق الآية تماماً، وهذا الذي جعل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتلو الآية.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٧٩)، وابن خزيمة في صحيحه (١١٥/٤)، وابن حبان (١٣٨/٢)، والبيهقي في الشعب (٩/١٣٧)، والبخاري في شرح السنة (٣٣٤/٤)، والطبري في تفسيره (١٣/١٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل.

بَابُ: الْفَرَحِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْفَرَحِ)، الفرح هو السرور، والفرح قسمان:
القسم الأول: فرحٌ محمود.
القسم الثاني: فرحٌ مذموم.

والفرح المحمود: هو الفرح بنعمة الله وقبول الله، الفرح بالعلم، الفرح بالقرآن، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، يفرح الإنسان بالإسلام، يفرح بالعلم، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ هذا هو العلم، ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ هذا هو الإسلام، فهذا فرحٌ محمود؛ لأنه دليلٌ على الرغبة في الخير ومحبة الخير، ولا يفرح في الدنيا وإنما يفرح في نهاية الأمد بفضل الله وبرحمته وهو الإسلام.

أما الفرح المذموم: فهو الفرح بالدنيا، وهو فرح الأشر والبطر الذي يفرح الدنيا لما فيها من الملذات والمظاهر والشهوات، هذا هو المذموم؛ لأن هذا يطغيه ويغويه، ويحمله على الأشر والبطر؛ كما حصل لقارون فأعطاه الله

من المال الشيء الكبير ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ [القصص: ٧٦]، يعني: مفاتيح الخزائن التي عنده، ﴿بِالْعُصْبَةِ﴾ يعني: بالجماعة أولى القوة، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ [القصص: ٧٦]، يعني: لا تفرح بهذا المال فرح البغي، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ٧٦ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧]، ماذا كان جوابه؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، هذا المال خاص من كدي وكسبي وخبرتي، فليس هو فضل من الله عَزَّوَجَلَّ! فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، فالإنسان لا يفرح بهذه الدنيا لكن يأخذها من الحلال، ويستغني بها عن الحرام، ويصرفها في طاعة الله، ما يأخذها للنفس، وإنما هو فيها لأجل أن يرضي الله بها إلى الدار الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فرحوا بما أوتوا وأعجبوا بما أوتوا ونسوا الله عَزَّوَجَلَّ، فماذا كانت نتيجةهم؟

فالفرح المذموم هو الفرح بالدنيا، والفرح المحمود هو الفرح بالآخرة والدين والعلم النافع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣])، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَىٰ ظَهْرَهُ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٣] ﴿مَسْرُورًا﴾ بها يرائي

بأعماله، ويُسر بها من أجل أن يمدحه الناس، فليس له من عمله وتعبه إلا العذاب، فهذا هو السبب أنه كان في أهله مسرورًا في الدنيا والحياة الدنيا ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤]، ظن أنه لا يُبعث، وإنما هي الحياة الدنيا فقط، ونسي الآخرة، هذا الشاهد من الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣]، فرح بالدنيا والحياة الدنيا ونسي الآخرة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦])، هذه الآية في حال أهل الجنة إذا دخلوها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝١١ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝١٢ يَنْتَرِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعَوٌ فِيهَا وَلَا نَائِبٌ ۝١٣ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُزُوفٌ ۝١٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝١٥ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢١-٢٦]، ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا﴾، يعني: في الدنيا، ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عذابنا؛ كما في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧]، أي: السبب الذي وصلنا إلى هذه المنزلة هو أننا كنا في الدنيا مشفقين من عذاب الله خائفين منه، فلما خفنا منه أنجانا الله وصرنا بهذه المنزلة، فهذا فيه فضيلة الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، والخوف من عذاب الله، وأن الإنسان حتى لو أعطي الدنيا بحذافيرها يخاف من الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا داود عَلَيْهِ السَّلَامُ آتاه الله الملك والخزائن، والنبوة والخلافة في الأرض، ومع هذا كان يقوم الليل؛ كما في الحديث: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَحَبُّ

الصِّيَامُ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا»^(١)، وكان يأكل من كسب يده^(٢)، ما يأكل من الخزائن المالية، وإنما يصنع الدروع ويبيعها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو عنده الأموال، وعنده الخزائن، فهذا هو المؤمن الذي يسخر الدنيا للآخرة، وأما الذي يسخر الآخرة للدنيا فهذا هو الخاسر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤])، نعم، لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا هو الاستدرج أن يستدرج الله الإنسان بالنعم؛ من أجل أن يتمادى في الغي ويغتر، فهذا مصيره -والعياذ بالله- يوم القيامة يفتح الله الدنيا على بعض الناس ليستدرجه ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤٤) وَأَمِلْ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿[القلم: ٤٤-٤٥]، الله يستدرج الإنسان إذا علم من نيته خبث النية وخبث السريرة استدريج، وأنعم عليه وأغدق عليه النعم؛ امتحاناً له.

فليس حصول النعم دليلاً على رضا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، بل قد يكون ذلك استدراجاً، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى

(١) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١٨٩) (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٧٢) عَنِ الْمِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا أَكَلْتُ أَحَدًا طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنْ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».

أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا
تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ^(١)، يعني: من كان قبلكم، فالإنسان يحذر
من بسطة الرزق أن يكون ذلك استدراجاً له.



(١) أخرجه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٦) (٢٩٦١) من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَابُ ذِكْرِ الْيَاسِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾
[يوسف: ٨٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَأْمُنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾
[الأعراف: ٩٩].

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ
مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ (١)،
وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا، وَلَفْظُهُ: «مَا الْكِبَائِرُ؟
فَقَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْإِيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ» (٢).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ ذِكْرِ الْيَاسِ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ)، طَرَفًا
نَقِيضٌ، فَهَمَّا كَبِيرَتَانِ، الْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ كَبِيرَةٌ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ كَبِيرَةٌ،
كَبِيرَتَانِ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَالْمَطْلُوبُ الْوَسْطُ وَالْإِعْتِدَالُ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ)، الْيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ: مَنْ رَضَاهُ
وَإِحْسَانَهُ، وَيَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا

(١) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي تَفْسِيرِهِ (١/١٥٥)، وَفِي مُصَنَّفِهِ (١٠/٤٥٩)، وَالطَّبْرِي فِي تَفْسِيرِهِ
(٤٠/٥).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣/٩٣١).

الضَّالُّونَ ﴿ [الحجر: ٥٦]، فالإنسان لا يقنط من رحمة الله حتى لو عمل الأعمال السيئة لا يقنط من رحمة الله ومغفرة الله، ويتوب إلى الله عَزَّجَلَّ، ولا يقنط، ويقول: ما لي توبة، ما لي وجه عند الله عَزَّجَلَّ، يأتيه الشيطان، ويقول له: ما لك عند الله وجه؛ تعمل هذه الأعمال السيئة وترجو؟! لا. المسلم يرجو الله ولو ساء عمله يرجو الله، يرجو أن الله يغفر له، وأن الله يمحو سيئاته فيتوب إلى الله عَزَّجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَالْأَمْسِرُ مِنْ مَكْرِ اللهِ)، فالأمن من مكر الله بأن ينسى العذاب، وينسى أن الله جَلَّوَعَلَا يؤاخذه، ويظن أنه محبوبٌ عند الله عَزَّجَلَّ، هذا -والعياذ بالله- من الاستدراج، بل يخاف الإنسان، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، والسلف الصالح كان خوفهم من رد العمل أكثر من تعبهم في العمل، يخافون أن ترد عليهم أعمالهم، فلا يغتر الإنسان بعمله.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]). فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كان ما يأتيه ذرية حتى بلغ الكبر، فلما جاءتة الملائكة، وبشروه بالولد بشروه بشارتين: بشروه بإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبشروه -أيضاً- بإسحاق، ﴿وَبَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، هذا إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، جاءتة الملائكة ببشارة، لكن ما هي ببشارة، ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بُشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ

مِنَ الْقَنْطَرِ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ [الحجر: ٥٤-٥٦]، فما قنط من رحمة الله على كبر سنه، هذا سبيل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وسبيل المؤمنين أنهم مهما اشتد بهم الكرب لا يقنطون من رحمة الله.

وهذا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، كلما اشتد الكرب عظم الرجاء، فهذا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اشتد به الكرب، واشتد به المرض حتى حزن وعميت عيناه، وابيضت عيناه من الحزن، وفقد أبناءه الثلاثة، ثلاثة أبناء فقدهم: يوسف، وإبراهيم، والأخ الأكبر الذي قال: ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، مات ثلاثة، ومع هذا ما يئس من رحمة الله، ﴿يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، ولما اشتد به الأمر قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، فما يئس من رحمة الله مع أنه وصل إلى حد من الحزن أثر بعينه وأثر بجسمه، ومع هذا لم يقنط من رحمة الله، فهذا هو المؤمن الذي يجمع بين الخوف والرجاء، لا يأخذ الخوف فقط، ولا يأخذ الرجاء فقط.

وهناك من الناس الآن من يقولون: الإسلام قضي عليه، والمسلمون ما عاد لهم باقية، والكفار ملكوا الدنيا، والكفار معهم أسلحة، ومعهم كذا، وراح الإسلام، كافٍ أن الإسلام له رب يتصر له، أما الدنيا فإلى زوال،

والله مع المتقين، والعاقبة للمتقين مهما بلغ الكفار، فإنهم إلى زوال، ومهما حصل فالإسلام دين الله هو الباقي، والمسلمون باقون -بحول الله وقوته-، ولهم العاقبة في الدنيا والآخرة، فلا يقنط الإنسان من رحمة الله إذا رأى هذه الأحوال وهذه الفتن العظيمة، بل يعظم رجاءه بالله عَزَّجَلَّ، ويثق بوعد الله عَزَّجَلَّ، هكذا المؤمن.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩])، المسلم المؤمن يكون معتدلاً بين الخوف والرجاء، فلا يخاف الخوف الذي يُقنطه من رحمة الله، ولا يرجو رجاءً يؤمنه من مكر الله، بل يكون متوسطاً بين الخوف والرجاء هذا المؤمن، أما أهل الضلال فهم على العكس منهم من غلب الرجاء وأمن مكر الله، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، قد أمنوا مكر الله والخوف من الله عَزَّجَلَّ، وأن الله يمكر به، بمعنى: يستدرجه من حيث لا يعلم؛ حيث أمن مكر الله، ولا يَأْمَنُ مكر الله إلا القوم الخاسرون، وكذلك يرجو رحمة الله لكن لا يَأْمَنُ من مكر الله فلا يغتر.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، يعني: الاستدراج، المراد بمكر الله: الاستدراج بالنعم، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، أن الله يستدرجهم بهذه النعم التي بين أيديهم، وأنه ليس راضياً عنهم، فليس إعطاء هذه النعم دليلاً على رضا الله، وإنما هو استدراج لهم؛ ليزدادوا من الإثم -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، هذا هو الاستدراج، ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾؛ يعني: القرآن ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القم: ٤٤]، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ

فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿[الأنعام: ٤٤]﴾، يعني: آيسون من رحمة الله عَزَّجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ»)،
الكبائر على قسمين: أكبر الكبائر، وما دون ذلك من الكبائر، فالكبائر ليست
على حدٍ سواء، فهذه الثلاث هي أعظم الكبائر (الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ)، وهذا أعظم
الكبائر، وهو أعظم ما نهى الله عنه، فليحذر الإنسان منه.



بَابُ ذِكْرِ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَطْنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]،
وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]،
وَقَوْلِهِ: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

الشَّجَّ

قال المصنف رحمه الله: (بَابُ ذِكْرِ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ)، من الكبائر: سوء
الظن بالله عزَّ وجلَّ؛ لأن الواجب إحسان الظن بالله سبحانه وتعالى، والله جلَّ وعلا
يقول في الحديث القدسي: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيُظَنَّ بِي
مَا شَاءَ»^(١)، والله جلَّ وعلا قال في حق المشركين: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ
بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]، يعني: أهلككم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾،
فعلى المسلم أن يُحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ دائماً وأبداً مهما أصابه فإنه يُحسن الظن
بالله عزَّ وجلَّ؛ لأن ما يأتي من عند الله هو خير، حتى وإن كان يكرهه العبد،
فهو خيرٌ له في العاقبة، يطهره الله بما يصيبه، يطهره الله بذلك، فهو خيرٌ له،
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا
لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ

(١) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في المسند (٤٩١/٣)، والدارمي في سننه (٢٧٣١)،
وابن حبان في صحيحه (٤٠١/٢)، والطبراني في الكبير (٢١٠)، والحاكم في المستدرک
(٢٦٨/٤) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم
(٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه: «فَلْيُظَنَّ بِي مَا شَاءَ».

خَيْرًا لَهُ»^(١)، فالْمُؤْمِنُ عَلَى خَيْرٍ، وَيُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ عَزَّجَلَّ، أَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ يَسِيءُ
الظَّنَّ بِاللَّهِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا
فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٣-٢٤].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّوكَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]).

﴿يَظُنُّوكَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾: الْمُنَافِقُونَ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ يَظُنُّونَ
بِهِ السُّوءَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، فَالْجَاهِلِيَّةُ: مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ،
هَذِهِ هِيَ الْجَاهِلِيَّةُ^(٢)، وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ زَالَتِ الْجَاهِلِيَّةُ الْعَامَّةُ، وَقَدْ يَبْقَى

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال ابن منظور: (جَهْلٌ: الْجَهْلُ: نَقِيضُ الْعِلْمِ، وَقَدْ جَهِلَهُ فُلَانٌ جَهْلًا وَجَهَالَةً، وَجَهْلٌ
عَلَيْهِ. وَجَاهِلٌ: أَظْهَرَ الْجَهْلَ عَنْ سَيِّوِيهِ. الْجَوْهَرِيُّ: تَجَاهَلَ أَرَى مِنْ نَفْسِهِ الْجَهْلَ وَلَيْسَ
بِهِ، وَاسْتَجْهَلَهُ: عَدَّهُ جَاهِلًا وَاسْتَخَفَّهُ أَيْضًا. وَالتَّجْهِيلُ: أَنْ تَنْسِبُهُ إِلَى الْجَهْلِ، وَجَهْلٌ
فُلَانٌ حَقٌّ فُلَانٌ وَجَهْلٌ فُلَانٌ عَلَيَّ وَجَهْلٌ بِهَذَا الْأَمْرِ. وَالْجَهَالَةُ: أَنْ تَفْعَلَ فِعْلًا بِغَيْرِ الْعِلْمِ.
ابْنُ سُمَيْلٍ: إِنْ فُلَانًا لَجَاهِلٌ مِنْ فُلَانٍ أَيْ جَاهِلٌ بِهِ. وَرَجُلٌ جَاهِلٌ وَالْجَمْعُ جُهْلٌ وَجُهْلٌ
وَجُهْلٌ وَجُهَّالٌ وَجُهَلَاءُ، عَنْ سَيِّوِيهِ، قَالَ: شَبَّهَهُ بِفَعِيلٍ كَمَا شَبَّهُوا فَاعِلًا بِفَعُولٍ، قَالَ
ابْنُ جَنِّي: قَالُوا جُهَلَاءُ كَمَا قَالُوا عُلَمَاءُ، حَمَلًا لَهُ عَلَى ضِدِّهِ. وَرَجُلٌ جَهُولٌ: كَجَاهِلٍ،
وَالْجَمْعُ جُهْلٌ وَجُهْلٌ). انظر: لسان العرب (١٢٩/١١)، وقال ابن فارس: (جَهْلٌ)
الْحَيْمُ وَالْهَاءُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا خِلَافُ الْعِلْمِ، وَالْآخَرُ الْخِفَّةُ وَخِلَافُ الطَّمَأْنِينَةِ.
فَالْأَوَّلُ الْجَهْلُ نَقِيضُ الْعِلْمِ. وَيُقَالُ لِلْمَفَازَةِ الَّتِي لَا عِلْمَ بِهَا جَهْلٌ). انظر: معجم مقاييس
اللغة (٤٨٩/١)، وتهذيب اللغة (٣٧/٦).

منها شيءٌ في بعض الناس؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما عَيَّرَ شخصاً بأمه، فقال: «يا ابن السوداء»، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَعَلَى كَثَرِ سِنِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ»^(١).

فقد يبقى في بعض الناس شيءٌ من أمور الجاهلية، مثل: الطعن في الأحساب، والفخر بالأنساب، فهذه من الأمور الجاهلية؛ كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَزِنْعِي فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطُّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»^(٢)، فعلى المسلم أن يتبرأ من أمور الجاهلية كلها، فكلها مذمومة، ظن الجاهلية، وحمة الجاهلية، فكل ما نُسب إلى الجاهلية فإنه مذموم يجب تركه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكُمْ﴾ الآية: [فصلت: ٢٣]).

يقول الله لأهل النار: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾؛ يعني: ظنوا بربهم السوء - والعياذ بالله - ﴿أَرَدْتُمْكُمْ﴾، يعني: أهلككم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فالمسلم يُحسن الظن بالله مهما أصابه، ويعلم أن ما أصابه هو خيرٌ له.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ﴾ [الفتح: ٦]).

(١) أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَلَمَ السَّوْءُ﴾، الذين ظنوا أن الله لا ينصر رسوله، وأن الله لا يُظهر دينه، وأن الرسول لما ذهب إلى إحدى الغزوات ظنوا أنه لا يرجع وأنه يُقتل، الله نصر رسوله ورجع بالسلامة، وأيده الله وأظهر دينه، وإن كان جرى عليه ما جرى من الشدائد ومن الكربات، لكن الله جَلَّ وَعَلَا جعل العاقبة له وللمسلمين، أين صناديد الكفر وأين كفرهم؟ الإسلام -والله الحمد- يمتد ويزيد، والكفر ينحسر وينحسر.



رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ». رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ^(١).

عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ». أَخْرَجَاهُ^(٢).

وَرَادَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا: «فَإِنَّ قَوْمًا قَدْ أَرَادَهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ﴾ [فصلت: ٢٣]»^(٣).

الشَّجَرُ

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ»؛ لَأَنَّ الْكِبَائِرَ عَلَى قَسَمَيْنِ:

القسم الأول: كبائر كبيرة.

القسم الثاني: كبائر دونها.

فأكبر الكبائر: سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَلَا يُظْهِرُ دِينَهُ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ شَيْءٌ فَلَنْ يَتَصَرَّوْا، وَلَنْ تَظْهَرَ كَلِمَتُهُمْ مِثْلَمَا يُقَالُ الْآنَ: الْكُفَّارُ فِي نِعْمَةٍ، وَفِي رَغْدٍ، وَفِي تَقْدِمٍ -يعني: تقدم دنيوي-، وَالْمُسْلِمُونَ حَالَهُمْ كَمَا يُرَى، الْمُسْلِمُونَ عَلَى خَيْرٍ مِمَّا أَصَابَهُمْ، وَرَبِّمَا يَكُونُ مَا أَصَابَهُمْ مِمَّا يُكْرَهُ خَيْرًا لَهُمْ وَأَحْسَنَ عَاقِبَةً يُمَحِّصُهُمُ اللَّهُ

(١) عزاه ابن كثير في تفسيره لابن مردويه (٢/٢٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (٨١) (٢٨٧٧).

(٣) أخرجه بهذه الزيادة: أحمد (٣٧٣/٢٣)، وابن أبي الدنيا (ص ١٩) برقم (٤).

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١]، الله جَلَّ وَعَلَا يصيب المسلمين بما يصيبهم؛ تمحيصاً لهم، وتخليصاً لهم، وتنبهها لهم؛ حتى يرجعوا إلى الله عَزَّجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ، يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ». أَخْرَجَاهُ).

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ: «قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ»؛ ثلاث ليال، أو ثلاث سنين؟ الله أعلم.

قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»، «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ»، إذا نزل به الموت يُحْسِنُ الظن بالله؛ لأن العمل انتهى، ما يتمكن من العمل لكن يبقى حسن الظن بالله عَزَّجَلَّ، والله عند حسن ظن عبده، فإذا نزل به الموت فإنه يُحْسِنُ الظن بالله، ويؤمن بأنه صائر إلى ربه، وأن الله جَلَّ وَعَلَا جواد يرحم عباده المؤمنين، فيُحْسِنُ الظن بالله؛ لأن العمل انتهى ما بقي إلا حسن ظن بالله عَزَّجَلَّ.

فمن الكبائر سوء الظن بالله عَزَّجَلَّ، فإن الله ما يخلق شيئاً ويأتيه بسوء، فالإنسان يُحْسِنُ الظن بالله مهما كانت حاله، وحتى عند الموت يُحْسِنُ الظن بالله؛ «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»، فالمؤمن في حالة الحياة يكون معتدلاً بين الخوف والرجاء لا يُغلب الرجاء، ولا يُغلب الخوف، أما عند اقتراب خبر الموت يُغلب جانب الرجاء؛ لأن وقت العمل انتهى،

ما يستطيع يعمل، فيُحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ، ويُغلب جانب الرجاء عند الاحتضار.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أَخْرَجَاهُ)، يعني: البخاري ومسلم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَزَادَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا: «فَإِنَّ قَوْمًا قَدْ أَرْدَاهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣])، «أَرْدَاهُمْ»، يعني: أهلكهم: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدَكُمْ﴾، يعني: أهلككم، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.



وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنْ بِي مَا شَاءَ»^(١).

زَادَ أَحْمَدُ وَابْنُ حَبَّانَ: «إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»^(٢).

الشَّجَرُ

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»، فعلى المسلم أن يُحَسِّنَ الظنَّ بربه عَزَّجَلَّ مهما أصابه فإنه يُحَسِّنُ الظنَّ بالله، ولا يُسِيءُ الظنَّ بالله، إذا أصابه مرض يظن أن هذا من الله عقوبة له وأنه لن ينجو، فعليه أن يُحَسِّنَ الظنَّ بالله مهما أصابه، ويحتسب الأجر عند الله عَزَّجَلَّ.

ومعنى الحديث أن الله يعامل العبد على حسن ظنه به، ويفعل به ما يتوقعه من خير أو شر، والمراد: الحث على تغليب الرجاء على الخوف وحسن الظن بالله، والتحذير من اليأس والقنوط، والحث على حسن الرجاء.



(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه: «فَلْيَظُنْ بِي مَا شَاءَ».

(٢) أخرجه بهذه الزيادة: أحمد (٣٦/١٥)، وابن حبان (٤٠٥/٢).

بَابُ ذِكْرِ إِرَادَةِ الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ». أَخْرَجَاهُ^(١).

وَعَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جُئْتُ بِهِ»^(٢).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ ذِكْرِ إِرَادَةِ الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣])، هذا من كبائر القلوب، وأورد المصنف هنا قوله تَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، وهذا لفظ البخاري «لِأَخِيهِ» من غير شك، وجاء عند مسلم «لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ» على الشك.

(٢) رواه البغوي في شرح السنة (٢١٢/١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢/١)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١٨٨/١)، وقال: «تفرد به نعيم بن حماد»، والخطيب في تاريخ بغداد (٣٦٨/٤)، وانظر تعليل الحافظ ابن رجب للحديث في جامع العلوم والحكم (٣٩٤/٢ - ٣٩٥).

قوله تعالى: ﴿الَّذَارُ الْآخِرَةُ﴾ الجنة ﴿بِجَعْلِهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يتكبرون ويفتخرون وإنما يتواضعون ويدلون لربهم سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يريدون علوًّا في الأرض، ولا يريدون فسادًا بالأعمال السيئة والكفر والفسوق والمعاصي، إنما يريدون الخير دائمًا وأبدًا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ». أَخْرَجَاهُ).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ»، يعني: لا يكمل إيمانه ليس معناه: «لَا يُؤْمِنُ» أنه يكفر، لا. «لَا يُؤْمِنُ»، يعني: لا يكمل إيمانه^(١).

«حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ» أخوك المسلم تريد له الخير تحب له الخير كما تحبه لنفسك؛ لأنك وهو سواء في الإيمان، المؤمنون إخوة؛ كما قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] إخوة بالإيمان لا بالنسب، فأنت أخوك هو المؤمن وإن لم يكن بينك وبينه نسب، الإيمان يجمع بينكما، وأخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب، فالمسلم هو أخوك سواء كان بعيدًا أو قريبًا، سواء كان عبدًا أو حرًا، سواء كان غنيًا أو فقيرًا، هو أخوك تريد له الخير تنصح له تفرح له بالخير كما تفرح لنفسك، تعتبره مثلك، فإذا لم تكن كذلك فإن إيمانك ناقص، إذا لم تحب لأخيك ما تحب لنفسك فإيمانك ناقص.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»):

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ»، يعني: لا يكمل إيمانه.
قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ»، أي: محبته «تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»، فيحب ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه يعلم ويؤمن أن ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الخير، وهو العاقبة الحميدة، فيكون دائمًا يحب ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الحديث صححه الإمام النووي في كتاب الأربعين من تأليفه رَحِمَهُ اللهُ^(١).

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا»، أي: محبته تبع لما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن كان يكره بعض ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لا يكون كامل الإيمان، وقد يكفر بذلك، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].



(١) انظر الأربعين النووية مع شرحها للشارح - حفظه الله -: (ص ٢٨٨-٢٨٩).

بَابُ: الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]،
وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [المتحنة: ٤].

الشَّرْحُ

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ)، من الكبائر التي حرمها الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التباغض بين المسلمين والعداوة فيما بينهم؛ لأن المؤمنين إخوة؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ»^(١)، فالمسلمون جسدٌ واحد وأمةٌ واحدة، يتعاونون على البر والتقوى، ويتناهون عن الإثم والعدوان، مجتمعٌ طاهر طهره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، فلا يجوز أن يدب بين المسلمين ما يُكدر هذه الأخوة الإيمانية، والمؤمن أخوك بالإيمان، والأخوة بالإيمان أقوى من الأخوة في النسب، فيجب على المسلمين أن يراعوا هذا الترابط بينهم الذي ربطهم الله به برباط الإيمان، ورباط الإسلام ورباط التقوى، هكذا يكون المسلمون فيما بينهم.

المسلمون كما شبههم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ

الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^(١)، وفي الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَأَثْنَيْنِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ^(٢)، هذه صفة المجتمع المسلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَمُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٣) الآية: [النساء: ٥٩]): النزاع يحصل بين الناس ويحصل بين المسلمين، ويحصل بين الكفار يحصل بين البشر، ولكن المسلمين إذا تنازعوا في شيء هناك ما يحل النزاع بينهم، ويعطي أصحاب الحقوق حقوقهم، وهو الإسلام والإيمان، فيرجعون في حل نزاعهم إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَمُ فِي شَيْءٍ﴾ [النساء: ٥٩]، أي شيء، سواء تنازعتم في العقيدة، أو تنازعتم في الأموال، أو تنازعتم في أي شيء؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِي شَيْءٍ﴾ عام عن كل شيء، ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَمُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ إلى كتاب الله ﴿وَالرَّسُولِ﴾ في حياته يُرد إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعد موته يُرد إلى سنته، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي»^(٤)، ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَمُ فِي شَيْءٍ﴾، أي شيء ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ولا تردوه إلى القوانين الشيطانية، أو إلى الأنظمة، أو إلى العادات القبلية، أغناكم الله في الكتاب والسنة فيها العدل فيها الإنصاف، وفيها الخير وأما ما

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الحاكم في المستدرک (٩٣/١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص ٢٦٩)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، ورواه الحاكم أيضًا (٩٣/١)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وقد ورد بغير هذا اللفظ عند مسلم (٢٤٠٨)، والترمذي (٣٧٨٨)، وأحمد في المسند (١٤/٣).

عند الكفار من الأنظمة فهي لا تُغني فتيلًا، ولا تُذهب الإحن والبغضاء، ولو أنها تحل النزاع لكن تبقى العداوة والبغضاء، لكن الإسلام يزيل البغضاء، ويزيل العداوة بين المسلمين، ويربطهم برباط الإيثار.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾

الآية [المتحنة: ٤]:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأسوة: القدوة، قد كان لكم

قدوة، وهذه القدوة حسنة طيبة ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وعد أباه أن يستغفر له وهو مشرك، لا يجوز الاستغفار للمشرك ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ثم قال: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾

[التوبة: ١١٤] يعني: لا تتخذوا هذا دليلًا، يقولون: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ استغفر لأبيه، فنحن نستغفر للمشركين ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾، وإبراهيم إذا وعد لا يخلف موعده، ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، فلما تبين له أن أباه عدوٌّ لله تبرأ منه، فلا يقال: إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ استغفر لأبيه. هذه مسألة انتهت.

بَابُ: الْفُحْشِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
[النور: ١٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ الْآيَةُ [التوبة: ٩١].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْفُحْشِ)، الفحش هو المتناهي القبح^(١)، فالمسلم يتجنب الفحش والتفحش أن يكون نزيهاً يكون طيباً في أخلاقه، وفي تعامله، وفي جميع أموره؛ لأنه ينطلق من الإسلام، والإسلام دين العدل والإنصاف والرحمة والنزاهة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
[النور: ١٩]):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
[النور: ١٩]، والفاحشة: ما تنهى قبحه من الأخطاء والسيئات، وهذا فاحش، هناك من المنافقين وضعاف الإيمان من إذا حصل شيء بين المسلمين - حصل خطأ حصل مخالفة - يفرحون بذلك، ويتحدثون به في المجالس، ويشيعونه بين الناس، هؤلاء توعدهم الله بقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، مؤلم، توعدهم الله

(١) انظر: العين (٣/ ٩٦)، وتهذيب اللغة (٤/ ١١١)، والصحاح (٣/ ١٠١٤)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤٧٨).

على نشر هذه الأخطاء وهذه المخالفات التي تحصل، الذين ينشرونها هؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، الله يستر على المسلم، وأنت تفضحه؟ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١)، الإنسان ليس معصوماً، يحصل منه الأخطاء يحصل منه مخالفات، لكن المناصحة بالسر والمناصحة بالرفق يحصل بها زوال ما وقع، وأما التشهير والفضيحة والإعلان في المواقع اليوم، فهذه كلها من كيد الشيطان، والمسلم يحصل منه خطأ، لكن الله يستره، وأنت تفضحه؟ كلكم خطأ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَّابُونَ»^(٢)، لا أحد يسلم من الخطأ «وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَّابُونَ»، الحمد لله الله فتح لك باب التوبة، فبادر بالتوبة، وكما في الحديث: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٣)، وهذا من فضل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأيضاً: مَنْ عِلِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَطَا مِنْ أَخِيهِ لَا يَنْشُرْهُ وَلَا يُشْهِرْهُ، ولا يذكره في المجالس، ثم هذا الشيء ما ينتشر، لكن إذا تحدث الناس به في المجالس والقنوات والمحطات الهابطة، حصل

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُزْبَةً مِنْ كُزْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُزْبَةً مِنْ كُزْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٥).

(٣) سبق تخريجه (ص ٣١).

الفساد وحصل الشر، وتنازع الناس، ربما يحصل قتل، ربما يحصل قطيعة، ربما يحصل شرور، فالسيئات تُدفن وتطوى ولا تروى ولا تنشر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ الآية: [التوبة: ٩١]):

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [التوبة: ٩١]، يعني: ليس عليهم حرج في ترك الجهاد؛ لأنهم عجزوا ما يقدرون، ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، الواجب أن المسلمين تسود بينهم المحبة والستر: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١) هكذا يكون المسلمون فيما بينهم.

ولعل مراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من إيراد هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أن ؟؟؟؟ من المعاصي وإنكارها ليس من إشاعة الفاحشة المنهي عنه، بل هو من النصيحة الواجبة.



بَابُ: ذِكْرِ مَوَدَّةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: «لَا تَرْضَوْا بِأَعْمَالِهِمْ»^(١).

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا تَمِيلُوا إِلَيْهِمْ كُلَّ الْمِيلِ فِي الْمَحَبَّةِ وَلِيَنِ الْكَلَامِ وَالْمَوَدَّةِ»^(٢).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: ذِكْرِ مَوَدَّةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ)، مودة أعداء الله - والعياذ بالله - خطيرة يحب الكفار، ويشني عليهم، ويمدحهم، يقول: خير من المسلمين؛ تقدموا وصنعوا، وعندهم صنائع، نعم، عندهم متاع الحياة

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/٦٠٠)، وزاد المسير (٢/٤٠٤-٤٠٥)، والقرطبي (٩/١٠٨)، وابن كثير (٤/٣٥٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/٦٠٠)، وزاد المسير (٢/٤٠٤-٤٠٥)، وابن كثير (٤/٣٥٤).

الدنيا، ومتاع الحياة الدنيا ما يساوي شيئاً، لكن المسلم عنده الإيمان، عنده التقوى، عنده الإسلام، ولو كان فقيراً فإنه رفعه الله بالإسلام، فالمسلم على خير، المسلم رفعه الله بالإسلام، وصان عرضه ودمه وماله بالإسلام، فلا يجوز لأحد أن ينتهك ما عظمه الله وحرمه الله، المسلمون لا يفضح بعضهم بعضاً، ولا يتحدثون في أخطاء بعضهم، بل يسترونها ولا يذكرونها. هذا شأن المسلمين.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ: ذِكْرِ مَوَدَّةِ أَعْدَاءِ اللهِ)، أي: بأنها لا تجوز، مودة الكفار لا تجوز، يعني: لا تجوز محبة الكفار، هذه هي الموالاة، يعني: لا تجوز موالاتهم، ولا تجوز محبتهم، بل يجب بغضهم؛ لأن الله يبغضهم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، بعض الصحابة قتل أباه لما كان على الكفر، وكان يحاول ابنه أن يكفر، ودارت المعركة، فقتل أباه كافراً -والعياذ بالله-، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢])، لا تجد في المسلمين ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ

حَاذَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يعني: يحبون الكفار الذين حادّوا الله ورسوله، الكفار يجب بغضهم وعداوتهم والابتعاد عن أعمالهم وأخلاقهم، ولا يمنع هذا أننا نعقد العهد معهم إذا احتاج الأمر أن ولي الأمر يعقد مع الكفار عهداً، هذا من المصالح، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاهد بعض الكفار، وعاهد اليهود في المدينة وهم يهود، عاهدهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالعهد بين المسلمين والكفار فيما هو من صالح المسلمين لا بأس به، ولا يُعد هذا من المحبة والمودة، هذا من المصالح ودرء المفساد، المحبة تكون بالقلوب، وأما التعامل فيما أباح الله بين المسلمين والكفار فهذا ليس من المحبة، وإنما هو من تبادل المنافع والمصالح، وكف العدوان.

وهذه الآية نزلت في أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما قتل أباه يوم بدر؛ لأن أباه حاول قتله، ويتابعه ليقنتله، فقتله في المعركة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾﴾ [التوبة: ٢٤]:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، هذه الثمانية يحبها المسلمون يحبها البشر، يحبون هذه

(١) انظر: تفسير البغوي (٨/ ٦٣)، وزاد المسير (٤/ ٢٥١)، والقرطبي (١٧/ ٣٠٧)، وابن كثير (٤/ ١٢٣-١٢٤).

الثمانية، وهذا ما فيه لوم في أنك تحبها، لكن ما تجعلها أحب إليك من الله ورسوله ﷺ، فإذا تعارضت محبتها مع محبة الله ورسوله ﷺ فإنك تُقدم محبة الله ورسوله ﷺ، المسلمون هاجروا من بيوتهم ومن أوطانهم وتركوا بلادهم وهاجروا في سبيل الله عزَّ وجلَّ إلى المدينة وإلى ديار الإسلام، زهدوا في ديارهم وزهدوا في أموالهم، منهم من خرج بدون شيء، خرج مهاجرًا وترك ماله، وترك كل ما عنده من الممتلكات تركها، خرج ليس معه شيء مهاجرًا إلى الله ورسوله ﷺ، وعوضهم الله، وأثنى عليهم، المهاجرون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أفضل من الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن الله قدم ذكرهم على الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكلهم من خيرة الخلق؛ بسبب أنهم تركوا ما تحبه نفوسهم، تركوا أموالهم، وتركوا بيوتهم، تركوا ديارهم، تركوا أقاربهم، وهاجروا إلى بلاد الإسلام.

والهجرة: ترك الشيء^(١)؛ ﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]، يعني: اتركه، ﴿وَالرَّجَزَ﴾: الأصنام، ﴿فَأَهْجُرْ﴾، يعني: اتركها، فالهجرة هي الترك، تركوا أوطانهم مع أنهم يحبونها، ما أشد على الإنسان من إخراجهم من بلده، لكن المسلمين طابت نفوسهم، وتركوا بلادهم، وتركوا بيوتهم، وهاجروا إلى الله ورسوله ﷺ، فرارًا بدينهم، دينهم أعلى شيء عندهم، أعلى من

(١) انظر الهجرة في اللغة في: النهاية في غريب الأثر (٢٤٣/٥)، ولسان العرب (٢٥٠/٥)، ومختار الصحاح (ص ٢٨٨).

وانظر الهجرة في الشرع في: أحكام القرآن لابن العربي (٥٩٢/٣)، والكافي (١٨٧/١)، والمغني (٢٣٦/٩)، ومجموع الفتاوى (٢٠٤/٢٨)، وفتح الباري (١٦/١)، وفتح القدير (٢١٨/١).

الذهب والفضة والممتلكات، دينهم أغلى عليهم، هاجروا وليس معهم شيء، وعوضهم الله خيرًا منه وأثنى عليهم ووعدهم بالثواب العظيم، والهجرة تأتي بعد الجهاد في سبيل الله في الفضيلة والمكانة: ﴿هَاجِرُوا وَجَاهِدُوا﴾ [البقرة: ٢١٨].

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ؛﴾ يعني: قبيلتكم، ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فهذه الثانية يحبها الإنسان بطبعه محبة طبيعية، ولا لوم عليه في ذلك إلا إذا قدم محبتها على محبة الله ورسوله ﷺ، حينئذ يحكم عليه بمودة الكفار، إذا قدم هذه المحاب الثانية على محبة الله ورسوله ﷺ، فلم يهاجر في سبيل الله، ولم يقاتل في سبيل الله، وأثر محبة هذا الأشياء على محبة الله ورسوله ﷺ، قال الله جلَّ وعَلَا: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، يعني: انتظروا ماذا يحل بكم، ﴿حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾، الخاتمة ماذا تكون؟ كانت الخاتمة أن الله نصر المسلمين على الكافرين وهاجروا، والمهاجرون تركوا بيوتهم وتركوا أموالهم، وتركوا آباءهم وأبنائهم، وهاجروا في سبيل الله عزَّ وجلَّ؛ طاعة لله ولرسوله ﷺ، تركوا الآباء والأمهات والأبناء والبنات والأوطان، وهاجروا إلى الحبشة أولاً -الهجرة الأولى-، ثم هاجروا إلى المدينة، هاجروا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ المهجرتين إلى الله ورسوله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾

الآية: [هود: ١١٣]).

﴿وَلَا تَزْكُوتُوا﴾، أي: لا تميلوا ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهم الكفار، ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾، تميلوا إليهم بالمحبة، تميلوا إليهم بالمداينة بدين الله، لا، ما يجوز هذا، ولكن أن تتعامل معهم بالبيع والشراء والشركات ونحو ذلك، هذا لا بأس به، وليس هذا من المحبة، وإنما هو من طلب الرزق وطلب الإعانة، ولا مانع من ذلك، لكن المحبة للقلب، لا تحب الكافر مهما كان، تتعامل معه نعم، حتى الوالدان إذا كان كافرين أنت تبرّ بهما وتحسن إليهما، لكن لا تحبهما، لا تحب والديك إذا كان كافرين، لكن تحسن إليهما، تبرّ بهما، ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى﴾ [لقبان: ١٥]، هكذا دين الإسلام دين العدالة، دين الرحمة، دين الرأفة، النظام الكامل من كل الوجوه؛ لأنه تنزيلٌ من حكيم حميد ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، فهكذا المسلم يعتز بدينه يرتفع بدينه يرتفع بدينه؛ لأن عنده هذا الدين أعظم شيء، رفعه الله به وكرمه به، فيتخلق بأخلاق هذا الدين، ويتعامل بتعامل أهل الدين، ويتمسك بهذا الدين، ولا يرخص منه شيئاً، أو يتنازل عن شيء من دينه مهما كان الأمر.

﴿وَلَا تَزْكُوتُوا﴾، أي: لا تميلوا إلى الكفار، والركون هو الميل^(١)، وإن قلّ، لا تميلوا إلى الكفار، ولكن ميلوا إلى المؤمنين، لا تميلوا إلى الكفار ولو كانوا أقرب الناس إليكم، ولكن ميلوا إلى المؤمنين، وكونوا مع المؤمنين،

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/٦٠١)، والصحاح (٥/٢١٢٦)، والغريبين في القرآن والحديث (٣/٧٧٥)، ولسان العرب (١٣/١٨٥).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]،
 كونوا معهم في الإيمان وفي الهجرة وفي السكن وفي جميع شؤون الحياة؛ لأنهم
 إخوانكم في الدين، وأقدم من الأخوة في النسب، الإخوان في الدين أقرب
 وأقوم من الإخوان في النسب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: «لَا تَرْضَوْا بِأَعْمَاهُمْ»)، بل اكرهوها،
 وابتعدوا عنها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَا تَمِيلُوا إِلَيْهِمْ كُلَّ الْمِيلِ
 فِي الْمَحَبَّةِ وَلِيَنِ الْكَلَامِ وَالْمَوَدَّةِ»)، كل الأقوال في الآية متقاربة لا تنافي بينها.



وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا». قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أَحْبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»^(٢).



(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا». قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أَحْبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرَحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أَحْبُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ يَحْيَىٰ إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ».

بَابُ: ذِكْرِ قَسْوَةِ الْقَلْبِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّهَا مَثَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

الشَّيْخُ

قال رحمه الله: (بَابُ: ذِكْرِ قَسْوَةِ الْقَلْبِ)، قسوة القلب بمعنى أن القلب لا يتأثر بالقرآن ولا بالموعظة، هذا هو القلب القاسي، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، القلب يقسو حتى يكون أقسى من الحجر، الحجارة تلين لذكر الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارِ لَمَا يَنْفَجَرُ مِنْهُ الْآنَهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، فالحجارة تلين لذكر الله، وتهبط من خشية الله، وأما قلوب بني آدم فبعضها أقسى من الحجارة -والعياذ بالله-، لا يلين ولا يتذكر ولا يخاف، أقسى من الحجارة، ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

قال رحمه الله: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣])، يعني:

اليهود نقضوا الميثاق مع أنبيائهم، وخانوا العهد الذي عاهدوا عليه، فאלه عاقبهم بقسوة القلوب.

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾: (ما) هذه صلة للتوكيد، والأصل هو: (فبنقضهم ميثاقهم)، جاءت (ما) مؤكدة زيدت للتأكيد.

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمُ﴾: لعنهم الله بسبب نقضهم الميثاق، واللعن هو: الطرد عن رحمة الله عز وجل^(١).

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾: هذه المشكلة أن قلوبهم قاسية. ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾: إذا قست القلوب صار الإنسان يتكلم في آيات الله بغير علم، ويحرف الآيات والنصوص؛ لتأتي على هواه يحرفها عن معناها؛ لتوافق هواه، ويفسرون القرآن بغير تفسيره؛ ليتوافق مع هواهم -والعياذ بالله.

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمُ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾؛ عقوبة لهم.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾: القرآن.

﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾: يفسرونه بغير تفسيره؛ ليتوافق مع أهوائهم.

قال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقْشِرُهُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣])، يعني: القرآن؛ لأنه حديث الله وكلامه.

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/ ٢٥٥)، ومقاييس اللغة (٥٥/ ٢٥٣).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾:

أي: ألم يحن الوقت الذي فيه تلين قلوب المؤمنين؟

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: عاتب الله المؤمنين لما تأخر ذلك في قلوبهم.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنسِفُونَ﴾، والعياذ بالله الذي لا يلين قلبه مع القرآن ومع ذكر الله عزَّجَلَّ يتلى بقسوة القلب، فلا يؤثر فيه القرآن، ولا يؤثر فيه الذكر.



عَنِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «ازْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَأَغْفِرُوا يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَنِيلٌ لِأَقْصَاعِ الْقَوْلِ، وَنِيلٌ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». رواه أحمد^(١).

الشَّجَرُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ازْحَمُوا تُرْحَمُوا»، ارحموا عباد الله واحنوا عليهم، ولينوا لهم من المؤمنين، ارحمهم يرحمكم الله، وفي الحديث الآخر: «ازْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٢)، وهو الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فالجزاء من جنس العمل، فإذا رحمت الضعفاء والمساكين من المؤمنين، وأشفقت عليهم رحمتك الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ».

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَغْفِرُوا يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»، والغفر هو الستر^(٣)،

(١) أخرجه أحمد (٩٩/١١)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٣٨) رقم (٣٨٠)، والطبراني في مسند الشاميين (١٣٣/٢)، والبيهقي في شعب الإيثار (٣٨٩/٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، والإمام أحمد في المسند (١٦٠/٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ازْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ»: قال أبو عيسى: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

(٣) انظر: لسان العرب (٢٥/٥)، وتهذيب اللغة (١١٣/٨)، والمعجم الوسيط (٦٥٦/٢)، وتاج العروس (٢٤٦/١٣).

فاستروا ما تواجهون مما تكرهون من الناس، استروه ولا تنشروه يغفر لكم الله عَزَّوَجَلَّ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ»، يعني: المعرضون والمتكبرون.
 قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»، هم المستمرون على الكفر والذنوب والمعاصي ولم يتوبوا، هذا هو الإصرار، ولذا يقال: «لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ»^(١)، الله يغفر الذنوب الكبائر مع الاستغفار، ومع الإصرار تصير الصغيرة كبيرة -والعياذ بالله -، لا صغيرة مع الإصرار.



وَلِلَّتِّمِذِيِّ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنْ أَبْعَدَ النَّاسُ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي»^(١).

الشَّيْخُ

لا تكثرُوا الكلامَ بغير ذكر الله، أما ذكر الله فأكثرُوا، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿[الأحزاب: ٤١-٤٢]، الكلام الذي ليس له حاجة ثرثرة، أمسك لسانك عن الكلام الذي لا داعي له، ولا يكون الإنسان هذارًا، ولا يكون كثير الكلام الذي لا فائدة فيه، تكلم بقدر الحاجة، كما يمسك الإنسان ماله عن التبذير والإسراف كذلك يمسك لسانه وكلامه عن الهذر والكلام الذي لا فائدة فيه.



(١) أخرجه الترمذي (٢٤١١)، والطبراني في الدعاء (ص ٥٣٤) برقم (١٨٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٨/٧).

وَلَهُمَا عَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

الجزء من جنس العمل: من لا يرحم لا يُرحم، ارحم الناس الضعفاء والمساكين والفقراء والأيتام، ارحمهم واعطف عليهم يرحمك الله سبحانه وتعالى.



(١) أخرجه البخاري (٦٠١٣)، ومسلم (٢٣١٩).

بَابُ ذِكْرِ ضَعْفِ الْقَلْبِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا يَكُونُ سِحْرٌ بَيْنَهُمْ وَإِنَّا لَفِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

الشَّيْخُ

قال رحمه الله: (بَابُ ذِكْرِ ضَعْفِ الْقَلْبِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤])، يعني: أن الله قَسَى قُلُوبَهُمْ -والعياذ بالله- فصارت لا تستفيد من المواعظ والذكر، ولا تخشى لذكر الله، ولا تلين بذكر الله، هذه قسوة القلب، هذا القرآن لو أنزله الله على جبل لرأيت حاشياً متصدعاً من خشية الله، فصار الجبل ألين بذكر الله من قلب ابن آدم، هذه المضغة اللحمية صارت أقسى من الجبل -نسأل الله العافية-، وذلك بسبب لإعراض عن ذكر الله، عدم الاستماع له، وعدم تدبر القرآن، وعدم التأثر بالمواعظ.

قال رحمه الله: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾)، هذه سورة العنكبوت بدأها بقوله: ﴿الَمْ﴾، هذه حروف مقطعة: ألف، لام، ميم، ابتداء الله بها بعض السور وهو أعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَعَانِيهَا، وشيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذه الحروف المقطعة

في أوائل السور فيها إشارة إلى إعجاز القرآن؛ لأنه مؤلف من هذه الحروف، التي تنطقون بها، وتكلمون بها، ومع هذه تعجزون أن تأتوا بآية أو بسورة مثل القرآن، وأنتم تنطقون بهذه الحروف، القرآن مركب من هذه الحروف، وأنتم تعجزون أن تأتوا بمثل هذا القرآن، فدل على أنه من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وليس هو من كلام البشر، ولا من كلام محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

(١) ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٠) أن (ألم): اختلف العلماء فيها وفي سائر الحروف المقطعة في أوائل السور على ستة أقوال:

أحدها: أنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله. قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اللهُ عَزَّوَجَلَّ في كل كتاب سر، وسر الله في القرآن أوائل السور، وإلى هذا المعنى ذهب الشعبي، وأبو صالح، وابن زيد.

والثاني: أنها حروف من أسماء، فإذا ألُفَّت ضرباً من التأليف كانت أسماء من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ. قال علي بن أبي طالب: هي أسماء مقطعة لو علم الناس تأليفها علموا اسم الله الذي إذا دعي به أجاب. وسئل ابن عباس عن (أكر) و(حم) و(نون)، فقال: اسم الرحمن على الهجاء، وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية، والربيع بن أنس.

والثالث: أنها حروف أقسم الله بها، قاله ابن عباس، وعكرمة. قال ابن قتيبة: ويجوز أن يكون أقسم بالحروف المقطعة كلها، واقتصر على ذكر بعضها كما يقول القائل: تعلمت (أ ب ت ث) وهو يريد سائر الحروف، وكما يقول: قرأت الحمد يريد فاتحة الكتاب، فيسميها بأول حرف منها، وإنما أقسم بحروف المعجم لشرفها، ولأنها مباني كتبه المنزل، وبها يذكر ويوحد. قال ابن الأنباري: وجواب القسم محذوف، تقديره: وحروف المعجم لقد بين الله لكم السبيل، وأنهجت لكم الدلالات بالكتاب المنزل، وإنما حذف لعلم المخاطبين به، ولأن في قوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي كُتِبَ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ دليلاً على الجواب.

والرابع: انه أشار بما ذكر من الحروف إلى سائرها، والمعنى: أنه لما كانت الحروف أصولاً للكلام المؤلف أخبر أن هذا القرآن إنما هو مؤلف من هذه الحروف، قاله الفراء، وقطرب. فان قيل: فقد علموا أنه حروف، فما الفائدة في إعلامهم بهذا؟ فالجواب أنه نبه بذلك على إعجازه، فكأنه قال: هو من هذه الحروف التي تؤلفون منها كلامكم، فما بالكم تعجزون عن معارضته؟ فإذا عجزتم فاعلموا أنه ليس من قول محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾، أي: ما يبتلون وما يمتحنون.

﴿ أَنْ يَقُولُوا ءَآمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾، فإذا قالوا: آمنا، فلا بد أن

يمتحنوا حتى يثبتوا على هذا الإيمان، ويصدقوا في هذا الإيمان، يمتحنهم الله، ويبتليهم، يبتلي المؤمنين؛ ليتبين صدقهم في الإيمان، هناك منافق يقول:

آمنت، يقوله بلسانه بدون قلبه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَآمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٨-٩]، يخادعون الله عَزَّجَلَّ، والمنافقون يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر والإعراض عن طاعة الله عَزَّجَلَّ، فليست العبرة بقول اللسان، ولكن العبرة بقول اللسان مع القلب، ﴿ أَنْ يَقُولُوا ءَآمَنَّا وَهُمْ

= والخامس: أنها أساء للسور. روي عن زيد بن أسلم، وابنه، وأبي فاختة سعيد بن علاقة مولى أم هانئ.

والسادس: أنها من الرمز الذي تستعمله العرب في كلامها. يقول الرجل للرجل: هل تأ؟ فيقول له: بلى، يريد هل تأتي؟ فيكتفي بحرف من حروفه. وأنشدوا:

فَقُلْتُ لَهَا هَيَّيْ فَقَائَتْ قَافَ

أراد: قالت: أقف. ومثله: نادوهم أن أجموا ألا تأ... قالوا جميعا كلهم بلى فا يريد: ألا تركبون؟ قالوا: بلى فاركبو.

ومثله:

بالخير خيرات وإن شراً فإ ولا أريد الشر إلا أن تأ

معناه: وإن شراً فشر ولا أريد الشر إلا أن تشاء. وإلى هذا القول ذهب الأخفش، والزجاج، وابن الأنباري. وقال أبو روق عطية بن الحارث الهمداني: (كان النبي ﷺ يجهر بالقراءة في الصلوات كلها، وكان المشركون يصفقون ويصفقون، فنزلت هذه الحروف المقطعة، فسمعوها فبقوا متحيرين). وقال غيره: (إنما خاطبهم بها لا يفهمون ليقبلوا على استماعه؛ لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها. معناه: فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بها يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، أو يكون معلوماً عند المخاطب، فهذا الكلام يعم جميع الحروف. وانظر -أيضاً-: تفسير الطبري (٨٩/١ - ٩٢)، والقرطبي (١٥٤/١، ١٥٥)، وتفسير ابن كثير (٣٦/١ - ٣٩).

لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾، أي: لا يختبرون ويبتلون حتى يظهر صدقهم في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، المنافق يقول: آمنت، ولكن إذا جاء الابتلاء تبين نفاقه وكفره وكذبه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم، امتحنهم الله عَزَّوَجَلَّ، هذه سنة الله عَزَّوَجَلَّ أنه يبتلي عباده.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ﴾، هذه النتيجة بعد الامتحان ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾، وهو الظهور، وهو يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَكن العلم على قسمين:

القسم الأول: العلم بالخفيات.

القسم الثاني: علم الظهور؛ ليظهر هذا للناس، فهذا علم الظهور، ويعلمهم من قبل، ولكنه لا يعذب الناس على علمه أنهم يعملون كذا، إنما يعذب الناس إذا فعلوا الكفر والمعاصي، وظهر هذا، فإن الله يعذبهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢])، موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿يَقَوْمُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾، يعني: فلسطين، بيت المقدس؛ لأنه استولى عليه المجوس استولى عليه العماليق، قوم غلاظ كبار الأجسام، جيل من الناس لهم خلق مختلف عن خلق بقية بني آدم، كبار الأجسام غلاظ القلوب، موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يغزو هؤلاء في بيت المقدس؛ ليخرجهم منه ويقاتلهم، فقال لبني إسرائيل: ﴿يَقَوْمُ

أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴿١٠٥﴾ اللَّهُ كَتَبَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿١٠٦﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٧]، الله كتب هذه البلاد للمؤمنين - فلسطين، بيت المقدس، الشام للمؤمنين -، كتبها الله للمؤمنين إذا جاهدوا في سبيل الله وقاموا بنصرة دين الله، أما إذا تخاذلوا وتراجعوا فإن الله يحرمهم منه، ما هو ميراث، وإنما هو لمن آمن بالله واليوم الآخر، فلسطين ليست لليهود، وليست لغيرهم، إنما هي للمؤمنين في الأصل، إذا صدقوا مع الله عَزَّجَلَّ وآمنوا بالله ورسوله، ما هي دعوى بأنها وطن، وأنها بلدهم، لا، البلد لله يورثها لمن يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنها بلاد المؤمنين، وليست بلاد غير المؤمنين.

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، وهم العماليق كبار الأجسام وغلاظ الطباع، وهؤلاء جبناء، ﴿يَقُولُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ قَالُوا يَمْوَسِي إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴿١٠٩﴾، وهم العماليق، ﴿وَأِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾، انظر: الجبن، يريدونهم أن يخرجوا منها بدون شيء وبدون قتال: ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾، سبحان الله يخرجون بدون جهاد؟ هذا جبن وخور وضعف -والعياذ بالله-، ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ كلام عجيب يخرجون منها بدون جهاد ويسلمونها لكم؟ لا، لا بد من جهاد.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [المنكوت: ١٠])، ومن الناس من يقول: «آمنا بالله»، وإذا ابتلي وامتحن فإنه ينكص على عقبيه، ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ

فِتْنَةُ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﷻ، ترك دينه لينجو من فتنة الناس، ترك دينه لينجو من أذى الناس، وينسى عذاب الله، وعذاب الله أشد من عذاب الناس كما يقال: كالمستجير من الرمضاء إلى النار -والعياذ بالله- ﴿فَإِذَا أُوْذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﷻ﴾ فترك دينه لينجو من عذاب الناس وينسى عذاب الله الذي هو أكبر.



وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(١).

الشَّيْخُ

هذا الحديث فيه خصلة من خصال الإسلام، وليس هو الإسلام كله، هذا من خصال الإسلام ومن أخلاق الإسلام.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ»، أمسك لسانه فلم يتكلم في الناس بالغيبة والنميمة والشتم والسباب، وغير ذلك من أنواع الفحش بالقول، أمسك لسانه عن أذى الناس، وتكلم بالكلام الطيب، والكلام المفيد، وسلم المسلمين من يده، فلم يبطش ولم يقتل المسلمين ولم يؤذهم.

والهجرة هي الترك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فَهُمْ أَهْجَرُوا﴾، أي: أن يترك الأصنام، والهجرة هي الترك، هذا في اللغة، وفي الشرع: الهجرة هي ترك بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، الهجرة في الإسلام هي الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فرارًا بالدين^(٢)، هذه هي الهجرة الشرعية فرارًا بالدين أن يفتنه الكفار، المهاجرون خرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، فعوضهم الله خيرًا مما تركوا.

(١) هذا الحديث ورد بألفاظ متقاربة في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو، وجابر، وأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فهو عند البخاري برقم (١٠، ١١، ٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠، ٤١)، وأخرجه الترمذي (٢٦٢٧)، والحاكم في المستدرک (١/ ٥٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٣٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تعريفها: (ص ١٠٠).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»، من الكفر والمعاصي والسيئات، تركها: هجرها، أي: تركها، وانتقل إلى ما يرضي الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى من القول والعمل، والهجرة على قسمين:
القسم الأول: هجرة إلى كتاب الله وسنة رسوله وترك الأقوال الباطلة والأقوال المنكرة.

القسم الثاني: هجرة بالبدن من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فرارًا بالدين.

هذه هي الهجرة على قسمين: هجرة بالقلب، وهجرة بالانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(١).



(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيته:

وَجَعَلَ لِقَلْبِكَ هِجْرَتَيْنِ وَلَا تَنَمَّ	فَهُمَا عَلَى كُلِّ امْرِيٍّ قَرَضَانِ
فَالْهَجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بَادٍ	إِخْلَاصٍ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ
فَالْقَصْدُ وَجْهَ اللَّهِ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ	وَالطَّاعَاتِ وَالشُّكْرَانِ
فَبِذَاكَ يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْ إِشْرَاقِهِ	وَيَصِيرُ حَقًّا عَابِدَ الرَّحْمَنِ
وَالْهَجْرَةُ الْآخَرَى إِلَى الْمَبْعُوثِ بَادٍ	حَقِّ الْمُبِينِ وَوَاضِحِ الْبَرْهَانِ
فَيَذُورُ مَعَ قَوْلِ الرَّسُولِ وَقَعْلِهِ	نَفْسِيًا وَإِثْبَاتًا بِأَلَا زَوْغَانِ
وَيُحْكَمُ الْوَحْيِ الْمُبِينِ عَلَى الَّذِي	قَالَ الشُّيُوخُ فَعِنْدَهُ حَكَمَانِ
لَا يَحْكُمَانِ بِبَاطِلٍ أَبَدًا وَكُلُّ	الْعَدْلِ قَدْ جَاءَتْ بِهِ الْحَكَمَانِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ١٢٧)، وانظر: طريق الهجرتين (ص ٢٠).

أَبْوَابُ كِبَائِرِ اللِّسَانِ

بَابُ: التَّحْذِيرِ مِنْ شَرِّ اللِّسَانِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

الشَّجَرُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَبْوَابُ كِبَائِرِ اللِّسَانِ، بَابُ: التَّحْذِيرِ مِنْ شَرِّ اللِّسَانِ)،
أي: الذنوب الكبائر التي تصدر من اللسان، واللسان خطره عظيم إذا لم يحفظه صاحبه فإنه أخطر عليه من بقية الأعضاء، وكل الأعضاء تحذر اللسان من أن يجرها إلى ما لا تُحمد عقباه، كلها تُكفر اللسان؛ كما في الحديث: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ أَعْضَاءَهُ تُكْفِّرُ لِلِّسَانِ، تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّكَ إِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَأَنْ اغْوَجَجْتَ اغْوَجَجْنَا»^(١)، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حذر من آفات اللسان قال له معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧)، وأحمد (٤٠٢/١٨)، والطبراني (٦٦٠/٣)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ٣)، والبيهقي في الأدب (ص ١٢٢) رقم (٢٩٤)، وفي شعب الإيمان (٢٣/٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣٠٩/٤).

عَلَى مَنَاجِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(١)، يجب على الإنسان أن يحفظ لسانه،
قَالَ الشَّاعِرُ^(٢):

أَحْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لَا يَلْدَعَنَّكَ إِنَّهُ تُغْبَانُ
كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانِهِ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

فيجب على المسلم أن يحفظ لسانه من الكلام المحرّم، أو حتى الكلام الذي لا فائدة فيه من القيل والقال، فيحفظ الإنسان لسانه، فإذا حفظ لسانه حفظ بقية أعضائه.

فاللسان له شر وفيه خير، إذا شغلته بذكر الله وطاعة الله، وتلاوة القرآن، والتسبيح والتهليل جرّ لك خيراً كثيراً، وأما إذا أطلقته بالسباب والشتم، والكلام المحرّم، أو الكلام الذي لا فائدة فيه من القيل والقال جرّ عليك ضرراً عظيماً.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]):

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، الله أضافهم إليه: (عباد الرحمن)؛ تشريفاً لهم.

﴿الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، من غير تكبر، ومشياً برفق وطمأنينة.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٤٢٨/٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد في المسند (٢٣١/٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٩٤/١١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢٠/٥)، والطبراني في الكبير (١١٦)، والحاكم في المستدرک (٤٤٧/٢)، والبيهقي في شعب الإیمان (٣٩/٣).

(٢) البيتان للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٨٧/٢)، وجمع الأمثال (٣٠٣/٢)، وبحر الدموع (١٢٥/١).

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾، تكلّم عليهم أهل الجهل، المراد بالجهل هنا ضد الحلم، خاطبهم الجاهلون بكلام سيئ، تكلّموا فيهم وواجهوهم بكلام سيئ.

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾، يعني: يقولون كلامًا يسلمون فيه من الإثم، يقابلون السيئة بالحسنة.

﴿سَلَامًا﴾ بمعنى أنهم لا يردون عليهم بمثل كلامهم السيئ، وإنما يتركونهم، فسلامًا: سلام مُتَارِكَةٌ لا سلام تحية، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾، أي: تركوهم؛ كما قَالَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، لما نصحه وبين له ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُنَّ لَنْ لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، ماذا قَالَ إبراهيم؟ ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، ثم قَالَ: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، وهذا مما أخذه الله على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه يستغفر لهذا المُشْرِك، ولكن هذه موعدة وعدها إياه، ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، فلا يجوز أن تقول للكافر: غفر الله لك، أو تقول للأموات من الكفار: اللهم اغفر لهم، لا يجوز، هذا حرام، لا تستغفر للمُشْرِكين ولو كانوا أقرب الناس إليك، لا تستغفر لهم ولا للمنافقين، الله جَلَّ وَعَلَا قَالَ في المنافقين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، فلا يجوز أن يُستغفر للكافر والمُشْرِك والمنافق، وإنما يُدعى له بالهداية إذا كان

حيًا، وإذا كان ميتًا يُترك لا يُسب ولا يُحب: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»^(١).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥])، عباد الرحمن إذا سمعوا اللغو والكلام الباطل المُلغى الذي لا فائدة فيه أو فيه ضرر أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ولا يهتمهم إذا تكلم فيهم أحد، أو سبهم أحد، أعرضوا عنه ولا يردون عليه بالمثل.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨])، الإنسان ما يلفظ من قول - أي قول، أي كلام - إلا لديه من الملائكة رقيبٌ عتيدٌ يُسجل عليه كلامه، ويحفظه في صحائف تُعرض عليه يوم القيامة، إذا لم يتب منها فإنها تُعرض عليه صحائفه السيئة يوم القيامة، يقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فيقرأ كتابه، ولو كان في الدنيا لا يقرأ، ولو لم يتعلم في الدنيا لكن يقرأ كتابه يوم القيامة لأجل أن تقام عليه الحُجة.



(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣، ٦٥١٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

هذا حديثٌ عظيمٌ مختصرٌ ومفيدٌ جدًا لَمَنْ تعقله وتأمّله.

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»، يعني: الإيمان الكامل.
«فَلْيَقُلْ خَيْرًا»، كلامًا طيبًا.

«أَوْ لِيَصْمُتْ» عن الكلام السيئ، أمسك لسانك، لسانم بيدك أمسكه،
ذلك الصمت، اصمت تسلم.

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»، من كمال الإيمان أنك تمسك
لسانك إلا في الخير، أو الكلام المفيد، أو الذي لك مصلحة منه، وليس فيه
مضرة عليك ولا على أحد، فلا بأس.



(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ».

«مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ»: هو اللسان.

«وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ»: هو الفرج.

فَمَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ وَحَفِظَ فَرْجَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، يَسْلَمُ لِسَانُهُ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ وَالْكَلامِ الْبَاطِلِ، وَيَسْلَمُ فَرْجُهُ مِنَ الْمُحَرَّمَ مِنَ الزَّنا، وَمِنَ الْاِسْتِمْتَاعِ الْمُحَرَّمَ، مَنْ ضَمِنَ هَاتَيْنِ الْجَارِحَتَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهَذَا وَعْدٌ كَرِيمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَهُ الرِّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ حَفِظَ هَذَيْنِ الْعَضْوَيْنِ - لِسَانَهُ وَفَرْجَهُ -، دَخَلَ الْجَنَّةَ، دَخَلَ الْجَنَّةَ يَعْنِي: لَا بَدَلَ لَهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، قَدْ يُعَذَّبُ فِي النَّارِ وَلَكِنْ مَأْكَلَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، فَالْمُؤْمِنُ وَإِنْ دَخَلَ النَّارَ بِذُنُوبِهِ وَعُدُّبَ فَإِنْ مَأْكَلَهُ أَنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ النَّارَ لِتَطْهِيرِهِ وَتَمْحِيطِهِ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا الطَّيِّبُونَ، الْجَنَّةُ لَا يَدْخُلُهَا إِنْسَانٌ فِيهِ قَدْرٌ، بَلْ يُطَهَّرُ بِالنَّارِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ ذُنُوبٌ وَسَيِّئَاتٌ دُونَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، أَوْ يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ وَلَا يُعَذِّبُهُ، فَهُوَ مُعَرَّضٌ لِلْوَعْدِ وَمُعَرَّضٌ لِلْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا دَامَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤).

وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١).

الشَّيْخُ

سفيان بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحابي جليل سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عملٍ يُدخله الجنة، ويُباعد من النار، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاه كلمة مختصرة مفيدة، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوتيَ جوامع الكلم وفصل الخطاب.

(فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا») كف لسانك عن الكلام الجارح والكلام السيئ والكلام الذي لا فائدة فيه، يقولون: أنفق من الكلام مثلما تُنفق من المال. أن تحفظ المال ولا تُنفقه إلا في الحاجة، كذلك احفظ لسانك من باب أولى، أكثر من المال احفظه ولا تطلقه إلا فيما فيه فائدة دنيوية أو دينية.



(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٠) عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِظِيِّ قَالَ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ: «قُلْ رَبِّي اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِم»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا»: قال الترمذي: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

وَلَهُ وَصَّحَهُ عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمَوْأَخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «تَكَلَّمْتَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ- أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»^(١).

الشَّيْخُ

معاذ بن جبل الصحابي الجليل عالم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (وَإِنَّا لَمَوْأَخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «تَكَلَّمْتَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ»)، يعني: فقدتكَ أُمُّكَ، وهذا دعاء لا يُقصد معناه، وإنما يجري على اللسان ولا يُقصد معناه، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يدع عليه بالموت أو الهلاك، وإنما الكلمة تجري على اللسان.

«تَكَلَّمْتَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ- أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»، هذا وعيدٌ شديد لمن لم يحفظ لسانه وأطلقه. كذلك يحفظ قلمه، فلا يكتب في الجرائد والصحف وفي الكتب، لا يكتب إلا ما فيه فائدة له ولغيره، وأما إذا كتب كتاباً أو كتب مقالة فيها سوء فإنها تحفظ عليه يوم القيامة وتُعرض عليه، أو كتبها وراحت وانتهت، لا، محفوظة ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَيْنٌ﴾ [ق: ١٨] من الملائكة ﴿رَقِيبٌ عَيْنٌ﴾، يسجلون عليه ما يقول.

فالواجب على الإنسان أن يحفظ لسانه، أخطر ما في الإنسان هاتان الجارحتان -لسانه وفرجه-، فيحفظ لسانه عن الكلام المحرّم، ويحفظ فرجه عن الفواحش وعما حرّم الله عليه، فإذا حفظ هاتين الجارحتين سهل عليه حفظ بقية الجوارح، دخل الجنة، وعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدخول الجنة، ولو عُدّب في النار، فإنه مآله إلى الجنة، فالمؤمن مآله إلى الجنة إما ابتداءً، وإما في النهاية، ولا يُخلد في النار إلا الكافر.



وَلَهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ تُكْفِّرُ اللِّسَانَ تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اغْوَجَجْتَ اغْوَجَجْنَا»^(١).

قَوْلُهُ: «تُكْفِّرُ»، أَي: تَذِلُّ وَتَخْضَعُ^(٢).

الشَّجَرُ

في هذا الحديث بيان خطر اللسان إذا لم يحفظه صاحبه، وأن الأعضاء - أعضاء الجسم - كلها تكفر اللسان، يعني: تحذره، تقول له: «اتَّقِ اللَّهَ فِينَا»، يعني: اجتنب ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ، واعمل بطاعة الله؛ لأن اللسان له عملٌ كثير، يتحرك إما بالخير وإما بالشر، إما بالكلام الحسن، وتلاوة القرآن، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ والتسبيح والتلهيل، أو بالكلام المباح الذي يحتاج إليه الإنسان في حياته، هذا لا بأس به، أما أن يتكلم اللسان بما حَرَّمَ الله من الغيبة والنميمة، وأعظم ذلك الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ودعاء غير الله، فإن هذا الخطر يتعدى أثره على أعضاء الجسم، فلذلك كان خطر اللسان عظيمًا، والنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وعظ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذكره، أخذ بلسانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»؛ يعني: اللسان، فقال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «فَكَلِّتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ

(١) سبق تخريجه (ص ١٢٠).

(٢) انظر: غريب الحديث للخطابي (٢/ ٤٤٢)، والغريبين في القرآن والحديث (٥/ ١٦٤٣)، والمجموع المغني في غريب القرآن والحديث (٣/ ٥٩)، وغريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٢٩٦)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٨٨)، ولسان العرب (٥/ ١٥٠).

عَلَى مَنَاجِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ^(١)، وهذا أصله دعاء، يعني: فقدتكَ أملك، ولكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقصد هذا، إنما يجري على اللسان بدون قصدٍ لمعناه؛ «تَكَلَّمْتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنَاجِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

إذا: فخطر اللسان عظيم إذا لم نحفظه عن الكلام المحرم، عن الغيبة والنميمة، وعن قول الزور، وعن الشتم والسباب، فإن أثره خطير على صاحبه، فعلى المسلم أن يُمسك لسانه عما حرم الله وعما لا فائدة فيه. قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: («تُكَفِّرُ»، أي: تَذِلُّ وَتَخْضَعُ)، الجوارح والأعضاء تذلل وتخضع للسان، فهو الذي يقودها.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَزُلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبَعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ». أَخْرَجَاهُ^(١).

وَلِلَّزْمِذِيِّ وَصَحَّحَهُ عَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، فَيَكْتُبُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ»^(٢).

الشَّجَرُ

هذا خطرٌ عظيمٌ وخيرٌ كثيرٌ في هذا اللسان، فإذا تكلم بالكلام الحسن والكلام الطيب، فإن الله يكتب له رضوانه ومغفرته وفضله، وإن تكلم بالكلام السيئ، فإن الله يكتب غضبه عليه إلى يوم يلقاه يوم القيامة، هذا يُبين خطر اللسان على صاحبه إذا لم يعقله، كثيرٌ من الناس لا يعقل لسانه، بل يتخذ حرفة بالكلام السيئ وفي اليوم في المحطات وفي الإذاعات ليُضحك الناس، ويجعل له برامج هابطة سيئة متمسخرة، وهذا محفوظٌ عليه ومحاسبٌ عليه، فالإنسان يُمسك لسانه إلا عن شيء يحتاجه أو شيء فيه أجرٌ وثواب، وإلا فإنه يُمسك هذا اللسان؛ كما قال الشاعر^(٣):

أَحْفَظُ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لَا يَلْدَغُنْكَ إِنَّهُ تُغْبَانُ
كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانِهِ كَانَتْ تَهَابُ بِقَاءِهِ الشُّجْعَانُ

اللسان يجر على صاحبه إما الخير وإما الشر حسب ما يستعمله.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٥٠) (٢٩٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٩)، وقال: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

(٣) سبق عزوه (ص ١٢١).

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِضُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ إِلَّا أَغْفِرَ لِضُلَانٍ؟ إِنْ يَ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ»^(١).

وَرَوَى أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»^(٢).

الشَّيْخُ

هذا رجلٌ من بني إسرائيل كان رجلاً صالحاً، وله أخٌ في الدين - لا في النسب - يمارس الجرائم، ويقع في السيئات، وينصحه وينهاه عنها، فلما استمر هذا الرجل على ما يفعل ولم يمثل للنصيحة قال له هذا الرجل الصالح: «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِضُلَانٍ»، قال هذا من باب الغيرة، ومن باب إنكار المنكر، لكنه تعدى حدوده، حلف على الله، هذا سوء أدب مع الله، حلف على الله أنه لا يغفر لفلان «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِضُلَانٍ»، هذا من باب القنوط من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله يتوب على مَنْ تاب مهما كثرت ذنوبه وخطاياها، إذا تاب إلى الله فإن الله يتوب عليه، ولا أحد يحول بينه وبين الله عَزَّ وَجَلَّ، فقال الله: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ إِلَّا أَغْفِرَ لِضُلَانٍ؟ إِنْ يَ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ»، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راوي الحديث: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ» كلمة واحدة: «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِضُلَانٍ»، فهذا خطرٌ عظيم من هذا اللسان

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (٤٧/١٤)، والبزار (٢٤٤/١٦)، وابن حبان

(٢١/١٣)، والبخاري في شرح السنة (٣٨٤/١٤).

والكلام، فالإنسان يحفظ لسانه إلا فيما ينفعه في دينه وفي دنياه، وأما أنه يُطلقه في كل شيء، ولا يتورع من الكلام القبيح والكلام السيئ والشتم والسباب والغيبة والنميمة، وأعظم ذلك الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا اللسان يجني على صاحبه ويوقعه في الإثم، فعلى المسلم أن يحافظ على لسانه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١)، فإذا صمت سلم، وإذا قَالَ الخير أثابه الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ»، فقال كلمة أفسدت عليه دنياه وآخرته، كلمة واحدة، فكيف بالكلام الكثير؟ مما يدل على خطر اللسان إذا لم يعقله صاحبه، ويتوقى في الكلام الذي يصدر منه، ولا يطلقه في كل كلام، فاللسان خطير، وأخطر ما في الإنسان عضوان: اللسان والفرج؛ كما في الحديث: «وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ»^(٢)، يعني: اللسان والفرج: اللسان بالكلام السيئ، والفرج بالوقوع في الفواحش، فيجب على الإنسان أن يعتني بهاتين الجارحتين وهذين العضوين اللسان والفرج، يحفظهما من التجاوز.



(١) سبق تخريجه (ص ١٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وأحمد (٢٨٧/١١٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ».

بَابُ: مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْكَلَامِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَنِينِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠].

الشَّجُّ

قال رحمه الله: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْكَلَامِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَنِينِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]).

من جملة الكبائر ما يصدر من الإنسان من كلام، يتساهل الإنسان بالكلام ويظن أنه يذهب، ولا يدري أنه يُسَجَّلُ عليه ويُحْفَظُ: فإمّا أن يكون له إن كان طيبًا. وإمّا أن يكون عليه إن كان كلامًا سيئًا.

الله جَلَّ وَعَلَا خَلَقَ الإنسانَ وَمَنْ عَلَيْهِ بَأْنُ خَلْقِ لَهُ اللِّسَانُ، وَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ، قال -سُبْحَانَهُ-: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨-٩]، فاللسان من نعم الله، عضو من أعضاء الإنسان وليس في الإنسان منه إلا عضو واحد، فلو جُنِيَ عليه وقُطِعَ وجبَتْ فيه دِيَّةٌ كاملة؛ لأنه ليس في الإنسان له نظير.

وقال سُبْحَانَهُ: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، الإنسان يتكلم، ينطق ويبيّن ما يريد، هذا من نعم الله.

ولذلك قد يكون للإنسان لسان لكنه أخرس لا ينطق فيفسد المنفعة، العضو موجود لكن يفقد منفعته، ولذلك لو جُمعت عليه جناية أذهبت الكلام - أصبح لا يستطيع النطق -، أيضًا وجبت ديةً كاملة، تسمى: دية المنافع، ودية الأعضاء.

فهذا اللسان نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ، ومنفعته - وهي النطق - نعمة أخرى من الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن هذا اللسان سلاحٌ ذو حدين:

إن استعمله فيما ينفعه أصبح نعمة من الله عليه واستفاد منه.

وإن استعمله فيما يغضب الله أصبح عليه، ويُحاسب عن كلامه يوم القيامة كلمةً كلمة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَيكُم لِحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، هذا تأكيد من الله، ﴿وَلَوْ﴾ هذه النون الثقيلة موطئة للقسم، والتقدير: (والله إنَّ عليكم لحافظين)، و(اللام) لام القسم -أيضًا-.

فهو تأكيدٌ لثلاثة أشياء: القسم المقدَّر، والتوكيد لـ (إنَّ) الثقيلة، و(اللام) ﴿لِحَافِظِينَ﴾.

تأكيدات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَنْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ من الملائكة يحفظون أعمالنا وأقوالنا، يسمون الملائكة الحَفَظَةُ؛ كما في الحديث: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَخْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ -وهو أعلمُ بِهِمْ-: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَآتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(١)، ويجتمعون في

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٣)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صلاة الفجر وفي صلاة العصر، فإذا جاءت ملائكة الفجر نزلت ملائكة النهار، وحضرت صلاة الفجر، وحضرها ملائكة الليل، ثم يصعدون إلى ربهم ويبقى ملائكة النهار.

العصر كذلك: يجتمع النازلون والموجودون معنا في صلاة العصر، يصلُّون معنا، ثم يصعد الذين كانوا فينا في النهار، ويبقى الذين نزلوا لليل، وهكذا يتعاقبون.

﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠] ﴿لِحَافِظِينَ﴾: يحفظون أعمالكم وأقوالكم يكتبونها عليكم.

﴿كَرَامًا﴾ [الانفطار: ١١]: هذا وصفٌ لهم بالكرم -عليهم الصلاة والسلام-.
﴿كَتِيبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]: يكتبون ما يصدر منكم، يكتبونه في صحائف أعمالكم، وتواجهون به يوم القيامة لا تنكرون منه شيئاً.

﴿يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢]؛ أي: إنهم لا يخفى عليهم شيء، فهم ملازمون للعبد يعرفون جميع أفعاله وأقواله، ويلازمونه لا يتركونه إلا في حالتين:
* حالة جماع الرجل لأهله.

* وحالة إذا كنت في الخلاء لقضاء حاجتك.

وإلا فهم ملازمون لك بالليل والنهار.

﴿يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢]: هذا تحذيرٌ من الله جَلَّ وَعَلَا لنا في أننا نتحفظ من هؤلاء الملائكة الكرام، ونستحيي منهم ونوقرهم فلا يكتبون علينا شيئاً من القبيح قولاً أو فعلاً، فهذه الآية فيها إثبات أن أقوالنا محفوظة

مثل أعمالنا، وأنها تُكتب وتُسجَّل ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾
[ق:١٨]، ملكان:

واحد عن اليمين: يكتب الحسنات.

واحد عن الشمال: يكتب السيئات.

﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]: ملكان موكلان يكتبوا ما يصدر منك من خيرٍ أو شرٍ ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] ﴿وَرُسُلْنَا﴾ أي: الملائكة؛ لأن الرسل يكونون من الملائكة، ويكونون من البشر، فهؤلاء الرسل من الملائكة يرسلهم الله لحفظ أعمال بني آدم، وهذا من رحمته وعدله -سُبْحَانَهُ- أنه لا يضيع شيئاً من أعمال بني آدم، ولا ينقص منها شيئاً:

فإذا كانت حسنات، فهذا من فضل الله أنها تُحفظ له.

وإذا كانت سيئات، فهذا من عدل الله أنها تُحفظ عليه.

فعلى الإنسان أن يتحفظ من لسانه.

يقول بعض السلف: (لو أنكم تشترون الأقلام والقرطاس للحفظة لأمسكتهم عن كثيرٍ من كلامكم)، أي: لو أنك فقط تشتري لهم أوراقاً، وتشتري لهم أقلاماً من مالك، وتمسك عن الكلام؛ لئلا يضيع عليك مال كثير في شراء هذه الأشياء، فكيف تخاف على دنياك، ولا تخاف على آخرتك الباقية؟ فلا يتكلم المرء بكلام يبدد حسناته.



عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتٍ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّجَرُ

الكلام يكون مذموماً ويكون محموداً بحسب ما يشتمل عليه وما يدلُّ عليه.

والكلام المذموم:

إمّا أن يكون مذموماً لما يتضمّنه من الغيبة والنميمة، والسب والسخرية، وشهادة الزور، والكلام المنكر، فهو مذمومٌ ومحرمٌ لما يتضمّنه، وما يترتب عليه من الآثار.

وإمّا أن يكون مذموماً لصفته؛ كما يأتي في الأحاديث: الذي يتفهيق في كلامه، الذي ينافق بلسانه، فهذا مذمومٌ لصفة الكلام الذي يصدر عنه، وهذا سيّأتى - إن شاء الله -.

فعلى المسلم أن يزن كلامه قبل أن يتكلم، فإن كان في خيرٍ تكلم، وإن كان في شرٍّ أمسك، قبل أن يتكلم يفكر في الكلام هذا: هل هو خير أم شر؟ هل يترتب عليه خير، أو يترتب عليه شر؟ ثم إن كان طيباً نظر وتكلم، وإن كان غير طيبٍ أمسك عن الكلام.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

وفي حديث الإسراء: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى عَلَى جُحْرِ صَغِيرٍ يَخْرُجُ مِنْهُ ثَوْرٌ عَظِيمٌ، فَجَعَلَ الثَّوْرُ يُرِيدُ أَنْ يَرْجِعَ مِنْ حَيْثُ خَرَجَ فَلَا يَسْتَطِيعُ، فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا جَبْرَائِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ، ثُمَّ يَنْدُمُ عَلَيْهَا، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّهَا»^(١)؛ لأنه نطق بها صدرت، فإذا صدرت منك الكلمة السيئة لا تستطيع أن تستدركها.

لكن لو أنك قبل أن تتكلم فكرت فيها، لأمسكتها، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٢)، إن قال خيرا يغنم، وإن سكت عن الشر يسلم، هذا هو المطلوب من الإنسان.

وفي هذا الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمّهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتٍ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»؛ هذه كبائر.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عُقُوقَ الْأُمّهَاتِ»: كبيرة، وكذلك الآباء، لكن الأم أكد حقًا من الأب، وإلا حتى عقوق الأب كبيرة من كبائر الذنوب، ليس هذا خاصًا بالأمهات، لكن ذكرها لعظم حقها؛ لما تقاسيه أكثر من الوالد مع الولد من التربية والحمل والرضاعة والتنظيف، وغير ذلك.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَوَادَ الْبَنَاتِ»: كانوا في الجاهلية يكرهون البنات، يقولون: لأنها لا تحمي الزمار، ولا تتركب الخيل، ولا تحمي القبيلة، وإنما هي

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٧/٦)، والطبري في تفسيره (١٤/٤٢٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه (ص ١٢٤).

تكون عارًا على القبيلة، فهم كانوا -والعياذ بالله- يتخلصون منها وذلك بأن يدفنها وهي حية، فتموت تحت التراب، بزعمهم أنه يسلم من شرها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ [التكوير: ٨-٩]، يوم القيامة يسألهم الله عَزَّجَلَّ عن هذه المسكينة التي دُفنت وهي حية بأي ذنب تعمل هذا معها؟ أهي لها ذنب؟ ليس لها ذنب.

ثم إن الله خلق البنات لحكمة لا يصلح الرجال بدون نساء، ولا يصلح النساء بدون رجال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ومن رحمته ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فالبنت فيها كثير، ولكن كونها تفسد فهذا صنيعكم أنتم، وليس صنيعها هي، أنتم الذين خربتموها، أنتم الذين لم تربئوها، أنتم الذين لم تحافظوا عليها -سوء التربية- وإلا لو حافظتم على بناتكم لما حصل منهن فساد ولا حصل.

والآن ينادون بتحرير المرأة وإطلاق المرأة؛ تأثرًا بقول الكفار، يريدون من المرأة المسلمة أن تكون مثل الكافرة، ينادون بهذا -قبحهم الله-، فسبب فساد البنات هو من قبل الآباء والأمهات، لو أنهم ربَّوا البنت التربية على الحياء وعلى العفة وعلى الكرامة وصانوها لأصبحت عضوًا صالحًا في المجتمع، ولا يصلح المجتمع بدونه.

فكانوا يعملون هذا العمل، وبعضهم لا يعمل هذا العمل، لكن يكرهها، ويهينها، يبقِيها حية لكن مع الهوان، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ

ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَنْزَرِي مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾، أي: يبقئها حية، ويهينها.

﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، أي: يدفنها، وهذه المؤودة.

هذا كان في الجاهلية، والله جَلَّ وَعَلَا يبغض هذا، والكراهية كراهية تحریم، يبغضه وهو من كبائر الذنوب، قتل الأولاد الذين هم أرحام وأقرب الأرحام وهم فروع أشد.

قتل النفس من حيث هو من غير حق جريمة كبرى، لكن إذا كان قتل الأقارب فهو أشد، لا سيما قتل الأولاد، كانوا يقتلون الذكور -أيضاً- لأحد أمرين:

إمّا أنهم يخشون الفقر من كثرة الأولاد، فيقتلون الذكور مثلما ينادون الآن أنه يحصل انفجار سكاني، وأنَّ الناس سيكثرون، وتشح الأرزاق، حددوا النسل كأنهم هم الذين يرزقون المخلوقين، الله إذا خلق نفساً قدر لها رزقها، وكثرة النسل يكثر معه الإنتاج، ويكثر العمال، ويكثر المنتجون والمخترعون عكس ما يقولون، فالأولاد فيهم خير لوالديهم وللمجتمع، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَزَوَّجُوا انْوُدُّوا انْوُدُّوا، فَإِنِّي مُكَاثِّرُ الْأَنْبِيَاءِ بِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، كثرة النسل مطلوبة، والرزق على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، وأحمد (٦٣/٢٠)، والبزار (٩٥/١٣)، وابن حبان (٣٣٨/٩)، والطبراني في الأوسط (٢٠٧/٥)، وفي مسند الشاميين (٤١٣/١)، والحاكم (١٧٦/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٦١/٣)، والبيهقي في الصغير (١٠/٣)، والكبرى (١٣١/٧)، وفي شعب الإيمان (٣٤٠/٧)، وفي معرفة السنن والآثار (١٩/١٠)، والبغوي في شرح السنة (١٦/٩).

هذا سوء ظنٌّ بالله عزَّ وجلَّ؛ ﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ﴾ [النساء: ٣١]، الرزق بيد الله سبحانه وتعالى، ليس بأيديكم، والله لا يخلق نفساً إلا ويخلق لها رزقها، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، هذا من أفعال الجاهلية، ويريد أن يحبيه كفار اليوم ومنافقو اليوم، يحيون هذه الفكرة الخبيثة (تحديد النسل) هذه؛ تأثراً بأمر الجاهلية - ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْعَ وَهَاتِ»: أن الإنسان يأخذ ولا يعطي؛ جشع يأخذ من الناس ولا يعطيهم، لا يحسن ولا يتصدق ولا يُعين ولا يُقرض، وإنما همُّه جمع المال فقط، وتضخيم الأرصدة فقط، يأخذ بالربا بالقمار، بالميسر، بالرشوة، بالغش كل شيء، المهم أنه يجمع المال ولا يعطي أحداً، ولا ينفق في سبيل الله، جموعٌ ممنوع، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ (١١) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ (١٢) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]، الله يكره هذا ويبغضه.

الإنسان ينفق ويتصدق ويقرض ويوسع على الناس، هذا المطلوب، أما أنه يأخذ، ولا يعطي، فهذه صفة اليهود، اليهود هم الذين يجمعون المال، وتُغْلُ أيديهم عن الإنفاق منه، أبخل الناس اليهود، وأجشع الناس في حب المال اليهود، وماذا نفعهم المال؟ وماذا ضرَّ الذين ينفقون في سبيل الله؟ يكتسبون من وجوه طيبة، يتحرَّون الحلال، ويتركون الحرام، ماذا ضرَّهم؟ بل هؤلاء نالوا خير الدنيا والآخرة.

فالله يكره «مَنْعَ وَهَاتِ»: أن الإنسان يأخذ من الناس ولا يعطيهم، ويأخذ منهم - أيضاً - بغير طريق شرعي هذا أشد.

هذا محل الشاهد من الحديث: «وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ»، يعني: كثرة الكلام أن الإنسان ليس له شغل إلا جاره فلان وجاره فلان.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ»، لا يذكر الذي تكلم؛ قيل كذا، ذُكِرَ كذا، لا يَثْبُت ولا يَتَحَرَّى، أو أنه عرف القائل يقول: قال فلان، قَالَ فلان، فلا يكون شغل الإنسان «قِيلَ وَقَالَ»، يكون شغله بما ينفعه، والكلام بما ينفعه.

«قِيلَ وَقَالَ»: هذا محل الشاهد من الحديث، وأن الله كرهه، فيكون من الكبائر.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ»: هل المراد به سؤال المال، أم سؤال العلم؟ قالوا: إن المراد الأمران، فالإنسان لا يكثُر الأسئلة في أمور الدِّين وهو لا يحتاج إليها، إنما يسأل عما يحتاج إليه، ولا يُكثِر أسئلة التَّعَنُّتِ، أسئلة التَّنَطُّعِ، الأسئلة التي لا يحتاج إليها الناس، أو أنه يلزم منها حرج إذا بُيِّنَتْ يلزم منها حرج على الناس.

الإنسان لا يسأل إلا قدر الحاجة في مسائل العلم، يسأل عما أشكل عليه من الدروس، من المحاضرات، مما يسمع، يسأل عما أشكل عليه ليتَّضح له، ويسأل عما وقع له من الحوادث، أنه حصل منه كذا، فماذا يجب عليه؟ مسائل العلم يسأل قدر الحاجة، ولا يتكلَّف الأسئلة التي لا فائدة منها، وهي تدل على التَّنَطُّعِ وعلى التعاضم حتى يظهر أنك فاهم، أو على احتقار المسؤول؛ لأن بعض الطلاب وبعض الثائرين يحتقرون العالم يريدون تعجيزه يسألونه لكي

يعجزوه، هذا أمرٌ لا يجوز، الله يكره هذا، فيسأل على قدر الحاجة، ويسأل الأسئلة التي يحتاجها في دينه ودنياه.

والله عاب على الذين يسألون أسئلة ليسوا بحاجة إليها، ولا الناس بحاجة إليها، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، يسألون عن الهلال لماذا يبدأ صغيراً، ثم يكبر، ثم يعود للنقص حتى يصغر، لماذا؟ يسألون هذا.

الله أجابهم بغير ما سألوا، قَالَ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، أفاتهم بمنافع الأهلة، ولم يفهم عن حقيقة الهلال لماذا يكبر؟ ولماذا يصغر؟ يعني: ليس لهم فائدة من صغر الهلال وكبره.

فاسأل تقول: ما فائدة الهلال؟

نعم، فائدته أن الله جعله مواقيت يعرفون بها الآجال، ويعرفون بها مواقيت العبادات من الحج والعمرة والصلوات، هذه فائدتها. أمّا حقيقتها: فلا فائدة لنا من ذلك.

وقال: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ما فائدتهم من الساعة؟ الساعة ستقوم ولا بد، والله أخبر بهذا وأنها قريبة، فالواجب أنك تستعد بالعمل الصالح، أمّا أنك تسأل عن وقت قيام الساعة، فما فائدتك من وقت قيام الساعة؟

ثم أنت لا تدرك الساعة ربما تموت قبل الساعة، فأنت تستعد للموت وتستعد لقيام الساعة، أمّا إنك تسأل: متى تقوم الساعة؟ فهذا لا فائدة لك

منه، ولذلك الله لم يجبههم ولم يُطلع عليه أحدًا، لا مَلَكًا مَقْرَبًا ولا نَبِيًّا مَرْسَلًا، لا يعلمه إلا الله.

لو كان للعباد حاجة إلى معرفة وقت قيام الساعة لبيّنه الله لهم، فلمّا أنه جَلَّ وَعَلَا استأثر بعلمه دَلٌّ على أَنَّ الناس ليس لهم فائدة من السؤال عنها، فيسألون أسئلة لا فائدة منها، هذا من كثرة السؤال.

وكذلك السؤال في المال: أن الإنسان يسأل الناس أموالهم، وهو لا يحتاج، السؤال لا يجوز إلا للضرورة، يحتاج الإنسان؛ كما في حديث قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهَلَالِيِّ قَالَ: «تَحَمَّلْتُ حِمَالَةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «اقُمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةِ رَجُلٍ، تَحْمَلُ حِمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُنْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاَحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُخْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُخْتًا»^(١).

فالمسألة لا تحل إلا لثلاثة:

الأول: إمّا إنسانٍ حَمَلَ حِمَالَةً لِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ: فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا وَلَا يَسُدُّهَا مِنْ مَالِهِ؛ لِأَنَّهُ مُصْلِحٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَسَاعِدَ مِنَ الزَّكَاةِ،

وهو من الغارمين لغيرهم، ولو كان غنياً يتحمل هو الغرامة؛ لأن هذا باب معروف فيساعد؛ لأنه يسعى في خير.

الثاني: إنسان غني ثم افتقر: أصابته جائحة، أصابه شيء أتلّف ماله، فحلّت له المسألة حتى يصيب ما يسدّد حياته وعيشته، أصابته جائحة، صرف ماله، فاحتاج إلى السؤال، يُباح له أن يسأل: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، فإذا المحروم الذي تلف ماله وأصابته جائحة فحُرم منه، فيحق له السؤال حتى يصيب من عيشه ثم يمسك.

والثالث: إنسانٌ معسر ليس عنده شيء: معروف أنه فقير، هذا يسأل قدر ما يسد حاجته، ويمسك عن السؤال، أمّا السؤال تكثرًا، وهو ليس عليه حاجة، فهذا محرّم، يسأل جمرًا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلَيْسَتْ قِلٌّ أَوْ لَيْسَتْ كَثْرٌ»^(١).

بل إنَّ الإنسان لو كان محتاجًا -أيضًا- كونه يكتسب ويتعفف، ويحمل الخطب على رأسه، ويحترف أحسن له من أن يسأل الناس، وهو يحتطب ويحمل فوق رأسه، يحمل ويأخذ أجره أحسن له من السؤال.

لكن إذا كان لا يقدر، ولا كان عنده طريقة للاكتساب، أو أنه مريض أو ضعيف، ولا يقدر يكتسب، يحلُّ له السؤال بقدر الحاجة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وِإِضَاعَةُ الْمَالِ»: المال نعمة من الله، فلا يجوز إضاعته في الإسراف والتبذير أو الإهمال أن الإنسان لا يبالي به يتلف أو لا يتلف،

(١) أخرجه مسلم (١٠٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ليس عليه، لا. يحفظ ماله ويهتم به ولا يضيعه؛ لأنه مسؤولٌ عن هذا المال، والله أعطاك هذا المال ابتلاءً وامتحاناً؛ من أجل أن تُغني نفسك، وتُغني المحتاجين، فإذا ضيعته فإنك أهدرتَ نعمةً عظيمة، وعرضت نفسك للفقر والحاجة، وضيعتَ من تمون، فالمال نعمةٌ عظيمة يجب المحافظة عليها، ولذلك تحفظ الدكاكين بالأغلاق بالأقفال بالحرَّاس، هذا شيء طيب أنه لا يتساهل في الأموال ويضيعها؛ لأن المال نعمة من الله، والناس بحاجة إليه ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]؛ لأنهم يضيعونها، لا تعطي مالك إلا من تثق به ممن يُحسن التصرف، فهذا من حفظ المال، هذا يقول: المال مالي، وأنا حرٌّ فيه، لا، أنت لست بحرّ، المال مال الله عزَّ وجلَّ، وأنت مستخلفٌ فيه ومبتلى به، فيجب عليك أن تحافظ عليه، والمال ليس لك، المال سينتقل منك إلى غيرك، وينتقل من غيرك إلى غيرك، الله استخلفك فيه، وسيستخلف غيرك من بعدك، فالمال ليس لك خاصة، المال للناس جميعاً؛ فلا تسرفه أو تهمله أو تتركه يحترق، تتركه يغرق، تتركه يُسرق، فهذا لا يجوز، التبذير والإسراف لا يجوز، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فالإسراف نظير البخل، البخل محرم، والإسراف محرم، والاعتدال هو المطلوب، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، أي: بالإمساك والبخل، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فتسرف.

كن معتدلاً في الإمساك، وفي الإنفاق، لا تنفق فقط، ولا تبذر فقط، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴿[الإسراء: ٢٦-٢٧]،

فلا تقل: هذا مالي، أتصرّف فيه، أفعل ما أريد، وهذا مالي، وأنا حر، أريد أعطي نفسي ما أريد، أريد أسافر للخارج، أريد أن أعمل كل ما تشتهي نفسي....، يا أخي، هذا لا يجوز لك، أنت غاشٌّ لنفسك في هذا، والمال ما هو لك، المال عارية عندك، أنت مستخلفٌ فيه، والله ينظر إلى تصرفك: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَصِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ»^(١)، فأنت أعطيت هذا المال ابتلاءً وامتحاناً، فإن أحسنت فيه استفدت منه عاجلاً وآجلاً، وإن أسأت فيه خسرت عاجلاً وآجلاً.

فالشاهد من هذا الحديث: «وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ»، هذا الذي يتعلّق بالباب، وهو كثرة الكلام.



(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ وَالتُّشَدِّقُونَ وَالتَّمْتَفِيهِقُونَ». حَسَنُهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

الشَّيْخُ

هذا الحديث حثنا على حُسن الخُلُق، والخُلُق هو التعامل الحسن مع الناس بالقول وبالفعل، يتعامل مع الناس تعاملًا حسنًا بالقول وبالفعل، هذا هو الخُلُق وهو ما يَتَّصف به الإنسان من التعامل الطيِّب مع الناس، فيُحسن الإنسان خُلُقَه وتعامله مع الناس، وهذا إذا وُفِّق لهذا يكون أقرب الناس مجلسًا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة، فيه دليل على فضل حُسن الخُلُق، وهذه صفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القم: ٤].

فالإنسان ينبغي أن يكون على خُلُقٍ حسن مع نفسه ومع أقاربه ومع الناس، ويُحسِّن خُلُقَه مع الناس، ويكون قريبًا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلسًا يوم القيامة؛ إظهارًا لكرامته يوم القيامة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ وَالتُّشَدِّقُونَ وَالتَّمْتَفِيهِقُونَ»: هذا على العكس من صاحب الخُلُق الحسن يكون بعيدًا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة، ويبغضه الرسول

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وقال: (وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الثَّرَار الذي يكثر الثَّرَثة - كثرة الكلام - مثلما سبق في الحديث: «وَكَرِهَ تَكْمُ قِيلَ وَقَالَ»^(١)، كثرة الكلام هذه ثَرَثة.

فالإنسان يتكلم وكل مجلس يتكلم به بمناسبة وبدون مناسبة هذه ثَرَثة، حتى الناس يملُّونه -أيضاً- ويكرهونه، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكرهه، ويكون بعيداً من مجلس الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة، فالإنسان يحفظ لسانه من كثرة الكلام.

(الْمُتَشَدِّقُونَ)، المتشَدِّق الذي يتفصح بالكلام، الإنسان يتواضع في كلامه ولو كان يجيد العربية، ويعرف اللغات العربية، ووحشي اللغة لا يذهب يأتي بالألفاظ الغريبة، ويظهر فصاحته، لا، بل يتكلم كلاماً يفهمه الناس، ويفهمه الحاضرون، كلام تواضع، أما الكلام بالبلاغة، والإغراق في اللفظ، هذا بغيض إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه يدل على الكِبَر والإعجاب بالنفس، والإنسان يتكلم بكلام قريب التناول يفهمه السامع ويخاطب العالم بما يليق بالعالم، ويخاطب العامي بما يليق بالعامي، وينزل الناس منزلتهم، هذا هو الذي يحبه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْمُتَشَدِّقُونَ): الذين يتقنعون في الكلام بدون حاجة إلى ذلك، وقد قَالَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟»^(٢)، تريد ما يريد الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حَدِّثُ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ في الموعظة، وفي الدرس، وفي أحاديث المجالس.

(١) سبق تخريجه (ص ١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٧).

إذا أصبح عندك فصاحة وبلاغة، فلا تظهرها إلا في المواطن المناسبة،
أمّا ناس ليس لهم علاقة بهذه الأمور فأنت تخاطبهم بما يعرفون، تنزل معهم
بلغتهم وبفهمهم، ولا تظهر نفسك بالعظمة وإظهار البلاغة والفصاحة عند
الناس.

(الْمُتَفَيِّهُونَ)، المتفهيق هو: المتكبر المتباطئ في مشيته الذي يُظهر التبخر
والإعجاب، وقيل: المتكبر في الكلام -أيضاً-، مثل الثرثار والمتشدّد والمتفهيق
كله من الصفات المذمومة في الكلام، كلها تدل على أن الإنسان لا يتكلّف في
الخطاب -مخاطبة الناس-، وإنما يخاطبهم بما يفهمونه ولا يستصعبونه، وهذا
من التواضع.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (حَسَنُ التَّرْمِذِيّ)، حسنه الإمام الحافظ التَّرمِذِيّ رَحِمَهُ اللهُ،
والحسن: هو ما دون الصحيح، بعض العلماء يلحقه بالصحيح.



بَابُ: التَّشْدِيقِ وَتَكْلُفِ الْفَصَاحَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

الشَّرْحُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: التَّشْدِيقِ وَتَكْلُفِ الْفَصَاحَةِ)، من آفات اللسان وكبائر اللسان: التشديق في الكلام وإظهار الفصاحة، الإنسان يتكلم بما يعرفه الناس، خاطبوا الناس بما يعرفون؛ كما قَالَ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟»^(١)؛ فالإنسان يخاطب العوام بما يليق بهم، ويخاطب العلماء بما يليق بهم، ويخاطب الملوك وولاة الأمور بما يليق بهم - كل مقام له مقال -، ويخاطب الشباب والأطفال بما يليق بهم، ويستعمل اللغة الدارجة التي لا مشقة فيها عليهم؛ حتى يفهموا كلامه، وحتى يتواضع هو في كلامه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤])، هذا من صفة المنافقين أنهم إذا تكلموا تكلفوا في الكلام وإظهار الفصاحة، ولهم مظاهر في أجسامهم، ولكن قلوبهم - والعياذ بالله - فاسدة، فليست العبرة بالمظاهر، إنما العبرة بما في القلوب، والإنسان يتواضع حتى في كلامه مع الناس، يكلمهم بما يعرفون وبما يليق بهم؛

(١) سبق تخريجه (ص ١٥٠).

«حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟»، والبلاغة -كما يقولون-: (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)^(١)، هذه هي البلاغة، ليست البلاغة بالتفاسيح، البلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فتخاطب الناس بحسب أفهامهم، وعلى حسب منازلهم، الصبيان لهم خطاب، والكبار لهم خطاب، والعلماء لهم خطاب، ولالة الأمور والملوك لهم خطاب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤])، هذا في المنافقين يقول الله جَلَّ وَعَلَا في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ لأنهم ذوو أجسام نظيرة ومظاهر حسنة، ويعتنون بمظاهرهم، وعندهم -أيضاً- فصاحة، هذه صفة ثانية، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، يعني: لفصاحتهم، عندهم حسن في المظهر، وحسنٌ في الكلام، لكن قلوبهم -والعياذ بالله- كافرة، قلوبهم خبيثة، لاتغني المظاهر مع خبث البواطن، المنافقون لن ينفعهم حُسن المظهر وحُسن الكلام أو إحسان الكلام، لا لم ينفعهم هذا لما كانت قلوبهم خبيثة، فالله ذمهم على هذا.

فإذا: الفصاحة أحياناً تكون مذمومة إذا استعملت للباطل تكون مذمومة، وهي صفة المنافقين، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ اللَّسَانِ»^(٢)، يخدع الناس بكلامه وبشبهه وفصاحته.

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٧٧)، والتحبير شرح التحرير (٨/ ٤١٨١)، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (١/ ٤٨١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٩) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

الشَّجُّ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمَةٌ»^(٢)، فالشُّعْرُ فيه حكمة، ولذلك أشعار العرب الأصيلية فيها منافع، وفيها جمال؛ لما فيها من وصف الشجاعة، ووصف الكرم، ومن حسن الجوار، وغير ذلك، فالشُّعْرُ يذكر الأشياء المستحسنة، ويذكر الأشياء المذمومة من الهجاء ومن المجون، لكن فيه حكمة، فحسنة حسن، وقبيحة قبيح^(٣)، والمقصود من الشعر الشعر القديم الفصيح، ولذلك قراءة أشعار العرب الأصيلية والقديمة فيها خير: أول شيء فيها اللغة العربية الفصيحة يتعلم اللغة العربية نفيها حكم؛ مثل: شعر المتنبي، مثل: شعر أبي تمام، مثل: شعر زهير بن أبي سلمى، حكم عظيمة يستفيد منها الإنسان لغةً، ويستفيد منها سلوكًا، ويستفيد منها فصاحةً، فالشُّعْرُ فيه حكمة؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس مذمومًا كله، ولا ممدوحًا كله، منه ما هو مذموم، ومنه ما هو ممدوح.

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٦، ٥٧٦٧) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: «جَاءَ رَجُلَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَحَطَبَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا».

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٥).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ٤٥٥): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سِئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشُّعْرِ فَقَالَ: «هُوَ كَلَامٌ حَسَنٌ حَسَنٌ وَقَبِيحٌ قَبِيحٌ».

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا»، والبيان هو الكلام، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٢) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، فالبيان هو الكلام الذي يبين ما عند الإنسان، ويطلب به حاجاته من الناس، هذا هو البلاغة، ليست البلاغة بالتفاسيح، والتشديق بالكلام، البلاغة: (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)، هذه هي البلاغة، فينبغي للإنسان أن يفهم هذا، يتواضع في كلامه، يتواضع في تعامله مع الناس، يعامل كل واحد بما يليق به.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا»، البيان هو الكلام، والسحر هنا يراد به أن بعض الكلام يعمل ما يعمل السحر من قلب الحق باطلاً والباطل حقاً، فيقلب الحق باطلاً، ويقلب الباطل حقاً بكلامه، والله وصف المنافقين بأن مظاهرهم جميلة وكلامهم فصيح، ولكن ليس في قلوبهم إيمان، وهم في الدرك الأسفل من النار: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُمْسَخٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَاحِبَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤَفِّكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، من جملها ومظاهرها، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا﴾، يعني: يتكلموا ﴿تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾، يكون كلامهم فيه فصاحة وفيه بلاغة، فهذا لا يدل على فضلهم، إنما التواضع هو صفة المؤمنين، والتكبر صفة المنافقين، وهذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين كان مظهره جميلاً، وكان كلامه فصيحاً، ولكنه في الدرك الأسفل من النار؛ لأنه رأس المنافقين - والعياذ بالله -^(١).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/٦٥٥)، وزاد المسير (٤/٢٨٦-٢٨٧)، والقرطبي (١٨/١٢٤)، وابن كثير (٨/١٢٦).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ يَنْغُضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرُّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقْرَةُ». حَسَنُهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

الشَّرْحُ

الله جَلَّ وَعَلَا يَغْضُ، يوصف بأنه يغضب ويحب ويكره، وهذه من صفات أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله جَلَّ وَعَلَا «يَنْغُضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرُّجَالِ»، يعني: الذي يتكلف البلاغة، وإلا البليغ الذي من طبيعته هذا لا بأس، لكن الذي يتكلف البلاغة والفصاحة، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْغُضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرُّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقْرَةُ»، فالبقرة إذا أرادت أن تأكل الشجر تلفه بلسانها، تلف الشجرة بلسانها، والعلف تلفه بلسانها، ليست مثل البعير ومثل الحمار يتناوله بشفتيه، لا، البقرة تأكل بلسانها، والمنافق كذلك «يَتَخَلَّلُ بِلسَانِهِ»، يعني: يأكل بلسانه وفصاحته.

وهذا الكلام ليس على إطلاقه، يعني: لا يشمل كل بليغ، إنما المقصود الذي يتخذ من لسانه سبباً للكسب، وأكل أموال الناس، فيمدح من لا يستحق، وينافق ويداهن وكل هذا من أجل التكسب فقط، لا من أجل إحقاق حق، وإبطال باطل.



(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، وأحمد (١٦٥/٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٠/٥)، والبزار في مسنده (٤٢٢/٦)، والطبراني في الأوسط (٢٠٥/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥١/٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِي بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوْ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١).

الشَّرْحُ

وهذا مثل الأحاديث السابقة أن الإنسان إذا أعطاه الله فصاحة وبلاغة، أو هو تعلّم الفصاحة والبلاغة من أجل أن يصرف الناس إليه، ويستغل فصاحته وبلاغته لأجل أن يخدع الناس فهذا في يوم القيامة لا يقبل الله منه صَرْفًا وَلَا عَدْلًا.

قيل: الصرف: الفريضة، والعدل: النافلة؛ لا يقبل الله منه فريضةً ولا نافلة، هذا وعيد شديد.

وقيل: المراد بالعدل: الفدية أنه يوم القيامة لا يقبل الله منه فدية إذا أراد أن يفدي نفسه، ولو فدى نفسه بالدنيا كلها لا يقبل منه^(٢).

فالحاصل: أن هذا فيه ذمٌّ أن الإنسان يستعمل لسانه لأجل استعطاف الناس، والتكسب بلسانه، يمدح هذا، ويذم هذا من أجل العطاء، ويتخذ لسانه وسيلة، هذا هو المذموم؛ لأنه ينافق، ولأنه قد يمدح من لا يستحق

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٢/٤).

(٢) انظر: المعلم بفوائد مسلم (١١٨/٢)، وكشف المشكل من حديث الصحيحين (١٩٥/١)، وشرح النووي على مسلم (١٤١/٩)، والمفاتيح شرح المصابيح (١٦٨/٥).

المدح، ويدمُّ من لا يستحق الذم، فيجني على الناس بلسانه، هذا الإنسان لا يمدح إلا بمقدار، ولا يذم إلا بمقدار.

أمَّا أنه يتخذ لسانه وسيلة لكسب دنياه -ولو على حساب آخرته-، فهذا هو المذموم.

فهذا وعيد شديد على الذي يتعلم الفصاحة والبلاغة من أجل أن يؤثر على الناس ويتعاضم عليهم، ولأجل أن يمدح، فالله يبغضه جَلَّ وَعَلَا، يبغضه ويكرهه، ويجب المتواضعين، ويجب طيب الكلام، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، يجب طيب الكلام، ويكره سيئ الكلام، والفحش والتفحش.



وَلَا تُحَدِّثُ عَنْ مُعَاوِيَةَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ يُشَقُّونَ الْكَلَامَ
تَشْقِيقَ الشُّعْرِ»^(١).

الشَّيْخُ

كما سبق، وهذا فيه لعن، واللعن يدل على أنه كبيرة، والكتاب (كتاب
الكبائر)، فمن الكبائر: الذين يشقون الكلام؛ لأجل استمالة الناس، يتفننون
فيه من أجل استمالة الناس، والتأثير على الناس في صرفهم إلى هواه وإلى
رغبته، أو لإثارة الفتنة.

وقد جاء في الحديث: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِبَيْ عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ
بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا
مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ،
أَفَلَا يَعْقِلُونَ»^(٢).

خطباء الفتنة الذين يحرّضون الناس على الفتن وعلى الثورات،
وعلى التحريش بين الناس، هؤلاء هم الذين يفعل بهم هذا الفعل الشنيع
-والعياذ بالله-.

(١) أخرجه أحمد (١٠٨/٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤/١٩)، والطبراني في الأوسط (١٣١/١)، وابن حبان (٢٤٩/١)،
والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٠/٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣٨٦/٢)، والبزار
(٦/١٧)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢٨٩/٢)، وابن أبي حاتم (١٠٠/٢)، من حديث
أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله في البخاري (٣٥٧٠، ٤٩٦٤، ٥٦١٠، ٦٥٨٠، ٦٥٨١، ٦٥٨٢،
٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢، ٤٠٠، ٢٣٠٣، ٢٣٠٤)، في قصة الإسراء والمعراج.

فالإنسان يتحفّظ من لسانه غاية التحفّظ من جميع الوجوه، ويعلم أن هذا اللسان سلاح ذو حدين:

فإن استعمله في الخير: أفاد واستفاد.

وإن استعمله في الشر: جنى على نفسه، وعلى غيره.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ ويعني: دعا عليهم باللعنة، واللعنة هي: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ^(١)، ولا تكون إلا على كبيرة من كبائر الذنوب، فلعن الذين يتشدقون بالكلام، ويتكلفون الكلام والفصاحة، يترفعون بذلك على الناس.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الَّذِينَ يُشَقِّقُونَ الْكَلَامَ تَشْقِيقَ الشَّعْرِ»، يعني: يتكلفون الفصاحة في كلامهم، ولا داعي إلى هذا، لا داعي إلى التكلف في الكلام، تواضع في كلامك، لا تتكلف الفصاحة والبلاغة، الله يكره هذا، يكره البليغ الذي يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً بكلامه، يقول الشاعر ^(٢):

في زخرفِ القولِ تزيينٌ لباطله والحقُّ قد يعتريه بعضُ تغييرِ
تقولُ هذا مجاجُ النحلِ تمدحه وإن تعبَ قلتَ ذا قيءِ الزُّبابيرِ

(تقولُ هذا مجاجُ النحلِ تمدحه)، يعني: العسل يسميه مجاج النحل، هذا

مدح.

(١) سبق تعريف اللعن (ص ١٠٦).

(٢) نظم ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج أبو الحسن، الشاعر المشهور، في ديوانه (ص ٢٢٦٩). وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة (ص ٢٢٥)، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح الموصلي (١/ ٣٧٩).

(وإن تعبَ قلتَ ذا قِيءُ الزَّنَابِيرِ)، يعني: قِيء الذباب؛ لأن النحل على صفة الذباب، وهو يتقيأ العسل، يتقيأه، يمصه من الزهر، ثم يتقيأه في المنحل، فهو قِيء الزنابير، يعني: قِيء الذباب.



بَابُ: شِدَّةِ الْجِدَالِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَخْصَصَ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: شِدَّةِ الْجِدَالِ)، من آفات الكلام: شدة الجدل، وهذه من كبائر الذنوب، ولذلك أورد المؤلف هذا الباب في كتاب «الكبائر»، فشدة الجدل من كبائر الذنوب؛ لِمَا يترتب عليها من آثار سيئة.

أصل الجدل: إذا كان لبيان حقٍّ أو رد باطل أو كشف شبهة فهو مطلوب، قال تعالى: ﴿وَحَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فالجدال إذا كان بالتي هي أحسن، فهو مطلوب؛ لِمَا يترتب عليه من بيان الحق، ورد الشبهات.

ثم إذا تجاوز هذا إلى شدة، فهذا يدل على الهوى، وأن صاحبه لا يريد الحق، فلذلك يشتد جدله لأجل رد الحق، ولأجل أن يغلب ولو بالباطل. الإنسان لا يتشدد في الجدل لأجل أن يغلب على خصمه، ما يتشدد في الجدل، هذا يذمه الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَخْصَصَ﴾، من اللدد، وهو يعني اللدد المذموم.

﴿قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]: قوم مذمومون.

وهذا كما في هذه الآية التي ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ طرفاً منها، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى

مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٦﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا
وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ
أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿البقرة: ٢٠٤-٢٠٦﴾،
فدلَّ على أن شدة الجدل من كبائر الذنوب؛ لأنها تدل على التكبر وعدم إرادة
الحق، والانتصار للباطل، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾، أي: شديد اللدد، والدد
هو: الخصومة، ولهذا قال: ﴿لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾
[مريم: ٩٧]، شديد اللدد، هؤلاء يندرون أن يتركوا هذا الشيء.

فاللدد في الخصومة هذا منهيٌّ عنه، وهو من آفات الكلام، ومن كبائر
الذنوب.



عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَذَى الْخَصِمُ»^(١).

الشَّيْخُ

قال رحمه الله: (عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا)، أي: إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس هو من كلامها، بل من كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَذَى الْخَصِمُ».

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ»، «إِنْ»: هذا تأكيد.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَذَى الْخَصِمُ»، الله جَلَّ وَعَلَا يوصف بأنه يحب ويبغض ويكره؛ يحب المتقين والمحسنين، ويبغض الكافرين والمنافقين والفُسَّاق، فمن الناس من يبغضه الله بغضًا خالصًا وهو الكافر والمنافق، ومن الناس من يبغضه الله على ما فيه من الشر، ويحبه على ما فيه من الخير، وهو المؤمن الذي يكون عنده شيء من المعاصي.

أما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ» ليس هذا خاصًا بالرجال، بل والنساء كذلك، لكن ذُكر الرجال من باب التغليب.

«أبغضهم»، أي: أشدهم بغضًا عند الله.

«الْأَذَى الْخَصِمُ»: هذا مثل ما جاء في الآية: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾

[البقرة: ٢٠٤]، الذي عنده لدُّ في الخصومة، و«الْخَصِمُ» يعني: كثير الخصومة،

يخاصم بالباطل، قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

فرح المشركون من أجل أن يثيروا حول هذه الآية شكًا، فقالوا: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هل يدخل النار؟ هل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يدخل النار وهو نبي الله؟ الملائكة عُبِدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ هل يدخلون النار؟ ففرحوا بذلك يريدون به الطعن على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى القرآن، فأنزل الله تعالى بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢]، أي: عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَنْ عُبِدَ وهو غير راضٍ، وهو ينهى عن ذلك، أَمَّا مَنْ عُبِدَ وهو راضٍ بذلك فهذا هو الذي تعنيه الآية أنه يكون يوم القيامة مع من عُبِدَ في جهنم^(١).

أَمَّا الذي يُعْبَد وهو ينكر هذا ويكره هذا مثل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ينكر الشرك، وينكر على بني إسرائيل في حياته، وما عبده إلا بعد موته، كذلك نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينكر على المشركين، فلمَّا مات عبده بعض القبوريين، هل

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩٧/١٧)، والحاكم في المستدرک (٤١٦/٢)، والضياء في المختارة (٣٠٤/١٠) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: الْمَلَائِكَةُ وَعِيسَى وَعُزَيْرٌ يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُعْبَدُونَ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا، قَالَ: فَتَرَكْتُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] عِيسَى وَعُزَيْرٌ وَالْمَلَائِكَةُ». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

الرسول يشترك معه؛ لأنه عبد من دون الله؟ لا؛ لأنه ينكر هذا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، إنما الآية في من عبد وهو راضٍ، وهذا من رؤوس الطواغيت، من عبد وهو راضٍ هذا الذي يكون طاغوتًا، ويكون مع من عبده في جهنم.

وفي سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءِالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٨]، هم قالوا: إن عيسى يُعبد من دون الله، فإذا كان يريد يدخل النار مع آلهتنا، فهذا شيءٌ يعتبرون به على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨]، وإلا هم يعرفون أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَام لا يدخل النار؛ لأنه نبي الله، ينهى عن الشرك، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَؤُا سَرُوبِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، أنكر عليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يقرهم، وفي حياته لم يعبدوه، وإنما عبدوه بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المشركون يعرفون هذا، ولكن هذا من باب المغالطة والاعتراض، وهذا من اللدد في الخصومة، ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، الألد الخصم: هذا الذي يجادل بالباطل، وهذا خصم شديد الخصومة.

فدّل هذا الحديث مع الآية التي قبله على أنّ اللدد في الخصومة وشدة الجدل يكون من كبائر الذنوب.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ»، الله يبغض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبغضه يتفاوت، بغضه أشد من بعض.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ»، يعني: أشدهم بغضاً عند الله عَزَّجَلَّ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْأَلَدُ الْخَصِمُ» الذي يغلب الناس بحجته، وهو مبطل وليس على حق، وهذا يفتن له المحامون الآن، يتقون الله عَزَّجَلَّ، إنما ينوبون عن الخصوم ينوبون عنهم، ولكن لا يتغلبون بفصاحتهم وحججهم، هذا لا يجوز، يجادلون بالطريقة السليمة التي لا تكلف فيها والتي يحصل بها المقصود؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ: فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا»^(١) الذي يعرف أنه مبطل، لا يتباد ولا يطالب بالباطل، إن كان محقاً يطالب بحقه بطريقة سليمة، أما إن كان مبطلاً فإن عليه وعيد شديد يقطع له قطعة من النار، هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف بغيره؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر، لا يعلم الغيب، يقضي على نحو ما يسمع؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يقل أحد: هذا أنا آخذه من عند القاضي، هذا حاكم لي القاضي فيه، ما يكفي هذا، أنت تعرف أنك محق أو مبطل، إن كنت مبطلاً فتب إلى الله ودع أموال الناس، وإن كنت محقاً، فبالطريقة السليمة التي يتوصل

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بها إلى الحق، والخصومات يدخلها بلاء، والمحاماة بالذات، الله جَلَّ وَعَلَا يقول
 لنبیه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال
 تعالى: ﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءٌ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ
 اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩].

الإنسان يخاف الله عَزَّجَلَّ، ولا يستعمل فصاحته على الضعفاء الذين
 لا يحسنون الكلام، يستعمل فصاحته لأخذ حقوقهم، وأخذ أموالهم ويكون
 نائبا للخائنين المبطلين، المحامون عليهم وزر ثقيل عليهم أن يتقوا الله عَزَّجَلَّ
 ينصفوا، ولا يدخلوا على موكلهم مالا حراما، فإنهم مسؤولون عن هذا
 يوم القيامة، ﴿فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
 وَكِيلًا﴾.

لا بد من موقف أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَنَصَّرُ فِيهِ الْحَقُّ، ويبطل الباطل.



وَلِلَّتْرَمِذِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «كَفَى بِكَ إِثْمًا، أَلَّا تَزَالَ مُخَاصِمًا»^(١).

الشَّيْخُ

هو مثل الحديث الذي قبله مَرْفُوعًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس موقوفًا على الصحابي «كَفَى بِكَ إِثْمًا»، أي: يكفيك إثمًا «أَلَّا تَزَالَ مُخَاصِمًا»، يعني: كل وقت خصام وجدال، حياتك كلها جدال وخصام.

الإنسان ما يخاصم إلا عند الحاجة، ويكون خصامه للحق، ما يكون خصامه لأجل نصره باطل، فكون الإنسان يخاصم إذا احتاج إلى ذلك، لكن كل وقته الخصام والجدال، ويترك العمل وهمه الاعتراضات والتماس الشبهات، فهذا مأثومٌ إثمًا عظيمًا، كما يفعل بعض المتعاملين، همهم الاعتراضات والتشويش على الناس، وأنه دائمًا يحب أن يخالف الناس، ويظن أن الناس غارقون، هذا من هذا النوع، يعني: ما له شغل بالعمل، ولا همه العمل، همهم الاعتراضات، وتغليب الناس، هذا همهم، وهذا مما ينهى عنه.

«كَفَى بِكَ إِثْمًا»، يعني: يكفيك من شدة الإثم أن تكون دائمًا مخاصمًا، إنما الخصومة قدر الحاجة فقط، أما أنك تتخذ الخصومة حرفة تتأكل بها، فهذا عمل شنيع وشديد الإثم، إذا ابتليت بالخصومة، فجادل بالتي هي أحسن،

جادل بالحق، ولا تظهر فصاحتك وقوتك على إنسان ضعيف الحجة تتغلب عليه وهو محق، وأنت مبطل.

في زخرف القولِ تزيينٌ لباطلهِ والحقُّ قد يعتريه بعضُ تغييرٍ^(١)

يزخرف الحجج، يزخرف على أنه محامٍ وعلى أنه... لا، هذا ما يجوز.



(١) سبق عزوه (ص ١٦٠).

بَابُ: مَنْ هَابَهُ النَّاسُ خَوْفًا مِنْ لِسَانِهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُزِمَتْ﴾ [الهمزة: ١].

الشَّيْخُ

قال رحمه الله: (بَابُ: مَنْ هَابَهُ النَّاسُ خَوْفًا مِنْ لِسَانِهِ)، هذا الشرير الذي يتركه الناس ويدارونه خوفاً من لسانه؛ لأنه سيئ المنطق، ومشوه اللسان، فلو أن أحداً دخل معه في مكالمة لغلقت عليه، فالناس يتقونه من أجل هذا، من أجل اتقاء شر لسانه، سليط اللسان، الناس يتركونه من باب مداراة شره، والمداراة إذا كانت لدفع ضرر مشروعة، وأما المداهنة فهي حرام، والمداهنة هي: التنازل عن شيء من الحق، التنازل عن الحق من أجل إرضاء الناس^(١)، هذه مذمومة، وتسمى المداهنة، ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾ [الواقعة: ٨١]، تتنازلون عن شيء منه لإرضاء الناس؟ لا يجوز هذا، هذه مداهنة، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، نطيعهم لنرضيهم؟ لا. ﴿وَلِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ۖ﴾ (٧٣) ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤]، طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتنازل عن بعض ما أنزل الله عليه من أجل إرضائهم، ألا يعيب آهتهم، ولا ينهى عن الشرك،

(١) انظر مادة (دهن) في: العين (٢٧/٤)، والصحاح (٢١١٦/٥)، ومقاييس اللغة (٣٠٨/٢)، ولسان العرب (١٦٢/١٣).

ولا...، ودعونا نتعاش، وكلُّ على عقيدته - كما ينادى بها اليوم-، لا تبيينوا الشرك والنفاق والأشياء هذه، أنتم تنفرون الناس، وتقسمون الناس.

هذه مداھنة، نحن نبين ديننا ونوضحه، لكن لا نعتدي على الناس ونظلم الناس، أما ديننا فنحن لا نتنازل عن شيءٍ منه خوفاً من الناس، هذه هي المداھنة، فإذا جعلت دينك فداءً لدنياك هذه مداھنة، وإذا جعلت دُنياك فداءً لدينك، فهذه هي المداواة، افهموا الفرق بينهما.

المداواة مشروعة عند الحاجة إليها، وأما المداھنة فهي مُحرمَة، والفرق واضح؛ لأن المداواة لأجل المحافظة على الدين، وأما المداھنة فمن أجل ضياع شيءٍ من الدين؛ إرضاءً للناس، بينهما فرقٌ عظيم^(١).

الذي يتركه الناس ولا يكلمونه؛ اتقاء شره، هذا شرير، وهذا -والعياذ بالله- من المتفحشين الذين يقولون السباب والشتم والجهل على الناس، الناس يتركونه خوفاً من لسانه، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً﴾ [الهمزة: ١]، ﴿وَيَلِّ﴾: هذا وعيد؛ كلمة عذاب، وقيل: وادٍ في جهنم، لو سُيرت فيه جبال الدنيا، لذابت من شدة حره^(٢)، هذا الويل.

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٥٢٨-٥٢٩): (وَظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُدَارَاةَ هِيَ الْمُدَاهَنَةُ، فَغَلَطَ؛ لِأَنَّ الْمُدَارَاةَ مُنْدُوبٌ إِلَيْهَا، وَالْمُدَاهَنَةُ مُحَرَّمَةٌ، وَالْفَرْقُ: أَنَّ الْمُدَاهَنَةَ مِنَ الدَّهَانِ، وَهُوَ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَى الشَّيْءِ، وَيَسْتَرِبَاطُنُهُ، وَفَسَرَهَا الْعُلَمَاءُ بِأَنَّهَا مُعَاشَرَةُ الْفَاسِقِ، وَإِظْهَارُ الرِّضَا بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِ؛ وَالْمُدَارَاةُ هِيَ الرَّفْقُ بِالْجَاهِلِ فِي التَّعْلِيمِ، وَبِالْفَاسِقِ فِي النَّهْيِ عَنْ فِعْلِهِ وَتَرْكُ الْإِغْلَاطِ عَلَيْهِ؛ حَيْثُ لَا يَظْهَرُ مَا هُوَ فِيهِ وَالْإِنْكَارُ عَلَيْهِ بِلُطْفِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَلَا سِيَّامًا إِذَا اخْتِجَّ إِلَى تَأْلُفِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/ ١٦٨)، واللباب في علوم الكتاب (٢/ ٢٠٨).

﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾: كثير الهمز تنقصاً للناس، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢١) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿[المطففين ٢٩-٣٠]؛ تنقصاً للهار من المسلمين.

الغمز باليد وباللسان مد اللسان من باب الاستهزاء، وغمز العينين والإشارة بالعينين، هذا كله من الهمز تنقصاً للناس، الإنسان يحذر من هذه الأمور التي فيها تنقص للناس، وهذا تنقص بالفعل، الهمز تنقص بالفعل. والهمزة: كثير الهمز، واللمز يكون بالقول.

﴿لَمَزَةٍ﴾: كثير اللمز، أو أن يتكلم في الناس يتنقصهم، ويتلمس معابهم، هذا لَمَزَةٌ، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

حَثَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّدَقَةِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ، كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مَرَاءٍ، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعٍ هَذَا، فَتَزَلَّتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] الْآيَةَ» (١)، فهُمْ يَسْخَرُونَ، سَخَرُوا مِنَ الَّذِي أَحْضَرَ الْمَالَ الْكَثِيرَ، وَسَخَرُوا مِنَ الَّذِي أَحْضَرَ الْمَالَ الْقَلِيلَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ

(١) أخرجه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (٧٢) (١٠١٨).

الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحْدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿التوبة: ٧٩﴾، هذا هو اللمز: التنقص بالكلام، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، يعني: لا يلمز بعضكم بعضاً؛ لأن نفس أخيك مثل نفسك، فكما لا ترضى لنفسك اللمز، فكيف ترضاه لأخيك؟ المؤمنون نفسٌ واحدة، وجسدٌ واحد، مثل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضاً؛ لأن المؤمنين كالنفس الواحدة، نفس أخيك مثل نفسك، ما يهون عليك أنه يقتل، أنه يضرب، ما يهون عليك هذا؛ لأنه أخوك يؤلمك ما يؤلمه، «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» (١).

ما يجوز أن تسلم أخاك، ولا يسلمك، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ» (٢)، «وَلَا يُسْلِمُهُ»، يعني: ما يتركه يهان أو يعذب، وهو يقدر على إنقاذه، ما تسلم أخاك للأذى وللأعداء، وأنت تقدر على إنقاذه؛ لأنه مثلك، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، فأنت إذا لمزت أخاك،

(١) سبق تخريجه (ص ٩٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحَاسِدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِغْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا؛ وَالْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَحْدُثُهُ، وَلَا يَحْقِرُ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَهُنَا». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «بِحَسْبِ افِرٍّ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِزُّهُ».

فكأنها لمزت نفسك، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ
هُمَزَةٍ لُّمَزَةً﴾ [الهمزة: ١] ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٧٩]، هذا هو اللمز -والعياذ بالله-، وهو التنقص
بالكلام، وأما الهمز: فهو التنقص بالفعل والإشارات^(١).



(١) انظر: معجم الفروق اللغوية (١/٥٥٩)، ولسان العرب (٥/٤٠٦)، وتاج العروس
(٣٢١/١٥).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ، أَوْ دَعَاهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فَحْشِهِ» (١).

الشَّيْخُ

الناس عند الله يوم القيامة منازل، ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣] الناس درجات يوم القيامة عند الله، كل له منزلة بحسب عمله، وقد يرفع الله بعض المؤمنين درجات -تفضلاً منه وإحساناً- لا يبلغها عمله، ولكن يتفضل الله عليه بها.

فالناس منازل يوم القيامة عند الله، لكن شرهم منزلة وأبعدهم من الله من؟ الذي يتركه الناس؛ اتقاء شره، أو «اتِّقَاءَ فَحْشِهِ»، مثل: شر الناس من تركه الناس خوفاً من لسانه، سواء، فكون الناس يتركونه، يدارونه، المداراة مطلوبة من الأشرار تداريهم، لكن الأشرار أنفسهم آثمون، أما أنت فغير آثم؛ لأنك تريد السلامة، كالمدارة للإنسان الذي يحتاج إلى المداراة، هذه مأمورٌ بها شرعاً؛ لأنها لدفع ضرر، وأما المدارى فهو آثم، وهو من «تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ» شره، المسلم لا يكون شريراً، وإنما يكون خيراً في أقواله وأفعاله وسلوكه، هكذا يكون المؤمن.

بعض الناس يعتبر هذا من الرجولة، وأن الناس يهابونه، ما يدري أن هذا ذلة عند الله عَزَّجَلَّ، «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ،

وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ»^(١)،
 أما من تكبر، فإن الله يذله؛ كما في الحديث: «يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ
 فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَاةِ أَهْلِ النَّارِ، طِينَةَ
 الْخَبَالِ»^(٢)، وهم المتكبرون في الدنيا.



(١) سبق تخريجه (ص ٤٣).

(٢) سبق تخريجه (ص ٥٢).

بَابُ: الْبَدَاءِ وَالْفُحْشِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْبَدَاءِ وَالْفُحْشِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

(البداء): هو الكلام البذيء المؤذي للناس، فهذا ينقصه الله ويبغضه، الإنسان لا يكون بذيئاً، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ»^(١)، الإنسان ما يكون فيه بداءة، يؤذي الناس، ويتنقص الناس، ويكمل نفسه، لا يكون هكذا، فهذا يبغضه الله.

«وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ»: الفاحش هو كثير الفحش، والفحش هو القبح المتناهي، فالمسلم يكون هيناً لينا متواضعاً مع إخوانه^(٢).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢])، إذا: من صفات عباد الرحمن التي ذكرها

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٧)، وأحمد (٣٩٠ / ٦)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣١٢)، برقم (١١٦)، وابن حبان (٤٢١ / ١)، والحاكم (٥٧ / ١).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٥٢ / ٧) عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «حَرَّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيْئٍ لَيْسَ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ».

الله في آخر سورة الفرقان: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾: مشية المتواضع، وليست مشية المتكبر، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا [الإسراء: ٣٧-٣٨]، فالؤمن يمشي مشية المتواضع، لا مشية المتكبر، وليس معنى ذلك أنه يتمارض، لا، معنى ذلك أنه يمشي بتواضع مع إظهار القوة والشهامة، إنما الممنوع إظهار الكبر، أما أنه يمشي مشي القوي فهذا مطلوب، لا يتماوت ويقول: هذا من التواضع، هذا ما هو من التواضع، هذا من الذلة.

والمؤمن ينبغي أن يكون قوياً في دينه وعقله وجسمه؛ لأنه ينصر الإسلام بذلك.

إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾، ﴿يَشْهَدُونَ﴾ يعني: يحضرون، ﴿الزُّورَ﴾: هو أعياد المشركين، أعياد المشركين هذه زور؛ لأنها باطلة، والمشركون يقيمون أعياداً عيد المولد، عيد كذا، وعيد كذا، أعياد جاهلية، المسلمون ليس لهم إلا عيدان: عيد الفطر، وعيد الأضحى^(١)، وهما بعد أداء ركنين من أركان الإسلام، واحد بعد أداء الصيام الذي هو ركن من أركان الإسلام، والثاني بعد أداء ركن الحج الذي هو من أركان الإسلام، هذه أعياد المسلمين أعياد شرعية بعد أداء عبادات عظيمة.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، والنسائي (٢٨٤٢)، وأحمد (٦٠٥/٢٨)، وابن خزيمة (٢٩٢/٣)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢٩١/٣)، والحاكم في المستدرک (٦٠٠/١)، والبيهقي في الكبرى (٤٩١/٤)، وابن أبي شيبة (٣٤٦/٢) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهُنَّ أَيَّامٌ أَكَلِ وَشَرِبِ».

أما الأعياد المبتدعة والأعياد الجاهلية - عيد النيروز، والمهرجان، أعياد الفرس والروم - فهذه لا يشهدها المؤمن ولا يحضرها ولا يشجع عليها، ولا يرضى بها، ولا يهنئ أصحابها بمناسبتها، ولا يهدي إليهم، ولا يأكل من الطعام الذي يصنع فيها، ولا يأكل من الذبائح التي تذبح فيها؛ لأنها أعياد زور وأعياد جاهلية.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ﴾ يعني: لا يحضرون الزور، وهو أعياد الجاهلية، المسلم يتجنبها فهو ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

إذا أحد جهل عليهم فهم يترفعون، ولا يردون عليه بالمثل، وإنما يردون عليه بكلام يسلمون ﴿خَاطِبَهُمُ الْجَنُّهُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، يقولون سلامًا يسلمون به، ويسلم دينهم، فلا ترد عليه بمثل كلامه، بل أن ترفع عن ذلك بإيمانك، ﴿وَإِذَا سَكَعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَنَّةَ لَكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]، هذا سلام متاركة، وليس سلام تحية، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: اعتزلناكم، سلام متاركة، لا سلام تحية؛ لأن هؤلاء لا يحيون.



وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ». حَسَنُهُ التِّرْمِذِيُّ (١).

الشَّجَرُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ»، يعني: كامل الإيمان، ليس معنى هذا أن من فيه هذه الأمور يكون كافرًا، لا. معناه: أنه يكون ناقص الإيمان، فالنفي هنا نفيٌ لكمال الإيمان، وليس نفيًا لأصل الإيمان؛ لأن الطعان واللعان والفاحش والبذيء هذه كبائر من كبائر الذنوب، لكنها دون الشرك، ولا يكفر بها صاحبها؛ لكن يكون ناقص الإيمان، وهي كبائر من كبائر الذنوب، المسلم يتنزه عن هذه الصفات.

«لَيْسَ بِالطَّعَّانِ»: الذي دائمًا شغله الطعن في الناس، الطعن في الأنساب، الطعن في الأحساب، هذا شغله مع الناس.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا اللَّعَّانِ»: كثير اللعن، يلعن الناس، يلعن الأشخاص، يلعن الدواب، يلعن البقاع، يلعن الأيام، ودائمًا فيه شيء يلعنه، هذا ليس الإنسان المؤمن حتى إبليس إذا وقعت في معصية تقول: لعنه الله، لكن عليك التوبة، هو نعم المعصية دعاك إليها عدوك إبليس، لكن كونك تلعنه هذا ما يبرئ ذمتك، يبرئ ذمتك التوبة والاعتراف بالخطأ.

أما إبليس فهو ملعون لعنه الله عَزَّ وَجَلَّ، أنت ما تحمل إبليس ما حصل منك، تأتي تقول هذا من العذر لك، لا. لَمْ نفسك، وتب إلى الله، إبليس

يفرح إذا لعنته، ويقول: أنا أغويته، فيفرح بهذا، فالمؤمن ليس كثير اللعن، يصون لسانه عن اللعن؛ لأنه قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»^(١)، اللعن شديد - والعياذ بالله -؛ لأنك تدعو عليه بالطرد والإبعاد عن رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا أَنْفَاحِشٍ»: كثير الفُحْش، والفُحْش هو ما تنهى قبحه، الفاحشة ما تنهى قبحها، ولذلك سُمي الزنا فاحشة؛ لأنه متناهٍ في القبح، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾، يعني: كشف العورات؛ لأنه كانوا يكشفون عوراتهم في الطواف، يتقربون إلى الله بهذا، ويقولون: الله أمرنا بهذا، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ لأن كشف العورة فحشاء، والله لا يأمر بالفحشاء، يعني: لا يشرع لعباده ذلك، لا يأمرهم أمراً شرعياً، بل إن الله أمر بستر العورات، بستر العورة في الصلاة، وستر العورة في الطواف: ﴿يَنْبَغِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، يعني: عند كل صلاة استروا عوراتكم^(٢).

فالحاصل: أن الفُحْش هو ما تنهى قبحه من الأقوال ومن الأفعال، والمؤمن يتجنب الفحش في القول وفي العمل وفي السلوك.

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٥)، ومسلم (١١٠) عَنْ ثَابِتِ بْنِ الصُّحَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِجَلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّ بِهٖ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥٣/١٠)، والسمعاني (١٧٧/٢)، وزاد المسير (١١٣/٢)، وابن كثير (٤٠٥/٣).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تُبْذِيءَ»، ما يكون عنده بذاءة وأذى للناس، دائماً يتناول عليهم بالبذاءة والأذى، بل يكف نفسه ولسانه ويده عن إخوانه المسلمين حتى الكفار ما يجوز الاعتداء عليهم، الاعتداء حتى على الكافر لا يجوز، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وكوننا نقاتلهم فهذا ليس من باب العدوان عليهم، هذا من باب مصلحتهم، هذا من مصلحتهم أن نقاتلهم؛ حتى يتوبوا إلى الله، ويرجعوا إلى الإسلام، وكونه دخل في الإسلام بسبب الجهاد أليس أهل المشارق والمغارب أسلموا بسبب الجهاد صاروا من خيرة الناس، وظهر فيهم العلماء الفحول من المشرق والمغرب بسبب الجهاد، فالجهاد من مصلحتهم، ما قصدنا أننا نقتلهم، أو الانتقام منهم، قصدنا لمصلحتهم؛ لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ليس عدواناً، الجهاد ليس عدواناً، وإنما هو إنقاذ هؤلاء من النار.



وَلَهُ وَصَّحَهُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِالْفُحْشِ»^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لَأَنَّ الْأَعْمَالَ تَوْزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، تَوْضَعُ فِي كِفْتِي الْمِيزَانِ الْحَسَنَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّيِّئَاتُ فِي كِفَّةٍ، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، فإذا رجحت الحسنات أفلح، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾؛ يعني: ثقلت سيئاته، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

الميزان حق، توزن الأعمال يوم القيامة، وأثقل ما يكون في الميزان يوم القيامة حُسن الخلق، وحُسن الخلق بأن تتعامل مع الناس بالمعاملة الطيبة في الكلام وفي المعاملات، حتى مع الكفار تتعامل معهم، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، تعامل معهم بالكلام الطيب، بالمعاملة الطيبة، بالصدق، بالنصيحة؛ لأن دينك يأمرك بهذا، فلا تضر أحدًا، ولا تؤذ أحدًا، فالصدق مطلوب مع كل أحد، والعدل مطلوب مع كل أحد مع العدو ومع الصديق مطلوب هذا.

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢)، واللفظ له من غير: «الذي يتكلم بالفحش».

وحُسن الخلق هو التعامل مع الناس بالكلام اللين، وبالفعل الطيب، وبالمساعدة والبذل، وبال دعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كل هذا من حُسن الخلق، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الناس خُلُقًا، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

حُسن الخلق هذا ثَقِيل في ميزان العدل يوم القيامة، ومفهومه: أن سوء الخُلُق - والعياذ بالله - ضررٌ على الإنسان. وفي الحديث دليل على فضل حُسن الخلق، ودليلٌ على أن الأعمال توزن يوم القيامة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ»، هذا فيه إثبات أن الله يبغض، والبغض صفة من صفات الله الفعلية، يبغض الكافرين، ويبغض المشركين، ويحب المتقين والمحسنين، فالله يحب ويبغض جَلَّ وَعَلَا، وهذا كما يليق بجلاله عَزَّجَلَّ، ليس كبغض المخلوق أو محبة المخلوق، هذا من صفاته اللائقة بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله يبغض من الناس الفاحش، الفاحش يعني: كثير الفُحش في كلامه في أفعاله في أخلاقه.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِافْخَشٍ»، فالذي يتكلم بالكلام الفاحش، يعني: القبح، فالكلام الفاحش هو القبيح، والفُحش ما تنهى قبحه من الأقوال ومن الأعمال، وليس الفحش مقصورًا على الزنا، بل الفاحشة تكون في الكلام -أيضًا- تكون بالكلام كما تكون بالفعل.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^(١).

الشَّجَرُ

الرفق من حُسن الخلق، ونزع الرفق هذا من سوء الخلق، فإذا كان الإنسان عنده رفق، فهذا دليل على حُسن خلقه، وتكون أقواله سديدة، وتكون أعماله سديدة بسبب الرفق وعدم الطيش والعجلة.

فإذا نزع الرفق من الإنسان صارت أعماله سيئة وشائنة وليست زينة، ليست مما يزين الإنسان، بل مما يشينه عند الله وعند خلقه، فينبغي للإنسان أن يكون رفيقًا، والله جَلَّ وَعَلَا: «رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ»^(٢)، الله جَلَّ وَعَلَا رفيق بعباده لا يعجل عليهم بل هو يمهلهم، ويتوب عليهم إذا تابوا، وإن كانوا كفارًا أو مشركين أعداء، إذا تابوا، تاب الله عليهم، هذا من رفق الله بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فينبغي للعالم، ولكل مسلم، ولكل داعية أن يستعمل الرفق في أموره كلها مع المدعويين مع العصاة حينما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يكون أمره ونهيه برفق، تكون دعوته للناس برفق مع أهله إذا أخطؤوا، يقوم بعلاج الخطأ بالرفق فإذا استعمل الإنسان الرفق، فإن هذا يكون زينًا له في أعماله كلها.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣)، واللفظ لمسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ».

وَلِلَّزْمِذِيِّ وَحَسَنَهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنِ سَهْلٌ»^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟»، التحريم معناه: المنع، والحرام سُمي حرامًا؛ لأنه ممنوعٌ منه، فالذي «يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ» هو الذي يمنع من دخول النار، «أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟» لئلا تمسه يوم القيامة، يعني: تمنع النار عنه، تمنع النار عنه، فلا يصله شيئًا من عذابها، هذا معنى التحريم: المنع، يمنع من دخول النار، وتمنع النار من أن تعذبه.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَحْرُمُ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ»، قريب يعني: قريب من الناس، قريب في تعامله، قريب في مكانه، ما يترفع عن الناس، ويغلق أبوابه عن الناس، ويمنعهم من مخالطته والاستفادة منه، قريب منهم، أينما طلبوه يجدوه في المسجد، يجدوه في الشارع، يجدوه في المكتب، فهو لا يتمنع من الناس قريب منهم، قريب التناول في قضاء حاجاتهم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَهْلٌ»، سهل ليس عنده صعوبة وتمنع، سهلٌ في تحقيق طلبات الناس التي فيها فائدةٌ لهم يعالجها ويتوسط فيها، وعندهم مشاكل علمية يجب عليها، ويحل مشاكلهم، يُبين لهم الصواب، هذه السهولة أنه يكون دائمًا مع الناس، في مصالح الناس.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَيْنٌ»، يعني: غير شديد على الناس، وإنما يكون هينًا معهم، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، ويقول: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، يعني: تواضع لهم.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ»^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ» في أقواله وأعماله وتصرفاته مع الناس ومع أهله، «يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ»، هذه عقوبة، وهذا سبق في الحديث: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ»^(٢)، وفي هذا «مَنْ يُحَرِّمِ الرَّفْقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ»، فإذا استعجل الإنسان وطاش واشتد، فقد يفعل أفعالاً تتنافى، أو يقول أقوالاً تتنافى مع ما يليق به وبمن حوله، هذا يكون فيه أضرار عظيمة، يحرم من الخير كله بسبب عدم الرفق، هذا فيه ذم العجلة في الأمور، ومدح التريث فيها، والتثبت في جميع الأمور، وألا يستعجل الإنسان في الأمور، فإذا وقع أحدٌ في خطأ فلا تستعجل في علاجه، ولكن تدرج معه شيئاً فشيئاً برفق مثلما تعالج المريض؛ لأنه مريض تعالجه برفق.

وإذا دعا إلى الله، يكون برفق ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، الله جَلَّ وَعَلَا يقول لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ﴾،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٢) بدون لفظة: «كُلُّهُ».

(٢) سبق تخريجه (ص ١٨٦).

لمن؟ لفرعون الذي يدعي الربوبية، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَنَّا﴾، هذا رفق، من استعمال الرفق مع أكفر الناس، يستعمل معه الرفق، فإذا استعمل الإنسان الرفق أعطي الخير، وإذا نُزع منه الرفق حرم الخير كله في أقواله وأفعاله وتصرفاته.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْكَذِبِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجنابة: ٧].

الشَّجَرُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْكَذِبِ)، الكذب ضد الصدق، وهو: الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به في الواقع، فإن كان متعمداً به في إخباره فهو آثم، وإن لم يكن متعمداً فلا إثم عليه، وإنما يسمى حديثه كذبا؛ لأنه بخلاف الواقع.

والكذب كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوَعَّدَ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

والكذب على أقسام:

القسم الأول: الكذب على الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا أعظم الكذب كأن يقول: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٣١) مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿[النحل: ١١٦-١١٧]، ومن الكذب على الله جَلَّ وَعَلَا - وهو أشد مما سبق - الكذب

على الله بالشرك بأن يتخذ معه شريكاً في العبادة، ويقال: إن الله شرع هذا، أو أحل هذا، هذا أعظم الكذب، كذب الشرك، أو ينسب إلى الله الولد، هذا أعظم الكذب على الله جَلَّوَعَلَا، أو في أسمائه وصفاته بأن تؤول عن معانيها، وتحرف عن معانيها، هذا كذب على الله جَلَّوَعَلَا، فيقال: مراد الله بها كذا وكذا، هذا كذب على الله، فإذا أوّلت وحرفت وقيل: هذا هو المراد، هو مراد الله، فهذا كذب على الله جَلَّوَعَلَا، وهو أشد أنواع الكذب.

القسم الثاني: الكذب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه قال: كذا، أو حرم كذا، أو أحل كذا من غير دليل، هذا كذب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أنه ورد عنه كذا وكذا من الأحاديث، فتنسب إليه أحاديث موضوعة، هذا كذب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبِ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١)، هذا وعيد شديد.

القسم الثالث: الكذب على أهل العلم، فينسب إليهم ما لم يقولوا، أو أنهم أفتوا بكذا، أو قالوا كذا، ينسب إلى أهل العلم أنهم قالوا كذا، أو أفتوا بكذا كما هو الواقع من كثير من الناس اليوم، خصوصاً أصحاب المبادئ السيئة، يريدون أن يبرروا مبادئهم ومناهجهم، فيقولون: فلان أفتى بكذا مما يؤيدنا، فالكذب على العلماء هذا تابع للكذب على الله وعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء^(٢)، ولا يجوز الكذب على أهل العلم،

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) من حديث المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند =

فلا تنسب إلى عالم إلا ما صح عنه، وثبت عنه، أما أن تنسب إليه بدون تثبت أو تخترع شيئاً من عندك، فهذا كذب ممقوت.

القسم الرابع: الكذب على الناس في معاملتهم بأن يبيع ويشترى معهم بالكذب لا بالصدق، يغش ويخدع ويكذب، فالمعاملة مع أخيك، بل مع أي أحد، المعاملة بالبيع والشراء حتى مع الكافر ما يجوز أن تكذب عليه ولا أن تخدعه، فكيف تكذب على أخيك المسلم وتخدعه، تأخذ ماله بغير حق، أو تخاصمه بالباطل عند القاضي وتحلف، أو الكذب في الشهادة، شاهد الزور الذي يشهد شهادة زور كذب، كل هذا من أنواع الكذب.

الكذب أنواع، بعضه أشد من بعض، وكذلك الكذب على الناس في الأخبار أن تكذب على الناس بأنه حصل كذا، وهو لم يحصل، أو جاء فلان، وهو لم يأت، تأتي بأخبار إما أنك لم تثبت فيها، وإما أنك تخترعها أنت، هذا من الكذب على الناس، الكذب في الأخبار، بل الواجب التثبت، ولا تحدث إلا بشيء فيه مصلحة وثابت -أيضاً-، «كَفَى بِالْمُرءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ

= (١٩٦/٥)، والدارمي (٣٤٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/٢٢٤)، والبيهقي في شعب الإيوان (٢/٢٦٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَكُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْجِبَتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ».

مَا سَمِعَ^(١)، تثبت، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بَنِيًا فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، يعني: تثبتوا.

فهذا هو الكذب، وهذه أخطر أنواعه، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، فدل على تحريمه بالكتاب والسنة وإجماع أهل العلم، ففي الكتاب كما في هذه الآيات التي ساقها المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، هذا دليل على أن الكذب لا يصدر من مؤمن، ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أما الذين يؤمنون بآيات الله فإنهم لا يكذبون، فدل على أن الكذب لا يصدر من مؤمن، قد لا يصدر من مؤمن أصلاً، أو يصدر من مؤمن ناقص الإيمان، فالكذب لا يصدر من مؤمن، ولا يليق بالمؤمن أنه يكذب.

﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ﴾، يفترى يعني: يختلق، يختلق شيئاً لا أصل له. ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ﴾، أي: الذين يفترون الكذب هم الكاذبون، يفترون من عند أنفسهم، هؤلاء كذابون، كاذبون على من ينقلون عنه، وكاذبون على من ينقلون له.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠])، أي: للمنافقين؛ لأن الآيات في سياق صفات المنافقين في أول سورة البقرة، قَالَ: ﴿وَلَهُمْ﴾، أي: للمنافقين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي:

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

موجع مؤلم، أليم يعني: مؤلم، بسبب ما كانوا يكذبون في دعواهم الإيمان، وهم ليسوا بمؤمنين، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، يكذبون، إذا: فأولئك استحقوا هذا الوعيد، لهم عذاب أليم.

﴿يَمَّا كَانُوا﴾، أي: بسبب كذبهم في دعواهم الإيمان، وهم ليسوا بمؤمنين.

قال رَحِمَهُ اللّٰهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]).

﴿وَيْلٌ﴾، أي: وعيد شديد.

﴿لَّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾، كثير الإفك، والإفك هو الكذب، توعدده الله بالويل، وهي كلمة عذاب وتهديد، دل على أن الإفك أسوأ أنواع الكذب.



عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

هذا حديث عظيم يدل على أن المؤمن لا يزال يصدق فيما يقول أو فيما يفعل، صفته الصدق فيما يصدر عنه، ويتحرى الصدق فيما يسمع من الناس، يتثبت يتحرى الصدق، ليس كلما سمع شيئاً يذهب ينشره، ويحدث به قد يكون فيه غرر على الناس، قد يكون فيه كذب، قد يترتب عليه مقاطعة بين المسلمين، قد يترتب عليه حتى القتل بسبب الكذب، فيتحرى الصدق ويصدق فيما يصدر عنه، ويتحرى الصدق فيما ينقل إليه وما يبلغه.

«إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ»، يهدي يعني: يدل، يدل على البر، والبر كلمة جامعة لخصال الخير مثل: التقوى، البر والتقوى والإيمان بمعنى واحد، الصدق فائدته أنه يهدي إلى البر، يعني: يكون وسيلة إلى الوصول إلى البر، والبر من أعلى مراتب الدين، مثل التقوى، ومثل الإحسان مراتب عظيمة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا»، الصديق هو كثير الصدق، هذا هو الصديق مبالغة من الصدق، ودرجة الصديقين بعد

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (١٠٣) (٢٦٠٧).

درجة الشهداء، ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النساء: ٦٩]، نعم درجة الصديقين فوق مرتبة الشهداء، بعد النبيين، ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾، مرتبتهم بعد مرتبة الأنبياء، ثم بعدهم الصديقون، ثم بعدهم بقية المؤمنين، ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾، فهذا فيه فضل الصدق وما يؤول إليه.

وسببه أن الإنسان يربي نفسه عليه يصدق ويتحرى الصدق، يربي نفسه على هذا، الصدق تربية للنفس على هذا الشيء حتى تألفه، وحتى تنفر من ضده، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]، الصديقون جمع صديق، ومنه سمي أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لكثرة صدقه وتحريه للصدق حتى لقب بالصديق.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ»، يعني: ينقل صاحبه إلى الفجور، والفجور هو: الخروج عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ مثل: الفسق، الفسق هو الخروج عن طاعة الله، والفجور هو الخروج عن طاعة الله، «وَأِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ»، يكون الإنسان فاجراً، لا يقبل منه كلام، ولا يقبل منه شهادة، ويسقط من أعين الناس؛ لأنهم عرفوا أنه كذاب، فلا يألفونه ولا يصدقونه، ولا يأتمنونه، فيصبح ساقط المنزلة عند الناس إذا عرف بالكذب.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ»، ضد البر، الفجور ضد البر كما أن الكذب ضد الصدق.

«وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»، يربي نفسه على هذا الشيء، يكذب هو من عنده، ويتصيد الأكاذيب التي تقال أو تنشر، فيشيعها في الناس، هذه حرفته -والعياذ بالله-.

«حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»، يعني: كثير الكذب حتى يكتب عند الله، والأول يكتب عند الله صديقًا، يكتب في ديوان حسناته أنه صديق، أو في ديوان سيئاته أنه كذاب، ليس هناك شيء يضيع أبدًا، كل شيء يكتب ويسجل، ويحاسب عليه العبد يوم القيامة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِنَّ الضُّجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»، هذا الصدق يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى النار، يعني: وسيلة إلى دخول النار، والأول الصدق وسيلة إلى دخول الجنة، فرق بينهما، وهذا يكتب صديقًا، وهذا يكتب كذابًا، فرق بينهما، والسبب أنه عود نفسه إما على الصدق، وإما على الكذب.

فعلى الإنسان أن يتنبه لنفسه خصوصًا في زماننا هذا الذي كثر فيه الكذب والوشايات، وصار هم الناس التحريش والتفريق بين المسلمين، والتفريق بين الراعي والرعية، ومحاولة تفريق الكلمة، فهذا الكذب المفترى، فعلى الإنسان أن يحفظ نفسه من هذه المخاطر، ويلزم الصدق قولًا وعملاً، ويتجنب الكذب قولًا وعملاً حتى يسلم، وينال كرامتين: الأولى: أنه يكتب صديقًا، والثانية: أنه يكون من أهل الجنة.

والكذب له عقوبتان: عقوبة أنه يكتب عند الله كذابًا، والعقوبة الثانية: أنه يكون من أهل النار، فالفرق بعيد بين الصفتين.

وَفِي الْمَوْطَأِ عَنْهُ: «لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ، وَتُنْكِتُ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ حَتَّى يَسْوَدَّ قَلْبُهُ، فَيُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ»^(١).

وَفِيهِ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّهُ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ». فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: «لَا»^(٢).

الشَّجَرُ

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ، وَتُنْكِتُ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ حَتَّى يَسْوَدَّ قَلْبُهُ، فَيُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ»، هَذِهِ آفَةٌ أُخْرَى، الْأُولَى: أَنَّهُ يَكْتُبُ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا، وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَنْكِتُ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ كُلَّمَا كَذَبَ فَإِنَّهُ يَنْكِتُ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ حَتَّى يَظْلَمَ الْقَلْبُ، يَتَمَدَّدُ هَذَا السَّوَادُ فِي الْقَلْبِ، حَتَّى يَظْلَمَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، وَسَبَبُهُ الْكَذِبُ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَفِيهِ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّهُ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: «لَا»)، النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ: هَلْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ نَعَمْ، يَكُونُ جَبَانًا؛ لِأَنَّ هَذَا شَيْءٌ نَفْسِي، يَكُونُ مَا عِنْدَهُ شَجَاعَةً، هَذَا شَيْءٌ نَفْسِي، لَيْسَ بِاخْتِيَارِهِ وَلَا يَعَاقِبُ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ جَبَانًا، مَا يَعَاقِبُ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا شَيْءٌ مَا لَهُ بِهِ تَسَبُّبٌ، الْبَخِيلُ

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٥/١٤٤١).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٥/١٤٤١).

-أيضًا- يكون بخيلًا؛ لأن النفس مطبوعة على حب المال، ﴿وَيُحِبُّونَ
الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، فإذا حصل على المال قد يغلب عليه البخل صفة
نفسية، هذا -أيضًا- صفة مذمومة، لكنها ليست من اكتسابه لكن يعالجها،
هي ليست من اكتسابه -البخل-، لكن يعالج هذا، يعالج البخل، يتغلب
على نفسه، يتصدق حتى يسهل عليه، ويزول عنه البخل، لكنه لا يؤاخذ
على صفة البخل؛ لأنها نفسية، إلا إذا كان حمله على منع الواجب في المال
كالزكاة أو النفقة الواجبة عليه، هذا بخل يأثم عليه، أما إذا كان يمنعه
من التبرع والتصدق الذي ليس واجبًا، فهذا إن فعله فله أجر، وإن تركه
فلا إثم عليه، لكن أن يكون كذابًا، مؤمن كذاب، لا، هذا إنما هو من صفات
المنافقين، وليس من صفات المؤمنين.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ،
وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(١)، هذا من صفات المنافقين الكذب، والله جَلَّ وَعَلَا يقول:
﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَاذِبُونَ﴾، نفى عنهم الإيمان، وفي هذا الحديث المؤمن لا يكون
كذابًا؛ لأن الكذب يتنافى مع الإيمان، فنفى أصل الإيمان، فيكون كافرًا، أو
يتنافى مع كمال الإيمان، فيكون ناقص الإيمان.

قد يكذب المؤمن، لكن ليس هذا من سجيته ولا من طبيعته، وإنما مر
عليه بعض الأحيان، هذه معصية بلا شك، لكنها لا تسلبه الإيمان بالكلية،
بل يكون ناقص الإيمان.

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (١٠٧) (٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلِلَّزْمِذِيَّ وَحَسَنَهُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: «إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ تَبَاعَدَ عَنْهُ الْمَلِكُ مِيلًا مِنْ نَتْنٍ مَا جَاءَ بِهِ»^(١).

الشَّيْخُ

في هذا الحديث: إذا كذب العبد - ولو مرة واحدة - ابتعد عنه الملك الذي يكتب الحسنات، ابتعد عنه ميلًا، يعني: مسافة بعيدة، السبب: «مِنْ نَتْنٍ مَا جَاءَ بِهِ»؛ لأن الكذب له نتن ورائحة، وهذه رائحة معنوية ما نشعر بها، لكن الملك يشعر بها، فيبتعد عنه لخبث رائحته، رائحة الكذب، إذا: الكذب ينفر الملائكة عنك، وهذه أضفها إلى ما سبق أنه يكتب عند الله كذابًا، وأنه يهدى إلى النار، وأنه ينكت في قلبه سواد، الرابعة: أنه ينفر منه الملائكة الحفظة من سوء ما فعل.



(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٢)، وقال: (نَعَمْ. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي إِخْلَافِ الْوَعْدِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية [التوبة: ٧٧].

الشَّيْخُ

قال رحمه الله: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي إِخْلَافِ الْوَعْدِ)، من الكبائر إخلاف الوعد؛ لأن الواجب على الإنسان إذا وعد أن يفي بوعده إلا إذا كان له عذر في مخالفة الوعد، فالمؤمن إذا وعد يفي، أما المنافق إذا وعد، أخلف؛ كما في الحديث: «إِذَا وَعَدَ الرَّجُلُ أَخَاهُ وَمِنْ نِيَّتِهِ أَنْ يَفِي لَهُ فَلَمْ يَفِ وَلَمْ يَجِئْ لِلْمِيعَادِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»^(١)، وإذا كان إخلاف الوعد مع الله فهذا نفاق، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥]، ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني: من المنافقين، ﴿مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٧٥) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ^(٧٦) فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٧٥-٧٧]، يكذبون على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهم نذروا ﴿لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أو أقسموا أنهم يتصدقون، فلما أعطاهم من فضله، أخلفوا الله ما وعده، وكذبوا على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى،

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٥)، والترمذي (٢٦٣٣) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا الكذب أعقبهم نفاقاً في قلوبهم، زاد نفاقهم -والعياذ بالله-، زاد نفاقهم بسبب الكذب، فالمؤمن إذا وعد الله يصدق أو عاهد الله يصدق.

وإذا وعد الناس هذا محل خلاف: منهم من يقول: يجب عليه الوفاء بالوعد، ومنهم من يقول: يستحب، الوفاء بالوعد يستحب ولا يجب؛ لأنه من جنس التبرع، فليس واجباً، لكن الصحيح أنه يجب الوفاء بالوعد؛ لأن الله توعد هؤلاء، والوعد لا يكون إلا على ترك واجب كما هو معروف.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ، بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧]).

﴿بِمَا﴾: الباء سببية، و(ما) مصدرية، أي: بإخلافهم الوعد، وبكذبهم، (ما) مصدرية تؤول وما بعدها بمصدر، فيكون المعنى هكذا: بكذبهم وإخلافهم الوعد.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾، يعني: زاد في نفاقهم -والعياذ بالله-، والنفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، فالكذب يزيدهم من النفاق، كما أن الصدق يزيد في الإيثار، الكذب ينقص الإيمان.



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، آية المنافق، والمنافق عرفناه، وهو الذي يظهر الخير ويبطن الشر، وهو على قسمين:

القسم الأول: نفاق اعتقادي، وهذا صاحبه في الدرك الأسفل من النار، شر من الكافر الأصلي الذي يبطن الإيمان ويظهر الكفر هذا النفاق الأكبر، النفاق الاعتقادي صاحبه في الدرك الأسفل من النار؛ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

النوع الثاني: نفاق عملي، الأول اعتقادي، لا يصدر من مؤمن أبداً، أما العملي، فقد يصدر من المؤمن نفاق عملي، «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، هذه الصفة قد توجد في بعض المؤمنين وهي نفاق عملي، لا يخرج من الملة، لكنه ينقص الإيمان، النفاق العملي ينقص الإيمان، لكنه لا يخرج من الملة، أما النفاق الاعتقادي فيخرج من الإيمان، هذا الفرق بين النفاقين، فأية المنافق سواء كان نفاقاً اعتقادياً أو نفاقاً عملياً، يعني: علامته هذه الثلاث: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، إذا حدث كذب، هذه واحدة، وإذا وعد أخلف، «إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، أُؤْتِمِنَ على مال، أو

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَوْثَمِنَ عَلَى سِرٍّ، أَوْثَمِنَ عَلَى وَظِيفَةٍ أَنْ يَقُومَ بِالْعَمَلِ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ الْوِظِيفِي هَذَا أَمَانَةٌ، مَا هِيَ الْأَمَانَةُ الْخَاصَّةُ بِالْوَدِيعَةِ، الْأَمَانَةُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ فِيمَا فَرَضَ عَلَيْكَ، وَفِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكَ، هَذِهِ أَمَانَةٌ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، الْأَمَانَةُ: أَمَانَةُ التَّكَالِيفِ، تَكُونُ الْأَمَانَةُ فِي الْوَدَائِعِ أَمَانَةٌ وَدِيعَةٌ تَحْفَظُهَا، وَتَكُونُ الْأَمَانَةُ فِي الْوِظِيفَةِ إِذَا وَلَّيْتَ عَلَى وَظِيفَةٍ وَأَعْطَيْتَ مَرْتَبًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، هَذِهِ أَمَانَةٌ فِي ذِمَّتِكَ أَنْتَ تَقُومُ بِالْعَمَلِ، قِيَامَكَ بِالْعَمَلِ أَمَانَةٌ، الْعَمَلُ الْوِظِيفِيُّ أَمَانَةٌ، فَإِذَا لَمْ تَقُمْ بِهِ أَوْ نَقَصْتَهُ فَقَدْ خَنْتَ فِي أَمَانَتِكَ.

السِّرُّ - أَيْضًا - الْأَسْرَارُ بَيْنَ النَّاسِ، السَّرِّيْنَ الزَّوْجِينَ، السَّرِّيْنَ النَّاسِ يَخُونُ فِيهَا، يَخُونُ فِي الْأَمَانَةِ، وَالْمُؤْمِنُ يَحْفَظُ الْأَمَانَةَ، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنْ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(١)، «إِذَا حَدَّثَ كَذَبٌ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، هَذِهِ عَلَامَاتُ النِّفَاقِ، عَلَى ضِدِّهَا الْمُؤْمِنُ إِذَا حَدَّثَ صَدَقَ، وَإِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ وَفَى بِالْأَمَانَةِ وَحَفَظَهَا وَأَدَّاهَا.



(١) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، والدارمي في سننه (٣٤٣/٢)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٦٠/٤)، والطبراني في الأوسط (٥٥/٤)، والحاكم في المستدرک (٥٣/٢)، والدارقطني في سننه (٣٥/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٧١/١٠) وشعب الإیمان (٣١٩/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَلَهَا عَنِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «أَزْبَعَ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُمْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَزْبَعَ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُمْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

«وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»، إذا عاهد ولي الأمر بايعه، أو عاهد غير ولي الأمر، أن تعاهد أحدًا من الناس حتى الكافر إذا عاهدته، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]، فيجب الوفاء بالعهود، سواء مع المسلمين أو مع الكفار، لا يجوز نقض العهد، لامع المسلمين، ولا مع الكفار، إلا إذا الكفار خانوا، أو خيف منهم خيانة، إذا خانوا، ينتقض عهدهم، وإذا خيف منهم خيانة يعطون إنذارًا، وليس فجأة يلغى العهد، بل يعطون إنذارًا، ﴿وَمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، تعطيمهم إنذارًا أنك ستنتهي العهد الذي بينك وبينهم، فيكونون على بينة من أمرك، أما أنك تباغتهم بدون أن تبين لهم فهذا لا يجوز، هذا مع الكافر، فكيف بالمؤمن؟ فيجب

الوفاء بالعهد، وأما الذي لا يفي بالعهد، فهذا منافق، سواء نفاقه اعتقادي أو عملي.

الرابعة: «وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»، إذا خاصم عند القاضي فجر في خصومته، يعني: كذب، فيدعي دعاوى هو كاذب فيها، ويأتي بينات زور، فيفجر في ذلك، أو يحلف عند القاضي، إذا توجهت إليه اليمين يحلف وهو كاذب؛ من أجل أن يكسب القضية على خصمه، وفي الحديث: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ عَلَيْهِ فَاجِرٌ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ»^(١)، يعني: عود وهو المسواك، فإذا حلفت على أن تأكل مال امرئ مسلم، ولو كان يسيرًا، لا تقل: هذا يسير، وليس فيه بأس، إنما هذا في الأموال الكثيرة، لا. الفجور في الخصومة حرام في الكثير والقليل؛ «إِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

والواجب على المسلم أنه إذا خاصم يصدق، سواء كان الحق له، أو عليه، لا يكذب أو يدلي بشهادات زور، أو يحلف يمينًا هو فيها كاذب من أجل أن يأخذ مال أخيه؛ لأن القاضي بشر، ليس له إلا الظاهر حتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ: فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا»^(٢)، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعلم الغيب، ويحكم على الظاهر، فغيره من باب أولى من القضاة ما يعلمون الغيب، إنما يستكملون الإجراءات

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٦)، ومسلم (٢٢٠) (١٣٨)، واللفظ للبخاري من حديث

عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص ١٦٧).

القضائية والطرق الحكمية، ثم يحكمون، إذا كان هناك شيء مخفي، فهذا لا يعلمونه، وهو في ذمة من أخفاه، وسيظهر يوم القيامة، ويفضح أمام الخلائق، ليست المسألة سهلة، ويقول: أنا خاصمت خصمي، وأنا كسبت القضية، وأنا حكم لي القاضي، ويحسب أن الأمور انتهت، لا، الأمور باقية عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَعَاد، تعاد الخصومات يوم القيامة عند أحكم الحاكمين، ويعطى المظلوم حقه من الظالم، ما هي انتهت وخلاص.

وحكم القاضي لا يحل الحرام، ولا يحرم الحلال، والقاضي معذور؛ لأنه بشر، ويحكم على نحو ما يسمع.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي زَعْمُوا

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ يَا أَفْوَهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِجَا فَتَيِّبُوا﴾ [الحجرات: ٦].

الشَّيْخُ

قال رحمه الله: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي زَعْمُوا)، الإنسان يقول: زعموا كذا، وقالوا كذا، وهو ما ثبت، هذا ما يجوز للإنسان أن يحدث ويقال: زعم فلان كذا، زعموا كذا، وينقل هذه الأشياء، وهو ما ثبت منها، فهذا لا يجوز، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ يَا أَفْوَهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، هذه الآية في سياق حديث الإفك الذي روجه المنافقون على أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لما حصل أنها في سفر من الأسفار ذهبت إلى حاجتها بالليل، فأذن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحيل، وقاموا ورحلوا الإبل، وضعوا رحل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على بعيرها، ويظنون أنها فيه؛ لأن النساء كن يتسترن، ويكن في الهودج، يركبن من وراء الأستار، هذا في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست المرأة مثلما يطالب الآن أنها تبرز وتخلع الحجاب، لا، كانوا يسترون النساء حتى على الإبل، أخذوا الهودج؛ لأنها صغيرة وخفيفة، وظنوا أنها فيه، وهي ذهبت لقضاء حاجتها، فلما رجعت وجدتهم قد ساروا، فمن حنكتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعقليتها ما راحت تستلج وتروح تدور بالبر بالليل جلست في مكانها؛ لأنها تعلم أنهم إذا

فقدوها يرجعون إليها، ولو أنها راحت هنا أو هناك ضاعت عليهم، هذا من حنكتها أنها بقيت في المكان.

أدركها النوم ونامت، وكان صفوان بن المعطل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاداته أن يتأخر عن الجيش، ينام ثم يلحق بالجيش، جاء على عادته مع الأثر، فرأى سواداً في الليل، رأى سواد في الليل في مكان القوم، فقرب منه ليتثبت ما هو فإذا هي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان يعرفها قبل الحجاب، يعرف وجهها قبل الحجاب، فلما رآها عرفها، ووقف وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فتنبعت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا باسترجاعه، وخمرت وجهها، يعني: غطت وجهها، فجاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبرك الراحلة، ووطأ على يدها، وترك عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تركب، ثم ذهب بها يقودها الراحلة إلى أن أدرك القوم، هذه قضية إنقاذ، وهذا من شهامته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن رأفته؛ لأن المسلم لا يترك المسلم يهلك في الصحراء أو في مكان خطر ينقذه، هذه قضية إنقاذ.

استغل المنافقون هذه الحادثة، واتهموا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأنها متواطئة مع صفوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنها جلست تنتظره، المنافقون تعلمون أنهم يلتمسون على المسلمين، وراحوا يتكلمون، شاع الخبر، فاتهموا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالفاحشة والزنا -والعياذ بالله-، فضاق الأمر على بيت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتكلم المنافقون، وفرحوا بهذه الحادثة.

هناك من المؤمنين أناس انطلى عليهم هذا الخبر؛ لأنهم عندهم تصديق، يعني: قلوبهم نظيفة وطاهرة، ومحسبون أن كل الناس يصدقون، فانطلى عليهم هذا الخبر، فتكلموا مع المنافقين في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لا عن نفاق،

ولكن عن خديعة - انخدعوا - هذا هو قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، هذا يخاطب المؤمنين، هؤلاء الذين تكلموا من المؤمنين يخاطبهم، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، كان الواجب الثبت، ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، فكما أنك لا ترضى لنفسك - لأنفسهم -، ما قال في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي أمكم، فهي من أنفسكم، الواجب أنكم ما ينطلي عليكم هذا الخبر، ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٢-١٣]؛ لأن الذي يقذف لا بد يأتي بأربعة شهداء، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٣) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَسَسَخَّرَ فِي مَا تَقْتَضِيهِ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٣-١٤]، كل هذا خطاب للمؤمنين، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (١٥) ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ﴾ [النور: ١٥-١٦]، يعني: ينزهون الله، هذا تنقص لله، فرمي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تنقص لله، لماذا؟ لأنها زوجة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله لم يكن ليختار لرسوله ولفراس رسوله امرأة حائنة، فهذا تنقص لله عَزَّ وَجَلَّ، سبحانه، ولذلك نبه الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، بهتان يعني: كذب، وليس كذبًا هينًا، هو عظيم - والعياذ بالله -، هذا هو الواجب على المؤمنين، أنهم يتثبتون وأنهم ما يصدقون بأهل الخير؛ لأن أعداء أهل الخير كثيرون، وودهم أنهم ينزلون

منزلة أهل الخير، وينشرون ضدّهم الشبهات، فإذا بلغك عن أهل الخير شيئاً فلا تستعجل حتى تثبت، وإذا تثبت أيضاً لا تفشّ هذا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، حتى لو ثبت عندك لا تفشه، عليك بالستر، وعليك بعدم إفشاء هذا الشيء بين المسلمين:

أولاً: تثبت، ولا تقل شيئاً لا تعلمه.

ثانياً: إذا ثبت عندك، فإنك تستر على أخيك المسلم، ولا تشع هذا الشيء بين المسلمين، فتكون من هؤلاء، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

في النهاية برأ الله عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنزل براءتها في القرآن يتلى إلى يوم القيامة، ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦]، برأها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنزل فيها قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، فالذين يرمون عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الآن كفر؛ لأنهم كذبوا الله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، وهؤلاء يقولون: لا. ما هي مبرأة، هذا تكذيب لله عَزَّجَلَّ.

أيضاً: الله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿الْحَيِثُ الثُّ لِحَيْثَيْنِ وَالْحَيْثُ ثُ لِحَيْثَيْنِ وَالطَّيِّبُ ثُ لِحَيْثَيْنِ وَالطَّيِّبُ ثُ لِحَيْثَيْنِ﴾ [النور: ٢٦]، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أي قسم؟ من رأس الطيبين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هل اختار الله له خبيثة؟ لا، الله لا يختار للطيبين إلا الطيبات، ولا يختار للطيبات إلا الطيبين، فهذا تكذيب لله عَزَّجَلَّ أنه اختار خبيثة لطيب، وهذا لا يليق بالله عَزَّجَلَّ، وتكذيب لله في قوله: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

الحاصل أن هذه قصة عظيمة تعطينا دروسًا عظيمة في الثبوت وعدم التسرع، وعدم الثقة بالمنافقين الذين ليس لهم هم إلا إشاعة الأخبار الكاذبة بين الناس، يعطينا درسًا أننا نثبت في الأمور، وأنا ننزه ألسنتنا عن الكلام حتى لو ثبت ننزه ألسنتنا عن إشاعته وعن الإخبار عنه ونستر: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١)، أما الذي يجب أنه يشيع الفاحشة، فهذا من المنافقين ليس من المؤمنين^(٢).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾) **جَاءَكُمْ فَاسِقٌ فَنَاصِقٌ** ﴿[الحجرات: ٦]﴾، نعم، إن جاءكم فاسق، والفاسق هو الخارج عن طاعة الله عَزَّجَلَّ^(٣)، يطلق الفاسق، ويراد به مرتكب الكبيرة من الذنوب الذي يرتكب كبيرة من كبائر الذنوب هذا يسمى فاسقًا، مؤمنًا فاسقًا، لا يصدق خبره، لا يصدق خبر الفاسق، وإنما يصدق خبر العدل، فلا بد من الثبوت في الأمور، فإذا حدثك فاسق فلا تقبل منه، وإذا حدثك عدل فهذا صدق، لكن أنت -أيضًا- لا تستعجل بإشاعة الشيء هذا والإخبار عنه، اجعله في نفسك، ولا تشع هذا الشيء لو ثبت.

القصة أو سبب نزول الآية: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمُ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا بِهِ رَكِبُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ هَابَهُمْ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ هَبُّوا

(١) سبق تخريجه (ص ٩٥).

(٢) انظر قصة الإفك في: سيرة ابن إسحاق (ص ٢٦٣)، ومغازي الواقدي (٢/ ٤٢٦)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٧)، والروض الأنف (٧/ ٣٠).

(٣) انظر: العين (٥/ ٨٢)، وتهذيب اللغة (٨/ ٣١٥)، ومقاييس اللغة (٤/ ٥٠٢).

بِقَتْلِهِ، وَمَنْعُوهُ مَا قَبْلَهُمْ مِنْ صَدَقَتِهِمْ، فَأَكْثَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي ذِكْرِ غَزْوِهِمْ حَتَّى هَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَغْزَوْهُمْ، فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ قَدِمَ وَفَدَّهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَمِعْنَا بِرَسُولِكَ حِينَ بَعَثْتَهُ إِلَيْنَا، فَخَرَجْنَا إِلَيْهِ لِنُكْرِمَهُ، وَنُؤَدِّيَ إِلَيْهِ مَا قَبْلَنَا مِنَ الصَّدَقَةِ، فَانْشَمَرَ رَاجِعًا، فَبَلَّغْنَا أَنَّهُ زَعَمَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّا خَرَجْنَا إِلَيْهِ لِنُقْتَلَهُ، وَوَالله مَا جِئْنَا لِذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ وَفِيهِمْ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦) وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِيمٌ... ﴿إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ﴾ (١).

الشاهد من الآية الكريمة: أنه يجب الثبوت، وأن الفاسق لا يصدق، ويتثبت في الأخبار، ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾، يعني: لئلا تصيبوا قوماً بجهالة، ﴿فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، فلا بد من الثبوت، وهذا درس عظيم للمسلمين إلى يوم القيامة، لا سيما إذا كثرت الشائعات كما في وقتنا هذا كما تعلمون.

ومما يساعد على هذه الأمور هذه الفضائيات وهذه الإذاعات التي أكثر ما يثبت فيها كذب وتحريش وإثارة للفتنة بين المسلمين، فالماؤ من يتثبت في هذه الأمور ولا يستعجل، ولا يتأثر بهذه الإشاعات المغرضة ويندفع معها.



(١) انظر سبب نزول هذه الآية في: تفسير الطبري (٣٤٨/٢١-٣٤٩)، وزاد المسير (١٤٦/٤)، وابن كثير (٣٧٠/٧)، وسيرة ابن إسحاق (ص ٢٦٣)، وسيرة ابن هشام (٢٩٦/٢)، والروض الأنف (٧/٢٨-٢٩).

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَوْ حُدَيْفَةَ مَرْفُوعًا: «بِئْسَ مَطِيئَةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

الشَّيْخُ

تقدم في شرح الأحاديث السابقة أن من جملة الكبائر الكذب؛ بدليل أن الله رتب عليه اللعنة، ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وأخبر أن الكاذب على الله أظلم الظالمين، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ؟﴾ [الزمر: ٣٢]، والكذب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢)، وكذلك الكذب على الناس، وهو من علامات النفاق، وعده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علامات النفاق، فقال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(٣).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِئْسَ مَطِيئَةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا»، الله جَلَّ وَعَلَا أخبر أن للمنافقين عذابًا أليمًا بما كانوا يكذبون، يكذبون في دعواهم الإيمان، وهم ليسوا بمؤمنين، فالكذب من كبائر الذنوب، ومن أنواع الكذب الاعتماد على الزعم، الإنسان يتثبت، ولا يخبر بشيء أو يتكلم بشيء إلا إذا تثبت من صحته؛

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٧٢).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٩٢).

(٣) سبق تخريجه (ص ٢٠٠).

حتى يبرأ من الكذب، أما أن يعتمد على الزعم ففي هذا الحديث الذي ورد
«بِفَسْ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا»، أي: أن يتخذ الزعم وسيلةً له، فيُحدث الناس
ويخبر، ويقول: زعم فلان، أو زعم كذا وكذا، فترك كلمة زعم، إذا لم تثبت
اتركها، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧]، ﴿أَلَمْ
تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾
[النساء: ٦٠]، يزعمون، والزعم كذب، وهذا الإنسان المتكبر فيما يحدث وفيما
يصدر عنه، وفيما يقوله من الأخبار.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»^(١).

الشَّجَرُ

وهذا الحديث الصحيح كالذي قبله: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»، أي: لا أشد من إثم هذا المرء، الذي يُحَدِّثُ بكل ما سمع، فعلى الإنسان أن يتوقف حتى يتثبت، وإلا فالإنسان يسمع كلامًا كثيرًا من الأخبار ومن الناس، فعليه التأكد والتثبت، ولا يُجْبِرُ إلا بشيءٍ يتيقن أو يغلب على ظنه أنه صدق؛ لئلا يوقع الناس في الخصومات، أو ينشر أخبارًا شاذة، يشوش على الناس، والشاعر يقول^(٢):

لَمْ تُعْطَ مَعَ أُذُنَيْكَ نُطْقًا وَاحِدًا إِلَّا لِتَسْمَعَ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ

(لَمْ تُعْطَ مَعَ أُذُنَيْكَ نُطْقًا وَاحِدًا)، يعني: لسانًا واحدًا، معروف أن الإنسان يسمع بأذنيه، ولكنه لا ينطق إلا بلسانٍ واحد، فعلى الإنسان أن يتثبت، وكثيرٌ من الأخبار كذب، وكثيرٌ من الأخبار لا أصل لها، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا﴾ [الحجرات: ٦]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]، الإنسان يتثبت في هذا، هو في حل،

(١) أخرجه مسلم (٥).

(٢) البيت لصفي الدين الحلي. انظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (٣٣٠/١٦)، وجواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (٢١٧/٢).

لكنه إذا تكلم أوقع نفسه، وفي الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١)، إذا رأيت أن الكلام فيه خير فتكلم، أما إذا رأيت أن الكلام لا خير فيه فاصمت؛ لتسلم من الإثم، فاللسان أمر خطير جدًا، والشائعات أمرها خطير للمجتمع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]، وهذه الآية في سياق الآيات التي نزلت في قصة الإفك وهو الكذب، الذين تحدثوا بهذا الإفك يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وحتى لو ثبت لديك ثبوت شيء أو حصول شيء من بعض المسلمين لا يتناسب، فيجب أن تستر عليه، ولا تخبر عنه، عليك أن تستر عليه، «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٢)، ومع النصيحة له تناصحه فيما بينك وبينه، وتستر عليه، هذا هو العلاج، أما الكلام في الشائعات، والكلام في أعراض الناس، ولا سيما ولاية الأمور والعلماء، الكلام في المجالس بناءً على أن الإنسان قال كذا، أو المسلم قال كذا... فهذا أمر لا يجوز، فعلى المسلم أن يمسك لسانه إلا بشيء فيه مصلحة وفيه خير، وأعطاك الرسول ﷺ القاعدة، وَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».



(١) سبق تخريجه (ص ١٢٤).

(٢) سبق تخريجه (ص ٩٥).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْكَذِبِ وَالْمَرْحِ وَنَحْوِهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَلَنَخِذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْكَذِبِ وَالْمَرْحِ وَنَحْوِهِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَلَنَخِذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧])، من أنواع الكذب، بل أشد أنواع الكذب الاستهزاء بالناس، وعدم تنزيل الناس منازلهم، هذا من الكذب في حقهم، فالإنسان يكون جادًا فيما يقول، ولا يكون مازحًا في تنقص الناس وازدراء الناس، وفي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بني إسرائيل، في قصة البقرة: ذلك أن رجلًا من بني إسرائيل قُتِلَ ولم يُدر من قاتله، فحصلت مشكلة في هذا القتل، أهله يُطالبون بالدم، لكن من هو القاتل؟ أمر الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعجزة من معجزات الأنبياء، وذلك بأن يأمر بني إسرائيل بأن يذبحوا بقرة، وأن يأخذوا قطعةً منها، فيضربوا بها الميت، فإذا ضربوه فكأنه يحيا بإذن الله، ويخبرهم بأن من قتله هو فلان.

فلما أمرهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أمره الله به قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَلَنَخِذْنَا هُزُوءًا﴾؟ وما علاقة البقرة بقصة القتل؟ وهذا من تنطعات بني إسرائيل ومن تكلفاتهم، وتقولهم على أنبيائهم، ﴿أَلَنَخِذْنَا هُزُوءًا﴾؟! يُخاطبون من؟ كليم الله ورسول الله يخاطبونه بهذا الكلام، ﴿أَلَنَخِذْنَا هُزُوءًا﴾؟

الرسول يتخذ الناس هزواً؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾
 [البقرة: ٦٧]، هذا الفعل من خصال الجُهاال، لا من خصال الأنبياء -عليهم
 الصلاة والسلام-، ولا من خصال المؤمنين، لا يستهزئ الإنسان بالناس، ثم
 إنهم شددوا على أنفسهم، فطلبوا صفة البقرة، لو أنهم بادروا وذبحوا أي بقرة
 لكفى هذا، وكان هذا حلالاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]،
 مطلق بقرة، والله يريد بكم اليسر، ولكنهم شددوا على أنفسهم، ﴿قَالُوا أَدْعُ
 لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٦٨]، هذا من تشدّداتهم، الله يقول لكم: بقرة،
 تقولون: ما هي؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ [البقرة: ٦٨]، لا
 فارض يعني: كبيرة السن، ولا صغيرة، فهي متوسطة، ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ
 فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]، أمرهم أن يفعلوا الأمر مباشرة، ويتركوا
 التنتطات، ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا﴾ [البقرة: ٦٩]، وهذا
 أشد من الأول لما بين لهم النوع انتقلوا إلى شيء أشد، وهو بيان اللون، ما
 علاقتكم باللون؟ ولذلك شدد الله عليهم، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
 صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]، هذا تشديد، شدد الله
 عليهم، فلم يعثروا على هذه البقرة بهذا الوصف، شددوا فشدد الله عليهم،
 ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْأَبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ
 لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، قال المفسرون: لولا أنهم قالوا: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾، لما
 توصلوا إلى شيء، لكن قالوا: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ شهادة مما سهل الأمر عليهم،
 ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ
 فِيهَا﴾ [البقرة: ٧١]، ليس فيها لون آخر، ﴿لَا شِئَةَ﴾ يعني: ليس فيها لون

آخر، لونها لون موحد، أو ﴿لَا شَيْعَةَ﴾ يعني: لا عجز فيها أبدًا، ﴿قَالُوا أَفَلَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١] وهذا من تهكماتهم برسول الله يعني موسى عَلَيْهِ السَّلَام ما جاء بالحق إلا الآن؟ ﴿قَالُوا أَتَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ لأنهم شددوا على أنفسهم، فشد الله عليهم، ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣]، وهذا هو المطلوب أخذوا قطعة منها، ولم يقل الله قطعة كذا منها، وهذا من التيسير، ﴿أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، فأخذوا قطعة منها، وضربوا القاتل، فعادت فيه الروح، وَقَالَ: فلان قتلني، قالوا: كان ابن عمه، وكان القاتل عنده مال فأراد أن يتعجل أخذ هذا المال بالميراث، فقتله من أجل أن يأخذ ماله، ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٧٣]، هذا شاهد على إحياء الموتى في كل ما شاهده، ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴿[البقرة: ٧٣-٧٤]، مع مشاهدتكم هذه الآية العظيمة قست قلوبكم، وهذا من جفاء بني إسرائيل وجفاء اليهود، ولا يزالون بهذا الجفاء، فهم من أقبح العالم جفاءً -والعياذ بالله-، ولا يزالون هكذا، وهذه قصة البقرة، والحاصل والشاهد قوله: ﴿أَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧]، فدل أنه لا يجب اتخاذ الناس هُزُؤًا والسخرية بهم.



عَنْ أُمِّ كُلْثُومَ بِنْتِ عُقْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَقُولُ خَيْرًا، أَوْ يَنْمِي خَيْرًا». أَخْرَجَاهُ^(١).

وَلِمُسْلِمٍ: «قَالَتْ: وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ أَمْرَاتِهِ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجِهَا»^(٢).

الشَّيْخُ

راوية هذا الحديث هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان أبوها تاجرًا شديد العداوة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقُتِلَ بعد وقعة بدر، وهذه البنت منَّ الله عليها بدخول الإسلام، فأسلمت وحسُن إسلامها وهاجرت فصارت صحابيةً جليلة، فروت هذا الحديث الذي فيه أنه يُسْتَثْنَى من الكذب ما كان فيه إصلاحٌ بين الناس.

وهناك ثلاث مسائل يجوز فيها الكذب للمصلحة:

الأولى: الإصلاح بين الناس.

والثانية: في الحرب على العدو، فالجوز خدعة، فيخدع العدو ويوري، «وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا»^(٣)، فيجوز الكذب في الحرب على العدو لمصلحة المسلمين.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (١٠١) (٢٦٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١) (٢٦٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٧)، ومسلم (٥٤) (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والثالثة: بين الرجل وزوجته؛ من أجل حسن العشرة.

والكذب محرم، ولا يجوز إلا في هذه الخصال الثلاث، ومنها هذا الحديث يُسمح فيه الكذب إذا رأيت اثنين أو جماعة بينهم خصومة ونزاع وتباغض وتشاحن، فتفعل بينهم من الإصلاح، وتقول: فلان يحبك، وفلان يود أن يجلس معك، ويتكلم معك، ويذهب للآخر، ويقول: فلان يُثني عليك ويمدحك ويود أن يجلس معك، وهكذا، فيُقرب بينهم حتى يحصل الصلح بينهم، هذا كذب لكن مصلحته أرجح بما استدل به، فهذا من الكذب المباح، ويحصل الإصلاح بين الناس، ولكن العكس هو الموجود الآن، إذا رأوا اثنين بينهم سوء تفاهم شبت الفتنة بينهم، ولا سيما أن بعض طلبة العلم يدخلون الفتنة بين طلبة العلم وبين العلماء، وكان الواجب الإصلاح والسعي في لم الشمل بين المسلمين، وبين العلماء وبين الطلاب، هذا هو الواجب، أما أن تقوم فتنة بين طلبة العلم وبين العلماء، وتقسيم الناس إلى أحزاب، وكل حزب منهم يفوز على الآخر، وهم كلهم أهل سنة وجماعة، فهذا من أشد المفاتن.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَلِمُسْلِمٍ: قَالَتْ: «وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا»)، حديث أم كلثوم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في واحدة، وهي الكذب في الإصلاح، وهذا الحديث جاء بالثلاثة كلها: الإصلاح، وفي الحرب، وما بين الرجل وبين زوجته كأن يقول لها: إني أحبك، وإني أريد أن أظل معك، وأريد أن أعطيك كذا، وأن أشتري لك كذا، وهي كذلك تقول له: إني أحبك، وأنت من أحب الناس إلي، فيكون هذا من الكذب في الإصلاح وبقاء العشرة.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَعَنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي بَيْتِنَا، قَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ؟» قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ كَذِبَةٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١).

الشَّجَرُ

حديث عبد الله بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه شيء تساهل فيه الناس، وهو الكذب على الصغار، فلا يجوز الكذب لا على الكبار ولا على الصغار، فهذه المرأة نادى ابنها عبد الله بن عامر، وكان صغيراً، فنادته أمه، وقالت: «هَآ تَعَالَ أُعْطِيكَ»، تطمعه في المجيء، والنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: «وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ؟» قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ كَذِبَةٌ»، وفيها إثم الكذب، فدل على أنه لا يجوز الكذب على الصغار ولا على الكبار، وهذا من أصول التربية؛ لأنك إذا كذبت على الصغير ربيته على الكذب، إذا رأى أنك تكذب عليه فيتساءل، وإذا ربيته على الكذب، فهذه تربية سيئة، فعلى المسلم أن يتحاشى الكذب مع أولاده ومع الناس.



(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩١)، وأحمد (٤٧٠/٢٤).

وَلَا تُحَدِّثُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ قَالَ لَصَبِي: تَعَالَ هَاكَ، ثُمَّ لَمْ يُعْطِهِ، فَهِيَ كَذِبَةٌ»^(١).

الشَّيْخُ

وهذا يوضح الحديث الذي قبله، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكُتِبَتْ عَلَيْكَ»، كُتِبَتْ عَلَيْكَ ماذا؟ كذبة، وإن كانت على صبيان، فلا يجوز الكذب على الصبيان؛ لأن هذا يُسيء إليهم ويُحِبُّ ظَنَّهُمْ، ولأنه يقلل ثقتهم بوالدهم وبمن كذب عليهم، ولأنه يرببهم على الكذب، إذا رأوا أن أباهم يكذب فتربوا على الكذب وتساهلوا فيه، وهذا يشمل المربي، سواء كان أباً، أو معلماً أو مدرساً، كل مربٍّ فإنه يتجنب الكذب مع الأطفال.



وَلَهُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنْ قَالَتْ إِحْدَانَا لَشَيْءٍ تَشْتَهِيهِ لَا أَشْتَهِيهِ يُعَدُّ ذَلِكَ كَذِبًا، قَالَ: «إِنَّ الْكَذِبَ يُكْتَبُ كَذِبًا حَتَّى تُكْتَبَ الْكُذْبِيَّةُ كُذْبِيَّةً»^(١).

الشَّجَرُ

الكذب لا يُتساهل فيه حتى لو أن الإنسان أخبر بأنه لا يشتهي كذا وهو يشتهي، فهذا كذب، ويكتب كذبًا، ويكتب على صاحبه في ديوان الحفظة كذبًا حتى ولو كانت كُذبية صغيرة، فلا يتساهل الإنسان في الكذب، ولا يقل: هذه كذبة بيضاء، الكذب ليس فيه أبيض وأسود، الكذب كله قبيح، ليس هناك كذبة بيضاء ولا سوداء.



(١) أخرجه أحمد (٤٥ / ٤٦٤) عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كُنْتُ صَاحِبَةً عَائِشَةَ الَّتِي هَيَّأَتْهَا وَأَدْخَلَتْهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعِيَ نِسْوَةٌ قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا عِنْدَهُ قَرَى إِلَّا قَدْ حَا مِنْ لَبَنِ، قَالَتْ: فَشَرِبَ مِنْهُ ثُمَّ نَاوَلَهُ عَائِشَةَ فَاسْتَحْيَتِ الْجَارِيَةَ فَقُلْنَا: لَا تَرُدِّي يَدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُذِي مِنْهُ فَأَخَذْنَاهُ عَلَى حَيَاءٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: «نَاوِلِي صَوَاحِبِكَ» فَقُلْنَا: لَا تَشْتَهِيهِ فَقَالَ: «لَا تَجْمَعْنَ جُوعًا وَكَذِبًا»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ قَالَتْ إِحْدَانَا لَشَيْءٍ تَشْتَهِيهِ لَا أَشْتَهِيهِ يُعَدُّ ذَلِكَ كَذِبًا، قَالَ: «إِنَّ الْكَذِبَ يُكْتَبُ كَذِبًا حَتَّى تُكْتَبَ الْكُذْبِيَّةُ كُذْبِيَّةً».

وَلِلَّزْمِ مَذْيٍّ وَحَسَنُهُ مَرْفُوعًا: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيِلُّ لَهُ وَيِلُّ لَهُ»^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيِلُّ لَهُ وَيِلُّ لَهُ»، وهذا يقع فيه الكثير من الناس المتكاسلين، يريدون أن يضحكوا الناس، ولا سيما في التمثيليات التي كثر الآن، فهذه كذب، فهذا من أشد أنواع الكذب -والعياذ بالله-، ويخترع الكذب من أجل أن ييسط الناس، ويقول شيئا لم يحصل، فالكذب لا يجوز بحال من الأحوال، وديننا دين جد وصدق -ولله الحمد-، ليس بدين هزل وكذب، أما ما لا بأس به إذا كان من جنس مزح الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمزح، ولا يقول إلا حقا، يقول من باب التورية، يقول شيئا على خلاف ظاهره، وهو حق؛ كما في الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ»، فَبَكَتْ عَجُوزٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ يَوْمَئِذٍ عَجُوزًا إِنَّهَا يَوْمَئِذٍ شَابَةٌ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾» [الواقعة: ٣٥]^(٢)، فالمسلمة الكبيرة تُعاد يوم القيامة شابة، وتدخل الجنة شابة في سن الشباب، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مزح عليها، ولم يقل إلا حقا، ما قال كذبا، وفي الحديث: «أَنَّ رَجُلًا اسْتَحْمَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدٍ النَّاقَةِ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، وقال: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ).

(٢) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (ص ٢١٧)، برقم (٣٤٦).

مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ؟»^(١)، فالرجل فهم أنه يحمله على بعير صغير، ولد الناقة يعني: صغير، قَالَ: «مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ النَّاقَةِ؟» قَالَ: «وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا النُّوقُ؟»، فهذا مزح، لكنه حق، وليس فيه كذب.



(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّمَلُّقِ

وَمَدَحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي دَاوُدَ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ سَمِعَ طَارِقَ بْنَ شِهَابٍ يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ وَمَعَهُ دِينُهُ، يَلْقَى الرَّجُلَ لَهُ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ يُثْنِي عَلَيْهِ لَعَلَّهُ أَنْ يَقْضِيَ مِنْ حَاجَتِهِ شَيْئًا، فَيَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَرْجِعَ وَمَا مَعَهُ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ»^(١).

الشَّجَرُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّمَلُّقِ وَمَدَحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ)، وَهَذَا مِنْ أَسْوَأِ الْكَذِبِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، وَهُوَ التَّمَلُّقُ، وَمَدَحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، وَمَدَحِ الْإِنْسَانِ بِوَجْهِهِ، وَكُلُّ هَذَا أَمْرٌ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ التَّمَلُّقَ هَذَا كَذِبٌ؛ لِأَنَّكَ تَمْدَحُهُ، وَأَنْتَ كَاذِبٌ، أَنْتَ فِي قَلْبِكَ تَذْمُهُ، لَكِنَّكَ تَمْدَحُهُ لِمَا قَابَلْتَهُ، وَأَنْتَ فِي نَفْسِكَ تَذْمُهُ، يَا أَخِي! كُنْ صَادِقًا وَلَا تَكْذِبْ، هَذَا مِنْ نَاحِيَةٍ.

(١) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي الْكَبَرَى (١١٨٤٢)، وَأَحْمَدُ فِي الْعِلَلِ (١٨١٦)، وَالتَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (١٠٧/٩)، وَالحَاكِمُ (٤٨٣/٤)، وَالحَلَلُ فِي السَّنَةِ (١٥/٣) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ

والناحية الثانية: فإن مدح الإنسان في وجهه قد يُجعله ويجرجه، فالإنسان إذا مدحته في وجهه، إما أنك تقدره، وإما أنك تحمله على الكبر والإعجاب بنفسه، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاخْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ»^(١)، ولما مدح رجل آخر عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان حاضراً، قَالَ: «وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»^(٢)، فلا يجوز التملق، فالإنسان لا يقول إلا حقاً، أو يصمت ولا يمدح، وكذلك لا يمدح الإنسان حتى ولو كان يمدح بشيء فيه من خصال طيبة، فلا يمدحه في وجهه؛ من أجل ألا يُثقله، أو أنه يحمل على العجب بنفسه والتكبر، فمدح التملق أو مدح الحاضر كذب.

أما مدح أهل الكرم وأهل الجود بما فيهم من الخصال الطيبة في غير حضرته وفي غير مقابلتهم، فلا بأس في ذلك؛ لأن هذا من الاعتراف بفضل ذوي الفضل، فالمدح ليس ممنوعاً مطلقاً، ولكنه يُمنع إذا كان فيه تملق

(١) أخرجه مسلم (٦٩) (٣٠٠٢) عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ، «أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ، فَعَمِدَ الْمَقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا صَخْمًا، فَجَعَلَ يَخْثُو فِي وَجْهِهِ الْخَضْبَاءَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاخْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ» سيأتي في الباب الذي يليه في المتن.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٦٦) (٣٠٠٠) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «أَتَنِي رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»، مِرَازًا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا تَحَالَةَ، فَلْيُثَلِّ: أَحْسِبْ فَلَانَا، وَاللَّهِ حَسِيْبُهُ، وَلَا أَرْكَبِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذًّا وَكَذًّا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ».

ولا حقيقة له، ويُمنع إذا كان بحضرة الممدوح؛ لما في ذلك من التملق، أما إذا خلا من التملق، وخلا من حضرة الممدوح، فلا بأس بذكر فضائل الشخص ومكارم الشخص، والثناء عليه في ذلك، وقد كان الشعراء يمدحون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمدحونه في شعرهم وفي قصائدهم، وأقرهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، وكان يمدحون الكرام، ويمدحون الشجعان، ولا يحصل بذلك الإنكار؛ لأن هذا من الحث على خصال الخير، ومن التشجيع على خصال الخير ونشر المكارم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]).

﴿الرِّجْسُ﴾ يعني: النجس^(١)، و﴿الْأَوْثَانِ﴾: كل ما عبد من دون الله^(٢)، وهي -والعياذ بالله- نجسة نجاسة معنوية، وليست نجاسة حسية، نعم مصنوعة من القش ومن الحجارة، وهي في مادتها طاهرة، لكن نجسة نجاسة معنوية، أي: الشرك، ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾، الأوثان كلها رجس.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، وهذا الأمر الثاني، ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾ هو الكذب، والزور مأخوذٌ إما من التزوير ومن التحسين، وإما من الازورار

(١) انظر: العين (٥٢/٦)، وتهذيب اللغة (٣٠٦/١٠)، والصحاح (٩٣٣/٣)، ومقاييس اللغة (٤٩٠/٢)، ولسان العرب (٩٤/٦).

(٢) انظر: العين (٢٤٢/٨)، وتهذيب اللغة (١٠٥/١٥)، والصحاح (٢٢١٢/٦)، ومقاييس اللغة (٨٥/٦)، ولسان العرب (٤٤٢/١٣).

أو الانحراف، وهو الانحراف عن الاعتدال^(١)، وقول الزور يشمل الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه زور، ويشمل شهادة الزور عند القاضي، ويشمل الكلام المنمق الذي ليس له حقيقة يُجمل، ويُنمق، ويُحسن، وهو ليس له حقيقة؛ من أجل خداع الناس، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»^(٢)، فالبلوغ يتلو الحقائق على الناس ببلاغته، فإن استعمل البلاغة في الخير، فهذا طيب، أما إن استعملها في الشر أو نية الشر، فهذا أمرٌ ذميم وضار، فالبلاغة سلاح ذو حدين، إذا استُعملت في الخير والدعوة إلى الله والبيان، فهي خير، وإن استُعملت في تزيين الباطل، فهي شر.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُخْرَجُ مِنْ بَيْتِهِ وَمَعَهُ دِينُهُ، يَلْقَى الرَّجُلَ لَهُ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ كَيْتٌ وَكَيْتٌ يُثْنِي عَلَيْهِ لَعَلَّهُ أَنْ يَقْضِي مِنْ حَاجَتِهِ شَيْئًا، فَيَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَرْجِعَ وَمَا مَعَهُ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ».

هذا فيه ذم التملق - كما سبق -، وهو إن قصدت رجلاً لك إليه حاجة فما تمدحه بما ليس فيه، وهذا من الكذب، يخرج معه إيمانه ومعه دينه، فيخلعهم عند هذا الرجل بالتملق والكذب، فالواجب على الإنسان أنه يتجنب هذه الخصلة، والله يقبح الرجل البليغ الذي يتخلل بلسانه؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ، كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ»^(٣)، تتخلل البقرة في رعيها للشجر، البقرة تأكل بلسانها، وكذلك الرجل الذي يتأكل بالتملق، فهذا يأكل بلسانه، وهذا مذموم.

(١) سبق (ص ٢٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٥٤).

(٣) سبق تخريجه (ص ١٥٦).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ

عَنْ كَوْنِ الْإِنْسَانِ مَدَّاحًا

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنِيًّا﴾ [النساء: ٤٩].

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ الْمِقْدَادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ، فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ فَبَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا، فَجَعَلَ يَخْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاخْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ»^(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «وَأَيَّاكُمْ وَالْمَدْحَ، فَإِنَّهُ الدُّبْنُ»^(٢).

الشَّجُّ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ كَوْنِ الْإِنْسَانِ مَدَّاحًا) كما سبق، وتكملة لما سبق كون الإنسان مداحًا، والتحذير من الكذب في المدح، والمدح طيب إذا كان في محله، لكن إذا كان في غير محله، فهو كذب أو تملق، فلا يجوز.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنِيًّا﴾ [النساء: ٤٩]).

(١) سبق تخريجه (ص ٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٩/٢٨).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾: يمدحونها، وهذا ذمه الله عزَّ وجلَّ، ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾، الله يعلم سُبحَانَهُ وَتَعَالَى الأَزْكَياءَ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، ولو لم يتكلموا ويمدحوا أنفسهم، أما إذا مدحوا أنفسهم وزكوا أنفسهم، والله يعلم منهم خلاف ذلك، فإن هذا سيؤثر عليهم نقصًا، ويذلهم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهم يريدون الرفعة، ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢]، لكن كيف الجمع بين ذلك وبين قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩]؟!

فالتزكية للنفس على قسمين:

القسم الأول: تزكية مذمومة، وهي مدح النفس، وهذا مذموم.

والقسم الثاني: تزكية النفس بالطاعات، تزكيته يعني: تطهير النفس بالطاعة، والأعمال الصالحة، والتوبة والاستغفار، هذه التزكية مطلوبة، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩]؛ يعني: زكَّى من فعلها بالأعمال الصالحة، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤]، الزكاة يعني: زكاة الأنفس، يُزَكُّونَ أنفسهم بالطاعات، ويفعلون الخيرات، وهذه التزكية ممدوحة ومطلوبة، أما تزكية النفس بمعنى المدح حتى ولو كان عندك هذه الخصال وهذه الأعمال، فلا تمدح نفسك بها، ما تدري هل هي مقبولة عند الله أو غير مقبولة، ثم -أيضًا- هذا يدل على التكبر والعُجب، فلا تمدح نفسك أبدًا، وإنما زكَّ نفسك بالأعمال الصالحة وبالصدق والإخلاص.



بَابُ: مَا يَمْحَقُ الْكَذِبُ مِنَ الْبَرَكَةِ

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِطَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»^(١).

الشَّيْخُ

تقدم في الأبواب السابقة التحذير من الكذب، وفي هذا الباب بيان ما يترتب على الكذب من العواقب الوخيمة، ومن ذلك أنه يمحق البركة في البيع والشراء، فإذا دخل الكذب في البيع والشراء، فإنه يمحق البركة، ولا شك أن مقصود الناس من البيع والشراء هو استثمار الأموال، وتنمية الأموال، والأموال إنما تنمو بالبركة من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس نمو الأموال بالكثرة، قد تكون كثيرة، لكنها قليلة إذا مُحِطَتْ بركتها، وقد تكون قليلة، وتكون كثيرة بالبركة، فقيمة المال إنما تكون بالبركة، ولو كان قليلاً، فإن القليل المبارك فيه كثير، والكثير الذي ليس به بركة لا شيء، أو قليل، فالواجب التنبه لهذا، قد يكذب بعض الناس؛ ليروج سلعة، ويخدع ليربح، ولكن هذا في الحقيقة محقٌ لبركة ماله، ويصبح تعباً بلا فائدة.

فهذا الحديث واضح في أن الصدق في المعاملة يسبب البركة في الكسب.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (٤٧) (١٥٣٢).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْبَيْعَانِ» أي: البائع والمشتري.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِالْخِيَارِ» أي: خيار المجلس بين الإمضاء أو الفسخ ما دام في المجلس، فهذا يسمى خيار المجلس.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا» يعني: من المجلس، فإذا تفرقا لزم البيع.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بُورِكَ لُهُمَا فِي بَيْعِهِمَا» البائع صدق في السلعة، ولم يُخْفِ عيوبها، ولم يكذب في سعرها، والمشتري صدق في الثمن، فلم يُخْفِ فيه عيباً، فإن الله يبارك في بيعهما، يُنزل فيه البركة والنمو؛ جزاءً على الصدق.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» أي: كذب البائع على المشتري، أو كذب المشتري على البائع، فإن الله جَلَّ وَعَلَا لا يخفى عليه شيء، فإنه مطلع على الكذب، ويمحق بركة بيعهما، فيصبح مالاً محقوق البركة، وإذا مُحِقَّتْ بركة المال لم ينتفع به صاحبه إن تصدق لم يُقبل منه، وإن أكل منه وتغذى بالحرام، وإن تركه للورثة حُجِبَ عنه يوم القيامة، وصار زاده إلى النار؛ كما في الحديث.

فهذا الحديث فيه: التحذير من الكذب في المعاملات، والحث على الصدق فيها، ويجب أن يُعلم هذا للتجار وأصحاب المحلات والمعارض أن يُعلم لهم هذا، ولا يكون هذا الحديث مخفياً في الكتب أو في صدور طلبة العلم، ولا يدري عنه التجار، بل يجب أن يُعلم هذا، ويجب على الدعاة إلى الله عَزَّجَلَّ أن يذهبوا إلى الأسواق، وإلى المجمعات التجارية، وأن يُعلنوا

للناس إرشادات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتى يكونوا على بينة، لكن أغلب الدعاة إنما يذهبون إلى المساجد فقط أو إلى المدارس، وهذا شيء طيب، ولكن يغفلون عن المحلات الأخرى، التي هي بحاجة إلى الدعوة إلى الله، وإلى إرشاد الناس.

وكان علماء نجد إلى عهد قريب إلى وقت الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ كانوا يعقدون درسًا في السوق في أثناء الأسبوع، فيتكلمون على أحكام المعاملات، ونصيحة الناس، والآن اختفت هذه الخصلة الطيبة، فيجب أن تُعاد وترجع، وأن الدعاة يذهبون إلى الأسواق وإلى المجمعات التجارية، وأن يرشدوا الناس، ويكون فيها مكبرات صوت، ومجلس للوعاظ والمرشد والمفتي، فهم بحاجة -أيضًا- إلى من يُفتيهم؛ حتى تكون معاملات المسلمين نزيهة وواضحة، وحتى لا يحتجوا ويقولوا: «ما درسنا، وما درينا»، فتكون العهدة على طلبة العلم وعلى الدعاة.

فهذا الحديث فيه فوائد:

الفائدة الأولى: ثبوت خيار المجلس، فإذا تعاقدنا على البيع، فلكل واحدٍ منهما الخيار -خيار المجلس-، إن شاء، أمضى، وإن شاء فسخ قبل أن يقوم.

الفائدة الثانية: فيه الأمر بالصدق في المعاملة، والنهي عن الكذب.

الفائدة الثالثة: فيه فائدة الصدق في المعاملة، ومضرة الكذب في المعاملة.

فبعض التجار أو بعض أصحاب المحلات يعتبرون الخديعة والكتمان على الناس من الحذق في البيع والشراء، وهذا غلطٌ كبير، هذا ليس من الحذق، هذا من الغش والخديعة، فعندهم الذي يصدق هذا يعتبرونه مغفلًا الآن، الذي يصدق يقولون: «هذا مغفل!!»، وأما الذي يكذب ويخدع، فهو حاذق في البيع والشراء!! هذه المصيبة الآن!



بَابُ: مَنْ تَحَلَّمَ وَلَمْ يَرِ شَيْئًا

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُفْلٌ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ»^(١).

الشَّجَرُ

قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ: مَنْ تَحَلَّمَ وَلَمْ يَرِ شَيْئًا)، كذلك من الكذب شديد الإثم الكذب في الرؤيا، الرؤيا حق، وقد جاء في الحديث: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ»^(٢)، وفي الحديث: «أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ»^(٣) صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرؤيا الصادقة، والرؤيا حق، وإما أن تكون رؤيا خير، وإما أن تكون رؤيا شر، فلا يجوز للإنسان أن يكذب فيها؛ لأنه يُخْبِرُ عن الله؛ لأن الرؤيا الحق من الله جَلَّ وَعَلَا، الرؤيا الحق الله أراد إيها، فإذا قال: «رأيت كذا»، فهو يكذب على الله أن الله أراه كذا، والله لم يره، الله لم يره هذا، فذلك يُكَلِّفُ يوم القيامة عقوبة أنه يعمل المستحيل،

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُفْلٌ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ، وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ صَبَّ فِي أُذُنِهِ الْأَنْكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةَ عَذْبٍ، وَكُفْلٌ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا، وَلَيْسَ بِنَافِعٍ».

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (٢٥٢) (١٦٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وهو العقد بين حبتي شعير، ولا يمكن هذا، ما يمكن أن تعقد حبتين من الشعير بعضهما ببعض كما تعقد الحبل، هذا مستحيل!! لكنه يُعَذَّب، ويُكَلَّف المستحيل - والعياذ بالله -؛ عقوبةً له، فهذا فيه التحذير من الكذب في الرؤيا، وأن الإنسان لا يكذب، ويقول: «رأيت كذا وكذا في المنام»، وهو كذاب.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَحَلَّمَ» يعني: تكلف الحلم، ادعى الحلم، وهو لم يقع، فيكون قد كذب على الله عَزَّجَلَّ، وإنه تكلف بالمستحيل عقوبةً له بأن يعقد بين شعيرتين، مثلما يُكَلَّف المصور يوم القيامة أن ينفخ الروح في كل صورةٍ صورها؛ تعذيباً له، وليس بنافع، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ، وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا، وَلَيْسَ بِنَافِعٍ»؛ لأن نفخ الروح إنما هو من خصائص الله جَلَّ وَعَلَا، وكذلك العقد بين شعيرتين هذا من المستحيل، لا يمكن، وليس بعاقب.



بَابُ ذِكْرِ مَرَضِ الْقَلْبِ وَمَوْتِهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَتَيْنَا ثَقُفُوا أَخْذُوا وَقَتِّلُوا تَفْتِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

الشَّجَّ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ ذِكْرِ مَرَضِ الْقَلْبِ وَمَوْتِهِ)، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١)، فالقلب هو ملك الأعضاء، والجوارح والأعضاء كلها كالخادم له، والسمع والبصر منافذ إلى القلب، إما أن تدخل إليه الخير، أو تدخل إليه الشر، فهذه منافذ للقلب، وكذلك المآكل والمشارب تؤثر على القلوب، إن كانت طيبة أثرت في القلوب تأثيراً طيباً، وإن كانت سيئة أثرت على القلب تأثيراً سيئاً؛ ولهذا جاءت هذه الكلمة في آخر الحديث السابق: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ»، الحلال يُصْفِي القلب وَيُطَيِّبُهُ، ويعينه على مخافة الله عَزَّجَلَّ، ويعينه على التفكير والتدبر والتذكر، فهو غذاءٌ قيمٌ.

وأما إن كان الغذاء خبيثًا، فإنه يؤثر على القلب، إذا كان منه غذاء من الحرام، أو من المشتبه الذي لا يُدرى هل هو من الحلال أو من الحرام، فإنه يغذى تغذية سيئة يتأثر بها القلب، وكذلك الكذب يؤثر على القلب، فإذا كذب ينكت في القلب نكتة سوداء، وإذا كذب ثانيًا وثالثًا زادت هذه النكتة حتى تغطي على القلب كله، فيصبح أسود -والعياذ بالله-، والقلب يمرض ويموت ويقسو وله آفات فيمرض ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠] مرض قلبي ليس مرضًا جسميًا، القلب يمرض مرضًا معنويًا، وقد يمرض مرضًا عضويًا، فهذا يُعالج عند الأطباء المرض العضوي، لكن المرض المعنوي هذا يُعالج بالتوبة والاستغفار وذكر الله عزَّ وجلَّ، هذا علاجه، وإذا تعالج عند أحذق الأطباء ما يُشفى؛ لأن مرضه ليس عضويًا، مرضه معنوي، وهو أشد من العضوي، فالقلب يمرض، ثم يزيد عليه المرض، حتى يموت أو يقسو: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَّخِذُ الْبَشَرُ لَهَا مَوَاقِعَ ﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦]، يقسو القلب -والعياذ بالله-، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي؛ كما في الحديث^(١)، ويحتم عليه فلا ينفذ إليه خير، وهذا في قلوب الكفار.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١١) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي».

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[البقرة: ٦-٧]؛ لأنهم لما لم يقبلوا الدعوة لما جاءهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعاهم ولم يقبلوا، فختم الله على قلوبهم، فصارت لا تقبل خيراً، ولا ينفذ إليها نور بسبب أنهم رفضوا الحق، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْسِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، فالقلب يُخْتَمُ عليه، ويُطْبَعُ عليه، ويُغْطَى بالران: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، من الإثم والمعاصي، فإنها رانت على قلوبهم وغطتها ويُقفل عليها: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَفْئَرَاءَ أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [حمد: ٢٤]، وهذا أشد، أشد شيء الإقفال عليها -والعياذ بالله-، وهذه الأمور أنواع من مرض القلب، أنواع متنوعة، بعضها أشد من بعض، وسببها كسب العباد، فإذا أردت أن يصلح قلبك، فعليك بالأعمال الصالحة، وعليك بالتوبة والاستغفار، وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَنُظِّمُوا قُلُوبَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فإذا أردت أن تستفيد من قلبك، فعليك بذكر الله، ذكر الله بالصلاة بالصيام بالعبادة بتلاوة القرآن بسماع المواعظ، كله ذكر يصلح الله به القلب، كل من الحلال، واترك الحرام، وإلى غير ذلك من الأمور، فصلاح القلب له أسباب يفعلها الإنسان، وخراب القلب له أسباب يفعلها الإنسان،

اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غَشَوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

[البقرة: ٦-٧].

والصنف الثالث: قوم آمنوا في الظاهر، ولكنهم عصوا في الباطن، وهم المنافقون، أعلنوا الإسلام في الظاهر، وأبطنوا الكفر في قلوبهم؛ من أجل المخادعة؛ من أجل أن يعيشوا مع المسلمين، ويريدون عرض الدنيا فقط، فهم قبلوا الإسلام ظاهراً ورفضوه باطناً، هذا هو النفاق -والعياذ بالله- النفاق الاعتقادي الذي صاحبه في الدرك الأسفل من النار، وهم تحت الصنف الذي قبلهم، وهم الكفار، هم في الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيراً ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١) ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٠]، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾، هذا هو السبب، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يكذبون في دعوهم الإيمان، وهم غير صادقين.

ثم ذكر الآيات، وذكر في المنافقين بضع عشرة آية في هذه السورة، ذكر فيها من صفاتهم القبيحة، مما يدل على خطر النفاق -والعياذ بالله-، وهو ناشئ عن مرض في القلب، وهذا المرض ليس مرضاً عضوياً، يمكن أنه من أصلح الناس قلباً من جهة العضوية، لكنه مريض معنوياً، وهو مرض الشك والكفر والنفاق، وهذا أشد من مرض العضو.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْهَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا

﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا ﴿[الأحزاب: ٦٠-٦١]﴾، وهذا في سورة الأحزاب، لما ذكر الله قصة الأحزاب وما انتهت إليه من نصر المسلمين بعدما جرى على المسلمين من الشدة والكربة، فرج الله عنهم ونصرهم، ورد عدوهم من غير قتال، ولم ينل عدوهم خيراً، والذي هزمهم هو الله جَلَّ وَعَلَا، أرسل عليهم ملائكة، وأرسل عليهم ريحاً كفأت قدورهم، وقلعت خيامهم، وحصبتهم بالحصباء، مع ما أصابهم من الرعب، وأسرعوا إلى الرحيل والرجوع إلى مكة خائبين ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وكان في المدينة منافقون سارعوا إلى الأحزاب، وفرحوا على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، سارعوا إلى الأحزاب وتكلموا وقالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وهذا الرجل يزعم أننا سنفتح فارس والروم، والآن أحدنا ما يستطيع يذهب ليتبول إلا ومعه حرس، يقولون هكذا^(١)، يعني: يسخرون من دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن أخبارها، وأنه يفتح فارس والروم، وأنه يستولي على أموال الناس وبلاد الناس، وهو الآن ما نستطيع أننا نتبول من الخوف، يرجفون في المدينة، هذا هو الإرجاف، فهم في قلوبهم مرض، وفي قلوبهم شك، ويرجفون بالناس عندما تحصل شدة أو تحصل كربة بالمسلمين يفرحون بها، ويرجفون بالناس، ويقولون: هذا دليل على كذب هذا الرجل فيما يقول، أنتم الذين وقفتم معه....، وإلى آخره.

(١) قائل هذا هو مُعْتَبَرُ بْنُ قُشَيْرٍ أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وقال هذا الكلام في غزوة الأحزاب. انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٢٢)، والروض الأنف (٤/٢١١)، (٦/٢٠٧)، وعيون الأثر (٢/٩٠)، وتفسير الطبري (١٩/٣٠).

ولكن الله جَلَّوَعَلَا فضحهم وأخزاهم وتوعدهم، وَقَالَ: ﴿لَيْنَ لَمْ يَنْهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، ويشيعون الشائعات من أجل إرجاف المسلمين وتخويف المسلمين، ويكذبون الأكاذيب، فإن لم ينتهوا عن هذا، فإن الله يسلط عليهم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠]، فيطردهم من المدينة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيَنَّا نَقُفُوا أُخْذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١] ﴿مَلْعُونِينَ﴾ أي: مطرودين من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿مَلْعُونِينَ أَيَنَّا نَقُفُوا أُخْذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الذِّبِّ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١-٦٢]؛ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الذِّبِّ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾، فالأمم الكافرة السابقة محقهم الله، وأهلكهم، وهؤلاء مثلهم إن لم يتوبوا وينتهوا، وهذا تهديد من الله جَلَّوَعَلَا.

فالحاصل: أن مرض القلب خطير، وينشأ عنه هذه الآثار القبيحة: الإرجاف، التخويف للناس، نشر الشائعات ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، فإذا سمعوا شائعة أو خبرًا طاروا به فرحًا، وأشاعوه بين الناس دون تثبت؛ لأجل أن يفرقوا بين المسلمين، ويؤثروا على ضعاف الإيمان، ويصدوا من يريد الدخول في الإسلام، هذا قصدهم، الله جَلَّوَعَلَا هددهم وتوعدهم، والسبب في هذا مرض قلوبهم، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾

هو السبب، وسبب لهم كل هذه الإفرازات الخبيثة هو المرض الذي في
القلوب -نسأل الله العافية-.



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو بِهَا قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ^(١).

الشَّيْخُ

هذا بيانٌ لسببٍ آخر من أسباب مرض القلب، وهو السيئات والذنوب.

من أسباب مرض القلب وقسوته وموته إلى آخر الآفات القلبية هي الذنوب، فإذا أذنب العبد نكت بقلبه نكتة سوداء، القلب الأصل أنه أبيض نظيف، لكن إذا أذنب هذا المؤمن ذو القلب النظيف الأبيض نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن عاد إلى الذنب زادت هذه النكتة حتى تغطي قلبه، فذلكم الران الذي قال الله جَلَّ وَعَلَا فِيهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ يعني: غطاها ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] من المعاصي والسيئات.

أما إذا تاب -وما أحد معصوم من الذنب-، «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(٢)، ما أحد معصوم إلا الرسل -عليهم الصلاة

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والنسائي في الكبرى (١٠١٧٩)، وأحمد (٣٣٣/١٣).

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٥).

والسلام- فيما عُصموا به، وإلا فكل مسلم معرض للخطأ، فالمؤمن إذا تاب تاب الله عليه، وذهبت هذه النكته، وانغسلت بالتوبة، وعاد القلب أبيض كما كان، فهذا مما يحث المسلم على المبادرة إلى التوبة؛ لأجل أن يصفو قلبه مما أصابه، ولا يتساهل بالذنوب، ويقول: هذا شيء سهل، والناس عندهم أكثر من هذا، أو ما أشبه ذلك، أو إن شاء الله أريد أن أتوب بعد ذلك، وبعض الناس يقولون له: تب، يقول: ما أريد؛ لأن الشيطان يسول له هذا، فالإنسان ما يؤجل التوبة، بل يبادر بها؛ حتى ينظف قلبه من هذه الآفة.

وفي الحديث أثر الذنوب على القلب، وفيه أن علاج ذلك إنما هو بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فالمرض العضوي نعالجه بالعمليات عند الأطباء، لكن المرض المعنوي أنت عالج، والعلاج ميسر، أنت تعالجه بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تنفق أموالاً، ويمكن أن تنجح أو لا تنجح، ما يحتاج هذا، كلمة واحدة تقولها بصدق، فتجلو قلبك، أنت تقول: أستغفر الله، وأتوب إليه بصدق، فتجلو قلبك، ولا تحتاج دراهم، ولا تنويًا بالمستشفى، ولا تخديرًا، ولا شيئاً.



قَالَ الْأَعْمَشُ: «أَرَأَيْتَ مُجَاهِدٌ بِيَدِهِ فَقَالَ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْقَلْبَ فِي مِثْلِ هَذَا، يَعْنِي: الْكَفَّ، فَإِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا ضَمَّ مِنْهُ، وَقَالَ بِأُصْبُعِهِ الْخِنْصِرَ هَكَذَا، فَإِذَا أَذْنَبَ ضَمَّ، وَقَالَ بِأُصْبُعٍ أُخْرَى، فَإِذَا أَذْنَبَ ضَمَّ، وَقَالَ بِأُصْبُعٍ أُخْرَى هَكَذَا، حَتَّى ضَمَّ أَصَابِعَهُ كُلَّهَا. قَالَ: ثُمَّ يُطْبَعُ عَلَيْهِ بِطَائِعٍ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّيْنُ». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ عَنْ وَكِيعٍ عَنْهُ بِنَحْوِهِ^(١).

وَعَنْ مُجَاهِدٍ -أَيْضًا- قَالَ: «الرَّانُ أَيْسَرُ مِنَ الطَّبْعِ، وَالطَّبْعُ أَيْسَرُ مِنَ الْإِقْقَالِ»^(٢).

الشَّيْخُ

هذا الأثر يفسر الحديث الذي قبله بالمثال، فكلما أذنب العبد انطبق إصبع من أصابع اليد حتى تنطبق خمسة الأصابع، أراهم المثال المحسوس بكفه، وهذا من بعض الأمثال التي تقرب المعاني، كيف يغشى الران على القلب؟ كلما أذنب ذنبًا، وبسط كفه، ثم أخذ يقبض كل أصبع حتى تكاملت الخمسة، كذلك الذنوب تتوارد على القلب، وكل ذنب يغطي جزءًا منه، كما يغطي الأصبع جزءًا من الكف، حتى إذا تكاملت الخمسة تغطي الكف كله، كذلك القلب تكامل غطاؤه، فيكون هذا هو الران، وهو الطابع على القلب -والعياذ بالله-.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦٦/١)، وابن كثير (١٧٤/١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦٦/١)، وابن كثير (١٧٤/١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدٌ فِيهِ مِثْلُ السَّرَاجِ يَزْهَرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفٌ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُضْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ: فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ، ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُضْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيْمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمِثْلُ الْإِيْمَانِ فِيهِ كَمِثْلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمِثْلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمِثْلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالِدَمُّ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ» (١).

الشَّجَّ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَلْبٌ أَجْرَدٌ فِيهِ مِثْلُ السَّرَاجِ يَزْهَرُ» «أَجْرَدٌ»: مَمْنُوعٌ من الصرف على وزن أفعِل، وفيه مثل السراج، أجرد يعني: أبيض، وهذا الأصل في قلب المؤمن أنه أبيض، وفيه مثل السراج نور من الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا ما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا قلب المؤمن، هذا مثال لنور الله في قلب المؤمن كمشكاة، وهي الفتحة الموجودة في الجدار، وفيها مصباح مضيء؛ لأن المصباح عندما

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩/١٧)، والطبراني في الصغير (٢٢٨/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣٨٥/٤).

يكون في كوة، فإنها تجمع النور، فيكون النور أقوى، أما لو كان السراج في الفضاء، يتبدد نوره، فإذا كان في كوة أو فتحة من الجدار يجتمع نوره، ويكون أقوى، فقلب المؤمن في قدره مثل المصباح في الكوة أو في المشكاة، ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ [النور: ٣٥]، هذا أصفى للنور -أيضاً-؛ إذا كان المصباح داخل زجاجة، فيجتمع نور المصباح ونور المشكاة ونور الزجاجة، فيكون النور أقوى، ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا مثل نور الله في قلب المؤمن، وهو النور المخلوق؛ لأن النور على قسمين: نورٌ مخلوق، وهو نور الإيوان، ونور الشمس، والقمر، والنجوم، فهذا نورٌ مخلوق، ونور الكهرباء، ونور المصابيح، هذا نورٌ مخلوق، ونورٌ هو صفة من صفات الله؛ -نور وجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، هذا صفة من صفات، ومن أسمائه النور، ووصفه النور، وكلامه نور، ووحيه نور.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ»، قلبٌ أجرد فيه مثل السراج يزهر، وهذا قلب المؤمن وفيه الإيمان، السراج يعني: الإيمان، وهذا النوع الثاني: قلبٌ أغلف، يعني: عليه غلاف، ولا هو غلافٌ مفتوح، غلافٌ مربوط -والعياذ بالله- غلافٌ مربوط على القلب، فهذا قلب من؟ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ»، نعم، القلب المنكوس هذا قلب المنافق، والقلب الأغلف هذا قلب الكافر، فهي أربعة أنواع:

قلب المؤمن أجرد ما عليه أي أذى أو أي شيء، وهذا فيه مثل السراج.
والقلب الثاني: قلبٌ أغلف مربوطٌ بغلافه، وهذا قلب الكافر، قالت
اليهود: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]؛ يعني: ما نسمع لك يا محمد؛ لأن
قلوبنا مغلقة، لا نسمع لك، فلا يصل إلينا الكلام، وهم يكذبون، والله جَلَّ وَعَلَا
ما أغلقها عن قبول الوحي، لكن هم الذين أغلقوها عن قبول الخير، ﴿وَقَالُوا
قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]؛ لكفرهم يعني:
منهم هم، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فلو أنهم استجابوا لرسولهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأكرمهم،
لكنهم هم الذين تسببوا في إغلاق قلوبهم، ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا
يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، هذا قلب الكافر.

القلب الثالث: القلب المنكوس، وهو قلب المنافق؛ لأنه عرف الحق،
ثم رفضه، فانتكس، المنكوس يعني: انتكس؛ لأنه عرف الحق، ولكنه رفضه،
أما الكافر فهو أصلاً ما أراد، ولا عرف الحق، ولم يلتفت إليه.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُنْكَوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ، ثُمَّ أَنْكَرَ»:
يقصد المنافق النفاق العملي، النفاق الأصغر، هذا يكون منه النفاق، وأما
الخالص، فهذا ليس فيه إيمان أصلاً، وهذا النفاق الاعتقادي.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُضْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيْمَانٌ وَنِفَاقٌ»، وهذا
النفاق الأصغر، النفاق العملي، النفاق على قسمين: النفاق الاعتقادي، وهذا
قلبه منكوس - والعياذ بالله - رأسه على عقبه؛ لأنه عرف الحق وتركه، والقلب
المضفح هذا قلب المؤمن الذي عنده نفاق، عنده بعض صفات النفاق، وهو

نفاقٌ عملي، وهو على حسب ما يغلب عليه، إن غلب عليه الخير سلم، وإن غلب عليه الشر هلك، فبحسب ما يغلب عليه من المادتين، والقلب المصفح هو القلب الرابع.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبُقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالِدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ»، هذا قلب المنافق النفاق العملي، وهو المؤمن الذي فيه نفاق، وهذا هو الخطير، النفاق الأصغر هذا المؤمن ما يدخل فيه، لكن الذي خافه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو النفاق الأصغر؛ كما في الحديث: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»^(١)، هذا نفاق خفي، ويقع من بعض المؤمنين وهو خطير جداً، ولكن حسب ما يغلب عليه، إن كان الإيمان غلب عليه صار من أهل الإيمان، وإن كان غلب عليه النفاق صار من أهل النفاق، وهذا دليل على أن النفاق العملي يؤدي إلى النفاق الاعتقادي، ويدل على خطر النفاق الاعتقادي.



(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤)، وأحمد في المسند (٣٥٤ / ١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٥ / ٩).

بَابُ ذِكْرِ الرِّضَاءِ بِالمَعْصِيَةِ

رُويَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «هَلَكْتُ إِنْ لَمْ يَعْرِفْ قَلْبُكَ
المَعْرُوفَ، وَيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ»^(١).

الشَّرْحُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: ذِكْرِ الرِّضَاءِ بِالمَعْصِيَةِ)، الرضا ضد الكراهية،
والكراهية والرضا متقابلان، والرضا معناه: أن النفس لا تنفر من الشيء،
والكراهية هي: أن النفس تنفر من الشيء ولا يلائمها، والمعصية هي:
المخالفة لأمر الله، أو أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو لأمر ولي أمر المسلمين في
غير معصية الله، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، الله أمر بطاعته وطاعة رسوله وطاعة ولاية
أمر المسلمين، وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ أي: من المسلمين، فإذا كان ولي الأمر
مسلمًا، فإنه تجب طاعته في غير معصية الله ورسوله، والمعصية هي المخالفة،
والله جَلَّ وَعَلَا ييغض المعاصي ويكرهها، ولا يرضى لعباده الكفر، والمؤمن يجب
ما أحبه الله، ويبيغض ما أبغضه الله من الأعمال ومن الأشخاص، تكون
محبه وكراهيته تابعة لمحبة الله وكراهية الله، فهذا هو المؤمن يجب ما أحبه
الله ورسوله، ويكره ما يكره الله ورسوله، هذا مقتضى الإيمان، والله يكره

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٧/٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧١/١٠)، وأبو نعيم
في الحلية (١٣٥/١)، وابن أبي شيبة (٥٠٤/٧).

المعاصي والمخالفات، ويكره العصاة والمخالفين، كل بحسب مخالفته، قد تكون كراهية خالصة، وقد تكون كراهية من وجه، فكراهية المؤمن ومحبة المؤمن تدوران مع محبة الله وكراهية الله، هكذا المؤمن، وهذا من علامات الإيثار، فالذي يرضى بالمعصية، هذا يرضى بما يكرهه الله، فيكون مخالفاً لله عَزَّوَجَلَّ، يكون هذا إما منافياً للإيمان، وإما منقصاً للإيمان بحسب درجات تلك المخالفة، وهذا أصل عظيم: أن المؤمن ينظر إلى ما يحبه الله فيحبه، وينظر إلى ما يكرهه الله فيكرهه.

وقد جاء في الأثر عن بعض السلف: (لا يكون الإنسان مؤمناً حتى يكون ما يكرهه الله أمر عليه من الصبر)، أمر في ريقه من الصبر، هذا هو المؤمن، فالمؤمن لا يرضى بالمعصية، سواء منه، أو من غيره، سواء رآها، أو بلغته، يعني: سواء شاهدتها، أو بلغته في أي مكان، يكرهها ويبغضها.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (رُويَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «هَلَكْتَ إِنْ لَمْ يَعْرِفْ قَلْبُكَ الْمَعْرُوفَ، وَيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ»)، لا بد من إنكار المنكر بالقلب، وهذا هو بغض المعاصي، بغض المعاصي إنكار المنكر بالقلب، هذا لا بد منه، من لم يكن في قلبه إنكار للمنكر، فليس بمؤمن، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١)، وفي رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٧٨) (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٨٠) (٥٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهكذا يروى عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هلك من لم ينكر المنكر بقلبه»، فالمدار والأصل على القلب، ولا بد من هذا، ولا أحد يمنع من كراهية القلب، ما أحد يستطيع يسيطر على قلبك إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا أحد يجبرك على أن تحب المعصية أبدًا، ولا أحد يمنعك من أن تكره المعصية، ما أحد يسيطر على القلوب إلا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، أما اليد وأما اللسان، فهذا حسب الاستطاعة، وأما إنكار المنكر بالقلب، فهذا كُلُّ يستطيعه، ولا أحد يمنع من كراهية القلب أو محبة القلب أبدًا إلا الله جَلَّ وَعَلَا، فهذا معنى قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذَا الْأَثَرِ أَخَذًا مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»، وفي رواية: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَزْدَلٍ»، وعلامة أن الإنسان يكره المنكر بقلبه أنه يبعد عنه، أما أن يقول: أنا أكره المنكر بقلبي، وهو لا يتعد عنه، فهذا ليس بصحيح، فإذا كان صادقًا في أنه يبغض المعاصي، ويكره أهلها، فإنه يتعد عنها، ولا يجالسهم ولا يشاركهم إلا على وجه المناصحة والدعوة إلى الله عَزَّجَلَّ، أما أن يجالسهم ويضاحكهم ويستأنس بهم، ويقول: «أنا منكر بقلبي لأعمالهم، وأرى أنهم يعصون الله، لكن أنا أكره بقلبي»، ويجالسهم ويأكلهم ويشاربهم، فإن بني إسرائيل كان ينهى بعضهم بعضًا عن المعصية، ثم بعد ذلك لا يمنعهم أن يجالسوا أهل المعاصي، وأن يؤاكلوهم ويشاربوهم، ولما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا

عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ
فَعَلُوهُ ﴿المائدة: ٧٨-٧٩﴾، وقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية بأن أحدهم
كان يلقي أخاه على المعصية فينهاه، ثم يلقاه فينهاه، ثم بعد ذلك يترك النهي
ويجالسه ويشاربه، يقول: «أنا نهيته وأنكرت عليه»، فلما رأى الله ذلك منهم
لعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَام^(١)، فهذا شيء واضح أنه لا
بد من إنكار المنكر بالقلب، وأن علامة الصدق في ذلك أن يتعد عن مواطن
المنكرات، ولا يجالس أهلها ويستأنس بهم.

أما أنه يجلس معهم، ويأتيهم التعليم والإنكار والدعوة إلى الله، هذا
شيء مطلوب، أما أنه يجلس معهم على وجه المؤانسة وعدم الإنكار عليهم،

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٨)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، وأحمد (٢٥٠/٦)،
وأبو يعلى في مسنده (٤٤٨/٨)، والطبراني في الأوسط (١٦٦/١)، والبيهقي في الكبرى
(٩٣/١٠) وشعب الإيمان (٧٩/٦)، وعبد الرزاق في تفسيره (١٩٤/١)، والطبري في
تفسيره (٣١٨/٦)، وابن أبي حاتم (١١٨١/٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى
الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ،
فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكْمَلَهُ وَشَرِيهَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ
بِبَعْضٍ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَيَقُوتُ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١]، ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْضُرَنَّهُ عَلَى
الْحَقِّ قَضْرًا».

وهذا الحديث يُروى مرسلاً ومتصلاً، قال الدارقطني في العلل (٢٥٢/٥): (المرسل
أصح من المتصل) اهـ.

فهذا هو المذموم، وهو الذي رتب الله عليه اللعنة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الْمُسِيءِ، وَلَتَأْطُرَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبٍ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ لَيُلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»^(١).

قد لا يكون لك قدرة تنكر باليد، وقد لا يكون لك قدرة تنكر باللسان، لكن القلب ما أحد يمنعك أبدًا، ما أحد يمنعك أن تنكر بقلبك، وإذا أنكرت بقلبك ما يجوز لك أن تبقى مع العصاة من غير إنكار عليهم.



(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ»^(١).

الشَّرْحُ

«فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»، هذا هو معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»، هذا معنى الجهاد الذي باليد. «وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»، هذا معنى الجهاد باللسان الإنكار والبيان.

«وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ» يعني: كره ما هم عليه بقلبه، ولا يقدر على الخصلتين الأوليين -الإنكار باليد أو باللسان- أنكر بقلبه، وهذا حد استطاعته، هذا هو حد استطاعته، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، «فَهُوَ مُؤْمِنٌ»، ولكن من خلا من هذه الخصال الثلاث تجاه المنكر، فلا ينكره بيده، ولا ينكره بلسانه، ولا ينكره بقلبه، فليس في قلبه من الإيمان حبة خردل.

(١) أخرجه مسلم (٨٠) (٥٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فدل على أنه لا بد من الإنكار بالقلب، وأن كل أحد يستطيع أن ينكر بقلبه، أما اليد واللسان، فهذا بحسب الاستطاعة، فإذا لم يستطعها سقطا عنه، لكن الإنكار بالقلب لا يسقط عنه، لا يسقط عنه بحال، «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ»؛ يعني: أتباع، الحواريون هم الأتباع والتلاميذ، ومنه الحواريون الذين كانوا مع المسيح عيسى ابن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان معه الحواريون، أي: التلاميذ والأتباع، الذين يأخذون عنه، ويقتدون بهديه، ويستنون بستته، كل الأنبياء كذلك، ومنهم نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له حواريون، وهم أصحابه الذين صحبوه وتبعوه وحملوا عنه العلم، هؤلاء هم حواريو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ»، ثم إنه بعدهم، بعد الحواريين وبعد الأتباع يخلف بعدهم خلوف؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ﴾ [مريم: ٥٩]، خلوف جمع خلف - بإسكان اللام -، أما الخلف - بالفتح -، فهو محمود، الخلف محمود، أما الخلف، فهو مذموم، «تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ».

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، هذا ذم لهم، فهم رضوا بالدنيا، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقولون ما لا يفعلون، يتكلمون بألستهم بالعلم والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن بالألسنة فقط، ولا يعملون هم بذلك، وهذا فيه ذم عدم العمل بما يقوله الإنسان

من العلم، وأن الإنسان إذا تكلم بالعلم، فإنه يجب عليه أن يمثل أن يكون هو أول من يطبق، وينفذ هذا العلم، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، يقول الله جلَّ وعَلَا لبني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، فالواجب على العالم والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والداعي إلى الله أن يكون أول من يمثل، ويكون هو القدوة الصالحة، يقول الشاعر^(١):

لَا تَنَهَ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارَ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

كيف تنهى عن خلق وتأتي مثله؟! هذا عار عليك، نعم من العار أن تنهى عن أمر قبيح، ثم تفعل مثله.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ»،

أفعالهم تخالف أقوالهم، وأيضًا: يفعلون أفعالًا لم يؤمروا بها، هذا هو الابتداع في الدين، فيتركون ما أمروا به، ويفعلون ما لم يؤمروا به من البدع والمحدثات، فهذا فيه ذم لأهل البدع الذين يفعلون ما لا يؤمرون، وواجب أن يكون المسلم متبعًا لا مبتدعًا، فلا يفعل إلا ما أمر الله به ورسوله، ولا يكتم شيئًا من علمه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»^(٢)، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٣)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ مَنْ

(١) البيت نُسِبَ لأكثر من شاعر فقد نسبهُ للمتوكل الكِنَانِي كل من الفراهيدي في الجمل في النحو (ص ٩٥-٩٦)، وابن سلام في الأمثال (ص ٧٤)، وابن عبد ربه في العقد الفريد (٢/٢٢٩)، والعسكري في جمهرة الأمثال (٢/٣٨)، ونسبه سيبويه للأخطل في الكتاب (٣/٤١-٤٢)، ونسبه لأبي الأسود الدؤلي ابن حزم في رسائله (١/٤١٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/٦٧٤).

(٢) سبق تخريجه (ص ٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) واللفظ له من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١)، فالواجب أن تكون أفعال الإنسان موافقة لما أمر الله به، وأمر به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يفعل فعلاً لم يأمر به في الشرع، ويتقرب به إلى الله، هذا في الأمور الدينية تكون أفعال المؤمن مطابقة لأوامر الله ورسوله، ويكون متجنباً لما لم يشرعه الله ورسوله، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، هذا هو المؤمن.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ جَاهَدَهُمْ»، الجهاد هنا للإنكار؛ لأن الجهاد يكون بالسلاح، ويكون باللسان، ويكون بالإنكار، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَتِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، الكفار يجاهدون بالسلاح، وأما المنافقون، فيجاهدون باللسان ما يفعلون من المعاصي ينكر عليهم بالقول وبالكتاب، ورد الشبهات التي يلقون بها من الجهاد في سبيل الله، الجهاد ليس قاصراً على السلاح وخوض المعركة، بل الجهاد أنواع: الأول: أن يجاهد الإنسان نفسه.

الثاني: أن يجاهد الشيطان بمخالفة أمره وفعل نهيهِ، فجهاد الشيطان، أن تترك ما يأمرك، وأن تفعل ما ينهاك عنه.

الثالث: جهاد العصاة المخالفين من المؤمنين، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الرابع: جهاد المنافقين، وذلك بالرد عليهم، وكشف شبهاتهم، وفضح سرائرهم؛ حتى يُعرفوا أمام الناس، ولا يغتر بهم.

الخامس: جهاد الكفار والمشركين، وذلك بالسلاح وخوض المعارك.

فالجهاد أنواع، ومعنى «جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ» هنا يعني: أنكر عليهم بلسانه، «فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ»، وذلك بأن ينكر عليهم، إذا كان له سلطة ينكر عليهم باليد بإزالة المنكر، ويزيل المنكر، لا يكفي أنه ينهى عنه فقط، بل لا بد من إزالته، من هدم أوكار الفساد، وإتلاف آلات اللهو والمعاصي والمخالفات، وضرب العصاة؛ تعزيراً وتأديباً لهم، وإقامة الحدود عليهم إذا اقتضى الأمر أنه باشر ما يوجب الحد، هذا الإنكار باليد إقامة الحدود، وهذا بيد السلطان أو نائبه، أو نائب السلطان، أو رجال الحسبة؛ لأنهم نواب عن السلطان، فلا أحد يعترض عليهم؛ لأن هذه مهمتهم، وهذه صلاحيتهم، وكذلك صاحب البيت، صاحب البيت ينكر على من في بيته بيده، له سلطة، ولا أحد يعترض عليه، حتى ولي الأمر ما يدري عما في بيته، أنت المسؤول عنهم، فلك سلطة على أهل بيتك تنكر باليد وتهدد، ولا أحد يدري عما في بيتك، لو جاء أحد يريد أن ينكر على من في بيتك اعترضت عليه لماذا ينكر، فمهمة البيت في عنقك أنت الراعي، «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١)، أنت راعٍ عليهم، هذا الإنكار باليد.

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (٢٠) (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الإنكار باللسان للذي ليس له سلطة، هذا ينكر باللسان إذا كان عنده علم معرفة ينكر باللسان ببيان الحق، والرد على الباطل بلسانه بالخطب بالمحاضرات بالدروس، ينكر المنكر بلسانه، وينهى عنه، ينهى عن المنكر، ويحذر منه، هذا من الإنكار باللسان، أو إذا رأيت المخالف تنصحه، إذا رأيت من يقع بالمعصية تنكر عليه بلسانك بأن تنصحه وتعظه وتذكره بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، هذا الإنكار باللسان، ولا تسكت، فإذا لم تستطع هذا ولا هذا، فلا بد من الإنكار بالقلب، هذا هو الأصل.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»، وليس وراء ذلك، يعني: الذي لا ينكر بقلبه، فليس في قلبه إيمان، هذا هو، ودل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينقص حتى يكون مثل حبة الخردل، هذا دليل على أن الإيمان ينقص، وأنه يزيد حتى يكون كأمثال الجبال.



وَلَهُ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ». أَيْ: مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَأَنْكَرَ بِقَلْبِهِ^(١).
وَفِي رِوَايَةٍ غَيْرِ الصَّحِيحِينَ بَعْدَ وَتَابَعَ: «فَأُولَئِكَ هُمُ الْهَائِكُونَ»^(٢).

الشَّيْخُ

ولاية الأمور ليسو معصومين، يصدر منهم مخالفات، وقد يحصل منهم معاصي، فهم ليسوا معصومين، ولا يتركون بدون أن يناصحوا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْدِّينُ النَّصِيحَةُ»، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»^(٣)، فولي الأمر ينصح، بمعنى أنه يبين له الخطأ الذي يحصل، يبين له ذلك سرًّا بين الناصح والمنصوح؛ كما جاء في الحديث: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ، فَلَا يُبْدِ لَهُ عِلَابِيَّةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ، فَيَخْلُو بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ»^(٤)، نصيحة ولي الأمر ما تكون على ما عند الناس في المجالس وذكر معاييه، وذكر ما يقع منه، هذا يزيد الشر شرًّا، وهذه هي بذرة الخوارج، فأول مَنْ بذر هذه

(١) أخرجه مسلم (٦٣) (١٨٥٤).

(٢) أخرجه ابن وضاح في البدع برقم (٢٧٨).

(٣) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث أَبِي رُقَيَّْةٍ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري معلقًا في كتاب الإيذان - باب: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

(٤) أخرجه أحمد (٤٨/٢٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/١٠٠)، والحاكم (٣/٣٢٩)، والبيهقي في الكبرى (٣/٢٨٣).

البذرة ابن سبأ الخبيث^(١) الذي صار يتكلم في أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخليفة الراشد في المجالس، ويتجول في البلدان، تبعه من تبعه ممن صدقوه وتأثروا به بحجة أن هذا من إنكار المنكر، ولكن هذا إنكار خاطيء، ليس الإنكار على الولاة بهذه الطريقة، بل الإنكار على الولاة يكون سرّياً، توصل إليهم النصيحة، وبيّن لهم سرّاً بين الناصح والمنصوح، فإن قبلوا فهذا هو المطلوب، وإن لم يقبلوا فإن الذمة تبرأ، هذه هي نصيحة ولي الأمر.

أما الذين ينكرون في المجالس أو في المحاضرات والخطب، ويثرون الناس على ولاة الأمر، هذا منكر، هذا هو المنكر نفسه؛ لأن هذا أشد، هذا منكر أشد من المنكر الذي يفعله الوالي؛ لأنه يسبب الفتنة ويهيج الفتنة، ويسبب الخروج على ولي الأمر، ويسبب سفك الدماء؛ كما حصل في من حصل منهم بوادر سيئة، فهذا هو المنكر نفسه، وليس إنكار المنكر بهذه الطريقة مع ولاة الأمور، فليس إنكار المنكر على ولاة الأمور يكون بالعلانية أمام الناس، وإنما يكون بين الناصح وولي الأمر؛ درءاً للفتنة.

(١) هو عبد الله بن سبأ الذي يُنسب إليه السبئية، وهم الغلاة من الرافضة، أصله من أهل اليمن، كان يهودياً وأظهر الإسلام وطاف بلاد المسلمين؛ ليلفتهم عن طاعة الأئمة ويدخل بينهم الشر، وكان يقول لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنت الإله، فنفاه إلى المدائن، فلما قُتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زعم عبد الله بن سبأ أنه لم يمّت، وأن ابن ملجم قتل شيطاناً تصور بصورة علي، وأن علياً في السحاب، وأن الرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه ينزل إلى الأرض ويملؤها عدلاً، وأتباعه حين يسمعون صوت الرعد يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين! انظر: تاريخ دمشق (٣/٢٩)، ووفيات الأعيان (٤/٣١٠)، والوفيات بالوفيات (١٧/١٠٠)، والتعريفات (ص ١٥٥).

والمعتزلة والخوارج أنكروا علانية، فحصل ما حصل من سفك الدماء،
ومما لا يخفى ما حصل للأمة من الخلل بسبب الإنكار على ولاية الأمور علانية
أمام الناس، فحصل ما حصل.

ومن أصول المعتزلة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يسمع
هذا الكلام يقول: هذا أمر طيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا
شيء طيب، لكنهم لا يقصدون هذا، يقصدون الخروج على ولاية الأمور،
ويسمون الخروج على ولاية الأمور أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وضعوا
الاسم على غير مسماه.



بَابُ ذِكْرِ تَمَنِّيِ الْمَعْصِيَةِ وَالْحَرِصِ عَلَيْهَا

فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بِالِ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(١).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: ذِكْرِ تَمَنِّيِ الْمَعْصِيَةِ وَالْحَرِصِ عَلَيْهَا)، هَذَا أَشَدُّ مِنَ الرِّضَا بِالْمَعْصِيَةِ، الَّذِي سَبَقَ مِنَ الرِّضَا بِالْمَعْصِيَةِ، وَعَدَمُ إِنكَارِهَا، أَمَّا هَذَا، فَيَتِمْنَاهَا، مَا كَفَاهُ أَنَّهُ يَرْضَى بِهَا، بَلْ يَتِمْنَاهَا، وَهَذَا أَشَدُّ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- مِنَ الَّذِي يَرْضَى بِهَا مَجْرَدَ رِضَا.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بِالِ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»)، هَذَا الشَّاهِدُ؛ «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»، فَهُوَ يَتِمْنَى الْمَعْصِيَةِ، يَتِمْنَى أَنَّهُ يَقْتُلُهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتِمَكَّنْ، فَقَتَلَ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ النِّيَّةِ أَنَّهُ يَتِمْنَى، يَتِمْنَى الْمَعْصِيَةِ، كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ، فَعَذَبَهُ اللَّهُ بِنِيَّتِهِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-.

«إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا»، اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا نَهَى عَنِ قَتْلِ الْمُسْلِمِ، النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى وَقَالَ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (١٤) (٢٨٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (١١٦) (٦٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١)، والمراد بالكفر هنا: الكفر الأصغر، ليس بالكفر الأكبر، فالذي يقتل المؤمن هذا كفر أصغر، ليس مخرجاً من الملة؛ «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»، «وَقَاتِلُوهُ كُفْرًا»، فلا يجوز للمسلمين أن يتقاتلا؛ لأنها أخوان في الإسلام، وإذا ثارت فتنة بين المسلمين، فالواجب السعي في إصلاح ذات البين، وإخماد الفتنة.

فإن اقتضى الأمر قتال الفئة التي لا تقبل الإصلاح فإنها تقاتل، قال تعالى: ﴿وَأَن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٩١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٩٢﴾ [الحجرات: ٩-١٠]، فلا يجوز القتال بين المسلمين، وإذا حدث فالواجب السعي في منعه، وفك بعضهم عن بعض للإصلاح أولاً، فإن لم يجد الإصلاح، فبقتال الفئة التي لا تقبل الإصلاح حتى ترجع عن رأيها، وهذا هو قتال البغاة، وهذا له باب في الفقه، باب في السنة قتال البغاة الذين يصلون على الناس، فيجب أن نقاتلهم، إما بالصلح، وإما بالقتال إذا اقتضى الأمر.

«إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا»، كل واحد يريد قتل الآخر، «فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ، القاتل نعم؛ لأنه قتل،

(١) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (١١٨) (٦٥) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، هذا واضح، لكن القتل، (فَمَا بِالْأَلْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»)، فعذب على هذا، على هذه النية، وهذا من تمنى المعصية، الحرص على قتل صاحبه، هذا من تمنى المعصية.



وَعَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَتَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مِثْلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمِثْلِ أَرْبَعَةِ رِجَالٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَعْمَلُ فِي مَالِهِ بِعِلْمِهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ مَالِ فُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا، فَهُوَ يَتَخَبِطُ فِي مَالِهِ لَا يَنْدِرِي مَا لَهُ مِنْهُمَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَالِ فُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَهُمَا فِي النُّوْزِ سَوَاءٌ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

الشَّيْخُ

هذا الحديث فيه أن من تمنى أن يكون مثل أهل الخير، فإنه يلحق بهم، وإن لم يعمل مثل عملهم بنيتهم، يؤجر على نيته، فإذا كان تمنى أنه لو تمكن لعمل مثل أهل الخير، لعمل مثل المتصدق، لعمل مثل العالم الذي يعلم الناس ويرشدهم، لكنه ما عنده إمكانية، إنه يتمنى الخير، ولو لا أنه ما يقدر

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، ولفظه: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَتُهُ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النَّيِّ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَتَخَبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحْمَتُهُ، وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَوَزْرُهُمَا سَوَاءٌ»، وقال: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).

لعمل، لو قدر على فعل الخير لفعله، يؤجر على نيته، فهو يتمنى أن يكون مثل أهل الخير في علمهم، وفي إنفاقهم، فله مثل أجرهم بحسب نيته.

وعلى العكس الذي يتمنى أن يكون مثل أهل الشر، لو قدر أن يكون مثلهم، فالذي يتمنى أن يكون مثل الغني الذي يبدد ماله وينفقه في المعاصي والسيئات، وأنه لو عنده مال لفعل مثله، يصير مثله في ماذا؟ يكون مثله في الإثم -والعياذ بالله-، فهذا دليل على أن تمنى المعصية يلحق صاحبه بمن فعل المعصية.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَثَلِ أَرْبَعَةِ رِجَالٍ»، وفي رواية: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ»، أربعة رجال.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَفْعَلُ فِي مَالِهِ بِعِلْمِهِ»، فيراه المؤمن الذي ما عنده مال ولا علم، لكن يتمنى أن يكون مثله، لو صدق، فهذا له مثل أجره؛ لأنه تمنى الخير.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ مَالِ فُلَانٍ، لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ»، رجل آتاه الله علمًا، ولم يؤته مالا، فقال: لو آتاني الله مالا، لعملت فيه مثل عمل فلان، فهما في الأجر سواء، هما الاثنان.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا، فَهُوَ يَتَخَبِطُ فِي مَالِهِ لَا يَذَرِي مَالًا مِمَّا عَلَيْهِ»، الثالث: رجل آتاه الله مالا، ولم يؤته علمًا، فهو يتخبط في مال الله بغير حق، الذي يتمنى أن يكون مثله يكون مثله في الإثم

بنيته، والرابع: رجل لم يؤته الله مالا ولا علما ويتمنى أن يكون مثل أهل الشر فيكون مثلهم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَ بِي مِثْلُ مَالِ فُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ»، لم يؤته الله مالا ولا علما، يتمنى أن يكون مثل الرجل الذي آتاه الله مالا، ولم يؤته علما، وأنه يعمل مثل عمله، فهما في الإثم سواء، الذي آتاه الله مالا، ولم يؤته علما، فهو يتخبط، الذي يتمنى أن يكون مثله يكون مثله في الإثم، الذي لم يؤته الله مالا ولا علما يتمنى أن يكون مثل أهل الشر، يكون مثلهم في الإثم، هذا دليل على أن تمنى المعصية يلحق صاحبه بأهل المعاصي، ولو لم يعص الله في نفسه، لكن على حسب نيته.



بَابُ ذِكْرِ الرَّيْبِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ① أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَسَيِّفِينَ﴾ [الحاشية: ٣٢].

الشَّيْخُ

قال رحمه الله: (بَابُ ذِكْرِ الرَّيْبِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، الرِّيب هو الشك، فالمؤمن لا يكون عنده شك ولا ريب، ولا يكون متردداً في إيمانه، وإنما يكون صادقاً في إيمانه، أما الذي عنده شك وعنده ريب، فهذا لا يكون مؤمناً، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، فدل على أن الذي يرتاب في إيمانه ليس مؤمناً، الذي عنده شكوك في إيمانه هذا ليس بمؤمن.

والشك هو التردد بين أمرين لا مرجح لأحدهما على الآخر^(١)، فيقول: يمكن أن القرآن حق، ويمكن أنه ليس بحق، يمكن أن الرسول صادق،

(١) انظر: التحقيق والبيان في شرح البرهان في أصول الفقه (٧٠٦/٣)، والبحر المحيط في التفسير (٤٤٥/١)، وتحفة المحتاج (١٨٧/٢)، وشرح منتهى الإرادات (١٤٢/٣).

ويمكن أنه ليس بصادق، فعنده شك في الإيـان بالله، عنده شك في القرآن والسنة، عنده شك في صدق الرسول ﷺ، هذا ليس بمؤمن، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، المؤمن يكون صادقاً، ما عنده شك ولا ريب، فهذا مما يؤكد على المسلم أن يتفقد إيمانه، وإذا صار عنده شيء، فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا جاءه وسوسة في نفسه، فليكتمها ولا يتكلم بها، فإنها لا تضره، لكن إذا نطق بها ضرته.

فالمؤمن لا يسمى مؤمناً إلا إذا كان قلبه خالياً من الفسق والشك بالله وبدين الله عز وجل، يكون موقناً بصحة هذا الدين من غير أن يختلط به شك أو تردد، فإن زعم أنه غي، أو تردد، فليس بمؤمن؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: الذين يستحقون هذا الاسم، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، آمنوا بالله رباً معبوداً، وآمنوا بأسمائه وصفاته، وآمنوا برسوله، وصدقوا رسالته واتبعوه، فهم لا يحصل لهم تردد أو شك في إيمانهم، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، هذه خاصة، أي: ليس غيرهم، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾، فجهزوا القتال، وأعدوا العدة للجهاد من أموالهم، هذا جهاد بالمال، ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾، أي: شاركوا في القتال، وخاضوا مع الكفار؛ ابتغاء وجه الله عز وجل، ونصرة هذا الدين، وإعلاء كلمة الله، هذه علامة صدق الذي يجاهد في سبيل الله، ويعرض نفسه للخطر، ويدخل في القتال، فهذا دليل على صدق إيمانه، ليس الإيـان دعوة فقط، وليس الإيـان بالقلب فقط - كما يقول المرجئة -، وإنما الإيـان قولٌ واعتقادٌ وعملٌ، فجاهدوا في سبيل الله.

ولا يكون المؤمن مجاهدًا في سبيل الله إلا إذا كان قصده إعلاء كلمة الله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ كما في الحديث: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيَرَى مَكَانَهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ﴾، أي: الذين انتصروا بهذا الاجتهاد آمنوا وجاهدوا، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾؛ الصادقون في قول إيمانهم؛ لأن هذا ردُّ على ما قالوا: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءِمَانًا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، و﴿أَسْلَمْنَا﴾ يعني: دخلنا في الإسلام، أما الإيمان فهو أرجح، وهذا القول من الإسلام ليس فيه إيمان، فالإسلام قد يكون معه الإيمان، وقد يكون ليس معه الإيمان ولذلك قالوا: كل مؤمن هو مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، يكون متفقًا، مسلم في الظاهر، لكنه قلبه كافر، فهذه الآية تدل على أن الإيمان لا يكون إيمانًا صادقًا إلا إذا لم يُشرك معه غيره، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، ويكون معه ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٢) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥]، هذا في أول سورة البقرة، قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿آلَهُ﴾^(٣) ذَلِكَ

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٤٩) (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري

الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١-٢﴾، من هم المتقون؟ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، بما لم يروه من أمور الآخرة، وأمور الجنة والنار، وأمور المستقبل، وأمور الماضي؛ اعتمادًا على الخبر الصادق، فهم يؤمنون بما لم يروه؛ اعتمادًا على خبر الله ورسوله، الله جَلَّ وَعَلَا لم يروه عيانًا، لكنهم رأوا آياته الدالة عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فآمنوا، الإيمان بالله من الإيمان بالغيب؛ لأنهم لم يروا الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما اعتمدوا على الآيات الدالة على الله جَلَّ وَعَلَا، الآيات الكونية: خلق السماوات والأرض، اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السماوات والأرض، والآيات القرآنية، هذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، هذا دليل على أنه من الله جَلَّ وَعَلَا، فيؤمنون بالله، وأن هذا كلامه المنزل، لا يشكون في ذلك، وهذا يدل على الله جَلَّ وَعَلَا، القرآن يدل على من تكلم به وأنزله، وهو الله جَلَّ وَعَلَا، فيؤمنون بالغيب، وإن لم يشاهدوه، والغيب هو ما لم تره، وإنما تؤمن به اعتمادًا على الأدلة الصادقة، والشهادة ما شاهدته ورأيت، الغيب والشهادة الغيب ما غاب عنك ولم تشاهده، والشهادة ما شاهدته ورأيت^(١).

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ يعني: القرآن، لا ريب أنه من عند الله، ولا ريب فيما أخبر عنه من علوم الغيب، لا ريب في صدقه وصدق هذا القرآن، فالذي يتشكك في صدق هذا القرآن ليس بمؤمن كالذي يقول: إن العلم الحديث يخالف القرآن، فهذا في

قلبه ريب وشك، هذا ليس بمؤمن؛ فإذا حصل تعارض بين القرآن وبعض النظريات العلمية، فإننا نأخذ بما جاء في القرآن؛ لأن ما جاء به القرآن حق وصدق، وأما نظريات الناس، فهذه تحتل الصحة، وتحتل الخطأ، الخطأ أن تزعم أنه خطأ، وأما نظريات الناس، فإنها تحتل الخطأ، فإذا تعارضت مع القرآن، دل على أن هذه النظريات باطلة، القرآن يحكم عليهم، ولا تحكموا عليه.

فالذي يشكك، ويقول: القرآن ظني الدلالة، والعلم الحديث قطعي الدلالة، كما يقول أهل الضلال، فهذا هو الشك والريب، فنقول لهم: «كذبتهم، القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما النظريات البشرية، فإنها عرضة للخطأ والصواب، فإذا تعارضت مع القرآن أخذنا بالقرآن، واعتقادنا أنها باطلة، فالقرآن لا يعارضه شيء مهما بلغ هذا الشيء من تعظيم الناس وتطبيق الناس، فلا يعارض القرآن أبدًا.

الذين يؤمنون بالغيب كيف يؤمنون بشيء لم يشاهدوه؟ آمنوا به بناءً على الأخبار الصادقة، يصدقون الأخبار التي جاءت في القرآن، وجاءت في السنة، يصدقونها، ولو لم يروها، فما دلت عليه إما قريبًا وإما بعيدًا، إما في الدنيا وإما في الآخرة قطعًا لا شك، فالله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، فالإنسان لا يستعجل بالحكم إذا أثقل عليه شيء من معاني القرآن ومعاني السنة، فلا يستعجل به، فالقرآن هذا من عند الله لا يخطئ أبدًا، ولكنه

له وقت، ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، فالآن تظهر أشياء لم تكن موجودة من قبل، والقرآن أخبر عنها، فدل على أن القرآن حق.

ولهذا عندما يرى الكفار يوم القيامة النار يقولون: ﴿يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَّا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فهم لا ينكرون الحقائق التي تمنع أن ينظروه، أي: ما ينتظرون إلا تأويله، وهذا ما أخبر عنه في القرآن: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، هذا من عملهم -والعياذ بالله-، فالإنسان ما يستعجل، بعض المغرورين بالعلوم الحديثة والدراسات التي يعتقدون أنها ما تقبل الشك والرد إذا تعارضت مع القرآن شككوا بالقرآن، قالوا: القرآن ظني، وهذه قطعية واقعية ما يمكن الشك فيها، فالجواب: أن القرآن حق، وأنت لم تحط، بل تسأل بما لم تحط به علماً، لم تحط بعلم القرآن، وقد يكون ما أخبر عنه القرآن لم يظهر به، فيأتي في المستقبل، فلا تستعجل في الحكم، هذا هو الموقف الحق.

قال تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾، هذا من علامة الإيeman ومقتضى الإيeman إقامة الصلاة، ﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾، إخراج الزكاة والصدقات، والإنفاق في سبيل الله هذا من الإيeman بالله عزَّوجلَّ، ما يكفيه أنه يؤمن بالغيب، لا بد أن يعمل، لكن أساس العمل وأصل العمل الصلاة؛ لأنه ركن من أركان الإسلام، فيؤمنون بالغيب، وهذا معنى الشهادتين، ويطيعون الصلاة وهذا معنى ركن الإسلام الثاني، ﴿وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُفْقُونَ﴾، وهذا الركن الثالث، وهو الزكاة، فدل

على أن الدين ليس مجرد أقوال واعتقادات فقط، ولكنه قولٌ واعتقادٌ وعملٌ، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، هذا هو الدين، وهذا هو الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، هذا -والله أعلم- في مؤمني أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول السابقين، ولما بعث محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمنوا به، فجمعوا بين الإيمان بالرسول والإيمان بمن قبله، مؤمنو أهل الكتاب، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَأْتِيهِمْ مَرُّ يَوْمُنَا﴾، البعث والجزاء، والجنة والنار، ما شاهدوها، لكنها من أمور المستقبل، لكن اعتمدوا على الأخبار الصادقة عن الله ورسوله.

ثم أخبر جَلَّوَعًا عن جزائهم: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾، يسرون في هذه الحياة على هدى، ما عندهم شكوك ولا أوهام، ولا يعترهم تردد مثلما يحصل في عالم الغيب، ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] حصل الهداية وحصل الفلاح فيهم، فدل على أن غيرهم ليس مهتديًا، وليس مفلحًا.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فهو لاء لم يتطرق إليهم في إيمانهم شك، فحازوا على هدى من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]).

هذا خبرٌ عن الكفار، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ

ءَايَتِي تُكَلِّمُ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴿[الجاثية: ٣٠-٣٢]﴾، يعني: قيام الساعة وانتهاء الدنيا، وفي الانتقال إلى الآخرة، والحساب والجنة والنار، إذا قيل لهم هذا، ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾، هذا هو الغيب، ﴿إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾، فهذا في أخبار الله، وأخبار رسله، وقال: «إنها لا تفيد العلم واليقين، وإنما تفيد الظن».

فهذه الآية توبيخ للكفار، يوم القيامة يقال لهم هذه المقالة، وأنهم عاشوا في الدنيا على الشك وقالوا: ﴿إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾، فهم شاكون في الإيمان بالله عَزَّجَلَّ ورسله، وعاشوا على ذلك، فصاروا -والعياذ بالله- من أهل النار، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، قيل لهم في الدنيا، قال لهم الرسل، وقال لهم أهل العلم: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، وعد الله بالجنة والنار حق لا شك فيه، فآمنوا به، ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ الساعة التي هي قيام الساعة وبعث الموتى من قبورهم، هذا حق، ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾؛ نظن ظناً يمكن أنه صحيح، ويمكن ما هو بصحيح، عاشوا على الشك -والعياذ بالله-، فصاروا من أهل النار.

فهذا فيه دليل على أنه يجب على المسلم أن يكون صادقاً في إيمانه، وأن يرقب الشكوك والأوهام، وألا يسمع للمشككين في دين الله عَزَّجَلَّ، بل

يكون صادق الإيمان، وكيف يسمع للمشككين والمنافقين ودعاة الضلال، ولا يسمع للرسول -عليهم الصلاة والسلام؟! لا يسمع للأنبياء والمرسلين والعلماء والمصلحين إلا لفساد قلبه -والعياذ بالله-.

الشك في الإيمان خطير، يجب أن يكون الإيمان صادقاً عازماً ليس عنده تردد، وإذا عرض له عارض يستعيز بالله من الشيطان، ويترك الوسواس، ويتجنب دعاة الضلال، ولا يستمع إلى شبهاتهم؛ لأنهم اليوم نشطوا في ترويج الشبهات والشكوك في الدين في الصحف والمجلات والمؤلفات والندوات التي تقام في الفضائيات، يشككون في الدين، يشككون في دعوة الرسل، يشككون في الآخرة، فيجب الحذر منهم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾، إنما هو ظن، وهذه نفس المقالة التي يرددها الآن أهل الضلال من المعتزلة وغيرهم أن نصوص الوحي نصوص سمعية تفيد الظن، وأما علم المنطق وعلم الجدل، فإنما هي القواعد الذهنية، فيقدمونها، ويردون النصوص، ومنهم أصحاب النظريات الحديثة الآن الذين اغتروا بها، واعتقدوا في الحداثة، فالقرآن يقبل التعارض والشك، ولكن نظرياتهم ما تقبل، نفس الشيء هؤلاء هم مثلما ذكر الله: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ: يعني: ظهر لهم في الآخرة سيئات ما عملوا في الدنيا، وأدركوا أنهم مخطئون، لكن ما يفيد.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، يعني: أهلكهم ما كانوا به يستهزئون.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَخُ﴾، يعني: نترككم في العذاب، ﴿كَمَا نَسَخْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيحٍ﴾، هذا مقامهم وجزاءهم -والعياذ بالله-.

والواجب على المسلم الحذر من ذلك؛ حتى يسلم من الوسوس، وهذا يدفعه إلى الاعتقاد الصحيح، ويدفعه إلى اليقين ويكذبهم، الوسوس أولى بالتكذيب من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ.



وَكَانَ مُعَاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي مَجْلِسِهِ كُلِّ يَوْمٍ - قَلَّمَا يُخْطِئُهُ -: «اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٌ، هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ»^(١).

الشَّيْخُ

معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابي الجليل، أعلم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ بِشَهَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٌ، هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ). (اللَّهُ حَكَمٌ) أي: أن الله يحكم بين عباده، (قِسْطٌ) يعني: عدل، فهو حكمٌ عدل، أما المخلوق، فإنه قد يكون عنده جور، الحكام المخلوقون يكون عندهم هوى، أو يكون عندهم جور، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه حكمٌ قسطٌ، يعني: عدلٌ، ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]، يعني: العدل، فعندنا القسط، وعندنا القسط، والقُسُوط، وهو الجور، يُقال: قَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطًا وقَسَطًا، فهو قاسط، أي: جائر^(٣)، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، يعني:

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١١).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٧٩٠)، والنسائي في الكبرى (٨١٨٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَفْرَوُهُمْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ».

(٣) انظر: العين (٧١/٥)، ومقاييس اللغة (٨٥/٥)، والمحكم والمحيط الأعظم (٢٢١/٦)، وتفسير غريب ما في الصحيحين (٤٣٢/١)، وغريب الحديث لابن الجوزي (٢٤٣/٢).

الجائرون، وأما المقسط، فهو معناه: العادل، يقال: أقسط، فهو مقسط، يعني: عادل، فالله جَلَّوَعَلَا حَكَمٌ قِسْطٌ، يعني: عادل.

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ)، هذا هو الشاهد هنا، فالمرتاب الذي يشك في حكم الله، فهو هالك، يعني: هالكٌ في دينه ودنياه وآخرته، لا أحد يتهم الله جَلَّوَعَلَا في أخباره وحكمه وقضائه وقدره، فمن فعل ذلك فشك وتردد وظن بالله ظن السوء، وظن بما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان الأمر عنده يحتمل الخطأ والصواب، فهذا هو الشاك بربه عَزَّوَجَلَّ، وبنييه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ مِنَ الْيَقِينِ أَنْ لَا تُرْضِيَ أَحَدًا بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلَا تَحْمَدَ أَحَدًا عَلَى مَا آتَاكَ اللَّهُ، وَلَا تَلُمَ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، وَإِنَّ اللَّهَ بِعِلْمِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ فِي الْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ، وَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصٌ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةٌ كَارِهِ»^(١).

الشَّجَرُ

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْ لَا تُرْضِيَ أَحَدًا بِسَخَطِ اللَّهِ»، اليقين ضد الشك. فإذا تعارض إرضاء الله وإرضاء المخلوق، فإن أرضيت المخلوق أسخطت الله، وإن أرضيت الله أسخطت المخلوق، إذا تعارضا، فيجب أن تقدم الله جَلَّ وَعَلَا، وفي الحديث: «مَنْ ائْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ، وَمَنْ ائْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَاسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(٢)، وهذا الحديث كتبه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما تولى أمر المسلمين كتب إلى أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يطلب منها النصيحة، ويستعين بها، فكتبت له هذا الحديث^(٣)، وهذا هو المنهج

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/٢١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٣٨٣)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٢١).

(٢) أخرجه ابن حبان (١/٥١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٨٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٤) عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ الْوَرْدِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ: «كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِنِي فِيهِ وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ ائْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤَنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ ائْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ»، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ».

الذي يسير عليه الوالي المسلم وغيره من عامة الناس أنه يراقب الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يراقب الناس رضوا أو سخطوا، وإنما يراقب الله، ويتبع ما يرضي الله، سواءً رضي الناس أو سخطوا، ولا يرضي الناس ويسخط الله جَلَّوَعَلَا، فالواجب على المسلم أن يكون حريصاً على إرضاء الله جَلَّوَعَلَا في أعماله وأقواله، ولا يتمنى رضا الناس ويمدحهم بما ليس فيهم من أجل سلطانهم، أو من أجل إرضائهم مما يُسخط الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن بعض الناس لا يهتمهم إلا إرضاء الناس، ولو في معاصي الله، إذا كانوا يريدون الإباحية والحرية يعطيهم هذا؛ من أجل أن يرضيهم، ويكسب ودهم بزعمه، ونسي هؤلاء أن القلوب بيد الله يقبلها كيف يشاء، ومهما عملت لا يرضون عنك؛ لأنك إذا أسخطت الله، فيسخطهم عليك، فلو أعطيتهم حريتهم، وأعطيتهم كما يطلبون، فعليك أن ترضي الله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الذي يبقى في الدنيا والآخرة إرضاء الله، لكن قل من يصبر على هذا، ويوفق في هذا، فيبتلى الإنسان ويُمْتَحَن، فقل من يفهم هذا، فالمنهج السليم والمنهج الواضح أن تجعل الله بين عينيك دائماً وأبداً، فإذا عرض لك أمرٌ، فانظر فيه: إن كان مما يرضي الله، فخذ به ولو سخط الناس عليك سيحبونك فيما بعد، وإذا كان فيه رضا الله، فخذه ولو سخط الناس، وإن كان في سخط الله وإرضاء الناس، فلا تأخذه ولو سخط الناس، هذا هو المنهج السليم، ولكن هذا لا يكون إلا لمن ليس عنده الريب، هذا نتيجة لانتفاء الريب من القلب، وانتفاء الشك من القلب.

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَحْمَدَ أَحَدًا عَلَى مَا آتَاكَ اللَّهُ»، لا تحمد الناس على ما آتاك الله، احمد الله جَلَّوَعَلَا، ولهذا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أول لفظة في المصحف

بعد البسملة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: جميع المحامد لله عَزَّوَجَلَّ، لا يأتي بالمحامد المطلقة غير الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنه هو المنعم لجميع النعم، أما المخلوق فإنه يُحمد على قدر صنيعه فقط، أما الحمد المطلق، فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: جميع المحامد بيد الله جَلَّوَعَلَا.

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تُلْمُ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ»، إذا طلبت شيئاً ولم يحصل لك، فاعلم أن الله لا يقدره لك، فلا تلم الناس؛ هم السبب، وهم الطامعون، لا، تعلم أن الله لم يقدره لك، فلو قُدر لك ما منعه عنك، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢٠]، وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجُفَتِ الصُّحُفُ»^(١)، فالأمر بيد الله، الله هو الذي يُحمد على كل حال، على السراء وعلى الضراء، يُحمد على كل حال؛ لأن الضراء قد تكون في حقك خيراً، وإن كانت ضراء، لكن عاقبتها أنها خير لك، ولهذا في الحديث: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢)، فاحمد الله جَلَّوَعَلَا، سواءً أصابك خير أو أصابك شر، ارض عن الله، وفي الحديث: «اخْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

(٢) سبق تخريجه (ص ٨١).

وَلَا تَعْجَزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١)، فأرجع الأمر إلى الله، ولا تُرجعه إلى الناس، ولكن علق قلبك بالله، فهذا هو اليقين.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَنَّ اللَّهَ بِعِلْمِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ فِي الْيَقِينِ»، أي: إن الله جَلَّ وَجَلًا «بِعِلْمِهِ وَقِسْطِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ»؛ أعني: الراحة والفرح «فِي الْيَقِينِ»، فالمستيقن مرتاح في دنياه لا يجزع ولا يسخط، إن أصابه خير شكر الله عليه، وإن أصابه غير ذلك صبر عليه، فهو مرتاح، أما الذي عنده ضعف في الإيمان وعنده شك، فهذا إن أصابه نعمة يتكبر وينسى الله عَزَّجَلَّ، وإن أصابه ضرر جزع وسخط على الله، وهذا نتيجة الشك والريب في القلوب.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَجَعَلَ الِهْمَّ وَالْحَزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ»، جعل الله الهم والحزن وما يصيب الإنسان من الهموم، والحزن الذي يصيبه على ما فات بسبب هذا الشك؛ لأنه يعلم أنه عبدٌ لله، وأن ما قدر الله عليه سيجري عليه مهما فعل ومهما تحصل، فصاحب اليقين قلبه ثابت ما يتداعى مع الأحداث أو مع الفواجع، أما الذي عنده شك وعنده ريب، فهذا قلبه يتداعى عند الأحداث وعند الكربات.

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصٌ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةٌ كَارِهِ»، وهذا مثلما ذكر في أول الأثر أن رزق الله إذا أتى، فلا أحد يمنعه، قال تعالى: ﴿مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿[البقرة: ١٠٥]، يريدون أن يمنعوا الخير عن المخلوق، لكن لا يقدرّون على هذا، فيتحسرون -والعياذ بالله-، فالحاسد فيهم وضيق وقلق، خصوصًا إذا رأى نعم الله على عباده يتمنى أن تزول عنهم النعمة، فهو يشاهد النعم على الناس، فيزداد غيظًا وشكًا، ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يريدون أن يمنعوا الخير من شدة الحسد والحقد، لكن لم يقدرّوا على ذلك.



وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ: «فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا»^(١).

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ: «فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا»)، ويوم الحديبية هو الذي سماه الله فتحًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، هذا في الحديبية لما منع المشركون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من العمرة ودخول مكة، فمنعوه ومنعوا المسلمين من الدخول إلى الحرم، ومنعوا الهدي الذي معه ومع أصحابه، وحصلت مقاومات ومجاوزات، ومن ذلك أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل مكة يتفاوض معهم؛ لأنهم يحترمون عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليتفاوض معهم، وأُشيع أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ، فعند ذلك طلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ للبيعة على القتال لما بلغه أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ، عزم على القتال وعاهد أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وبايعوه على الموت والجهاد: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا [الفتح: ١٨-١٩] لما صدقوا مع الله ورسوله، وبايعوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الموت والقتال.

وبعد ذلك لما بلغ المشركين أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مصممون على إما العمرة وإما القتال، فأرسلوا رسلاً يتفاوضون مع الرسول

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة، ومروان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَذَا الصَّلَح، فَتَحَوْلَ هَذَا الصَّلَح فَتَحًا، سَمَاهُ اللَّهُ فَتَحًا، وَتَبَيَّنَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ الْمَخْطُئُ فِي تَصْلِبِهِ أَمَامَ هَذَا الْعَقْدِ لَمَا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَعَلَامَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا»^(١)، وَمَا كَانَ هَذَا عَنْ شَكٍّ وَلَا رِيْبَةٍ، لَكِنْ فَعَلَهُ عَنْ قُوَّةٍ، فَهُوَ مِنْ مَنْ قُوَّتُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَ الْكَفَّارَ شَيْئًا أَبَدًا، لَكِنْ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ أَنْ يَتَنَازَلَ الْمُسْلِمُونَ مُؤَقَّتًا مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ، وَبِالطَّبَعِ هَذَا يَعُودُ لِتَقْدِيرَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، وَأَمَّا فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ تَحْدِيدًا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يُعَدُّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا، فَكَانَ ظَاهِرَ الْأَمْرِ أَنَّ فِيهِ شَيْئًا مِنَ الذَّلَّةِ، وَلَكِنْ الْعَاقِبَةُ كَانَتْ فَتَحًا قَرِيبًا، وَلِذَلِكَ سَمَاهُ اللَّهُ فَتَحًا، قَالَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، أَي: صَلَحَ الْحَدِيثِيَّةُ، وَعِنْدَهَا تَبَيَّنَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَخْطُئٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا»، وَأَمَّا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ سَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَهُوَ مَنْ يَقُولُ: «اتَّهِمُوا الرَّأْيَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرْدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرُهُ لَرَدَدْتُ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»^(٢).

لَقَدْ حَاوَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَفْضَ الصَّلَح؛ لِأَنَّهُ رَأَى فِيهِ غَضَاضَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَنْظُرْ وَلَمْ يَعْلَمْ مَا هِيَ الْمَصَالِحُ الَّتِي تَتَرْتَبُ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ نَدِمَ عَلَى مَوْقِفِهِ، وَصَارَ يُحْسِبُ لِذَلِكَ حِسَابًا، وَصَارَ مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ فِي نَقْدِ آرَائِهِ، وَأَحْرَصِ النَّاسِ فِي الْإِتْبَاعِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِالرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَكْسَبَهُ وَالْمُسْلِمِينَ دَرَسًا فِي عَدَمِ اعْتِرَاضِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ ظَهَرَ لَهُمْ

(١) سبق تخريجه (ص ٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٨٩).

للهولة الأولى أن في الانصياع للأمر إجحافاً وظلماً، فإنما العبرة بالتناجح لا بالمقدمات، هذا هو التقويم السليم، وهذا هو الإيمان، ولذلك شكّا عمر إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَزْزِهِ فَإِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ»^(١)، أي: عليك ألا تعترض أبداً، فهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما ينطق عن الهوى.

فعلى المسلم أن يكون مستسلماً لله ورسوله، هذا هو منطق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا موقف اليقين والثبات عند الحق والشدائد، فالناس يتفاوتون في المحن والابتلاءات حتى المؤمنون، فهم متفاوتون في قوة إيمانهم عند ذلك.



وَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ^(١). وَعَنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِثْلُهُ.

الشَّجَرُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»: هذا فيه تشبيه المعنوي بالحسي؛ حيث شبه الإيمان بشيء يذاق له طعم، لكن ليس كل مؤمن يذوق طعم الإيمان، أو حلاوة الإيمان، لا ينالها إلا خواص المؤمنين، ولكن متى يذوق الإنسان طعم الإيمان؟ عندما يرضى بالله ربًّا، والإسلام دينًا، ولم يكن فيه اعتقاده شكًّا ولا ريب، فتجده مطمئن القلب والنفس راضيًّا عن الله، يملأ قلبه اليقين والإيمان.

وفي الحديث الآخر: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»^(٢)، فكما أنه يكره أن يقذف في النار ويحترق وهو حي، فهو كذلك يكره أن يعود إلى الكفر، هذا هو المؤمن القوي الإيمان الذي لا يتزعزع إيمانه بعد أن ذاق حلاوة الإيمان.



(١) أخرجه مسلم (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٦، ٢١)، ومسلم (٤٣).

بَابُ: السُّخْطِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].
 قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى
 وَيُسَلِّمُ»^(١).

الشَّجَّ

السُّخْطُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ مِنَ الْكِبَائِرِ، وَالْمَعْنَى: أَنْ يَسْخَطَ الْإِنْسَانُ مِنْ قَضَاءِ
 اللَّهِ وَقَدْرِهِ وَلَا يَرْضَى بِهِ.

وَالْأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَلَقَّى قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدْرَهُ بِالرِّضَا وَالصَّبْرِ
 وَالْإِحْتِسَابِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنْ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ
 لِيُصِيبَهُ، وَكَوْنِ الْإِنْسَانِ يَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ وَلَا يَجْزِعُ، فَهَذَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ
 وَجْهِهِ، مِنْهَا: أَنْ اللَّهَ يَكْفُرَ عَنْهُ خَطَايَاهُ، وَيَرْفَعُ مِنْ دَرَجَاتِهِ، وَيَذْكُرَهُ بِالتَّوْبَةِ،
 وَأَنْ مَا أَصَابَهُ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ ذَنْبِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ
 مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا
 يَقُولُ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
 رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، فَالْمُؤْمِنُ إِذَا أَصَابَتْهُ ضَرَاءُ صَبَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءُ
 شَكَرَ، فَيَكُونُ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ، أَمَا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ عِنْدَ النِّعَمِ يَطْغَى وَيَتَكَبَّرُ،
 وَإِذَا أَصَابَتْهُ النِّقَمُ جَزِعَ وَسَخَطَ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٨/١٢٣)، وَالبخاري معلقاً، كتاب التفسير، باب: تفسير
 سورة التغابن، (ص ٩٢٩)، والبيهقي في الكبرى (٤/٦٦)، وشعب الإيمان (٧/١٩٦)،
 وانظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٧٦).

وفي الآية التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وهي قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [التغابن: ١١] قد بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ المصائب إنما تقع بإذن الله، أي: بقضائه وقدره.

وإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى قَسَمَيْنِ:

القسم الأول: إذن كوني.

القسم الثاني: إذن شرعي، وهو ما أذن الله بفعله شرعاً من فعل الطاعات والقربات.

والإذن الكوني هو المراد بهذه الآية: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أي: بقضائه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وقوله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١])، الإيـمان - كما سبق - له أركان، ومنها الإيـمان بالقضاء والقدر، فدلّت الآية هذه الآية على أن الذي يجزَع ويسخَط، ولا يستسلم لقضاء الله لا يكون مؤمناً بالله.

أما جزاء المؤمن الذي يؤمن بقضاء الله، فإنه ﴿يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾، بمعنى: أنه يوفقه للخير والاطمئنان والراحة.

ولهذا يقول علقمة رَحِمَهُ اللهُ في هذه الآية: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»، أي: فلا يعترض ولا يسخط، فهذا الذي يهدي الله قلبه، فيدله على الخير، ويوفقه للثبات عليه، وهذا من فوائد الصبر على المصائب، وهو حصول هداية القلب، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، أي: بالقلوب وأحوالها، فلا مفر للإنسان من التسليم للقضاء والقدر مهما حاول.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ (١).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا»، هذا فيه إثبات المحبة لله عَزَّجَلَّ، وأنه يحب ويبغض ويكره، ويرضى ويسخط، وهذا من بيان صفات الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

فمن علامات محبة الله لعباده الابتلاء، أي: الاختبار، فإن الله يختبرهم بالمصائب، فإن رضوا بقضاء الله وقدره فإنه جَلَّوَعَلَا يرضى عنهم، ويجعل المصائب منحة لهم، ويصير المحنة منحة، فتكون خيرا لهم، فهم من بعد اختباره لهم يتبين موقعهم من هذا الابتلاء.

ولهذا قال: «فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا»، فهم رضوا بقضاء الله وقدره، والجزاء من جنس العمل.

قال: «وَمَنْ سَخِطَ» بقضاء الله وقدره وجزع، فعليه «السَّخَطُ» من الله تعالى. وهذا الحديث فيه إثبات لبعض صفات الله عَزَّجَلَّ، كالمحبة، والرضا، والسخط، فيرضى على أهل الإيمان الذين رضوا بالقضاء والقدر، ويسخط على أهل الجزع الذين لم يرضوا بقدره.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٤/٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه: أن الابتلاء علامة من علامات محبة الله للعبد الذي يرضى بقضائه،
فالمؤمن يعلم أن المصائب من الله، وأن الله لم يقدرها عليه؛ لأنه يكرهه.

وفي هذا دليل آخر على أن المصائب ليست علامة على بغض الله للعبد،
وإنما هي دليل على محبته له؛ ليمحس ذنوبه، ويكفر عنه سيئاته.

أما غالب الكفار، فإنهم يستدرجون في هذه الدنيا، ولا يصيبهم ما
يكرهون، ويفرحون في هذه الدنيا، ثم يفجؤهم القدر، فيؤخذون على غرة
-والعياذ بالله-.

أما المؤمن فإنه يبتلى؛ لأجل أن يخرج من هذه الدنيا وقد غفرت له
ذنوبه، ونال قسطه من الجزاء في الدنيا، فيخرج منها نقيًا مطهرًا من ذنوبه
وسيئاته، ويخرج الكافر محملًا بذنوبه وسيئاته.

ولذلك شبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حال المؤمن، فقال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ
الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَاتَهَا، فَإِذَا اغْتَدَلَتْ تَكَفَّأَ بِإِنْبِلَاءٍ،
وَالْفَاجِرُ كَالْأَرْزَةِ صَمَاءً مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ»^(١).

فالزراع يقلبه الهواء، وقد شبه الكافر بالأرزة، وهي شجرة صلبة
لا يميلها الهواء، ولا يمكن إمالتها إلا بالكسر، بخلاف المؤمن الذي شُبه
بالخامة، وهي الطري اللين الرطب من الزرع، يميلها الهواء يمينًا وشمالًا،
ولكن الكافرين يُستدرجون، وهو -سُبْحَانَهُ- يملئ لهم، قال تعالى:

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٥٩) (٢٨١٠) من
حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقد يسأل السائل فيقول: ما لنا نرى المسلمين في مصائب ومجاعات وقتل وخوف وقلق، وأما الكفار ففي رخاء ونعمة وقوة في هذه الدنيا؟
نقول: هذه حكمة الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا فيه خير للمسلمين لما سبق بيانه،
وأما ما يحصل للكفار من الإمداد والنعم، فهو دليل شر لهم واستدراج.



بَابُ: الْقَلَقِ وَالْاضْطِرَابِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾
[الفتح: ٢٦]، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا
شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]. الآية، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ
أَرْجَى إِلَى رَيْكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

الشَّجَرُ

هذا الباب كأنه تفسير للباب الذي قبله، فالقلق والاضطراب عند وقوع القضاء والقدر يعد من الكبار، وأما الرضا بقضاء الله وقدره، فهو من علامات الإيمان، ولهذا إذا أصيب المسلمون بمصيبة، أو سلط عليهم عدو أنزل الله عليهم السكينة والاطمئنان وعدم القلق؛ كما حدث للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما أخرجته الكفار من مكة، قال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠].

فالمسلم في جميع أحواله مطمئن في السراء والضراء، وهذا دليل على الإيمان بقضاء الله وقدره، ولهذا لما أصاب المسلمين ما أصابهم في وقعة أحد، بعض أهل الإيمان قد أصيبوا بالنعاس؛ لأنهم مطمئنون، وفي النوم أمان، فهم مع ما أصابهم من القلق والجراح والقتل غشيم النعاس أمنة من عند الله؛ كما قال -سُبْحَانَهُ- يصف المسلمين يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً

مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿[الأنفال: ١١].﴾

وفي وقعة أحد كذلك، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَدٍ أَلْفٍ مِّنْ أُنْثَىٰ نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وهذا يبين أن وجود المرء في ساحة المعركة ليس هو الذي يدي أجله، بل إنه لو كان في بيته، ثم حلَّ أجله لم يستقدم ساعة ولا يستأخر، إنها آجال مضروبة، ولهذا كان المؤمنون مطمئنين وهم في وسط الوغي حتى إن أحدهم ليسقط منه السوط من شدة النعاس.

وفي هذه الحالة فرق بين المؤمن والمنافق، فالؤمن مطمئن ليس عنده قلق ولا اضطراب عند حدوث المصائب، فهو ينام مطمئناً قريح العين، راضياً بقضاء الله وقدره، ينتظر الفرج من الله عَزَّجَلَّ، ويحتسب في المكارة والمصائب في سبيل الله عَزَّجَلَّ، وأما المنافق فعلى العكس من ذلك؛ لأن رضاه وغضبه من أجل الدنيا فقط.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥])، هذا قسم من الله تعالى بنفسه الكريمة

أَنَّهُمْ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، نفى عنهم الإيَّان ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: حتى يحكموا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الاختلاف فيما بينهم.

فالاختلاف يقع بلا شك، ولكنه يحسم بالرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة، فمن شهد له الكتاب والسنة بأنه الحق له حُكْمٌ له بذلك، وعلى الطرفين أن يرضيا بالحكم، هذه هي صفات المؤمنين.

وهذه الآية جاءت في أعقاب آيات أنكر الله عَزَّجَلَّ فيها على من يدعي الإيَّان بما أنزل على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في حل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله.

حصلت خصومة بين يهودي ومنافق، أما المنافق فأراد أن يذهب لبحث عن مخرج من الحكم الشرعي، ومن كان هذا موقفه فهو ليس بمؤمن، وفعله هذا من الكبائر الموبقة التي تنزع عن صاحبها صفة الإيَّان، ولهذا قَالَ المنافق: «نختصم إلى يهود»؛ لأنهم يأخذون الرشوة.

في حين قال اليهودي: «نختصم إلى محمد»؛ لأنه يعرف أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقضي إلا بالحق، ولا يأخذ الرشوة، ولذلك كان اليهود يرضون به، فالله قد فضح هذا المنافق بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] (١).

(١) قَالَ الشَّعْبِيُّ: (كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ. وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لِعِلْمِهِ =

والرسول ليس محكماً في أمور الأموال فقط، وإنما في كل الأمور، وفي كل خلاف، وسواء في العقيدة - وهذه أهم من الأموال - أو في غيرها من المسائل والقضايا، فلا بد أن نرجع في كل القضايا التي ينشأ عنها الاختلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله أنزل ﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ولا يكفي أن يحكموا الرسول فيما اختلفوا فيه لحل النزاع فحسب.

ولكن كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فإذا حكموا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحكم لهم أو عليهم، ثم وجدوا في أنفسهم حرجاً، ولم يسلموا - أي: لم يرضوا بذلك -، فهذا دليل على عدم وجود الإيمان في قلوبهم؛ لأن من صفات المؤمن أنه يرضى بحكم الله له أو عليه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِنَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧])، المراد بذلك: النفس المطمئنة بقضاء الله وقدره، والتسليم بحكم الله جَلَّ وَعَلَا، واطمئنان النفس إنما يكون بالإيمان واليقين؛ ليقال لها: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨]، فيقال للنفوس المؤمنة: ارجعي إلى صاحبك، أي: إلى الجسد الذي كنت تسكنين فيه، راضية عن الله مرضية عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه خير عاقبة لمن كانت نفسه مطمئنة في هذه الدنيا بالإيمان، وبقضاء الله وقدره، تخاطب يوم القيامة عند البعث والنشور، فيقال لها: ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ

= أُنْهَمُ يَأْخُذُونَ الرُّشُوءَ، فَاتَّفَقَا عَلَىٰ أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُحَيْنَةٍ، فَيَحَاكِمَا إِلَيْهِ، قَالَ: فَتَرَكْتُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠] الآية. أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٩٠).

رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿ [الفجر: ٢٨]، أي: إلى جسدك الذي كنت فيه، أو إلى خالقك راضية مرضية ﴿ فَأَدْخُلِي فِي عِبْدِي ﴿ ٢٩ ﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿ [الفجر: ٢٩-٣٠].

والشاهد في ذلك هو قوله: ﴿ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾، أي: بقضاء الله وقدره، وإلى أحكامه الشرعية المسلمة لله عزَّ وجلَّ.



وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(١).

الشَّيْخُ

كون المسلم يملك نفسه عند الغضب، فلا تحصل منه مبادرات سيئة، ولا تصرفات خاطئة، فإن هذا من الاطمئنان الذي يرزقه الله لمن يشاء من عباده، فلا ينساق وراء غضبه، ولا يفعل مع الغضب، بل يمسك بزمام نفسه حتى يذهب غضبه، أما ضعيف الإيمان، فإنه إذا غضب لا يبالي ماذا فعل أو ماذا قال؛ لأنه ينجر وراء غضبه.

والحديث فيه إرشاد إلى أن من أغضبه أمر وأرادت النفس المبادرة إلى الانتقام ممن أغضبها أن يجاهدها، ويمنعها مما طلبت حتى يزول عنها الغضب، فالله جَلَّ وَعَلَا وصف المؤمنين بقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿ [فصلت: ٣٤-٣٥]، ثم قَالَ: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٦]؛ لأن الشيطان يحضر عند الغضب، والغضب جمة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم، وهو

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

يحمل الغضبان على أن يعصي الله، وربما حمله على الكفر - والعياذ بالله -، أو على القتل، أو على السب والشتم والقذف والكلام القبيح.

أما المؤمن فإنه يملك نفسه، وهذا شبهه النبي ﷺ بأنه أقوى الناس، فليس الشديد بالصرعة، الذي يصرع الناس بقوته، وإنما هو الذي يملك نفسه عند الغضب بما أعطاه الله من قوة الإيمان، وهي أقوى من قوة البدن.

والحاصل من هذا: أن الانفعال مع الغضب يعد كبيرة من كبائر الذنوب، لا سيما إذا ترتب عليه معصية، أو نتج عنه قتل، أو كلام قبيح، كأن يسب الله عز وجل أو رسوله ﷺ، أو يسب الدين.



وَلِلْبُخَارِيِّ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»، فَرَدَّدَ مَرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»^(١).

الشَّجَرُ

هذا رجل طلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوصية، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَغْضَبْ»، وكان الرجل يريد أكثر من هذا، فكرر على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السؤال بطلب الوصية، قال له: «لَا تَغْضَبْ»، ثم كرر عليه الثالثة، فقال: «لَا تَغْضَبْ»، وهذا - والله أعلم - لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرف أن هذا الرجل كثير الغضب، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاه من الوصية ما يناسب حاله، وهذا من وفور عقله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن وصف العلاج المناسب للشخص المناسب، فإن المسلم إن تجنب الغضب سلم من أمور كثيرة، وإذا غضب كان على خطر عظيم، فإن المرء إن غضب لم يَدْرِ ما يقول أو يفعل، وقد يقول كلمة الكفر، أو قد يقتل، وقد يطلق زوجته، فهو لا يستطيع أن يمسك لسانه ولا يده، ثم إذا ذهبت ثورة الغضب ندم حيث لا ينفع الندم.

فعلى المسلم إذا غضب أن يمسك بزمام نفسه، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

فالغضب يعالج بعدة طرق، فعليه:

أولاً: أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأن الغضب من الشيطان.

(١) أخرجه البخاري (٦١١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثانيًا: أن يتوضأ؛ لأن الغضب من الشيطان، والشيطان مخلوق من نار، والماء يطفى النار.

ثالثًا: إذا كان قائمًا فليقعد، وإذا كان جالسًا فليضطجع.

تخاصم رجلان وصارا يتجادلان، والنبى ﷺ يراهما، وكان يسب أحدهما الآخر، فغضب الآخر، واحمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبى ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً تَوْقَالُهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، تَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(١)، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].



(١) أخرجه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠) من حديث سليمان بن صرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا، وَلِسَانَهُ صَادِقًا، وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً، وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً، وَعَيْنُهُ نَازِرَةً، فَأَمَّا الْأَذُنُ فَقَمِيعٌ، وَالْعَيْنُ مُقِرَّةٌ لِمَا يُوعَى الْقَلْبُ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلْبَهُ وَاعِيًا»^(١).

الشَّجُّ

هذا الحديث يشتمل على صفات تدل على سعادة من اتصف بها: أولها: يتمثل في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ اللَّهُ قَلْبَهُ»، والفلاح ضد الخسارة، وهذه الصفة المذكورة لا تكون إلا فيمن كان قلبه مخلصًا بالإيمان، ليس فيه نفاق؛ لأن الإنسان ربما اجتمعت به صفتا الإيمان والنفاق، أو يكون مؤمنًا خالصًا أو منافقًا خالصًا.

فالؤمن الخالص هو أفضل هذه الأنواع، ثم بعده المؤمن الذي فيه إيمان ونفاق، أما أشقى الأنواع، فهو المنافق الخالص -والعياذ بالله-.

وهذا المؤمن الخالص الإيمان جعل الله قلبه سليمًا؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا حكاية عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

والمقصود: أنه سليم من الأمراض المعنوية، فقد يكون القلب سليمًا من الأمراض العضوية، لكنه مريض بأمراض معنوية، وهي أشد من المرض العضوي، والقلب السليم خال من الغش والحق.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩/٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٥٦/١)، والطبراني في مسند الشاميين (١٧٧/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢١٦/٥).

وفي الحديث الذي يرويه أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يُطْلَعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَنْطِفُ لِحِيَّتُهُ مِنْ وَضُوئِهِ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّلَاثُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ - أَيْضًا -، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى. فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لَأَحِبُّ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَلَّا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتُ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسُ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ وَكَذْتُ أَنْ أَخْقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَارٍ: «يُطْلَعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلَاثَ مَرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ، فَأَقْتَدَيْتُ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَلَمَّا وَلَيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا تُطِيقُ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٢٠/١٢٤)، والنسائي (١٠٦٣٣).

فهذا الذي أوصله إلى هذه المكانة الرفيعة سلامة قلبه، فهو لم يكن من أكثر الصحابة أعمالاً، ولكنه كان سليم القلب، لا يحقد على أحد من المسلمين، ولا يحسد أحداً على نعمة أنعمها الله عليه.

ثاني الصفات: تتمثل في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلِسَانُهُ صَادِقًا»، فهذه الصفة هي أبرز ما يميز المسلم عن غيره، فهو لا يتكلم إلا صادقاً، ويتجنب الكذب والغيبة والنميمة، والكلام الذي لا فائدة منه، فالصدق هو شعار المسلم، وهذا فيه الحث على الصدق في القول والعمل، وأن الصادق يكون في زمرة المفلحين، وأن نجاة المسلم تكون بحفظ لسانه، فهذا العضو الصغير شأنه خطير، ولهذا قيل: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أُنْسِنَتِهِمْ؟»^(١)، فالكلام خطير، لا سيما إذا كان كذباً أو خداعاً وغشاً للآخرين.

ثالثها: في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَنَفْسُهُ مُطْمَئِنَّةٌ»، وهذا هو الشاهد هنا: أن تكون نفس المؤمن مطمئنة بالإيمان، ومطمئنة لقضاء الله وقدره، لا تتأثر إذا أصابها ما تكره، وإنما تصبر وتحسب؛ رجاء الثواب، وإن أصابها خير شكرت، وحمدت على النعماء، فهذا معنى الاطمئنان الذي يكون في الرضا والتسليم لقضاء الله تعالى وقدره.

رابعها: في قوله: «وَخَلِيقَتُهُ مُسْتَقِيمَةٌ»، أي: كان حسن الخلق.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا»^(١)، وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، أي: احرص على أن تحسن أخلاقك مع الناس.

خامسها: في قوله: «وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً»، أي: للخير، فالأذن مستمعة بطبيعة الحال، ولكن أذن المؤمن مستمعة للمفيد من ذكر الله تعالى، وقراءة القرآن والعلم النافع، ولا تستمع إلى ما يضرها، ويغضب الله، مثل: الكذب، والنميمة، والسب، والشتم، وسماع اللهو والأغاني، فكما ينزه المسلم لسانه لا بد له من أن ينزه سمعه.

سادسها: في قوله: «وَعَيْنُهُ نَاطِرَةٌ»، أي: إلى دلائل صنع الله في الآفاق والأنفس، وناظرة إلى ما ينفعها نظر اعتبار وتفكر وانتباه، لا نظر البهائم التي لا تفقه شيئاً، وإنما نظر انتباه وتبصر.

قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ولكن عليك أن تستعمل بصرك بما فيه خيرك في الدنيا والآخرة، ولا تستعمل بصرك في النظر إلى ما حرم الله من الفتن، مثل النظر إلى النساء، ومحارم الله عَزَّوَجَلَّ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَيْنُهُ نَاطِرَةٌ، فَأَمَّا الْأُذُنُ فَصَمْعٌ، وَالْعَيْنُ مُقَرَّةٌ لِمَا يُوعَى الْقَلْبُ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلْبَهُ وَاعِيًا»، ومثل العين الأذن -أيضاً-، فقد

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ، وأبي عبد الرحمن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

شبهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأذن بالقمع، وهو (المحقن)، الذي يوضع في فم الوعاء أو القربة، ثم يصب فيه الماء، فالأذن مثل المحقن الذي يصب فيه الماء، فهي تصب في القلب ما تسمعه - حسناً كان أم سيئاً -، كالماء الذي يحقن في السقاء، ويصب فيه.

وأما العين، فهي معبرة لما يوعي القلب، فعينك ينبغي عليك أن تنظر بها إلى ما يفيد قلبك نظر اعتبار وتفكر، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦]، وقال: ﴿ قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، فالأصل في الإنسان أن ينظر نظر اعتبار وتفكر، ولكن الناس في هذه الأيام يكثرون من السياحة، ولكن أي سياحة؟ هل هي سياحة معاص أم سياحة إيمان؟ المطلوب سياحة الإيمان التي فيها نظر وتأمل وتدبر وتعقل في ملكوت الله عَزَّجَلَّ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، فالذي يسير في الأرض من أجل الاعتبار والتوبة والرجوع إلى الله تعالى هو الناجي.

أما الذي يسير في الأرض لإشباع رغباته وشهواته وأهوائه والاستمتاع بالمحرمات، ولا يتعظ ولا يرتدع، فهذه سياحة محرمة، وإن كانت سياحته لأجل الاستمتاع المباح والنزهة الزهية، فهي سياحة مباحة.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلْبَهُ وَاعِيًا»، أي: متيقظًا لذكر الله، ومعتبرًا، فلا يكون قلبه ميتًا.

فالقلوب على ثلاثة أقسام:

قلب مستنير بنور الله عَزَّجَلَّ.

وقلب مريض، وهو قلب المنافق.

وقلب ميت، وهو قلب الكافر.

فقلب المؤمن قلب حي مستنير صادق، فانظر قلبك من أي القلوب

هو؟



بَابُ: الْجَهَالَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]. الآية.

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْجَهَالَةِ)، الجهالة من الجهل، وهو ضد العلم، فلا يجوز للإنسان أن يبقى جاهلاً في أمور الدين، بل يجب عليه تعلم ما لا يستقيم دينه إلا به؛ لأن ترك هذا التعلم يعد كبيرة من الكبائر؛ لأن هذا فيه حرمان للفرد من العلم، والله وصف المنافقين بأنهم لا يفقهون، فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]، وذلك لأنهم لا يهتمون بطلب العلم وسماع الخير المفيد من القرآن والسنة، ولذلك فهم يقولون على جهالتهم وعلى ضلالهم -نسأل الله العافية-.

وقد يصل الإعراض عن التعلم إلى حد الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، أو يصل إلى حد النفاق، وقد كان المنافقون يحضرون مجالس الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويستمعون له في خطبة الجمعة، ولكنهم عندما يخرجون من عنده كان حالهم كأنهم ما حضروا، وفي هذا يقول الله على لسانهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ لِإِتَائِكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَفَقًا﴾ [محمد: ١٦]، فهم حضروا بأجسامهم، لكن عقولهم وقلوبهم كانت غائبة، فكانوا إذا حضروا خطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وخرجوا بعدها يسألون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ماذا قَالَ النبي؟ كما سألوا ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهم لا يحفظون، ولا يفقهون ما سمعوا.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَبِهَ النَّاسَ مَعَ سَمَاعِهِمُ الْعِلْمَ بِالْأَرْضِ يَصِيبُهَا الْمَطَرُ، فَالْمَطَرُ يَصِيبُ جَمِيعَ الْأَرْضِ، وَلَكِنْ قِسْمًا مِنْهَا هُوَ الَّذِي يُمْسِكُ الْمَاءَ، وَيَنْبِتُ الْكَلَأَ، فِيرْعَى النَّاسُ وَيَشْرَبُونَ، وَهَذَا أَطْيَبُ الْأَقْسَامِ.

ومنها: قِسْمٌ يُمْسِكُ الْمَاءَ، وَلَا يَنْبِتُ الْكَلَأَ، وَهَذَا -أَيْضًا- طَيِّبٌ؛ لِأَنَّهُ يُمْسِكُ الْمَاءَ لِلنَّاسِ لَشَرِبِهِمْ، كَالْأَرْضِ الصَّلْبَةِ الَّتِي لَا يَنْضَبُ مِنْهَا الْمَاءُ، فَالنَّاسُ كَذَلِكَ عِنْدَ سَمَاعِ الْعِلْمِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعِي وَيَحْفَظُ وَيَفْهَمُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ وَلَكِنَّهُ لَا يَفْهَمُ، أَوْ فَهْمُهُ قَلِيلٌ، لَكِنَّهُ يَعْتَنِي بِمَا سَمِعَهُ، وَيَبْلُغُهُ لِلنَّاسِ.

وقسم ثالث: لَا خَيْرَ فِيهِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ هُدَى اللَّهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلِمٌ وَعِلْمٌ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(١)، هَكَذَا ضَرَبَ

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلاً، وقسم الناس وصنفهم تجاه الوحي والقرآن والسنة حين يسمعونها.

الصنف الأول: هم الفقهاء المحدثون.

والصنف الثاني: هم الحفاظ غير الفقهاء.

والصنف الثالث: هم الذين لا خير فيهم، لا هم فقهاء ولا حفاظ، فهم مثل الأرض السبخة التي لا تنبت نباتاً للملوحة أرضها، أو مثل الأرض المستوية الملساء التي يزل عنها الماء، فلا تقبل الماء في باطنها، ولا تمسكه على ظاهرها حتى ينتفع به.

فكل الأصناف أصابها المطر، ولم ينتفع به إلا الأرض الطيبة، وكذلك الناس ينقسمون إلى هذه الأقسام في تلقي العلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾، اللام في (لقد) موطئة للقسم، فيه قسم محذوف، تقديره: «والله»، و«قد»: أداة تحقيق، أي: والله لقد خلقنا لجهنم. وهذا إنذار، أي: خلقنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، ولم يقل: قليلاً، فأكثر الخلق من أهل النار، فلا تغتر بالكثرة، وتقول: إن أكثر الناس على ذلك، فقد قدرنا دخولهم جهنم بسبب أفعالهم، فهم لا يدخلون النار لأن الله خلقهم لجهنم، لا، وإنما دخلوها بأعمالهم السيئة.

وقد جاء في الحديث: «يَقُولُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ دُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ»^(١)، كلهم

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في النار، وواحد في الجنة، فلا تغتر بالكثرة، وليس الإنس وحدهم يدخلون النار، ولكن الجن -أيضاً-، وهم عالم غيبي تؤمن بوجودهم، وإن لم نكن نراهم، وهم مكلفون مثلنا، ومأمورون ومنهون، ورسالة محمد ﷺ عامة للإنس والجن، وهو مبعوث للثقلين بشيراً ونذيراً، والإنس هم بنو آدم.

فأهل جهنم كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، أي: لم يفهموا ما سمعوا، ولم يتفهموا بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، وهذا محل الشاهد هنا: أنهم تركوا تعلم العلم، وأعرضوا عن الكتاب والسنة، فحرموا من الفقه، وفائدة القلب التي أنعم الله بها عليهم متعطلة، فهم لا يفهمون؛ لأن قلوبهم لا تفهم؛ لأنها لا تقدم على الخير، فهي معرضة عنه.

وقال تعالى -أيضاً-: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ﴾، فهم لهم أعين كذلك، لكنهم لا يبصرون بها الإبصار الذي ينفعهم، وإنما يبصرون بها إبصار أصحاب الشهوات والغفلة، ولهم كذلك آذان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، لهم آذان يسمعون بها، وليسوا صمّاً، ولكنهم يسمعون ما يضرهم ولا ينفعهم، فهم يستعملون قلوبهم وآذانهم وأعينهم فيما لا ينفعهم، وهذا ما عليه كثير من الناس -والعياذ بالله-، والقليل هم الذين لهم قلوب تفقه، وأعين تبصر، وآذان تسمع الخير، هؤلاء هم القليل من الناس، وهؤلاء هم الذين يخرجون من الجهل المظلم إلى الهدى والنور والعلم النافع، وذلك لأنهم أحضروا قلوبهم، ونظروا بأبصارهم نظر اعتبار واتعاظ، وسمعوا

بأذانهم ما ينفعهم من القول الطيب والكلام النافع، هؤلاء الذين فقهوا وعقلوا.

ثم قال تعالى في آخر هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾، وهذا ذم لهم، فالأنعام لا تعرف هذه الأشياء؛ لأن همها الأكل والشرب فقط؛ لأنها ما كلفت وهم مكلفون، ولهذا زاد ذمًا لهم بقوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، هم أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام لم تكلف وهم مكلفون، فمهمة الأنعام في هذه الدنيا هي المنافع للناس، فلا حساب عليها، ولا تدخل جنة ولا نارًا.

أما الجن والإنس الذين أعطاهم الله عقولًا، فهؤلاء لهم الجنة، ولهم النار؛ لذلك كانت الأنعام خيرًا من هؤلاء، وهم أضل منها؛ لأنها عرفت مسؤوليتها في هذه الحياة، أما هؤلاء فلم يعرفوا مسؤوليتهم، مع أنه سُبحَّانَهُ وَتَعَالَى فضلهم على البهائم، ولكنهم أبوا إلا أن يكونوا مثلها، بل أضل منها، فكان همهم الطعام والملذات، والإعراض عما فيه نفعهم في دنياهم وآخرتهم، وبهذا صاروا أقل منزلة من البهائم -نسأل الله العافية-.



وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُعَاوِيَةَ وَغَيْرِهِمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١).

الشَّيْخُ

وأما حديث ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم، فهو حديث عظيم، فقد ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علامة الخير، أو علامة إرادة الله الخير للعبد، وهذه العلامة هي التفقه في الدين.

والفقه في اللغة معناه: الفهم^(٢).

وأما الفقه في الاصطلاح، فهو: معرفة الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة^(٣).

والله جلَّ وعلا حث على التفقه في الدين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْئَةٍ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ فيه حث، أي: هلا نفر، أي: سافر لطلب العلم.

﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾، أي: قوم.

﴿طَائِفَةٌ﴾، أي: جماعة سواء كانت قليلة أم كثيرة.

(١) أخرجه البخاري (٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) الفقه: العلم في الدين، يقال: فقه الرجل يفقه فهو فقيه، وأفقهته أنا، أي: بيّنت له تعلم الفقه. انظر: تهذيب اللغة (٥/٢٦٣)، ولسان العرب (١٣/٥٢٣).

(٣) انظر: الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/١٩١)، واللمع في أصول الفقه (١/٦)، والورقات (١/٧)، وزاد المسير لابن الجوزي (٣/٤٧٨).

﴿لَيَنْفَقَهُوْا فِي الدِّينِ﴾، أي: ليتعلموا الأحكام الشرعية من الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وليس هذا خاصاً بزمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هو عام إلى أن تقوم الساعة، فيشرع لمن لديه القدرة على السفر لطلب العلم أن يسافر.

وفي هذا دليل على أن العلم يتلقى عن العلماء، وأن الرِّحال تشدُّ إليهم، ولو كان العلم يتلقى من الكتب لا شترى كل واحد منهم مجموعة من الكتب، وجلس يقرأ، ولا حاجة للسفر، لكن هذا لا يعد تعلماً، بل إنه يضر أكثر مما ينفع، والعلم بالتعلم، والتعلم إنما يكون على يد العلماء الذين تحملوه، وفهموه من أصوله وأدلتها، وتناقلوه جيلاً بعد جيل، فهذا هو العلم.

ثم هل يكفي أن يتفقهوا في الدين فقط؟ لا، وإنما كما ذكر سُبْحَانُهُ: ﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، فمهمة المتعلم ليست اختزان العلم في صدره، وإنما ليعلم به ويبلغه؛ لأن العلم أمانة.

وفي قوله: ﴿قَوْمَهُمْ﴾ دليل على أن أول من يبدأ العالم بتعليمهم هم قوم العالم، فيبدأ بأهل بيته، ثم أقاربه، ثم أهل بلده، فهم أولى بتبليغهم العلم من الأبعدين، فقد قال الله تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وهم بذلك ينذرون قومهم، لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، أي: يحذرون من الشرك والمعاصي، والبدع والجهل، ويحذرون من أهل الضلال، ومن دعائه، ومن المذاهب الهدامة - خاصة في هذا الزمان -، فهم بحاجة ماسة لمن يرشدهم إلى الطريق الصحيح والمنهج السليم.

وأما الذين يذهبون إلى البلدان للدعوة، ويتركون أهل بلدهم، فهم مخالفون للمنهج الصحيح في الدعوة.

فدلّت هذه الآية على أنه لا يجوز للإنسان أن يعلم، أو يدعو إلى الله دون أن يتفقه، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، فالبصيرة هي العلم.

وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، والحكمة: هي الفقه والعلم والفهم.

وفي هذا الحديث الذي رواه أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ حيث قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُهُ فِي الدِّينِ». إثبات الإرادة لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنها صفة من صفاته.

والإرادة قسمان:

القسم الأول: إرادة كونية قدرية.

وقد قال تعالى مثلاً على هذه الإرادة الكونية: ﴿وَلِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

والقسم الثاني: إرادة شرعية دينية.

كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

والإرادة الكونية لا بد من وقوعها، أما الإرادة الشرعية، فقد تقع، وقد لا تقع.

قد اشتمل هذا الحديث على الإرادة الكونية، فإذا أراد الله بعبده الخير إرادة كونية، فإنه يوفقه للتفقه في الدين، ومن لم يرد به خيرًا، فإنه لا يفقهه في الدين، ويحرمه من العلم، والحرمان من العلم الشرعي علامة أن الله لم يرد بهذا العبد خيرًا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأيضًا قال: «يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ»، فالفقه يكون في الدين، وذلك بمعرفة الأحكام الشرعية، وليس الفقه الذي يسمونه الآن فقه الواقع الذي هو معرفة أمور السياسة، وما يجري في العالم.

ونقول لهؤلاء: إنك لن تفقه الواقع إلا بعد أن تتفقه في الدين، أما بدون ذلك فلا.



وَفِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ الْمُرْتَابَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ إِذَا سَأَلَهُ الْمَلَكُ: هَا هَاهُ، لَا أَذْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُ» (١).

الشَّجَرُ

أما حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو حديث طويل، جاء فيه وصف الاحتضار عند الموت، وطريقة نزول الروح من الجسد، وما يجري على العبد إذا وُضِعَ في قبره؛ حيث يأتيه ملكان، وتعاد روحه إلى جسده، فيحيا حياة برزخية تختلف عن الحياة الدنيا: «فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رُبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فالْمُؤْمِنُ الذي تفقه في دين الله وعمل به في الدنيا، واستقام على الحق في حياته يكون الجواب عليه يسيرًا، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا. قَالَ: وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدُّ بَصَرِهِ»، نسأل الله من فضله.

وقوله: «أَنَّ الْمُرْتَابَ»، المرتاب: هو الشاك في دينه الذي لم يدخل الإيمان في قلبه، وإنما تابع الناس على ما هم عليه، وعاش معهم دون اقتناع بهذا الدين، وإنما التزم به ظاهراً؛ ليعيش مع الناس، وهذا حال المنافقين -والعياذ

(١) أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥) من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وجاء -أيضاً- من حديث البراء، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي قتادة، وعائشة، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

بالله - الذين أسلموا في الظاهر، وهم كفار في الباطن، فإذا جاء أحدهم الملكان، وسألاه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ لا يستطيع الجواب، وإن كان متعلماً في الدنيا، ويملك الفصاحة، ومتبحراً في العلم؛ لأنه كان عنده شك في دينه وفي عقيدته.

فهو لا يستطيع الجواب، فيقول: «هَآ هَآ، لَا أَذْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُ»، وهذا من باب التقليد، ومعايشة الناس بلا علم، لا بالدين ولا بالله، فينزع منه العلم في القبر، ويبقى متحيراً كما كان متحيراً في الدنيا، ومات على الشك والنفاق، فهو لا يستطيع الجواب: «مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَآ هَآ هَآ هَآ، لَا أَذْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَآ هَآ هَآ، لَا أَذْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَآ هَآ هَآ، لَا أَذْرِي، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَقْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، قَالَ: وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ»، فالقبر روضة من رياض الجنة على المؤمن، وحفرة من حفرة النار على الكافر والمنافق، وهذا سببه أنه لم يتفقه في دينه قبل أن يموت ويعمل به، فهذه عاقبته.

وأما المؤمن، فإنه يرى في قبره مقعده في الجنة، ومنزلته فيها، ويتمنى أن تقوم الساعة؛ كي يذهب إلى منزله.

والمنافق يفتح له باب إلى النار، فيرى منزله فيها، فيقول: «رَبِّ لَا تَقْمْ السَّاعَةَ»؛ لأنه يعلم أن ما بعد القبر أشد، ويتمنى ألا تقوم الساعة؛ لأنه يرى مآله - والعياذ بالله.

فهذا الحديث فيه التحذير من الجهل والشك في الدين.

وفيه الحث على تعلم قواعد الإسلام، وما يتصل بها من الفروع؛ لأن من لم يعرف أمور دينه على بصيرة لا يكون فقيهاً.

وفيه الحث على العمل بطاعة الله؛ حتى يؤول إلى المآل الطيب.



بَابُ: الْقِحَّةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨].

الشَّرْحُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْقِحَّة» هنا تعني: قلة الحياء.

أما الْقَحُّ في الأصل: فهو الشيء الخالص، يقال: هذا قَحٌّ، يعني: خالص، يقولون: هذا عربي قَحٌّ، أي: عربي خالص في نسبه^(١).

أما المراد هنا بقوله: (الْقِحَّة)، فالأصل وقح، وهي كلمة تدل على صلابة في الشيء، فالخافر الصلب وقاح، شبه به الرجل القليل الحياء، فقليل: وقح بين القحّة والوقاحة، أي: قلّ حياؤه، واجترأ على اقتراف القبائح، ولم يعبأ بها^(٢).

وهذه الآية نزلت في المنافقين؛ حيث قال الله عَزَّجَلَّ في شأنهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾، يستخفون بقبائحهم عن الناس، فهم لا يسترونها عنهم؛ لئلا يعرفهم الناس ويتجنبوهم من باب الخداع.

(١) انظر مادة (قح) في: العين (٨/٣)، وتهذيب اللغة (٢٤٧/٣)، والصحاح (٣٩٤/١)، ومقاييس اللغة (٦/٥)، ولسان العرب (٥٥٣/٢).

(٢) انظر مادة (وقح) في: العين (٢٥٦/٣)، وتهذيب اللغة (٨٣/٥)، والصحاح (٤١٦/١)، ومقاييس اللغة (١٣٢/٦)، ولسان العرب (٦٣٧/٢).

وفي المقابل هم لا يستخفون من الله تعالى، وإنما يبادرونه بالمعاصي، وإذا كانوا مع الناس أظهروا لهم الخير والعبادة والتمسك بالدين، وإذا خلوا استحلوا الحرمات، وارتكبوا الآثام؛ لأن الذي يهتمهم أمر الناس، وليس الله -سُبْحَانَهُ-.

هذه هي صفة المنافقين، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وصنيعهم هذا من الجفاء في الدين، وعدم الرغبة والمحبة فيه، وهذا شأن المنافق دائماً مع الدين، فهو يعتقه ظاهراً؛ ليعيش بين الناس لمصالحه الدنيوية.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، فالله معهم لا يخفى عليه سرهم؛ لأنه -سُبْحَانَهُ- يعلم ظاهرهم وباطنهم، ويعلم سرهم ونجواهم، وما يبتغون وما يعلنون.

وهذه معية عامة، ومعناها: الإحاطة والعلم، فهو -سُبْحَانَهُ- مطلع عليهم أينما كانوا، ويحصى عليهم أعمالهم مهما حاولوا التستر والخداع والمكر؛ لأنهم مهما حاولوا خداع الناس -لأن الناس ليس لهم إلا الظاهر-، فلن يستطيعوا خداع الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، أي: يستدرجهم، ويملي لهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة.

وخداع الله تعالى محمود؛ لأنه في محله، وهو عدلٌ منه -سُبْحَانَهُ-، وجزاء على أعمال المنافقين السيئة، وخداع البشر مذموم؛ لأنه بغير حق.

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ»، أي: مما بقي من حكمتهم على ألسنة الناس، ولم ينسخ فيما نُسِخَ من شرائعهم «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»، ظاهر هذا الحديث أن الذي لا يبالي بالذنب، ولا يستحيي من الناس، ولا من الله تعالى يصنع ما يشاء من القبائح؛ لأنه ليس عنده حياء يعجزه، فمن فقد الحياء صنع ما شاء من القبائح.

وقوله: «فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» فيه توبيخ شديد، أو هو للتهديد، أي: افعل ما شئت، فسوف ترى عاقبة ذلك الصنيع، وهذا فيه -أيضاً- ذم عدم الحياء، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ: بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢)، فالحياء هو الذي يمنع الإنسان من عمل ما لا يليق، ولهذا فهو شعبة من الإيمان وهو محمود.

وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَمِعَ رَجُلًا يَعْظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ: «دَعُهُ، فَإِنَّ الْحَيَاءَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٠) من حديث أبي مسعود عُبَيْدِ بْنِ عَمْرٍو الأنصاري البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والحياء خلق محمود جعله الله في الإنسان؛ ليمنعه عما لا يليق فعله، فهو شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وهو خلق يكف الإنسان عن الرذائل والذنوب والمعاصي والسخافات، فإذا فقد الإنسان هذا الخلق، فإنه لا يبالي أن يصنع ما يشاء، وهذا واقع، ونراه في مجتمعاتنا، فبعضهم من قلة حياته لا يبالي بما يفعل من المعاصي والقبائح والرذائل، أو حتى الفواحش، أو التكلم بالكلام القبيح، كما يفعله بعض الصحفيين من الكلام في الأحكام الشرعية، وتنقص العلماء، وهو لا يفهم من الدين شيئاً.

وفي الحديث: الحث على التخلق بخلق الحياء، وهذا النوع من الحياء هو الحياء المحمود.

أما الحياء الذي يمنع صاحبه من التعلم وسؤال أهل العلم، فيسمى خجلاً، وليس حياءً، وهو مذموم.

فالمسلم لا ينبغي له أن يخجل من سؤال ما أشكل عليه، فإن منعه الخجل، فهو قصور ونقص في حقه، وهذا هو المتبادر من معنى الحديث.

وأما بعض العلماء، ففسره تفسيراً آخر، فقال: إذا كان الذي تفعله لا يستحي منه فافعله، أما إذا كان مما يستحي منه فاتركه، وهو لا يختلف تقريباً عن المعنى الأول.



بَابُ: الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ

عَنْ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَا ذَنْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي زُرِّيَّةٍ غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

الشَّيْخُ

وفي هذا الحديث بيان مضرة الحرص على المال والشرف على الدين، فالحرص على المال والشرف يضر بالدين؛ لأن الحرص على المال يحمل الإنسان على الكسب الحرام من الربا والقمار، والغش والسرقة والغصب وغير ذلك، أي: إن محبة المال تحمل الإنسان على الكسب الحرام، وليس المراد ألا يحب الإنسان المال، فلقد قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، والخير هو المال، وإنما المقصود حب المال الذي يحمل الإنسان على المكاسب المحرمة، فهذا هو الحرام، وإلا فالله جلَّ وعلا قال: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ﴾ [الإنسان: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فالكل يحب المال، ولكن إذا خرج حب المال عن حده، وحمل صاحبه على عدم المبالاة بأي وسيلة يأخذه، فهذا هو الحرام المذموم الذي يضر بالدين؛ لأن صاحبه لا يتقيد بأوامر الله سُبحانه وتعالى ونواهيه، بل يكسب المال من أية طريقة كانت.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وقال: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ). وأخرجه النسائي (١١٧٩٦)، وأحمد (٦١/٢٥).

والشرف: هو الجاه والرفعة، والكل يحب الشرف والرفعة، ولكن إذا خرج عن حده، فبلغ حب الشرف بالإنسان أن يتعدى على غيره، ويتكبر، ويظلم غيره من أجل الحصول على هذا الشرف، فقتل، وتعدى على غيره، فهذا مذموم يضر بالدين، فكل شيء له حدود يجب ألا يتعدها.

وفي حديث كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا مثال ضربه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خطر الحرص على المال وعلى الشرف؛ حيث شبه الرجل الحريص على جمع المال وتحصيل الشرف والجاه بالذئبين الجائعين اللذين وجدا غنماً في زريبة، أي: في حظيرة، فإذا أتى عليها الذئبان الجائعان فتكا بهذه المجموعة من الغنم، فشبه حب المال والحرص على الشرف بذئبين دخلا على زريبة غنم، وإذا اجتمع في الإنسان حب المال وحب الشرف اجتمع فيه ذئبان يفتكان بدينه كما يفتك الذئبان بالغنم، فما ظنكم بذئبين جائعين وجدا غنماً محصورة في زريبة، ماذا سيفعلان؟ إنها سيفتكان بها فتكاً شديداً.

وهذا مثل رائع يضربه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبين فيه خطر حرص المرء على تحصيل المال والشرف والمبالغة في ذلك دون أن يبالي من أين، وكيف اكتسبه ليحصل على المال والشرف، فمن فعل ذلك، فقد أهلك دينه، كما يهلك الذئب الشياه، إن تمكن منها.

وهذا فيه تحذير من حب المال الذي يحمل صاحبه على الجشع والطمع، وعدم المبالاة من أين يأخذ المال، ومن المبالغة في حب الرفعة والرئاسة أو الجاه الذي يحمل صاحبه على الأشر والبطر وظلم الناس والتعدي عليهم.

فالإنسان المسلم متواضع رفيق بالناس، وإذا نال شيئاً من الشرف أو الولاية سخر ذلك لخدمة الرعية والرفق بها، وإلا كان كالذئب الذي يهلك الغنم.

ثم إن المغالاة في حب المال قد تحمل الإنسان على تحصيله بأية وسيلة دون تفريق بين حلال أو حرام.

والحقيقة أن هذا واقع أكثر الناس اليوم؛ حيث يسعون إلى تحصيل المال وتكثيره دونما نظر إلى الأحكام الشرعية في البيوع وغيرها، فلربما يقعون في الربا، أو يتعاملون بالرشوة والتدليس والغش واستخدام الطرق الملتوية، حتى ولو أدى ذلك إلى أكل حقوق الناس بالباطل.

ثم الطامة الكبرى أنك إذا بينت الحكم الشرعي، قالوا لك: كل الناس يفعلون هذا، وأنت متشدد، ونحو ذلك.



بَابُ: الْهَلَعِ وَالْجُبْنِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾

[المعارج: ١٩-٢٢].

الشَّيْخُ

ذكر الله تعالى الهلع في هذه الآية: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، أي: جزوعًا لا يصبر على ما ينزل به من بلاء.

والمراد: جنس الإنسان، وليس كل إنسان خلقه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى هَلُوعًا، ومن هو الهلوع؟ الهلوع: هو الذي ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠-٢١]، فإذا أصابه شر جزع ولم يصبر، ولم يؤمن بالقضاء والقدر، وإذا أصابته النعمة والخير والسعادة منع الخير والصدقة والنفقة في سبيل الله، وهاتان خصلتان مبغوضتان في الإنسان:

الخصلة الأولى: أنه إذا أصابه الضر فزع وانخلع قلبه من شدة الفزع، وما علم أن ذلك بسبب ذنوبه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

فالواجب على المسلم في مثل هذه الحالة أن يحاسب نفسه، ويتوب إلى الله تعالى، ويحتسب المصيبة عنده جَلَّ وَعَلَا.

والخصلة الثانية: أنه إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره، ومنع حق الله فيها، في حين أنه ينبغي له إن أحدث الله له نعمة أن يشكره

عَزَّجَلَّ، ويعطي المحتاجين مما أعطاه الله؛ لأجل أن يبارك له في ماله في الدنيا وفي الآخرة، فهو مثاب على ذلك، وله الأجر والثواب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكما يستثمر الإنسان ماله في الدنيا، وينميهِ في العقارات وغيرها، فلماذا لا يستثمره في الآخرة والقصور والبساتين والمساكن في الجنة التي هي خير وأبقى مما في الدنيا؟

وليس المطلوب من المسلم أن ينفق ماله كله، وإنما عليه أن يتصدق، ويخرج منه في سبيل الله، فلا يجعل ماله كله للدنيا، ولكن عليه أن يجعل جزءاً منه للآخرة، فإن المانع من الإنفاق والجود خوف الفقر هو جهل بالله، وعدم وثوق بوعده، وفي المقابل فمن تحقق أنه الرزاق، وهو المعطي لم يثق بغيره.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، فاستثنى المصلين من هاتين الصفتين، فالمصلي الذي يحافظ على صلاته يسلم من هاتين الخصلتين المذمومتين؛ لأن الصلاة كما قال تعالى: ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وكذلك فإن الصلاة تعين على تحمل المصاعب والمشاق، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فالصلاة هي خير عمل الإنسان، فلذلك استثنى الله المصلين من الجزع عند المصيبة والمكروه، ومن المنع عند حصول النعمة، فإنهم إذا أصابتهم ضراء صبروا، وإن أصابتهم سراء شكروا الله عَزَّجَلَّ؛ لأن الصلاة تأمر بذلك وتعين عليه، وهذا من الفوائد العظيمة في الصلاة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُعْجٌ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ^(١).

الشُّعْجُ

في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُعْجٌ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ».

الشُّعْجُ: هو البخل الذي يحمل الإنسان على منع الخير من زكاة وصدقة.

ومعنى: «هَالِعٌ»، أي: جازع، فهو يحمل صاحبه على الحرص على المال، والجزع عند ذهابه.

وقيل: هو ألا يشبع، كلما وجد شيئاً بلعه ولا قرار له، ولا يتبين في جوفه، ويحرص على تهيئة شيء آخر، فالشُّعْجُ بخل مع حرص.

والحاصل أن لفظ الشُّعْجُ أبلغ من البخل؛ لأن البخل منع ما وجب بذله في المال، والشُّعْجُ عام في كل شيء في المال والأفعال والأقوال^(٢)، وهذا لا ينبغي أن يكون خلقاً للمسلم.

وقوله: «وَجُبْنٌ خَالِعٌ»، الجبن: ضد الشجاعة، كأن يخاف الإنسان أن يجاهد في سبيل الله من شدة خوفه من القتل، أو خوفه من الجراح، فهذا هو الجبن.

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١١)، وأحمد (٣٨٥/١٣).

(٢) انظر: معجم الفروق اللغوية (١/٢٩٥).

ومعنى: «خَالِعٌ»، أي: شديد، كأنه يخلع قلبه من الخوف والرعب، والمراد به: ما يعرض من نوازع الأفكار وضعف القلب عند الخوف، وهذه سمة المنافقين الذين يكرهون الجهاد في سبيل الله؛ لأنهم يحرصون على الدنيا، ويذرون الآخرة، ويريدون البقاء.

وقد قال الله تعالى يصف المنافقين وأصحاب القلوب المريضة عند ذكر الجهاد: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]، أي: كالذي يعاني سكرات الموت، تتقلب عيناه من شدة الألم، أي: خلع قلبه عند ذكر الجهاد -والعياذ بالله-، كالذي يغشى عليه من الموت، فهو لا يريد ذكر الجهاد، ولا يريد أن يجاهد، ويحب البقاء في الدنيا، وما هو بباقي فيها، فهو ميت لا محالة، سواء مات في المعركة، أو بأي سبب آخر، فلا نجاة من الموت، فلماذا لا يكون موتاً في سبيل الله؟ فمن يقتل في سبيل الله ينال حياة دائمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، هم أحياء، ولكن لا ندري حقيقة حياتهم؛ لأنها في البرزخ، فالشهادة حياة، ولهذا يقول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَخْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تُوهَبَ لَكَ الْحَيَاةُ»^(١)، يعني: حياة الشهداء، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة وأدب العلم (٣/ ٦١).

في المقابل يصف الله المؤمنين، وتحرقهم للجهاد وسعيهم له؛ لما يعلمون من عظم أجره فيقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [محمد: ٢٠]، تنزل سورة في الجهاد تأمرهم به، فيبادرون إليه؛ طمعاً في الأجر والثواب، فهم يستبطنون حصول الأمر بالجهاد، ويطلبون سرعة الأمر به، وهذا دليل على أن الجهاد يرجع في شأنه إلى الكتاب والسنة، لا إلى مجرد الرغبة فيه؛ لأنه عبادة، والعبادات توقيفية.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»^(١).

الشُّحُّ

في هذا الحديث حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشح، وهو أشد من البخل؛ لأنه يحمل الإنسان على منع ما عنده، والطمع فيما عند غيره، هذا هو الفرق بين الشح والبخل، فالبخل: أن يمنع الإنسان ما عنده، أما الشح: فإنه يدفع الإنسان إلى التطلع إلى ما عند غيره، مع منع ما عنده.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، يعني: الأمم السابقة، فكيف أهلكهم؟ حملهم حب المال والشح على «أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»، وهذا كله من أجل المال، فقد يقتل الإنسان قريبه أو أخاه المسلم؛ لأن الشحيح لا يكفيه ما عنده، بل يتطلع إلى ما عند غيره؛ من أجل أن يحصل على ماله، وقد يحتال كما فعل اليهود لما حرم الله عليهم الشحوم، فجملواها وباعوها^(٢)، واستحلوا كل وسيلة؛ ليحصلوا من خلاها على المال، فاستحلوا الربا والرشوة والميسر.

(١) أخرجه مسلم (٥٦) (٢٥٧٨) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٢٣)، ومسلم (٧٢) (١٥٨٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: «قَاتَلَ اللَّهُ فُلَانًا، أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا، فَبَاعُوهَا».

وهذه صفة الأمم السابقة كاليهود، فإن اليهود لا يبالون بأخذ المال بأي وسيلة، وهم لا يزالون كذلك، وهم أقبح الناس في استغلال وسائل المال، وأبخلهم في الإنفاق، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذرنا من هذا المسلك الخطير.



بَابُ: الْبُخْلِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ الآية [النساء: ٣٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

الشَّجَرُ

البخل خلق ذميم يكون في بعض الناس، وهو: إمساك المال وعدم إنفاقه في الخير، فإن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وهب عباده المال ليختبرهم ويبتليهم، ومعلوم أن الإنسان يجب المال ويحرص عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿ [العاديات: ٦-٨]، والمراد بالخير هنا: المال، وقال: ﴿وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، فحب المال غريزة في الإنسان، ولذلك فإن الله تعالى يبتلي عباده بالإففاق من هذا المال الذي يحبه الإنسان، وقد أكد -سُبحَانَهُ- على هذا المعنى في الآية المذكورة.

والإنسان قد يغلب عليه البخل، فلا ينفق شيئاً لا واجباً ولا مستحباً، ويطيع البخل الذي في نفسه، وقد يكون الإنسان مجبولاً على الجود والكرم، فيتغلب على البخل الذي في نفسه، وينفق من ماله، فهذه مواهب يقسمها الله بين عباده، فمنهم البخيل، ومنهم الكريم الجواد.

واعلم أن الإففاق في سبيل الله عبادة، سواء كان واجباً أو مستحباً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وَقَالَ: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿مَنْ ذَا

الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً ﴿البقرة: ٢٤٥﴾،
فَاللهُ عَزَّوَجَلَّ حَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ.

وَالْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى نَوْعَيْنِ:

النوع الأول: واجب: كالزكاة، والنفقة على الأولاد وعلى الأقارب
المحتاجين.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: مُسْتَحَبٌّ: كَالصَّدَقَاتِ وَالتَّوْبِعَاتِ الْخَيْرِيَّةِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُنْفِقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَرُ رِضَا اللَّهِ عَلَى مَا تَحِبُّهُ نَفْسُهُ؛
لِذَلِكَ فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ أَجْرًا عَظِيمًا، وَيُنَازِلُ ثَوَابًا جَزِيلًا.

وَقَدْ مَدَحَ -سُبْحَانَهُ- الْمُؤْمِنِينَ الْأَبْرَارَ الْمُنْفِقِينَ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لِرِجَالِ اللَّهِ ﴿الإنسان: ٨-٩﴾، وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْإِنْفَاقِ مِنَ الْمَالِ الَّذِي يَجِبُ
المرء: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْإِنْفَاقُ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ، كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِسْرَافِ
وَالْتَبَذِيرِ الْمَذْمُومِ، فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ، فَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَكُلُوا
وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وَقَالَ -أَيْضًا-:
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]؛ أَي: إِنْ شَرَعَ اللهُ عَدْلًا بَيْنَ الْغَالِيِ
فِيهِ وَالْجَافِيِ عَنْهُ، لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ.

فعلى الإنسان أن يتوسط في الإنفاق بين البخل والإسراف، وكلاهما سيئ، والخير هو في الاعتدال، ولهذا قال -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا ۖ﴾ (٣٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴿[الإسراء: ٢٦-٢٧]، فقد جعل الله المبذر في غير حق من إخوان الشياطين؛ لأنهم أتباعهم، والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم.

وقد حذر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الذين يتصرفون في المال كيفما يحلو لهم، وغير مبالين في كيفية تحصيله كيفما أمكن، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ رَجُلًا لَا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، فالمسلم مستخلف في هذه الأموال، وسيُسأل عنها يوم القيامة، وفي الحديث: «لَا تَزُولُ قَدَمًا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ»، وذكر منها: «وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ»^(٢)، نعم يسأل العبد من أين اكتسب المال؟ وفي أي شيء أنفق؟

فالمسلم يمتحن ويبتلى بهذا المال كما قال -سُبْحَانَهُ-: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]؛ أي: من سلم من الشح، فقد أفلح وأنجح.

والمرء ممتحن إزاء هذا المال ما يصنع به، فهذا وجه عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب بكتاب الكبائر، فالبخل كبيرة، فإذا كان في منع الزكاة، فهو كبيرة

(١) أخرجه البخاري (٣١١٨) من حديث خولة الأنصارية رَحِمَ اللَّهُ نَفْسَهَا.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٧) عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَحِمَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمًا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْتَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ».

من كبائر الذنوب، وفي عدم إنفاقه على أهله وزوجته ومن تجب نفقتهم عليه، فعَدَّ المصنف البخل كبيرة؛ حتى يأخذ المسلم حذره من البخل؛ لينجو من مسؤوليته وتبعته يوم القيامة.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧]) هذا فيه ذم للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله من بر الوالدين، والإحسان للأقارب، وفي غير ذلك من وجوه الإنفاق، فهم علاوة على ذلك يأمرّون الناس بالبخل -أيضاً-، يقولون: لا تنفقوا أموالكم، وأمسكوها، ولا تخرجوا زكاتها، وهذه صفة اليهود، فاليهود يأخذون ولا يعطون؛ حيث وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، فاليهود هم أصل البخل في العالم، والله لا يحب هذه الصفة، ولا من اتصف بها، فهو الكريم الجواد -سُبْحَانَهُ-.

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ اللهُ قوله تعالى: (﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩])، فالله عَزَّجَلَّ أوجب في هذا المال فرضاً يؤديه صاحبه؛ عبادة لله عَزَّجَلَّ طعمة للفقراء والمساكين، فجعله حقاً لهم يطالبون به، وإخراج هذا الحق جعله الله من صفات المؤمنين، فقال الله في وصفهم: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، وَقَالَ أَيضاً: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢]، ففي أموالهم حق، وهذا الحق هو للسائل الذي يسأل الناس، والمحروم الذي لا يسأل فيُحرم العطاء.

وقيل: المحروم هو الذي أصابته جائحة بعد أن كان غنياً، ثم أصابته جائحة فذهبت بهاله، فحُرِمَ منه، وهذا له حق -أيضاً-^(١).

والآية عامة للذي لا يسأل، وللذي أصابته آفة فذهبت بهاله، فأصبح فقيراً، فصار بحاجة إلى مواساة، فسماه الله حقاً، يعني: واجباً وليس تبرعاً.

والزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله، ومن امتنع عن إخراجها وكان جاحداً لوجوبها، فهو مرتد ويستتاب، فإن لم يتب فإنه يقتل، وإن كان يقر بوجوبها، ولكنه يمنعها بخلاً، فإنها تؤخذ منه قهراً، وهذا من مسؤولية ولي الأمر، ويعطيها للفقراء والمحتاجين، فإن كان من منعها معه شوكة وقوة، فإن الإمام يقاتله؛ كما قاتل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مانعي الزكاة حتى أخرجوها^(٢)؛ لأن هذا حق واجب عليهم للفقراء.

فالزكاة واجبة في أصناف الأموال الأربعة، وهي: بهيمة الأنعام، والخارج من الأرض، والنقود، وعروض التجارة التي تباع وتشتري، هذه هي الأموال التي تجب فيها الزكاة، فإما أن يدفعها هو -وهذا هو الواجب عليه-، أو تؤخذ منه قهراً.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/٥١١-٥١٧)، وزاد المسير (٤/١٦٩)، وابن كثير (٧/٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا تَوَفَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ قَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ».

«قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَا أَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا قَالَ عُمَرُ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ».

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟» قُلْنَا: الْجُدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى أَنَا نُبْخُلُهُ، قَالَ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَذْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟ بَلَّ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ^(١).

الشَّيْخُ

أما حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، ففيه أنه سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني سلمة: «مَنْ سَيِّدُكُمْ؟»، أي: رئيسكم؛ لأنه من عادة القبائل أن يعينوا رئيساً يرجعون إليه، يتكلم عنهم، ويسودهم. فقالوا: «الجدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى أَنَا نُبْخُلُهُ»، أي: نصفه بالبخل.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَذْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟»، أي: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتبر هذه الصفة منقصة تحط من قدر من اتصف بها، فلا يصلح للسيادة، وهذا هو الشاهد في الحديث.

فالبخل عيب عظيم، وهو لا يصلح أن يكون فيمن تصدروا وسادوا القوم؛ لذلك عين لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيِّداً، فقال: «سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ»، أي: بديلاً عن الجد بن قيس؛ لأن عمرًا كان جواداً.

والحاصل: أن البخل من الأخلاق الرديئة.



(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١١١)، برقم (٢٩٦).

بَابُ عُقُوبَةِ الْبُخْلِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِخَلُؤِ يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾.

[آل عمران: ١٨٠]

الشَّجَرُ

لما ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ التحذير من البخل أتبعه بذكر باب عقوبة البخل، ولقد توعد الله تعالى هؤلاء بأنه سيجعل ما بخلوا طوقاً في أعناقهم، فقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، أي: يبخلون بحق المال الذي أعطاهم الله إياه، ظانين أن هذا الفعل خير لهم، وهو شر لهم.

ثم بين عاقبة فعلهم هذا، فقال: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِخَلُؤِ يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، أي: يأتون يوم القيامة مطوقين بهذه الأموال، يحملونها على أعناقهم، وقد جاء في هذا المعنى ما يفسره في الحديث؛ حيث يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي: بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكَ أَنَا كَنْزُكَ»، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الْآيَةَ^(١)، والمراد بالشجاع: هو الثعبان العظيم، والأقرع: يعني ليس عليه شعر من شدة السم الذي فيه.

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٣) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: «يَأْخُذُ بِلَهْزِ مَتِيَّهٍ»؛ يعني: بشدقيه.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾، ثم يلدغه، ويخرج ما به من سم، ولا يزال هذا حاله حتى يبعث يوم القيامة، والشعبان مطوق في عنقه، وهذا وعيد شديد لمن ييخل بهاله.

أما من كان ماله من المواشي وبهيمة الأنعام، ولا يخرج زكاتها، فإنه ورد في الحديث: أنه يطح لها يوم القيامة بقاع قرقر، ثم ترد عليه تطؤه بأظلافها وخفافها، وتنهشه بأنيابها، فإذا أتى عليه آخرها رد عليه أولها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يرى سبيله إما إلى الجنة، وما إلى النار -والعياذ بالله-^(١).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٤) (٩٨٧) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبَ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِلَيْلُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ إِيْلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمَنْ حَقَّهَا حَلَبَهَا يَوْمَ وَرَدَهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَطِخَ لَهَا بِقَاعِ قَرَقَرٍ أَوْ قَرَّ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعْصُهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَطِخَ لَهَا بِقَاعِ قَرَقَرٍ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا، لَيْسَ فِيهَا عَقَصَاءٌ وَلَا جَلْحَاءٌ، وَلَا عَضْبَاءٌ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطْوُهُ بِأَظْلَافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ =

فالبخل كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنه يحمل صاحبه على منع ما أوجب الله عليه من الزكاة المفروضة، والحقوق الواجبة.



=مَحْسِينٍ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَالْحَيْلُ؟ قَالَ: «الْحَيْلُ ثَلَاثَةٌ: هِيَ لِرَجُلٍ وَزْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، فَأَمَّا النَّيِّ هِيَ لَهُ وَزْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنَوَاءً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهِيَ لَهُ وَزْرٌ، وَأَمَّا النَّيِّ هِيَ لَهُ سِتْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي ظَهْرِهَا وَلَا رِقَابِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ وَأَمَّا النَّيِّ هِيَ لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ، فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ، أَوْ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كُتِبَ لَهُ عَدَدُ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٌ، وَكُتِبَ لَهُ عَدَدُ أَرْوَائِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٌ، وَلَا تَقْطَعُ طَوْلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ أَثَارِهَا وَأَرْوَائِهَا حَسَنَاتٍ، وَلَا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدُ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَالْحُمُرُ؟ قَالَ: «مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي الْحُمُرِ شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَائِذَةُ الْجَامِعَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزُّلْزَلَةُ: ٧-٨]».

وَحَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه: «لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(١). كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «ارْضَخِي يُرْضَخَ لَكَ»^(٢)، أَي: وَسَّعِي يُوسِّعَ لَكَ.

الشَّيْخُ

حديث أسماء بنت أبي بكر زوج الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ساقه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، فيه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: «لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ»، أَي: لَا تَمْسِكِي الْمَالَ فِي الْوَعَاءِ مِنْ غَيْرِ إِنْفَاقٍ، وَتُوكِي عَلَيْهِ، أَي: لَا تَرْبِطِي رَأْسَ الْوَعَاءِ بِالْوَكَاءِ - وَهُوَ الْخِيطُ الَّذِي يَرْبِطُ بِهِ -، أَي: لَا تَمْسِكِي الْمَالَ عِنْدَكَ، وَتَشْدِي عَلَى وَعَائِهِ بِرِبَاطٍ؛ كَي لَا تَنْفَقِي مِنْهُ؛ بَخْلًا وَحِرْصًا عَلَيْهِ، فَتَحْرِمِي الرِّزْقَ.

يقول الله -سُبْحَانَهُ- فَيَمْنُ جَمْعُ الْمَالِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَأَحْصَى عَدَدَهُ، وَجَعَلَهُ فِي وَعَاءٍ وَكَنْزِهِ؛ حِرْصًا وَتَأْمِيلًا: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨]، أَي: غَلَّفَ الْمَالَ، وَأَوْثَقَهُ فِي الْوَعَاءِ، فَلَمْ يَنْفَقْ مِنْهُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا بَخَلَ، وَضَنَّ بِمَا لَهُ عَنِ الْفُقَرَاءِ، فَعَاقَبَهُ اللَّهُ بِنَظِيرِ عَمَلِهِ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيُوعِي عَلَيْكَ»، أَي: يَمْنَعُ اللَّهُ عَنْكَ الرِّزْقَ؛ عَقُوبَةً لَكَ؛ لِأَنَّ الْجِزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]، فَمَنْ

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٤)، ومسلم (١٠٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٤)، ومسلم (٨٩) (١٠٢٩) عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ، ارْضَخِي مَا اسْتَطَعْتَ».

أوعى المال ظناً منه أنه أحفظ للمال، فقد أخطأ التقدير، بل على العكس، فإن الله يمنع عنه الرزق، ويحرمه البركة في المال، وقد يسلط الله عليه الآفات أو الإفلاس، أو يتعرض المال للسرقة أو للاحتراق، فيسلط عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يتلفه.

وقد ذكر الله مثلاً لذلك في قصة أصحاب الجنة -أي: البستان- في سورة «القلم»، فإن الأب كان يفتح البستان وقت الجداد للفقراء؛ ليأكلوا منه، وكان يُخرج ما أوجب الله عليه، فتنزل عليه البركة في هذا البستان، فلما مات أبوهم هم أولاده بأمر سوء، واتفقوا على أن يمنعوا الفقراء من حقهم، وأن يجدّوه في الليل؛ حتى لا يدخل الفقراء بستانهم، ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ﴾ (٢٣) أن لا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿[القلم: ٢٣-٢٤]، اتفقوا على هذا في الليل، ولما ذهبوا في الصباح وجدوا بستانهم قد احترق وصار كالصريم، وفي هذا قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ (١٩) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩-٢٠]، أي: أصبح البستان أسود محترقاً حتى إنهم ضلوا بستانهم، وشكوا أنه هو، ثم عرفوه وأيقنوا أن هذا إنما هو بجريرة أفعالهم، فقالوا كما أخبر الله عنهم: ﴿يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ﴾ [القلم: ٣١]، وأيقنوا أن سبب احتراقه هو نيتهم في عدم إدخال الفقراء إليه ليأكلوا منه، فمجرد النية أحرقت بستانهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم خائنة الأعين وما تحفي الصدور.

والشاهد في الآية الكريمة: أن هؤلاء أرادوا أن يوعوا، فأوعى الله عليهم، أرادوا أن يستأثروا بالرزق، ولا يخرجوا حق الله، فعاقبهم الله من جنس فعلهم؛ حيث حرمهم الرزق.

قوله: «أَرْضَخِي»، الرِّضْخ هو: العطاء اليسير، أي: أعطي الناس يعطيك الله؛ لأنَّ الجزء من جنس العمل، فمن يعطٍ يعطه الله، ومن يوع يوع الله عليه، وقد سلف قريباً شرح ذلك وبيانه.

ووجه إيراد الآيتين: أن الذي يوعي ويبخل، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوعي عليه ويمسك عنه، وأن الذي يعطي يعطيه الله ويبارك له في رزقه.



وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمَسِكًا تَلَفًا، وَأَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا»^(١).

الشَّيْخُ

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما صح في الحديث: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمَسِكًا تَلَفًا»، فالمنفق يخلف الله عليه، ويبارك له في رزقه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وأما الممسك، فإن الله يتلف ماله، وهو يظن أن الإمساك أحفظ لماله، ولكن على العكس، فهو أتلف لماله، والجزاء من جنس العمل.



(١) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (٥٧) (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَابُ: اَزْدِرَاءِ النُّعْمَةِ وَالْاِسْتِخْفَافِ بِحُرْمَاتِ اللَّهِ

الشَّجَّ

قوله: (ازْدِرَاءِ النُّعْمَةِ)، أي: احتقارها، فلا يجوز للإنسان أن يحتقر النعمة، بل عليه أن يحترمها ويجلها، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ»^(١).

في الدنيا انظر إلى هو من دونك من الفقراء والمساكين وارضهم، ولا تنظر إلى الأغنياء وأصحاب الأموال والثروات، فإن النظر إلى الفقراء يعرفك نعمة الله عليك، فتشكره عَزَّجَلَّ على ما أعطاك، أما إذا نظرت إلى الأغنياء وما هم فيه من الترف، فإنك ستحتقر ما أنت فيه، فتزدرى نعمة الله عليك.

ومن ازدراء نعمة الله: إهدارها وإلقاؤها في النفايات والطرق، خاصة إذا زادت عن الحاجة.

فعلى المسلم أن يجلَّ النعمة ويقدرها، وإذا كان عنده فضل من طعام، فإنه ينبغي أن يدفعه إلى المحتاجين والفقراء، فإن من الناس من هو بحاجة إليه ولا يجده، أو يحتفظ به لمرّة قادمة، فإن عدم شكر النعمة سبب لزوالها، يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُيُوكُمْ لَيْنَ شُكْرِكُمْ لَا تَزِيدُكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٢/ ٢٤٧).

وفي قصة سبأ ما يبين أن ازدراء نعمة الله سبب في سلبها منهم، فقد أنعم الله عليهم بطيب بلادهم، وراحة السفر، فكانوا يسرون من اليمن إلى بيت المقدس، فيبتون في قرية، ويقيلون في أخرى، وكانوا لا يأخذون معهم زادًا ولا ماء، فالقرى متصلة ببعضها، والأمن والطعام متوفر فيها، بالإضافة إلى جوها الطيب، فاحتقروا هذه النعمة، ولم يقدروها، وقالوا: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، فازدروا نعمة الله عَزَّوَجَلَّ، عندئذ دمر الله عليهم بلادهم، وخرب ديارهم، ومزقهم كل ممزق، وبذل النعمة نقمة.

قال سُبْحَانُهُ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]، أي: يتحدث الناس بما حصل لهم من النكبة، كل هذا بسبب عدم شكر النعمة وعدم الاعتراف بها وتقديرها.

وهكذا حال الناس اليوم، فهم في بحبوحه من العيش، قد منَّ الله عليهم بنعم لا تعد ولا تحصى، بعد أن كانت حلماً للناس من قبل، سواء في المساكن، أو المطاعم أو المشارب أو المراكب، فإن هم شكروها فإنها ستدوم لهم، وإن كفروها وازدروها، فحري أن يغير الله هذه النعمة فيبدلها نقمة، ويجعل الأمن خوفاً، فنعوذ بالله من فجاءة نقمته وتحول عافيته.



بَابُ: بُغْضِ الصَّالِحِينَ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] الآية.

الشَّيْخُ

قوله: (بَابُ: بُغْضِ الصَّالِحِينَ)، بغض الصالحين ومحبتهم يدخل في باب الولاء والبراء، فالواجب على المسلم محبة الصالحين وموالاتهم، وبغض أعداء الله والبراءة منهم، فالمؤمنون متحابون، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا»^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦]، ثم قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥٧].

فالبراءة إذا تكون من الكفر وأهله، والولاء يكون لله ورسوله وللمؤمنين، فالمؤمن يجب أهل الإيمان، ويبغض أهل الكفر والنفاق، ومن أبغض المؤمنين، فهو منافق -والعياذ بالله-.



(١) أخرجه مسلم (٩٣) (٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ»^(١)، مَعْنَاهُ: إِذَا خَرَجَ رَجُلَانِ مِنَ الصَّفِّينِ لِلْقِتَالِ، وَهَذَا هُنَا مَنْ عَادَى وَلِيَّ اللَّهِ، فَهُوَ مُبَارَزٌ لِلَّهِ بِالْحَرْبِ^(٢).

الشَّجَرُ

أما الحديث القدسي، فَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وغيره، وأورد المصنف طرفاً منه؛ حيث قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ».

فالثاني: هو المؤمن التقي^(٣)، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

وقوله: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ»، المبارزة معروفة عند العرب، وهي أن يخرج اثنان من الجيشين يتبارزان ويتقاتلان؛ ليظهرها الشجاعة والقوة.

- (١) أخرجه بنحوه البخاري (٦٥٠٢)، ولفظه عنده: «فَقَدْ أَذَنَّتْهُ بِالْحَرْبِ».
- وهذا اللفظ أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (ص ٩)، والطبراني في الأوسط (١/١٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٣١٨)، والدليمي في الفردوس (٣/١٦٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البيهقي في الكبرى (٣/٣٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٢) انظر: فتح الباري (١١/٣٤٢)، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩/٢٨٩).
- (٣) انظر: صفات الولي في: كتاب النبوات لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ١٠)، والروح لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ٢٦٤)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٥٧)، وشرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ٣٤٥).

وقد حصل هذا في غزوة بدر، فقد طلب المشركون المبارزة، فانتدب لهم النبي ﷺ ثلاثة من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقتل المسلمون الكفار، وكانت هذه أول هزيمة للمشركين.

والمراد: أن الذي يبغض ولياً من أولياء الله، فكأنه بارز الله بالمحاربة، فهو محارب لله، وهل يستطيع أحد أن يحارب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

فبغض أولياء الله بغض الله، ومعاقبته لمن أبغضهم، فإن الله يسلط عليه الآفات والأمراض وغير ذلك من الأسباب المهلكة فيهلكه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وهذا لبيان مكانة الولي عند الله عَزَّجَلَّ، فكان من عاداهم كأنه بارز الله عَزَّجَلَّ بالمحاربة، ولا أحد له طاقة بحربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال جَلَّ وَتَعَالَى في هذا الحديث القدسي: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ يَقْتَرِبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»، إذاً هذا هو سبب الولاية، إنه التقرب إلى الله بالفرائض، ثم التقرب إليه بالنوافل؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢-٦٣].

وليس معنى الولاية أنه يمكن للأولياء التصرف في الكون كما يعتقد القبوريون، فهم لا يملكون ضرراً ولا نفعاً، ولا يلزم أن يكون لهم كرامات، كما أنه لا يلزم أن يكون من تجري على يديه الخوارق ولياً لله، بل قد يكون ولياً للشيطان، وتكون هذه الخوارق سحراً وليست كرامة، بل إذا كان معهم

خوارق وهم غير مستقيمين على الدين كالدجاجلة والسحرة وغيرهم، الذين يدعون أن هذه الخوارق والتدجيلات التي تجري على أيديهم علامة على الكرامة التي منحهم الله إياها؛ لأنهم أولياء الله، فكيف يكونون أولياء الله وهم لا يصلون ولا يصومون، ويفعلون الفواحش، ويأتون الكبائر؟ بل هم في الحقيقة أولياء للشيطان وحزبه.

فالولاية تكون بسبب التقرب إلى الله؛ كما قال: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، فَإِنْ سَأَلَنِي عَبْدِي أَعْطَيْتُهُ وَإِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»، بمعنى أن الله يكون معه، يسدده في أقواله وأفعاله، ويبارك له في سمعه وبصره، ويوفقه، ولو سأل الله لأعطاه، ولئن استعاذ بالله من شيء لأعاده الله منه؛ كما ورد في نهاية هذا الحديث.

والشاهد من الحديث قوله: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ»، ففيه تحريم بغض أولياء الله، وأن بغضهم كبيرة من كبائر الذنوب.



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»^(١).

الشَّجُّ

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، فالمؤمنون يتحابون من أول الخلق إلى آخر الخلق، ولذلك فالأحياء منهم يدعون للأموات الذين سبقوهم بالإيمان، فهم يدعون ربهم لهم بالمغفرة، ومن أول هؤلاء الذين سبقوا صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الضمير الذي في قوله: ﴿بَعْدِهِمْ﴾ يرجع إلى المهاجرين والأنصار منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فمن جاء بعدهم من المؤمنين يحبونهم ويتولونهم ويدعون لهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

وقوله: ﴿غِلًّا﴾، أي: بُغْضًا.

وفي الآية دليل على أن من يبغض المهاجرين والأنصار يكون منافقًا، وليس مؤمنًا، ثم قال تعالى بعدها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١]، فالذي يوالي الكفار هو منافق نفاقًا أكبر، والذي يتولّى الصحابة

والصالحين ويثني عليهم ويستغفر لهم، ويسأل الله ألا يجعل في قلبه بغضاً لهم هو المؤمن.

أما الذين يبغضون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والصالحين فهؤلاء منافقون، وفي هذا دليل على أن الرافضة - والعياذ بالله - منافقون؛ لأنهم يسبون الصحابة ويبغضونهم بغضاً شديداً ويكفرونهم ويلعنونهم، فهم إخوان الذين كفروا من أهل الكتاب، كالذين سبقوهم وقت نزول الآية، فهم يتولون الكفار، ويبغضون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والمؤمنين - نسأل الله العافية -.

وقد قال الله عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُبْغِضُ الْأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»، هذا يؤكد ما قلنا من أن بغض المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إنما هو النفاق بعينه، فالأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم خواص أولياء الله؛ لأنهم صحبوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآووه وآووا المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ونصروهم وواسوهم بأموالهم وأنفسهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم كما ذكر - سُبْحَانَهُ -: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩]، فسموا بالأنصار، وهذا لقب مدح لهم، فالذي يبغضهم يبغض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم أنصاره وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.



بَابُ: الْحَسَدِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

[النساء: ٥٤].

الشَّيْخُ

هذا الباب في بيان كبيرة من كبائر الذنوب، وهي الحسد.

والحسد: هو تمنى زوال النعمة عن المحسود، سواء تمنى زوالها عن المحسود فقط، أو تمنى أن تسلب منه، وتعطى للحاسد^(١)، وهو كبيرة؛ لأنه اعتراض على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِمَا يَقْدِرُهُ وَيَقْضِيهِ، فَإِنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ- يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويؤتي فضله من يشاء، فلا أحد يعترض عليه، وهو أعلم -سُبْحَانَهُ- بمن هو أهل لفضله، فالحاسد معترض على الله، يريد أن يمنع عطاء الله عن عباده، ويحاول أن يرد ما قدره الحق -سُبْحَانَهُ-، قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]، فلا يجوز للعبد أن يعترض على خالقه، ولكن إذا رأيت نعمة على عبد، فاسأل الله أن يعطيك من فضله.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ

(١) انظر: زاد المسير (١/ ١٣١)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١١٦)، وفتح الباري (١٠/ ٤٨٢)، وعمدة القاري (٢/ ٥٧)، والتعاريف للمناوي (ص ٢٧٨)، وتحفة الأحوذى (٦/ ٥٦).

فَضْلُهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِمَا ﴿[النساء: ٣٢]﴾، فالأفضل للعبد أن يسأل الله ليعطيه من فضله، ولا يتمنى زوال النعمة عن الغير، فإن فضل الله واسع.

وإذا تمنى الإنسان أن يكون عالماً يتتبع الناس بعلمه، أو غنياً ينفق على الفقراء من ماله، فهذا أمر حسن يثاب عليه، وهذا ما يسمى الغبطة، ويدل على ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»^(١)، فهذا يدل على الرغبة في الخير، ولا يدل على الحسد.

والحسد يحمل على الكفر كما حمل إبليس عندما حسد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن الله أمره بالسجود لآدم، فأبى وتكبر وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، فسبب له ذلك اللعنة والطرْد والإبعاد عن رحمة الله تعالى، وجعله داعية إلى كل شر.

والحسد حمل اليهود كذلك على الكفر، فحين بعث الله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبياً وأمرهم باتباعه، وهم يعلمون بأنه رسول الله إليهم وإلى الناس كافة، ولكنهم جحدوا رسالته بعد أن جاءهم ما عرفوا من الحق.

والذي حملهم على هذا هو الحسد؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بني إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم يريدون أن تكون النبوة في بني إسرائيل، وليس في العرب، فحسدوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفروا برسالته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا

(١) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٢٦٨) (٨١٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿البقرة: ٨٩﴾،
فحسدوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحسدوا هذه الأمة على ما آتاهم الله من
الفضل، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ
بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ
الْحَقُّ﴾ ﴿البقرة: ١٠٩﴾، فقد حملهم الحسد على الكفر، كما حسد إبليس من
قبل.

وكذلك قد يحمل الحسد الإنسان على قتل قريبه، كما حصل لابن آدم
عندما قتل أخاه، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ
مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ
مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ
فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿المائدة: ٢٧-٣٠﴾، وكان أول من سنَّ القتل ظلمًا
وعدوانًا، ولهذا جاء في الحديث: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ
الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِّنْ دَمِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(١).

والحسد يسبب العداوة والبغضاء بين المسلمين، ويقوض أواصر المحبة
بينهم، والله جَلَّ وَعَلَا أمر المسلمين بأن يكونوا إخوة متحابين، فالحاسد إذا
تغلغل الحسد في قلبه، فإنه يبغض المحسود، ويقاطعه لا لشيء إلا أن الله

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (٢٧) (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فضله عليه، ولا يكتفي الحاسد بهذا، بل إنه قد يتكلم في عرضه ويغتابه في المجالس ويذمه، وكل هذا يدخل في المظالم التي يقتص لها في الآخرة، فتذهب بحسنات الحاسد، ولهذا سيأتي في الحديث أن: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(١).

وفي قول الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤]. ﴿أَمْ﴾ هنا بمعنى (بل)، نزلت في اليهود الذين حسدوا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما آتاه الله من النبوة والرسالة، وكانوا يريدون النبوة في بني إسرائيل لا في بني إسماعيل، ولكن فضل الله يؤتیه من يشاء، وفضل الله في هذه الآية هو الرسالة ونزول القرآن والوحي على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأهل الكتاب يعرفونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق المعرفة، فهم يجدون صفته في كتبهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فحملهم هذا الحسد على الكفر بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى الكفر بالتوراة -أيضاً-، التي تأمرهم باتباع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِّنَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴿ [البقرة: ١٠١-١٠٢]، أي: نبذوا التوراة والإنجيل، فهم نبذوا كتاب الله، ولم يتبعوه واستبدلوه بالسحر عوضاً عن التوراة، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا

تَنَلُّوا الشَّيَاطِينَ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ
كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴿البقرة: ١٠٢﴾، فلما تركوا التوراة ابتلوا
بالسحر الذي هو من عمل الشيطان -والعياذ بالله-.

كل هذا بسبب حسدهم لمحمد ﷺ، وهذا يدل -أيضاً- على
خطورة الحسد، وأنه قد يؤدي بالإنسان إلى الكفر بالله عزَّ وجلَّ.



عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١).

الشَّجَّ

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، هذا هو الواجب على كل مسلم أن يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه؛ لأن المؤمنين إخوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فكما تحب الخير لنفسك أحبه لأخيك، وهذا لا يتأتى من الحاسد، فإن الحاسد لا يحب الخير لأخيه، فلذلك لما رأى نعمة الله عليه حسده، وهذا لا يليق بالمؤمن.

وقوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ»، أي: لا يكمل إيمانه حتى يتصف بهذه الصفة.

والحاصل: أن الحسد يتنافى مع كمال الإيمان، فمن حسد أخاه اعتبر ناقص الإيمان، وليس معناه أنه كافر، وإنما يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

والمراد: إذا نفذ ذلك بقول أو فعل يؤدي به المحسود، أما إذا كان خاطراً في النفس، وعمل على صد نفسه عنه، وترك التهادي في ذلك، فإنه لا يضره، وأما إذا نفذه بأن تكلم في عرض أخيه، أو قلل من شأنه، أو قال: هو (١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، وهذا لفظ البخاري «لِأَخِيهِ» من غير شك، وجاء عند مسلم: «لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ» على الشك.

لا يستحق هذا الذي هو فيه، فهو معترض على الله، ومعاند له عَزَّجَلَّ في تقدير أرزاق العباد وحاجاتهم، فهو الحسد المذموم.

فالواجب على المسلم أن يحب الخير لأخيه، ويكره الشر له كما يكرهه لنفسه، فمن كان كذلك كان كامل الإيمان، حتى إن الله أمر المسلم أن يدعو لنفسه ولإخوانه؛ حيث قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [حمد: ١٩]، فكما تحب المغفرة لنفسك، فأحبها لإخوانك، وادع لهم.

وهذا هو شأن المؤمنين فيما بينهم، فلا ينبغي لهم أن يكون في أنفسهم حرج مما أعطى الله لإخوانهم من الخير، وإنما يسألون الله تعالى أن يعطيهم من فضله مثلما أعطى إخوانهم.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ - أَوْ قَالَ: الْعُشْبَ -». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١).

الشَّجُّ

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ» هذا تحذير من آفة الحسد، مثل: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث آخر: «وإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ»^(٢)، أي: احذروا الحسد، والسبب: «فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ»، بمعنى: أنه يقضي عليها؛ لأن الإنسان إذا حسد أخاه أبغضه، وقد يحمله على الغيبة والنميمة والقتل والقطيعة وغيرها، وهذه ذنوب وكبائر تقضي على الحسنات.

ثم ضرب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك مثلاً واضحاً محسوساً، فقال: «كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ أَوْ قَالَ: الْعُشْبَ»، فماذا يبقى من الحطب إذا اشتعلت فيه النار؟ لا يبقى شيء.

وفي رواية: «كَمَا تَأْكُلُ الْعُشْبَ»، والعشب إذا أضرمت فيه النار أتت عليه، سواء كان ثابتاً في الأرض، أو مجموعاً مع بعضه، فالحسد يأكل الحسنات، وهذا أكل معنوي كما تأكل النار الحطب، وهذا أكل حسي، فشبّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمر المعنوي بالأمر الحسي من باب التوضيح والتحذير لنا.

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣)، وعبد بن حميد في مسنده (٤١٨/١)، والبيهقي في شعب الإيوان (٢٦٦/٥)، وابن عبد البر في التمهيد (١٢٤/٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص ٥٩).

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ»^(١)، فلقد وصفه بأنه داء، فهو من الأمراض النفسية التي كانت في الأمم السابقة - لا سيما اليهود والنصارى -، وقد دَبَّ في بعض هذه الأمة؛ لهذا حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا المرض الخطير.



(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٠)، وأحمد (٢٩/٣)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (١٥٩/١)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٦٣) من حديث الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَخْلُقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَنْبَيْتُكُمْ بِمَا يُثْبِتُ ذَلِكَ لَكُمْ؟ أَفَسُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ».

بَابُ سُوءِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

الشَّجَرُ

ومن الكبائر: سوء الظن بالمسلمين، فالأصل في المسلم الخير والعدالة، فلا تسعى الظن بأخيك المسلم إن لم يكن عندك دليل على ما ظننت فيه، فمجرد الاتهام لأخيك المسلم دون دليل على ذلك يعدُّ كبيرة من كبائر الذنوب، فالله جَلَّ وَعَلَا أمرنا باجتنابه، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال -سُبْحَانَهُ-: ﴿كَثِيرًا﴾؛ لأن بعض الظن يكون إثماً، فأنت تجتنب الكثير؛ خوفاً من الوقوع في القليل، وهذا يدل على خطر سوء الظن بالمسلمين، فإذا بلغك عن أخيك شيء، أو حاك في نفسك شيء، فعليك ألا تستعجل، وأن تثبت في الأمر، فقد يكون الذي بلغك فاسقاً كذاباً، أو يكون الخاطر الذي جال في نفسك من الشيطان، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلِكُمْ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ تَنِيدِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وليت بعض الإخوان الآن من طلبة العلم يحذرون من سوء الظن بالمسلمين، والوقوع في أعراض العلماء وطلبة العلم، فترى كثيراً منهم يتهمونهم ويصفونهم بأوصاف حزبية أو مذهبية بدون تحقق، وحتى لو ثبت

أن فلاناً من الناس عنده بعض الأخطاء أو الملاحظات، فعلاج ذلك يكون بالمناسبة والاستفسار والتوضيح، أما الاعتماد على الأقوال والظنون، فإن هذا مما حذر الله جَلَّ وَعَلَا منه، وهو يسبب قطيعة وتنافساً بين الإخوان، وهذا الأمر خطره عظيم.

أما إذا كان الدافع هو الغيرة على الدين، فعليك التثبت خوفاً من أن تصيب أخاك بجهالة، فبعض الإخوان تدفعه الغيرة على الدين إلى أن يذم بعض العلماء وطلبة العلم، وأشد من ذلك أن يقع في أعراض ولاية الأمور. فعلى المسلم -ولا سيما طالب العلم- أن يتأنى ويتمهل، وإذا ثبت عنده شيء من المحذور، فإنه يعالج بالنصيحة، لا بالغيبة وإشاعة المساوئ في المجالس، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»^(١)، وسميت نصيحة؛ لأن الناصح هو الشيء الخالص؛ لأنها تدل على خلوص الإنسان من الغش للمسلمين.

إن المنهج السليم والأقوم إزاء ما يسمع المسلم من الأقوال في حق إخوانه:

أولاً: إذا سمع قولاً في حق أخيه، فعليه ألا يبادر ويستعجل ويسيء الظن، إنما عليه أن يلتمس العذر ما أمكن.

ثانياً: إن ثبت شيء من المحذور، فالواجب ألا تشيع الأمر، بل نتناصح فيما بيننا، فإن الدين النصيحة.

وفي الآية التي قَالَ اللهُ فِيهَا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فبعض الظنِّ إِثْمٌ؛ لأنه يوقعك في الإثم والعقاب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والظن: هو الاحتمال الراجح مع احتمال النقيض، أي: هو تردد بين أمرين أحدهما راجح، والآخر مرجوح.

أما الشك: فهو التردد بين أمرين لا مرجح لأحدهما على الآخر^(١).

فإذا ترجح أحدهما على الآخر كان هذا ظناً، وإذا لم يكن في الأمر احتمال كان هذا هو اليقين.

فلا تظن بإخوانك إلا خيراً ما لم يتبين خلاف ذلك، فإذا تبين عاجلته بالنصيحة - كما سبق -، وإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أمرنا باجتناب كثير من الظن؛ لأن بعضه إِثْمٌ، فهذا دليل على خطورة الظن.



(١) انظر في الفرق بين الظن والشك: معجم الفروق اللغوية (١/ ٣٠٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(١).

الشَّجُّ

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يؤكد ما سبق تأكيده؛ حيث قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»، فلفظ: «إِيَّاكُمْ» بمعنى التحذير، ولذلك نُصِبَ الاسم بعده بالتحذير «إِيَّاكُمْ»، ومعناه: احذروا سوء الظن بالمسلمين، ولا تظنوا بهم إلا خيرًا؛ لأن هذا هو الأصل في المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويصلي ويصوم ويطلب العلم، فإذا رأيناه كذلك ظننا به خيرًا، فلا يجوز أن نقول عن فعله: إنه نفاق ومراعاة، فنحن لنا الظاهر، أما السرائر، فنكلها إلى الله علام الغيوب، ثم علل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا التحذير بقوله: «فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»، يعني: حديث النفس، فأعظم كذب حديث النفس هو الظن بالناس.

فعلى المسلم ألا يبنّي آراءه وأقواله وأفعاله على الظن، ويتتهك حرمة أخيه، فدل هذا التحذير على أنه كبيرة من كبائر الذنوب، فما لم تشاهده ولم تسمعه، ثم وقع في قلبك، فإنما هو من الشيطان يلقيه إليك، فينبغي تكذيبه، والاستعاذة بالله منه.

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ أَوْ عَلَى رَسُولِهِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١].

الآية، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]. الآية.

الشَّجَرُ

الكذب صفة ذميمة، وقد نهى الله عنه، والمؤمن لا يكون كذابًا، فإذا كان هذا الكذب على الله كان أعظم جرمًا، فالكذب على الله أو على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أكبر الكبائر، كأن يقول أحدهم: إن الله أحلَّ كذا، أو حرم كذا بدون دليل من كتاب الله أو سنة رسوله، فينسب إلى الله شيئًا لم يقله، فهذا أعظم الكذب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧]، وَقَالَ -أَيْضًا-: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]، فالكذب على الله يتنافى مع الإيمان، وهو أعظم أنواع الكذب.

فمن الكذب على الله أن يخبر عن الله أمرًا خلاف الواقع لغرض من الأغراض، إما لنيل شيء تطمع به نفسه، أو نصرة مذهبه أو رأيه، فهذا من

أعظم الكذب؛ لأنه من الافتراء على الله عَزَّوَجَلَّ، ثم يليه الكذب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الكذب على الناس.

فالكذب عامة محرم ويعدُّ كبيرة، ولكن بعضه أشد من بعض، فأشدّه الكذب على الله تعالى، ثم الكذب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الكذب على الناس، فلا يجوز بأي بحال من الأحوال القول على الله بغير علم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾﴾ [الأنعام: ٢١] الآية)، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، فالآية التي ساقها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذه الآية تدلان على أن القول على الله بغير علم من أعظم الكذب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾﴾ [الزمر: ٦٠]، هذا وعيد آخر، فالوعيد في الآية الأولى ذكر أنه أظلم الناس، وفي الآية الثانية أنه يوم القيامة يأتي وجهه مسودًا أمام الخلائق، يفضح بهذه العلامة -والعياذ بالله-.

والكذب على الله يكون في العقيدة كقول النصارى: ﴿أَتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]، فينسبون الولد لله، ويقولون: إن عيسى عَلَيْهِ السَّلَام ابن الله، والكفار كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، فينسبون له البنات مع أنهم يكرهونها لأنفسهم، قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ [النحل: ٦٢]، ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى

الْبَسِيْنِ ﴿١٥٢﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُوْنَ ﴿ [الصفاف: ١٥٣-١٥٤]، مع أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
لم يتخذ ولدًا - لا ذكرًا ولا أنثى -؛ لأنه غني عن ذلك؛ لأن الوالد يفتقر إلى
ولده، ولأن الولد شبيه بالوالد، ومن شابه أباه فما ظلم، وهو -سُبْحَانَهُ-
ليس له شبيه، والولد جزء من الوالد، والله جَلَّ وَعَلَا ليس له جزء من الخلق،
قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥]، يعني: ولدًا، وهذه
كلها محاذير عظيمة.

ومن أشكال الكذب على الله -أيضًا-: الشرك بالله، واتخاذ الشركاء في
عبادته، مثل قولهم عن الله: اتخذ شريكًا يعينه ويساعده، فالله لا شريك له في
الخلق والأمر والتدبير، ولا شريك له في الألوهية؛ لأنه المستحق لأنواع العبادة.

ومن الكذب على الله -أيضًا- ما يقوله البعض: إن الله شرع لنا أن نتخذ
وسائل من الخلق بيننا وبينه؛ يعني: شفعاء، كقول المشركين -كما ذكر الله
سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ-: ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ
فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٨]، فالله جَلَّ وَعَلَا نفى عن نفسه الشريك،
فكيف يقولون بعد ذلك: إن له شريكًا من خلقه في قضاء حوائجهم، هم
الشفعاء والوسطاء بينه وبينهم؟ فهذا من الكذب على الله، فالله تعالى لم يشرع
أن يكون بيننا وبينه وسائل في قضاء حوائجنا، بل شرع لنا -سُبْحَانَهُ- أن
ندعوه مباشرة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]،
فلم يقل: «ادعوني بواسطة فلان أو فلان»، وهو -سُبْحَانَهُ- القائل -أيضًا-:
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

[البقرة: ١٨٦]، فالله -سُبْحَانَهُ- قريب يسمع ويبصر عباده ويعلم حوائجهم ويحييهم، وما على العبد إلا أن يسأل ربه مباشرة دون وسائط؛ لأنه يعلم الجهر وما يخفى، فلا حاجة لهذه الوسائط؛ لأن هذه إنما تكون عند الملوك في الدنيا والرؤساء الذين لا يعلمون إلا ما يبلغون به من أمور الخلق والرعية، فيحتاجون لمن يبلغهم.

أما الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه غني عن ذلك، فهو -سُبْحَانَهُ- يخبر أنه ليس بحاجة إلى وسائط بينه وبين عباده، وهؤلاء يقولون: لا بد من الوسائط ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، والوسيلة إنما هي العمل الصالح، وليست الأشخاص؛ أي: توسلوا إليه بالأعمال الصالحة لا بالأشخاص.

وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَيَّ رِيَّهُمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فالوسيلة معناها: التقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالطاعة وليس الأشخاص، فهذا ونحوه إنما يدخل في باب الكذب في العقيدة، وأما الكذب في الحلال والحرام، كقول البعض عن الله: حرم كذا، أو أحل كذا دون دليل، فهؤلاء القائلون مثل هذه الأقوال سوف يأتون يوم القيامة سُود الوجوه؛ كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ويقول: ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، وهذا إنما يكون يوم القيامة عند البعث والنشور، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ويدخل كذلك في هذا الوعيد: الذين يكذبون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه مبلغ عن الله، فلا يجوز أن يُكذب عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث، فتنسب إليه أحاديث لم تصدر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا سيما من قبل الوضاعين الذين يضعون الأحاديث المكذوبة عليه لأغراض دنيوية، إما لأجل أن يتظاهروا أمام الناس بالعلم، أو لنيل مطامع يأخذونها من الناس، أو يضعوا الأحاديث ليفسدوا الدين على المسلمين، مثل: الزنادقة والملاحدة.

ويدخل في هذا: الذين يضعون الأحاديث لنصرة مذهبهم أو ليؤلفوا بين أفراد جماعاتهم وأحزابهم، أو ليرغبوا الناس في الخير؛ كما فعل بعض الجهلة حيث قالوا: نحن نكذب للرسول لا عليه، وذلك حينما رأوا الناس متكاسلين عن فعل الخير، فراحوا تارة يضعون الأحاديث التي تحث على أمر ما وترغب فيه، وتارة يضعون أحاديث في الترهيب من فعل المعاصي والمنكرات، وهذا كله كذب محض، فالتحليل والتحريم لا يجوز أن يصدر إلا من الله جَلَّ وَعَلَا بالقرآن، وبما صح من الحديث من رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بل إن بعضهم ذكر: أنه رأى الناس لا يقرؤون القرآن ولا يقبلون عليه، فوضع أحاديث في فضائل السور والآيات؛ ليحث الناس على قراءته، وهذا أعظم الكذب بعد الكذب على الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولكن الله جَلَّ وَعَلَا حمى سنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما حمى القرآن الكريم من التحريف والزيادة والنقصان، فقيض للحديث حفاظاً متقنين نقاداً ينقدون الحديث، ويبينون الزائف من الصحيح، وكل ذلك مدون في كتب الجرح

والتعديل، وهذا من حفظ الله لهذا الدين؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وهؤلاء الحفاظ النقاد حصروا الأحاديث الموضوعية ودونوها في مؤلفات؛ لثلاث تلتبس بالأحاديث الصحيحة، مثل: كتاب «الموضوعات» لابن الجوزي، و«اللائع المصنوعة في الأحاديث الموضوعية» للسيوطي، وكتاب «تنزيه الشريعة المرفوعة من الأحاديث الموضوعية» لابن عراق، وكتب كثيرة غيرها، وهذا من لطف الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الدين وحمايته له.

فمهما حاول الدساسون والمعرضون النيل من هذا الدين، فإن الله يقيض لهم من يبطل كيدهم، وبالتالي فإن علماء الحديث وعلى مر العصور بقوا حراساً للسنة يذبون عنها، ولهذا فهم ميزوا الصحيح والضعيف والموضوع من الأحاديث المنسوبة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث وضعوا ضوابط وشروطاً دقيقة لمعرفة الصحيح من الأحاديث تطبق على سند الحديث، فإذا انطبقت عليه هذه الشروط فهو الصحيح، وإذا لم تنطبق عليه فهو الضعيف، مثل: الميزان تماماً الذي توزن به الأشياء.

وهذا - كما قلنا - من لطف الله تعالى وحمايته لهذا الدين، حتى حفظت سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكذب والدس؛ لأن الكذب عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتي بعد الكذب على الله تعالى.



وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَى نَيْسٍ كَكَذِبٍ عَلَى غَيْرِي، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

الشَّجَّ

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: «إِنَّ كَذِبًا عَلَى نَيْسٍ كَكَذِبٍ عَلَى غَيْرِي»، فالكذب كله محرم، سواء كان على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو على غيره، ولكن الكذب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد؛ لأنه مبلغ عن الله عَزَّوَجَلَّ. ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، وهذا تهديد ووعد شديد؛ لأن قوله: «فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، معناه: فليتخذ من النار مكانًا ومبأة يحشر فيها، ويعذب بها. والمبأة: هي المكان، وهذا فيه تهديد ووعد شديد - كما ذكرنا - لمن كذب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا يجب على الإنسان أن يتحرز حينما يذكر حديثًا عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته أو درسه أو موعظته، وإذا لم يكن متأكدًا من صحة الحديث، فليقل: يروى عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا أو كذا، أو ورد كذا وكذا، فيأتي بصيغة التمريض لا بصيغة الجزم.

فلا بد من هذا حتى يعرف الناس أن هذا الحديث محل نظر، أما إذا قلت: «قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا» على طريقة الجزم، فلا بد من التأكد من صحة الكلام المذكور.

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) (٤) من حديث المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(١).

الشَّيْخُ

ولمسلم عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»، فهو دليل على عدم جواز رواية الأحاديث التي نرى أنها كذبًا.

فلا تقل هذا على ذمة غيري، أو هو موجود في الكتب، فما دمت ترى أنه كذب -ولو كان موجودًا في الكتب-، فلا يجوز لك أن ترويه؛ لأنك تكون -والحالة هذه- أحد الكاذبين أو أحد الكاذبين -بالثنية-، أي: الذي رَوَاهُ ونقله، وهو يعلم أنه كذب، فيكونان كاذبين.

فعلى المسلم أن ينتبه لهذا الأمر، سيما وأننا نرى الآن في هذه الأيام بعض طلبة العلم الذين يصححون الأحاديث، ويتناقلونها أو يضعفونها وهم غير مؤهلين لذلك، وفي هذا خطر عظيم ينبغي التنبيه له والتحذير منه.

فعلى المرء أن يعرف قدر نفسه، فلا يتكلم على أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغير علم ودراية، ولم يتلق علم الحديث عن العلماء في دراسته عليهم وحمله العلم عنهم؛ لأن هؤلاء المتعلمين تتلمذوا على أنفسهم وعلى الكتب والأشرطة، أو على جهال أمثالهم، وخرجوا على الناس محدثين، وهم

(١) أخرجه مسلم (١).

في الحقيقة مُخَذُّون - بإسكان الحاء وتخفيف الدال مكسورة-، ولم يكتف هؤلاء بالتعال، بل صاروا يغلطون الأئمة، ويستدركون عليهم من غير حياء ولا خجل ولا خوف من الله.

والحاصل: أنه ينبغي لمن لم تكن لديه الأهلية الصحيحة لعلم الحديث أن ينأى بنفسه عن هذا الأمر، ويترك العلم لأهله، ولكن إن أراد الاستدلال بحديث، فلا بد له أن يأخذه من مظانه الصحيحة، فيعلم صحة الحديث ومعناه؛ حتى لا يتكلم بما لا يعلم، فيكذب على الله وعلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾
[الأعراف: ٣٣].

الشَّيْخُ

هذا الباب جاء بعد باب الكذب على الله تعالى أو على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وذلك لأن القول على الله بلا علم يدخل في باب الكذب، لكن الذي يقول
على الله بغير علم لم يتعمد الكذب، وإنما قال ذلك جهلاً.

والكذب: أن ينسب الإنسان إلى الله أو إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متعمداً
شيئاً لم يرد عن الله ولا عن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من أخبث أنواع
الكذب.

والقول على الله بغير علم يدخل في الكذب على الله؛ لأن قائله لا يملك
مؤهلات الفتوى من العلم الشرعي، ومعرفة أحكام الدين، فيقول: هذا
حلال، وهذا حرام من غير علم، وإنما اعتمد في ذلك على رأيه.

والأصل: ألا يقال عن الله إلا بعلم، ولا ينبغي أن يحلل أو يحرم بغير
علم؛ لأن القائل بذلك إنما يتكلم عن الله وعن رسوله، وهذا ينبغي عليه
أحكام شرعية، وثواب وعقاب، فإذا لم يكن عنده علم فليسكت، والله جَلَّ وَعَلَا
قد جعل القول عليه من غير علم فوق الشرك.

ولهذا أورد المصنف رَحِمَهُ اللهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، فجعله فوق الشرك، مما يدل على خطورته.

وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فإذا لم يكن عندك علم، فلا تتكلم، ولا ضير إن قلت: لا أدري، فإن من قال: لا أدري، فقد سلم، وهذه فضيلة؛ لأنك إذا خضت في الكلام بغير علم عن كتاب الله ولا سنة رسوله، فقد ارتكبت ذنبًا ورذيلة.

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ والأئمة إذا سئلوا عن أمر ولم يحضرهم عنه جواب صحيح توقفوا، ولم يحط ذلك من قدرهم شيئًا، بل زاد ذلك من فضلهم وقدرهم بتحريمهم للصدق.

فهذا الإمام مالك سئل عن أربعين مسألة، وكان الذي يسأله قادمًا من بعيد، فأجاب عن أربع منها، وَقَالَ عن الست والثلاثين: لا أدري فقال له الرجل: جئتكَ من بعيد، وأتعبت راحلتي، وتقول لا أدري. قال: نعم، اركب راحلتك، واذهب إلى بلدك، وقل: سألت مالكا، فقال: لا أدري^(١).

فإن قول مالك هذا رفع من قدره، وأعلى من منزلته، وأعلى من شأنه بين الناس، وجعل الناس يذكرون له هذه الكلمة من باب الإجلال.

فالحاصل: أن القول على الله بغير علم هو من أكبر الكبائر، فليحذر المسلم من ذلك.

(١) انظر: تاريخ أبي زرة (١/٤٢٢)، والتمهيد لابن عبد البر (١/٧٣)، وتفسير القرطبي (٢٨٦/١).

وأما الآية التي أوردها المصنف رَحِمَهُ اللهُ في أول هذا الباب، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿الْفَوَاحِشُ﴾: جمع فاحشة، وهي المعصية المتناهية في القبح.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: ما ظهر للناس من الفواحش.

﴿وَمَا بَطَنَ﴾: منها بين العبد وبين الله، فكله سواء.

فعلى الإنسان أن يتجنب الفواحش في كل أحواله، سواء بين الناس، أو كان خالياً، فإن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

لأن بعض الناس يتورع إذا كان يراه أحد من الناس، فيتجنب ما لا يليق به، فإذا ما خلا بنفسه تجرأ على المعاصي، وهذا في الحقيقة إنما يخشى الناس، ولا يخشى الله تعالى؛ لأن الذي يخشى الله حقيقة هو الذي يخشاه في الغيب والشهادة، وفي السر والعلن.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢) وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿[الملك: ١٢-١٣].

أما الإثم: فهو جميع المعاصي؛ لأنها تؤثم صاحبها. والبغي: هو التعدي على الناس في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، فالبغي حرام.

ثم قال: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أما إذا كان ذلك قصاصاً، فهو حقٌّ؛ كما قال -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالقاتل يقتل قصاصاً.

وأما قوله: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾، فهذا أعظم المحرمات، كما أن التوحيد هو أعظم الواجبات.

والشرك بالله: هو أن تجعل معه شريكاً في عبادته، كدعاء غير الله، والاستغاثة بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله، والذبح والنذر لغير الله، فهذه الأمور كلها شرك بالله؛ لأن العبادة حق لله وحده، ولا ينبغي أن يشاركه فيها أحد.

وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، أي: حجة وبرهاناً، فالله تعالى لم ينزل حجة للمشرك أبداً، بخلاف الموحّد؛ فإن عنده سلطاناً وبرهاناً وحجة على توحيد الله تعالى، أما المشرك، فليس عنده إلا الشبهات والخرافات التي يتعلق بها، في حين نرى أن التوحيد براهينه ظاهرة واضحة وجلية في الوحي المنزل وفي الكون المشاهد - والله الحمد والمنة -.

وقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هذا محل الشاهد هنا، أي: لا تقولوا في دين الله ما لا تعلمون، أي: بدون دليل وعلم، وهذا عام في تحريم القول في أمور الدين من غير يقين، فهذا مما حرمه الله ونهى العباد عن تعاطيه؛ لما فيه من المفاسد.

فلا يجوز للمسلم أن يقول ما لا يعلم، والذي لا يعلمه عليه أن يسكت عنه، ولا يتخرص فيه، فإن الله لم يكلفه ما لا يقدر عليه.

فإن سئلت عن مسألة لا تدري عن جوابها، فإما أن تؤجل الجواب حتى تبحث وتسأل، وإما أن تحيله إلى غيرك وإلى من هو أعلم منك، فأنت عندئذ في عافية.

قد تكون لدى بعض الناس أهواء، فينتحل أحدهم الجواب عنها؛ لأجل أن يستدل لرغبته وهواه، فيصطنع شيئاً من الأقوال أو الشبهات ليروج باطله، ولينتصر على خصمه، وهذا -أيضاً- قول على الله بغير علم، وهذا هو حال بعض الذين يتجرؤون على الفتوى الآن في الفضائيات وفي الصحف دون أن يكون لديهم العلم الكافي الذي يؤهلهم للتصدي لإصدار هذه الفتاوى، فهؤلاء في خطر عظيم؛ لأنهم إما أن يكونوا جهالاً ليس لديهم رصيد من العلم، وإنما يتكلمون بالتخرص، وإما أن يكونوا أصحاب هوى، فيقولون ما يوافق أهواءهم من غير دليل ولا برهان.

وليحذر المسلم من ذلك -ولا سيما طلاب العلم- غاية الحذر من القول على الله بغير علم.



قَالَ أَبُو مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ عِلْمًا فَلْيُعَلِّمَهُ النَّاسَ، وَإِيَّاهُ أَنْ يَقُولَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، فَيَكُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ، وَيَمْرُقَ مِنَ الدِّينِ» (١).

الشَّجَرُ

في حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ عِلْمًا فَلْيُعَلِّمَهُ النَّاسَ»، أي: إذا علمه الله من الكتاب والسنة، فلا يجوز له أن يبخل به ويكتمه، وإنما عليه أن يعلمه وينشره في الناس، فالناس بحاجة إلى العلم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]؛ لأنه قد يكتُم بعض الناس العلم، ولا ينشرونه -إما من باب الكسل، أو لطلب الراحة-، وهذا أمر مذموم، وإما أن يكون له هوى، فلا يقول الحق، وإنما يقول غير الحق؛ ليوافق هواه، وهذا كتمان للعلم وكذب على الله، وهذا أعظم جرماً من كتم العلم.

فالواجب على العالم أن يعلم غيره ممن يحتاجون إلى علمه، وينشره بين الناس؛ ليستفيدوا من علمه، ويؤجر على هذا، والله لا يضيع عمل عامل.

وأما من لم يعلمه الله فعليه السكوت، وهذا هو محل الشاهد: أن من ليس عنده علم فعليه أن يسكت ولا يفتي، ولا يدرس الناس، وهو جاهل، فالمصيبة كل المصيبة أن يتصدر للفتوى والتدريس الجاهل من الناس،

(١) أخرجه الدارمي (١٨٠)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٨٢/٤).

فلا ينبغي الرجوع إلى مثل هؤلاء؛ لأن من رجع إليهم كان شريكاً لهم في الإثم، وعلى من يريد النجاة لنفسه أن يتعلم قبل أن يتكلم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْغُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فالله جلّ وعلا طلب من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا ما يوحى إليه، وما ينزل عليه، ولا يأتي بشيء من عنده؛ لأن هذا تكلف، وهو بريء من المتكلفين، فالتكلف هو: من يقول على الله بغير علم في أمور الدين، ثم إنه قد «يَمُرُقُ مِنَ الدِّينِ»؛ كما قال أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فيجرؤ على الكذب، وعلى القول على الله بغير علم.

ومعنى: «وَيَمُرُقُ مِنَ الدِّينِ» يعني: يخرج من الدين.



وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(١).

الشَّيْخُ

هذا هو الحديث الآخر الذي أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْبَابِ، فَهُوَ حَدِيثُ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ حَدِيثٌ عَظِيمٌ؛ إِذْ بَيْنَ فِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفِيَّةَ قَبْضِ الْعِلْمِ، فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْعِلْمَ يَقْبِضُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَكَيْفَ يَكُونُ قَبْضُهُ؟ هَلْ مَعْنَاهُ أَنَّ الْعِلْمَ يَرْفَعُ؟ لَا، لَيْسَ هَذَا مَعْنَاهُ؛ لِأَنَّهُ مَا دَامَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ مُوجُودَيْنِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ بَاقٍ فِيهِمَا، وَإِنَّمَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَحْمِلُونَهُ وَيَأْخُذُونَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَخْذًا صَحِيحًا، وَإِنَّمَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِمَوْتِهِمْ، فَلَا يَمْحَى الْعِلْمُ مِنَ الصُّدُورِ، وَلَكِنْ بِمَوْتِ حَمَلَتِهِ، فَهَمُ فِي النِّهَايَةِ سَيَمُوتُونَ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ، وَمَا زَالَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ يَمُوتُونَ، وَلَكِنَّ الْمَشْكَلَةَ تَكْمُنُ بِتَصَدُّرِ الْجُهَالِ الَّذِينَ يَتَعَاطَوْنَ مَنَاصِبَ الْعُلَمَاءِ فِي الْفَتَا وَالتَّعْلِيمِ، فَيَفْتُونَ بِالْجَهْلِ بَعْدَ الْفَرَاغِ الَّذِي تَرَكَ رَحِيلُ الْعُلَمَاءِ.

وَفِي هَذَا يَحْسُنُ بِنَا الْقَوْلِ: إِنَّ الطَّالِبَ مَهْمَا حَصَلَ مِنَ الدِّرَاسَاتِ فِي الْجَامِعَاتِ، فَهَذَا وَحْدَهُ لَا يَكْفِي، وَلَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهِ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ، بَلْ يَوَاصِلُ التَّزَوُّدَ مِنَ الْعِلْمِ، وَالدِّرَاسَةَ الَّتِي دَرَسَهَا مِفْتَاحًا وَمَدْخَلَ إِلَى الْعِلْمِ.

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

ولأن صاحب الشهادة في النهاية سينسى ما درس، فالأصل في طالب العلم أن يواصل التحصيل العلمي والمدارس والاطلاع ومجالسة العلماء، هذا من ناحية.

ومن الناحية الأخرى: أن العلماء يموتون، ولا يخلفهم أحد يقوم مقامهم، كما كان الحال في أول الإسلام، فكان العالم إذا مات خلفه طلاب وتلاميذ وذرية يحملون علمه، وينشرونه بين الناس، لكن في آخر الزمان يفقد هذا، فإذا لم يبق عالم يرجع إليه الناس، فماذا يفعلون وهم محتاجون إلى مرجع؟ سيتخذون رؤوساً جهالاً، يجعلونهم في مكان العلماء، فإذا سئلوا أفتوا بغير علم، فضلوا في أنفسهم، وأضلوا غيرهم، وهذا خطر على الأمة يجب أن نتنبه له، وهذا يؤكد أنه ينبغي على المسلمين أن يهتموا بالعلم ودراسته، والعمل على إبقائه؛ لئلا ينسوه بموت العلماء، ولهذا كان المسلمون يعتنون بالتعليم عناية تامة، وكانوا يفتحون له المدارس والحلقات، ولقد تنبه ولادة الأمور إلى أهمية ذلك، ففتحت المعاهد والكليات، وقررت فيها المقررات، وأجرى ولي الأمر الإعانات المالية للطلاب، وهذه ميزة عظيمة لهذا البلد، كل هذا من أجل الحفاظ على العلم من الضياع في حين نرى أنه في الدول الأخرى التي يوجد بها دور علم فإن الدراسة تكون على نفقة الطالب، فالدولة لا تدفع له شيئاً، أما في هذه الدولة، فقد أجرت للطلاب ما يكفيه، حتى الكتب تطبعها له مجاناً، وهذه من نعم الله سبحانه وتعالى علينا.

فالواجب على الشباب وطلاب العلم أن يتتبعوا هذه الفرصة، ويتفرغوا لطلب العلم وتحصيله؛ لأنه بموت العلماء قد يتخذ الناس رؤوساً جهالاً،

يجعلونهم مراجع لهم، يحكمونهم في خصوماتهم، ويستفتونهم في مشكلاتهم، فماذا يفعلون، وهم ليس عندهم علم، وقد تبوؤوا هذه المناصب؟ ليس أمامهم إلا أن يحتفظوا بهذه المناصب، فيفتوا بغير علم، ويقولون على الله ما لا يعلمون، فيضلون ويضلون غيرهم.

وهذا الحديث من علامات النبوة، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عن أشياء ستقع في المستقبل، وقد كان الأمر كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد بهذا الخبر التحذير من إهمال العلم، والحث على التعلم والإقبال على طلب العلم، وفيه تحذير ولادة الأمور من أن يسندوا المناصب الدينية للجهال، وأن عليهم أن يختاروا أفضل من يجدونه لهذه المناصب؛ لئلا يقع المحذور الذي أسلفنا بيانه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، والمناصب العلمية هي أعظم الأمانات.



بَابُ مَا جَاءَ فِي شَهَادَةِ الزُّورِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

الشَّيْخُ

شهادة الزور من الكبائر الموبقة -والعياذ بالله-، وهي الشهادة التي يدلي بها الشاهد وهو كاذب فيها، إما لأجل مساعدة المشهود له -والناس اليوم يعتبرون أن الشهادة من المساعدة، وأن الذي لا يشهد ليس فيه خير، وهو في الحقيقة يضر من شهد له شهادة الزور؛ لأنه يقطع حقوق الناس بهذه الشهادة-، وإما أن يشهد وهو كاذب؛ انتقاماً من المشهود عليه، أو يشهد جاهلاً بحكم الشهادة، كأن يظن أنها لا تضر، أو جاهلاً بعواقب ومآل شهادة الزور.

والزور والتزوير: هو تزوين الشيء حتى يصبح كأنه حقيقة.

ويزوره، أي: ينمقه ويحسنه حتى يظهر للناس كأنه حقيقة.

فالزور: هو إظهار الشيء على غير حقيقته، أو إن أصله من الإزورار،

أي: الانحراف؛ لأن شهادة الزور فيها انحراف عن الحق^(١).

وقد أورد المصنف في أول هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَأَجْتَنِبُوا

الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]؛ ليظهر أن

قول الزور عدیل للرجس من الأوثان.

(١) سبق بيانه وتعريفه (ص ٢٨، ٢٩).

والرجس هو: النجس^(١)؛ لأن الأوثان نجسة نجاسة معنوية؛ لأنها من مظاهر الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، والشرك من أعظم الذنوب.

والنجاسة هنا معنوية، وليست حسية، أي: نجاسة الاعتقاد، وإلا فالحجارة والأخشاب والقبور ليست نجسة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، ونجاستهم في الاعتقاد.

وقوله: ﴿الْأَوْثَانِ﴾ جمع وثن، وهي كل ما يعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ من قبر أو شجر أو حجر أو إنسان^(٢)، فالله عَزَّوَجَلَّ أمر باجتنابه، كما أمر باجتناب شهادة الزور، فقال: ﴿وَلَجِّنُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، أي: الكذب في الشهادة، وهذا كله زور، أمرنا الله باجتنابه، أي: بالابتعاد عنه، فلا ينبغي أن تقترب منه، فالله تعالى لم يقل: «لا تزوروا»، لكن قَالَ: (اجتنبوا)، وهذا أبلغ، مثل قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وهذا أبلغ من قوله: (لا تزنوا)، والمعنى: اتركوا طريقه، والوسائل التي تؤدي إليه، فابتعدوا عنها.

وكذلك قول الزور، سواء كان شهادة أو قولاً بغير علم أو كذباً أو غير ذلك، فالواجب الابتعاد عما يؤدي إلى الزور ويقرب منه.



(١) سبق بيانه وتعريفه (ص ٢٣١).

(٢) سبق بيانه وتعريفه (ص ٢٣١).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «إِنَّ الطَّيْرَ لَتَخْفِقُ بِأَجْنِحَتَيْهَا، وَتَرْمِي مَا فِي حَوَاصِلِهَا مِنْ هَوْلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ شَاهِدَ الزُّورِ لَا تَزُولُ قَدَمَاهُ حَتَّى يَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

الشَّجَّ

وقوله في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ الطَّيْرَ لَتَخْفِقُ بِأَجْنِحَتَيْهَا، وَتَرْمِي مَا فِي حَوَاصِلِهَا مِنْ هَوْلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ شَاهِدَ الزُّورِ لَا تَزُولُ قَدَمَاهُ حَتَّى يَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]، فقيام الساعة أمر عظيم تذهل من شدته الخلائق -والعياذ بالله-، وقال -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فهو فزع وجزع، وقد سماه الله تعالى الفزع الأكبر، فقال: ﴿لَا يَخْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فمن شدة هوله تكون هذه هي حالة الطيور، وهي غير مكلفة ولا ذنوب عليها، فما بال المذنبين والكفار والمشركين -والعياذ بالله-؟

(١) أخرجه أبو يعلى (٣٩/١٠)، والطبراني في الأوسط (١٩١/٨)، والحاكم (١٠٩/٤)، وابن ماجه مختصراً (٢٣٧٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٧)، والبيهقي في الكبرى (٢٠٨/١٠).

وقوله في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وإن شَهِدَ الزُّورَ لَا تَزُولُ قَدَمَاهُ حَتَّى يَتَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، هذا هو الشاهد من الحديث، وهذا وعيد شديد لشاهد الزور أن مصيره إلى النار، فيجب على المسلم أن يتجنب شهادة الزور.

وقد ورد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن الشهادة، فقال: «هَلْ تَرَى الشَّمْسَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ»^(١)، فلا تشهد إلا إذا كنت متيقناً لما تشهد به، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أما إذا لم تكن متيقناً، ولم تكن عالماً بما تشهد، فإياك أن تشهد، واحذر أن تبني شهادتك على الظن؛ لأن الظن كما قال تعالى: ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

إذا لا بد من اليقين في الشهادة، وإلا فاتركها؛ لتكون في عافية، فإن شهدت وأنت ليس عندك علم بما شهدت به كانت هذه شهادة زور توجب لك النار يوم القيامة.



(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٩ / ١٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشَّهَادَةِ قَالَ: «هَلْ تَرَى الشَّمْسَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ أَوْ دَعُ» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّاسُ مَعَادِينُ وَالْعِرْقُ دَسَّاسٌ، وَأَدَبُ السُّوءِ كَعِرْقِ السُّوءِ».

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ»،
فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ^(١).

الشَّجَرُ

هذا هو الحديث الآخر الذي أورده المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هذا الباب، وهو حديث أبي بكرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء في «الصحيحين» فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ»، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قَالُوا: «لَيْتَهُ سَكَتَ»، أَي: إِشْفَاقًا عَلَيْهِ؛ لَمَا رَأَوْا مِنْ تَأَثُّرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ إِلقاءِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى خَطَرِهَا.

الكبيرة الأولى: الشرك بالله: فهو عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ حَقُّ اللَّهِ، لَا يَشْرِكُ مَعَهُ أَحَدٌ، وَهَذَا أَعْظَمُ الذُّنُوبِ.

والكبيرة الثانية: عقوق الوالدين، فالواجب بر الوالدين والإحسان إليهما، وحق الوالدين يأتي بعد حق الله تعالى، وعقوقهما يأتي بعد الشرك بالله فِي الْمَرْتَبَةِ.

والمراد بالعقوق: القطيعة، والعاق: هو القاطع لوالديه غير البار بهما، وهو من أكبر الكبائر بعد الشرك.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

والكبيرة الثالثة: شهادة الزور.

وفي الحديث: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان متكئاً، ثم لما أراد أن يذكر قول الزور جلس واعتدل؛ لأهمية الأمر، فغير هيئة جلوسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ردد الكلام، وهذا فيه حالتان للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

الحالة الأولى: أنه غير جلسته.

والحالة الثانية: أنه كرر وردد هذه الكلمة.

وهذا مما يدل على غلظ شهادة الزور، فلماذا فعل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك عند قوله: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ» ولم يفعل ذلك عند قول: «الشرك»؟

الجواب: لأن الشرك يتجنبه المسلم بإسلامه، وكذلك عقوق الوالدين يتجنبه -أيضاً- بمروءته ودينه، لكن شهادة الزور قد يتساهل فيها، ويظن أنه يفعل ذلك لأجل المساعدة أو للحمية، أو يظن أنه لا يلزم من شهادته هذه مسؤولية أمام الله تعالى.

ولكون مفسدة الزور متعددة إلى غير الشاهد اهتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتحذير منها بخلاف الشرك، فإن مفسدته قاصرة غالباً على المشرك، فلذلك غلظ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شأنها؛ لأنها مما يتساهل بها الناس، وأبدى لها اهتماماً خاصاً، وهذا يدل على أن شهادة الزور من أكبر الكبائر.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْيَمِينِ الْغُمُوسِ

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] ^(١).

الشَّرْحُ

ومن الكبائر -أيضًا-: اليمين الغموس، واليمين الغموس: هي اليمين التي يحلف صاحبها على أمر ماضي، وهو كاذب متعمد، كأن يقول: «والله إن هذه السلعة اشتريتها بكذا وكذا»، وهو كاذب؛ ليغرر بالزبون، أو «إن قيمتها كذا وكذا»، ويحلف بالله كذبًا.

وسميت غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها غمسا بالإثم في نار جهنم -والعياذ بالله-.

فاليمين تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولها: اليمين اللغو؛ وهي التي تأتي على لسان الإنسان من غير قصد. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ» ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٣٥٦)، ومسلم (٢٢٢) (١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦١٣).

ثانيها: اليمين المنعقدة، أو اليمين المكفزة: وهي التي يقصد عقدها على أمر مستقبل، كأن يقول: «والله لأفعلن كذا، والله لا أفعل كذا»، يعني: في المستقبل، وهي التي تجب فيها الكفارة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُكُمْ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

ثالثها: اليمين الغموس: وهي الحلف على أمر ماضٍ كاذباً متعمداً، وهذه ليست فيها كفارة، إنما فيها التوبة إلى الله عز وجل والاستغفار، فإذا لم يتب الإنسان منها، فإنها تغمسه في الإثم، ثم في النار.

كأن يحلف أنه رأى فلاناً يفعل كذا، وهو لم يره، أو يحلف على سلعة أن ثمنها عليّ بكذا، وهو كاذب متعمد لذلك، فهذه هي اليمين الغموس التي تجري على ألسنة كثير من التجار والباعة في الأسواق يروجون بها سلعتهم.

وقد جاء في الحديث أن من الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: «وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتُهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»^(١)، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلْسَّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكََةِ»^(٢)، فالحلف مروج للسلعة، ولكنه سبب لذهاب المال، إما بتلف يلحقه في ماله،

(١) أخرجه مسلم (١٧١) (١٠٦) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَانُ، وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتُهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ».

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٣١) (١٦٠٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أو بإتفاقه في غير ما يعود نفعه إليه في العاجل، أو ثوابه في الآجل؛ جراء هذا اليمين.

وهو يأتي بعد شهادة الزور في غلط تحريمه وعظم إثمه، ويدخل في هذا اليمين في الخصومات، فالبينة على المدعي واليمين على من أنكر^(١).

فإذا حلف وهو كاذب؛ ليأخذ مال أخيه في الخصومة، فإنه كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ: فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا»^(٢)، وفي حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي سيأتي: «لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»^(٣)، ومن الذي يطبق غضب الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

وتكون اليمين الغموس في ثلاثة أمور، وهي: اليمين في الأخبار الكاذبة، واليمين في البيع والشراء، واليمين في الخصومات.

وأما حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء في الخصومات، ونزلت فيه هذه الآية الكريمة، وسبب النزول: أن رجلين اختصما عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدعي البينة، فلم يكن عنده بينة، فقال له: «شَاهِدَاكَ أَوْ يَمِينُهُ»، أي: يمين صاحبه، قال: إِنَّهُ إِذَا يَحْلِفُ وَلَا يُبَالِي، فَقَالَ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٢)، ومسلم (١) (١٧١١)، واللفظ لمسلم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ».

(٢) سبق تخريجه (ص ١٦٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠) (١٣٨) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَسْتَحِقُّ بِهَا مَالًا، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِقَيِّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»^(١)، فأنزل الله تصديق ذلك، ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧] أي: ليس لهم نصيب من الجنة، وهذا وعيد شديد، فهم: ﴿لَا خَلْقَ لَهُمْ﴾ في الآخرة، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة، ولا ينظر إليهم نظر رحمة وإكرام، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، أي: لا يطهرهم من ذنوبهم، وأيضًا: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فانظر إلى هذه العقوبات القاسية التي هي سبب الحلف الكاذب، فلو أن إنسانًا حلف كاذبًا وكسب القضية -سواء كان ذلك في مال، أو أرض، أو في خصومة-، فماذا يساوي ما حصل عليه أمام غضب الله عليه وأمام هذه العقوبات؟

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٩)، ومسلم (٢٢١) (١٣٨) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَسْتَحِقُّ بِهَا مَالًا لِقَيِّ اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]، ثُمَّ إِنَّ الْأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ خَرَجَ إِلَيْنَا، فَقَالَ مَا يُحَدِّثُكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَحَدَّثَنَا بِمَا قَالَ: فَقَالَ صَدَقَ، لَقِيَّ أَنْزَلْتَ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ حُصُومَةٌ فِي شَيْءٍ، فَاخْتَصَمْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: شَاهِدَاكَ أَوْ يَمِينُهُ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ إِذَا يَحْلَفُ وَلَا يُبَالِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَسْتَحِقُّ بِهَا مَالًا، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِقَيِّ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ثُمَّ اقْتَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

بل إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحصر الأمر في الأموال الكبيرة أو الأراضي الشاسعة، بل قال: «مَنْ افْتَتَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكِ»^(١)، أي: عودًا من شجر الأراك الذي يستاك به الناس.

فلا يجوز التساهل في اليمين في أي أمر مهما بدا صغيرًا أو حقيرًا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ يَمِينَ صَبْرٍ لِيَفْتَتَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»^(٢)؛ ولهذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، أي: لا تكثروا الحلف، فلا تحلفوا إلا عند الاضطرار، وحين تكون صادقًا فيما تحلف به، أما الذي يكثر الحلف فهو متساهل في حق الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يعظمه حق تعظيمه.



(١) أخرجه مسلم (٢١٨) (١٣٧) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٤٩)، ومسلم (٢٢٠) (١٣٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ
بَغَيْرِ حَقِّ لَقِيِ اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ
وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:
«وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَائِكِ»^(٢).

الشَّيْخُ

قوله هذا في حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ»،
أي: باليمين عند القاضي، أو إن خصمه طلب منه اليمين، فحلف وأخذ مال
أخيه، فهذا وعيد شديد.

وفي الحديث: غلظ تحريم أخذ حقوق المسلمين، وأنه لا فرق بين قليل
الحق وكثيره في ذلك.



(١) أخرجه مسلم (٢١٨) (١٣٧).

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٠٦).

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية

[النور: ٢٣].

وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قَالَ: «الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»^(١).

الشَّجَرُ

من الكبائر: قذف المحصنات، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، أي: الكبائر المهلكات، وعد منها قذف المحصنات الغافلات المؤمنات؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٣-٢٥].

والقذف في اللغة معناه: الرمي، ومنه القذيفة، أي: الرمية^(٢)، والمراد به هنا: رمي المحصنات بالزنا، والمحصنات: هن العفيفات، فهذا من أكبر

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢) انظر: مادة (قذف) في لسان العرب (٩/ ٢٧٦)، ومختار الصحاح (١/ ٢٢٠)، ومقاييس اللغة (٥/ ٦٨)، والمعجم الوسيط (٢/ ٧٢١).

الكبائر، والواجب على المسلم أن يحفظ لسانه عن مثل هذه الجريمة، فإن اللسان له آفات مهلكة، فإذا لم يحفظ الإنسان لسانه أهلكه، فما من شيء أحق بطول حبس منه.

وليس القذف مقتصرًا على النساء، بل يكون في الرجال، فلا يجوز رمي الأبرياء في أعراضهم، سواء كانوا رجالًا أو نساءً، فيقال: إنهم يفعلون الفواحش كالزنا واللواط، هذا هو معنى القذف - والعياذ بالله -.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ)، يعني: من الوعيد في الكتاب والسنة في هذا الأمر الفظيع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾)، أي: العفيفات، و﴿الْغَفْلَتِ﴾، أي: البعيدات عن هذه الأمور، التزيهات عن الفواحش، والتزيهات في أعراضهن، و﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾، فالمؤمن له حرمة، سواء كان ذكرًا أو أنثى، وقد جاءت الشريعة بحفظ الأعراض وصيانتها من أن تنتهك أو تقذف، والمؤمن حرام دمه وماله وعرضه؛ كما جاء في الحديث: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرْضُهُ»^(١)، ولذلك فإن قذف المسلم بالفاحشة جريمة رتب الشارع عليها الحد والعقوبة، وقد

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَدَابُرُوا، وَلَا يَبْغِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُغْلَى، وَلَا يَخْدِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَهُنَا». وَيُسَبِّحُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرْضُهُ».

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»^(١).

فالْمُؤْمِنُ يَهُونُ عَلَيْهِ مَالُهُ، أَوْ قَدْ يَهُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلَ، لَكِنْ لَا يَهُونُ عَلَيْهِ عَرْضُهُ؛ لِذَلِكَ فَإِنْ الْإِسْلَامُ جَعَلَ الْمَحَافِظَةَ عَلَى الْعَرْضِ مِنَ الضَّرُورَاتِ الْخَمْسِ، وَهِيَ: حِفْظُ الدِّينِ، وَحِفْظُ الْعَقْلِ، وَحِفْظُ النَّفْسِ، وَحِفْظُ الْمَالِ، وَحِفْظُ الْعَرْضِ، وَدِينُ الْإِسْلَامِ أَمْرٌ بِالسَّتْرِ، حَتَّى لَوْ وَقَعَ مِنَ الْمُسْلِمِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَالْوَاجِبُ سِتْرُهُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، أَيِ: الْوَاجِبُ سِتْرُهُ مَعَ نَصِيحَتِهِ، وَعَدَمُ إِشَاعَةِ مَا حَدَثَ مِنْهُ بَيْنَ النَّاسِ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩].

هَذَا إِذَا كَانَ وَاقِعًا فِي الْمَعْصِيَةِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَرِيئًا مِنْهَا، ثُمَّ قَذَفَ فِي عَرْضِهِ؟ فَالْأَمْرُ خَطِيرٌ جَدًّا، وَلِهَذَا رَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحَدَّ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْقَذْفَ كَبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَائِرِ.

والسبع الموبقات هي:

أَوَّلًا: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ»، فَهُوَ أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ: وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ مَعَ اللَّهِ نَدًّا، وَهُوَ خَلْقُكَ، كَالِاسْتِغَاثَةِ بِالْأَمْوَاتِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ، وَالذَّبْحَ لَهُمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَلَوْ

(١) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٥٨)(٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

سمي بغير اسمه، كما يسمونه الآن بالتوسل، وأنه من باب محبة الصالحين، وغير ذلك من التسميات الباطلة، فمهما سمي هذا التوسل بأسماء مختلفة، فهو شرك، وهو من أكبر الكبائر، ولا يغفره الله إلا بالتوبة، وإذا مات الإنسان عليه كان مخلدًا في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالشرك ظلم عظيم، بل هو أعظم أنواع الظلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فلو أن الإنسان كان مصليًا ليلاً ونهارًا وصائمًا ومؤديًا للفرائض ومجاهدًا في سبيل الله إلا أنه يشرك مع الله في عبادته لأحبط الله عمله، ولكانت أعماله هباءً منثورًا، فانظر لهذا الخطاب الوارد في الآية، فسترى أنه حتى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لو أشركوا لحبط عملهم، وصاروا من الخاسرين، فكيف بغيرهم؟

وهذا يبين مدى خطورة الشرك، وأنه لا ينفع معه عمل عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى لو كان الإنسان مصليًا وصائمًا ومنفقًا، فإن أعماله باطلة؛ لأنها لم تؤسس على أصل وهو التوحيد، ولذلك صار الشرك أعظم الموبقات، وهو أعظم ما نهي عنه، ومن هنا يجب الاهتمام بأمور العقيدة، ومعرفة ما يجب في حق الله، وما لا يجوز، ومعرفة الشرك وأنواعه؛ لكي يُجْتَنَّبَ، فكيف يجتنب المسلم ما لا يعلمه؟

فالبعض يقول: إن الشرك هو أن تعتقد أن هناك من يخلق ويدبر مع الله، نقول: نعم، هذا شرك في الربوبية، وأكثر المشركين لا يقولون به، وهذا قليل وقوعه في العالم، فأكثر المشركين يوحدون الله توحيد الربوبية، وإذا سألتهم: من خلقهم؟ فيقولون: «الله»، وفي هذا يقول -سُبْحَانَهُ-: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فهؤلاء لم يقولوا: إن هناك من يدبر الأمور مع الله، سواء كان في الأولياء والصالحين أو الأصنام، هم يعترفون بهذا -يعني: بتوحيد الربوبية-، إنما يخالفون في توحيد الألوهية، أي: توحيد العبادة، وهذا هو الذي وقع فيه الخلاف بين الأنبياء والأمم، ولكن لا ينفع أن يقر العبد بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية، ولذلك جاءت الرسل تدعو إلى توحيد الألوهية، وتجاهد من أنكره.

والذي يقول: إن الشرك هو أن تعتقد أن أحداً يدبر ويخلق مع الله، أو ينفع أو يضر، نقول له: إن هذا كلام باطل، لم يقله أهل الجاهلية قط، فهؤلاء كانوا إذا نهوا عن عبادة القبور والأولياء، قالوا: نحن نعلم أن الأموات لا ينفعون ولا يضررون، ولكننا نتخذهم وسائل بيننا وبين الله، أي: هم يدعونهم ويستغيثون بهم؛ ليشفعوا لهم عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهم يعترفون أنهم لا يضررونهم

ولا ينفعونهم، إنما حجتهم أنهم شفعاء لهم عند الله، ووسيلة عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويسمون هذا توسلاً، وليس شركاً.

الموبقة الثانية: «السَّحَرُ»، والسحر في اللغة: العمل الخفي الذي له تأثير، وهو لا يرى، ومنه سمي السَّحَرُ سَحَرًا؛ لأنه يأتي آخر الليل^(١).

أما في الشرع، فالسحر: عبارة عن رقى وعزائم وطلاسم يعملها الساحر، وعقدًا يعقدها، وينث فيها، وعزائم يقرؤها بأسماء الشياطين، ثم ينث من ريقه الخبيث، ويستعين بالشیطان، فيؤثر في بدن المسحور، إما بالموت، أو المرض، أو بتخيل العقل^(٢).

وحكم الساحر: أنه كافر بالله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا حكم الله على تعليم السحر وتعلمه بالكفر^(٣)، قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فاليهود قد اتهموا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه سخر العفاريت بالسحر -قبحهم الله-، وإنما سخرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: ما سحر كما تقول اليهود، فسمي السحر كفرًا، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ

(١) انظر: مادة (سحر) في: تهذيب اللغة (٤/ ١٧٠)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٣٨)، ولسان العرب (٤/ ٣٤٨)، والتعاريف (ص ١٩١).

(٢) انظر: المغني (٩/ ٢٨)، والكافي في فقه الإمام أحمد (٤/ ١٦٤).

(٣) انظر: المغني (٩/ ٢٩).

وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ ﴿[البقرة: ١٠٢]﴾، وهاروت وماروت ملكان نزلا من السماء يعلمان السحر، لا لذات السحر، وإنما للابتلاء والامتحان، ولذلك ينصحان من يأتيهما لأجل التعلم، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ ﴿[البقرة: ١٠٢]﴾، أي: لا تتعلم السحر، فدلّت الآية على أن السحر كفر، تعلمه وتعليمه، لماذا؟ لأن فيه استعانة بالشياطين في عملهم وتعليمهم، لذلك صار كفراً، والكفر أكبر الكبائر، وهو كفر مخرج من الملة.

الموبقة الثالثة: «وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ»، فالله تعالى حرم قتل النفس، والاعتداء عليها، وسواء كانت نفس مؤمن أو نفس معاهد من الكفار، وأما المؤمن فقد قال تعالى بشأنه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿[النساء: ٩٣]﴾، وأما الكافر المعاهد فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١)، وهذا وعيد شديد، فقتل المؤمن أو المعاهد من السبع الموبقات -والعياذ بالله-.

الموبقة الرابعة: «وَأَكْلُ الرِّبَا»، فالكسب الحرام خبيث من أي نوع كان، لكن أشدها هو أكل الربا، ولذلك عده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السبع الموبقات، والحديث عنه في وقتنا الحاضر أمر ضروري بعد أن أصبح اليوم اقتصاد العالم مبنياً على الربا، ولا ينجو من الربا إلا من سلمه الله منه وعرفه وابتعد عنه،

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦، ٦٩١٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وإلا فأكثر الناس واقعون في الربا تبعًا للاقتصاد العالمي كما يقولون، وهذا أمر خطير جدًا على الأفراد والمجتمعات؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قد حذر منه، وتوعد المتعاطين له بالمحق ونزع البركة، فقال: ﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَذَكُومُ رُءُوسِ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، وفي الحديث: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدِيَهُ»، وقال: «هُمْ سَوَاءٌ»^(١)، فلعن آكل الربا، وهو الذي يأخذ، ولعن موكله الذي يدفعه للأكل، ولعن الكاتب والشاهدين؛ لأنهم يوثقون عقد الربا، ويتعاونون مع المرايين في شهادتهم وكتابتهم، فالجميع ملعونون على لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعبر بالأكل هنا؛ لأنه أغلب وجوه الانتفاع، وإلا لو أخذه ولم يأكله، بل جعله في بناء العمارات أو شراء السيارات، أو جعله أرصدة في البنوك لكان ملعونًا، سواء أكله أو لم يأكله، وقد قَالَ الله -سُبْحَانَهُ- عن اليهود لما كانوا يتعاملون بالربا: ﴿وَآخِذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]، فأخذ الربا موبقة من الموبقات، وملعون من تعامل به، سواء أكله أو لبسه أو حفظه في رصيده، أو غير ذلك.

الموبقة الخامسة: «وَأَكُلَ مَالِ الْيَتِيمِ»، واليتيم: هو الذي مات أبوه وهو صغير، فهو بحاجة إلى من يحفظ له ماله وينمي له؛ لأن والده الذي يتولاه ويربيه قد مات، فأصبح ماله عرضة للضياع؛ لأنه قاصر، فيحتاج

(١) أخرجه مسلم (١٠٦) (١٥٩٨) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إلى ولي ناصح يحفظ له ماله، فدل ذلك على عظم حرمة مال اليتيم، وعلى عدم الاعتداء عليه، أو التساهل في المحافظة عليه وصيانته، فيجب أن يبادر الثقات ليلوا أمر اليتيم حتى يكبر ويأخذ ماله.

فمن استغل ضعف وغفلة اليتيم وعدم إدراكه، فأكل ماله، فقد ارتكب كبيرة من الموبقات، وهي قرينة لأكل الربا، وقرينة للشرك والسحر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ [النساء: ٦]، أي: يستغل ضعف وصغر اليتيم ليأكل ماله، وهذا لا يجوز.

الموبقة السادسة: «وَالْتَوَلَّى يَوْمَ الْزُحُفِ»، وهو: الفرار من قتال الكفار، فإذا التقى المسلمون والكفار، فيجب على المؤمن أن يثبت، ولا ينهزم من أرض المعركة، سواء انتصر، أو استشهد، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]، وهذه إحدى الحالات التي يجب فيها القتال على الأعيان، فمن حضر القتال وهو يقدر عليه لم يجز له أن ينهزم، بل عليه أن يثبت ويقاوم حتى لو قتل فهو شهيد، قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠]، وإن انتصر فهذه نعمة من الله، ولهذا قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ﴾، أي: لا تفروا، ولا تتركوا أصحابكم، ثم استثنى ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ﴾؛ أي: ينحرف للقتال في جهة أخرى من جهات المعركة، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦]، أي: لينضم إلى جيش المسلمين.

الموبقة السابعة: «وَقَذَفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»، وهذا محل الشاهد من الحديث، وهو: رمي المحصنات بالزنا، وهن عفيفات عنه غافلات بعيدات عن الريبة.

وقوله: «الْمُؤْمِنَاتِ»؛ لأن المؤمنة لا يمكن أن تفعل الزنا، فالأصل في المؤمن البراءة والخير، فلا يجوز أن يلطخ بجريمة دون تثبت ودون بينة؛ لأن مجرد الاستناد على قول الناس لا يعتد به، وبالتالي فلا يجوز أن تشاع الفاحشة، ويقال: «هكذا سمعنا الناس يقولون»، فإن حديث الناس لا يعتبر مستنداً أو بينة يقام على أساسه حد، وإنما يعتبر هذا الكلام قذفاً أو اتهاماً -والعياذ بالله-.

فالواجب أن يحفظ الإنسان لسانه عن هذه الجريمة الخطيرة، فالله جَلَّ وَعَلَا رتب على جريمة قذف المحصنات الغافلات المؤمنات عقوبة في الدنيا، وهي: أن يجلد ثمانين جلدة موجعة تتوارد على جسده حتى يلهب جلده، ويكون الجلد على مرأى من الناس؛ حتى يكون رادعاً لمن تسول له نفسه أن يقع في أعراض الناس، ولأجل أن يشعر بالخزي أمام الناس، وأما عقوبة الآخرة، فهي اللعن والطرْد والإبعاد من رحمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يَدْعُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ [النور: ٢٣-٢٥]، هذه هي عقوبة القاذف، وكما قلنا فهذا ليس خاصاً بقذف النساء، بل قذف الرجال كذلك.

بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِي الْوُجْهَيْنِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤]،
وَقَوْلِهِ: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

الشَّرْحُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِي الْوُجْهَيْنِ)، «ذو الوجهين»: هو المتلون مع الناس؛ حيث يقول في المجلس ما يرضي أهله، ثم يذهب عند آخرين، فيمدحهم ويرضيهم ويشتم الأولين، فهو يبدو عند قوم بوجه، وعند آخرين بوجه آخر، وهذا هو النفاق -والعياذ بالله-، وهذه هي المداينة المحرمة، فيظهر لأهل المنكر أنه عنهم راضٍ، فيلقاهم بوجه سمح وبالبشر، وكذلك يظهر لأهل الحق، ولهذا فهو قد استحق الوعيد الشديد، وقد وصف الله تعالى هؤلاء بقوله: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

أما المسلم، فهو صادق لا يتلون ولا يرائي، ويعامل كلًّا بما يستحق شرعًا، ويلتزم تقوى الله والصدق في كل مقام ومجلس في جميع أحواله، فهو إنما يعامل الله ويطلب رضاه، ولا يطلب رضا البشر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤])، هذا في أول سورة البقرة، قال تعالى: ﴿آلَهُ ① ذَلِكَ أَلْمَكْتُبُ

لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿البقرة: ١-٢﴾، فهو هدى، لا ريب أنه من عند الله، وهو كلامه جَلَّوَعَلَا، ولكن الناس تجاه هذا القرآن انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين آمنوا به ظاهراً وباطناً وهم المؤمنون، وفي هؤلاء يقول -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَأْتِيخِرَ هُمْ يُؤْمِنُونَ ۝١﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: ٤-٥﴾، ذكر الله في حقهم آيتين، وذكر صفاتهم، ثم ختم ذلك بأنهم هم المفلحون سواء من العرب، أو من أهل الكتاب الذين أدركوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآمنوا به وبالرسل والكتب كلها.

ثم ذكر القسم الثاني: وهم الذين يكفرون بالقرآن ظاهراً وباطناً، وهم الكفار الذين لم يدخلوا في الإسلام وحاربوه، وفي هؤلاء قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿البقرة: ٦-٧﴾، فقد ذكر فيهم آيتين -أيضاً-، وبين أنهم جحدوا الحق وستره، فهم لا يؤمنون بما جاءهم من الحق، سواء أُنذروا أو لم يندروا؛ لأنهم لا يؤثر فيهم ذلك.

ثم ذكر الصنف الثالث: وهم الذين آمنوا بالقرآن ظاهراً وكفروا به باطناً، فهم لا مع المؤمنين ولا مع الكفار، وهم المنافقون؛ حيث قَالَ الله -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿البقرة: ٨-٩﴾، فقد ذكر الله فيهم بضع عشرة

آية، إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

ومن صفاتهم: أن لهم وجهين؛ حيث وصفهم الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤].

وشياطينهم: هم اليهود الذين قَالَ لهم هؤلاء المنافقون: إنا معكم ضد محمد، ولكننا نظهر الإيمان به خداعاً؛ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، أي: يستهزئون بالإيمان.

وهم في المقابل إذا التقوا بالمؤمنين أظهروا لهم الإيمان؛ نفاقاً ومصانعةً وتقية، في حين أنهم إذا ذهبوا إلى ساداتهم وكبرائهم من أحبار اليهود ورؤوس الشرك أخبروهم أنهم ما زالوا مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وفي هذا قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوعِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٧٦].

فهذه صفة المنافقين، سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم، وهم الذين يستغلون الوجهين مع الناس -والعياذ بالله-.

وقد قال تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ مُدَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٢-١٤٣]، فهم متارجحون يتبعون مصالحهم الدنيوية، ويدورون حيث تدور مصالحتهم،

أما المؤمن فليس كذلك، فهو صادق مع الله، صادق مع العباد، لا يتأرجح ولا يتغير أبداً، غايته رضا الله حتى وإن تعارض ذلك مع مصالحه.

ومن صفات المنافقين -أيضاً-: أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس، فهم إنما يصلون مخادعة، يريدون بذلك المنزلة في قلوب الناس، وهم في الحقيقة لا يريدون معنى الصلاة، وما أكثر هذا الصنف الذي يندس في صفوف المسلمين، ويظهر وده وحبّه لهم، فتراه يصلي إن حضرت الصلاة معهم، ولكنه إن خلا بارز الله بالمعاصي وترك الصلاة، فالصلاة عنده موضعية، أي: يصلي في موضع ويتركها في آخر، وهذه صفة المنافقين -نسأل الله العافية-.

ومن أبرز صفات المنافقين -أيضاً-: أنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، وذلك من أجل المخادعة، وفي هذا قال -سُبْحَانَهُ- بشأنهم: ﴿يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠١-١٠٢].

فقوله: ﴿جَنَّةٌ﴾؛ أي: ستره، فشهادتهم أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولٌ من الله إنما هي ستره يتسترون بها -نسأل الله العافية-، فهم ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣]، أي: متأرجحين إن ساروا مع المؤمنين أظهروا الإيمان، وإن ساروا مع الكفار أظهروا الكفر، فهم يصلحون مع كل جنس، ويسمون هذا دبلوماسية ولباقة، يقولون: إن فلاناً يصلح مع كل أحد، ليس متشدداً ولا ملتزماً، وإنما يساير الأحوال والناس، وهذه في حقيقة الأمر صفات ذم

لا مدح؛ لأنها من صفات المنافق، أما المؤمن فإنه لا يساوم على دينه وإنما ثبت عليه، والثبات على الدين والتمسك به ليس تشددًا، فالتشدد هو: الزيادة في الدين، أما الذي يتمسك بأحكام الدين ولا يزيد عليه ولا ينقص منه، فهذا هو المؤمن الصادق، ودين الإسلام هو دين الاعتدال والوسطية، فكيف يكون المؤمن متشددًا ومترمًا؟

ومن الأسماء التي يطلقونها على المؤمن الملتزم أنه متطرف، والتطرف والغلو لا يكون عند المؤمن، وإنما هذا عند بعض الفرق الضالة كالخوارج وغيرهم، فالحاصل أنهم يصفون المتمسك بدينه بالتطرف والتزمت، والواجب عليه مسايرة الوضع، فإذا كان الوضع يقتضي أن يترك الدين؛ لكي يصبح مرئًا سهلًا غير معقد تركه، والحقيقة أن هذه مغالطة.

ولو كانوا يقصدون بالتطرف والغلو والتشدد المعنى الصحيح لقلنا: نعم، هذا لا نقره ولا نرضاه، وليس هو من الدين؛ لأنه خروج عن الدين، ولكنهم يقصدون معنى آخر، وهو الاستقامة على الدين، ولذلك سمي الخوارج بهذا الاسم؛ لأنهم خرجوا عن هذا الاعتدال، فنحن لا نقر التشدد والتطرف والغلو، لكن لا نسمي المتمسك بالدين تطرفًا كذلك، فالتمسك بالدين ليس تشددًا ولا تطرفًا ولا تزمتًا، فيجب التنبه لهذا.

ثم قال تعالى في سياق الآية التي ساقها المصنف رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣]؛ لأنه ذكر قبل ذلك أنهم: ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١]، فهؤلاء المنافقون ينتظرون متى يحصل للمسلمين ﴿فَتْحٌ﴾ -أي: نصر-؛ ليقولوا

لهم: نحن مسلمون مثلكم، وإذا كان للكافرين (نصيب) -أي: انتصار على المسلمين بسبب تفريطهم- انحازوا مع الكفار ضد المسلمين، والله -سُبْحَانَهُ- عبَّرَ عن انتصار الكفار بالنصيب؛ لأن انتصارهم على المؤمنين نادر، وحينئذ قالوا للكفار: ﴿أَلَمْ تَسْتَحِذْ عَلَيْنَا وَمَنَعْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، فهؤلاء مع الذي له الغلبة؛ لأنهم أصحاب مصالح دنيوية، وليسوا أصحاب دين، بخلاف المؤمنين الثابتين على دينهم في الشدة والرخاء والعسر واليسر.



وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَوْلًا بِوَجْهِهِ، وَهَوْلًا بِوَجْهِهِ»^(١).

الشَّجَّ

لما ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الأدلة من القرآن على ذم ذي الوجهين، والوعيد الشديد في حقه ذكر دليل السنة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ»، أي: أشد الناس شرًا، والكافر المصرح بكفره، وإن كان شرًا، فشره أخف من شر المنافق؛ لأنه يُعرف بأنه عدو، وتتخذ معه الأسباب الواقية من شره، كأن يكون معاهدًا أو مستأمنًا، فيكون بينه وبين المسلمين عقد وعهد، أما المنافق، فهو أشد خطرًا من الكافر؛ لأنه مظهر للإيمان مبطن للكفر، ويطعن المسلمين من الخلف، فهو يعيش بين ظهرائهم، ويعرف أحوال المسلمين وأسرارهم، ويبدئها لأعدائهم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَا الْوَجْهَيْنِ»، ولم يقل: الكافر، بل قال: «الَّذِي يَأْتِي هَوْلًا بِوَجْهِهِ، وَهَوْلًا بِوَجْهِهِ»، يعني: أنه متذبذب، فهو إذا كان مع طائفة من الناس بين لهم أنه يودهم، وأنه يجب لهم الخير، وإذا انقلب إلى الطائفة الأخرى أخبرهم أنه معهم، وذم الطائفة الأولى وتكلم في حقهم.



وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَيْنِ مِنْ نَارٍ»^(١).

الشَّجُّ

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيان لمعنى «ذَا الْوَجْهَيْنِ»؛ حيث ذكر أنه الذي يكون له لسانان مع الناس، إن أتى طائفة مدحها بما يرضيها، وإن أتى مع عدوها مدحها وذم الأولى، فهو يستغل لسانه فيما يرضي كل طائفة، ولو على حساب دينه، هذا هو ذو اللسانين، أما لسان المؤمن فهو لسان صدق وحق، فلا يقول إلا الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم.

والمراد باللسان هاهنا: الكلام المتنوع المتلون.



(١) أخرجه البزار (٢١٩/١٣)، والطبراني في الأوسط (٣٦٥/٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٠/٢)، وأبو يعلى (١٥٩/٥).

بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّمِيمَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيرٍ﴾ [القلم: ١١].
عَنْ حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»^(١).

الشَّجُّ

النميمة من الكبائر -أيضًا-، والنميمة معناها: نقل الحديث بين الناس على وجه الوشاية^(٢)، يأتي لفلان، ويقول له: فلان يشتمك، ويتكلم في حقك، ويذهب إلى الآخر، ويقول له مثل ما قَالَ للأول، فينقل كلام الناس بعضهم في بعض من أجل الإفساد بينهم، وجاء في الأثر: «يُفْسِدُ النَّهْمُ وَالكَذَّابُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُ السَّاحِرُ فِي سَنَةٍ»^(٣)، فهذا أشد إفسادًا من الساحر -نسأل الله العافية-.

فالواجب على المؤمن أنه إذا سمع كلاما يقال في حق مسلم ألا يكتفي بالسماع والسكوت، بل لا بد له أن ينصح المتكلم، ويبين له أن هذا حرام وغيبة، ولا يذهب لينقل الكلام للمتكلم فيه، هذه هي صفات المؤمن، أما المنافق فإنه يفرح بما حدث؛ من أجل أن يفسد ويوقع العداوة بين الناس،

(١) أخرجه مسلم (١٦٨) (١٠٥).

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب (١٢ / ٥٩٢): (النَّمُّ: التَّوْرِيسُ وَالْإِغْرَاءُ وَرَفْعُ الْحَدِيثِ عَلَى وَجْهِ الْإِشَاعَةِ وَالْإِفْسَادِ، وَقِيلَ: تَزْيِينُ الْكَلَامِ بِالْكَذِبِ). وانظر مادة (نَمَّ) في: العين (٨ / ٣٧٣)، وتهذيب اللغة (١٥ / ٣٣٨)، والصحاح (٥ / ٢٠٤٥)، ومقاييس اللغة (٥ / ٣٥٨).

(٣) أخرجه: أبو نعيم في حلية الأولياء (٣ / ٧٠)، والبيهقي في شعب الإيثار (١٣ / ٤٤٧).

والنميمة شر وفساد، وهي تقوض دعائم المجتمع، وتشيع العداوة والبغضاء بين الناس وقد تثير الحرب، ولهذا جاء الوعيد الشديد بحق النمام.

ومن صفات النمام أنه يكثر الحلف بالباطل، ولهذا فقد نهى الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن طاعة هؤلاء الذين يكثرون الحلف بالباطل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، والحلاف: كثير الحلف، وإذا أصبح الإنسان كثير الحلف كان هذا دليلاً على كذبه، ولذلك فهو يعمد إلى كثرة الحلف؛ حتى يصدقه الناس، وهذا يدل على عدم تعظيمه لله بإكثاره الحلف بالباطل وتساهله باليمين، ثم قَالَ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّامٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].
والهماز: هو الذي يغتاب الناس، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

وقوله: ﴿مَّشَّامٍ بِنَمِيمٍ﴾ هذا محل الشاهد، أي: يمشي في الناس بالنميمة، فينقل حديث بعضهم إلى بعض؛ من أجل الإفساد بينهم - والعياذ بالله -؛ لذلك جاء النهي من الله تعالى بعدم إطاعة النمام، وأخذ الحذر منه، وعدم تصديقه فيما يقول، وألاً يتخذ صديقاً؛ لأن هذا النمام كما أنه قَالَ عندك عن غيرك، فإنه لن يتورع عن الكلام عليك عند غيرك.

وفي حديث الباب وعيد شديد للنمام، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»، أي: كثير النميمة، فهذا ليس معناه: أنه لا يدخل الجنة؛ لأنه كافر، ولكن هذا من باب الوعيد؛ لأنه سيدخل النار ويعذب فيها طويلاً، ثم يخرج ويدخل الجنة، فهو من أصحاب الكبائر التي هي دون الشرك، والنميمة فيها حق للمخلوق، فلا يسلم النمام من الإثم إلا إذا ساعه المخلوق.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ الْقَبْرَيْنِ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ». الْحَدِيثُ (١).

الشَّيْخُ

وفي ثاني حديثي الباب، وهو حديث القبرين: أنه مر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قبرين، فأطلعه الله عَزَّجَلَّ على ما في داخل القبرين من العذاب، وهذا من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن أحوال القبور من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله، فنحن لا نعلم ما في القبور، ولا ندري من يعذب ومن ينعم فيها، وربما يدفن اثنان في قبر واحد، ويكون القبر في حق أحدهما نعيماً وروضة من رياض الجنة، وفي حق الآخر حفرة من حفر النار، فهذا من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن الله أطلع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من باب إظهار المعجزة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأجل نصيحة الناس بهذين الأمرين اللذين عذب أصحاب القبرين بسببهما، قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ (٣) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ۝﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

(١) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (١١١) (٢٩٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَنْبَسَا».

فحينما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ» لم يكن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين كانوا معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرون شيئاً، ثم قال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»، أي: لا يعذبان في أمر كبير عليهما تركه، ولكن تركه سهل عليهما لو تركاه، لكنهما تساهلا فيه فصار كبيراً، وهذا يعني أنه إذا تساهل المرء في الذنب - حتى ولو كان من الصغائر - صار عظيماً.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ» يدل على أن النسيمة كبيرة من كبائر الذنوب، ثم ذكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أحدهما يمشي بالنسيمة، وهذا محل الشاهد من الحديث، فدل على أن المشي بالنسيمة من أسباب عذاب القبر.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ»، وهذا - أيضاً - من أسباب العذاب في القبر، فالبول نجس، فعلى المسلم الاستئزاه من القذارات، ثم يجب التجنب لكل النجاسات؛ لأن المتنجس لا تقبل له عبادة حتى يغسل النجاسة، ولهذا يجب العناية بتطهير الثياب والتنزه من البول، إما بالاستجمار، وإما بالاستنجاء.

ومعنى: «لَا يَسْتَبْرِئُ»، أي: لا يقطع أثر البول، أو لا يتحرز من البول، فالواجب على المسلم أن يتنبه لهذا عندما يريد التبول. وفي هذا الحديث بيان خطر النسيمة، وأنها من أسباب عذاب القبر.



وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «أَلَا هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ مَا أَلْعَضُّهُ؟
هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»^(١).

الشَّجَرُ

وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه تحريم النميمة -أيضا-؛ حيث قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ»، أي: أخبركم.

وهذا تعليم بطريق السؤال، وهو أبلغ مما لو ألقى عليهم العلم ابتداءً،
فقوله -مثلاً-: «أَلَا هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ مَا أَلْعَضُّهُ»، أي: ألا أخبركم، والعَضُّ: هو
السحر، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]؛ أي: قالوا:
إنه سحر.

ومعنى: «أَلَا هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ مَا أَلْعَضُّهُ؟»، أي: ما هو السحر الذي يفرق بين
الناس، ويبغض بعضهم إلى بعض؟ «هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ».

وقوله: «الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»، أي: أصحاب القول الذين يأتون طائفة
بكلام، ويأتون طائفة أخرى بكلام آخر للإفساد بينهم.



بَابُ مَا جَاءَ فِي الْبَهْتَانِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

الشَّجَرُ

البهتان: هو الكذب، والكذب من كبائر الذنوب، وهذا يدل على أنه لا يجوز، ولا يحل إيصال الأذى إلى المسلم بوجه من الوجوه من قول أو فعل بغير حق، ويدخل في هذا البهتان وهو أن ترمي الشخص بما ليس فيه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

ومعنى ﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ أي: ينتقصونه، وينسبون إليه شيئاً لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلُبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»^(١).

فالله جَلَّ وَعَلَا يتأذى بما ينسب إليه مما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنه لا يتضرر؛ لأن الله لا يضره شيء، إلا أنه يتأذى؛ بدليل هذا الحديث والآية، فلم يقل: يضرهم الله، بل قال: ﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

وبعضهم حل معنى قوله: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ» أي: يعاملني معاملة توجب الأذى في حقي.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويؤذون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: يتنقصونه، أو يسبون أصحابه وأقاربه، فهم يؤذون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنواع من الأذى، كأن ينسبوا إليه شيئاً لم يقله؛ مثل: الأحاديث الضعيفة التي دسها الوضاعون الذين يضعون الأحاديث على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكالذين يتهمون عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في عرضها، وكالذين يسبون الصحابة -رضوان الله عليهم-، فإن هؤلاء يؤذون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجزاؤهم لعنة الله؛ أي: الطرد من رحمته^(١)، كما أنه -سُبْحَانَهُ- أعد لهم عذاباً مهيناً في جهنم يوم القيامة خالدين مخلدين مهانين -والعياذ بالله-.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ينسبون إليهم شيئاً لم يقع منهم ولم يكتسبوه، فهذا هو البهتان، وأما إذا كان ما قيل فيهم قد وقع منهم، فهذه هي الغيبة؛ كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَغَيِّرُ مَا اكْتَسَبُوا﴾ مثل: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(٢)، فوصف هذا الفعل بأنه بهتان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَنَا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، أي: كذباً قبيحاً، ﴿وَأِنَّمَا مُبِينًا﴾، أي: بيناً واضحاً يتأثمون به، فلا يضررون الشخص الذي بهتوه، وإنما يضررون أنفسهم، فيعود الضرر عليهم.



(١) سبق تعريف اللعن (ص ١٠٦).

(٢) سيأتي تخريجه (ص ٤٣٥).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَذْعَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

الشَّيْخُ

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بيان عقوبة من قال في مؤمن ما ليس فيه من الصفات الذميمة يتنقصه بذلك ويكذب عليه، فكان عقابه بأن يسكنه الله رذعة الخبال، ورذعة الخبال: منزلة قبيحة في النار - والعياذ بالله -، وكل النار قبيحة، ولكن هذه المنزلة فيها زيادة عذاب، وجاء في معنى رذعة الخبال في حديث آخر أنها: «عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ»^(٢) - والعياذ بالله -، فيشرب منها؛

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٩٧) عَنْ يَحْيَى بْنِ رَاشِدٍ، قَالَ: جَلَسْنَا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ فَخَرَجَ إِلَيْنَا فَجَلَسَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ حَالَثَ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدِّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ، وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْهُ، وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَذْعَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ».

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٠ / ٩) عَنْ أَيُّوبَ بْنِ سَلْمَانَ، رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ صَنْعَاءَ قَالَ: «كُنَّا بِمَكَّةَ فَجَلَسْنَا إِلَى عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ، إِلَى جَنْبِ جِدَارِ الْمَسْجِدِ، فَلَمْ نَسْأَلْهُ وَلَمْ يُحَدِّثْنَا قَالَ: ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَى ابْنِ عُمَرَ، مِثْلَ مَجْلِسِكُمْ هَذَا فَلَمْ نَسْأَلْهُ، وَلَمْ يُحَدِّثْنَا. قَالَ: فَقَالَ: مَا لَكُمْ لَا تَتَكَلَّمُونَ وَلَا تَذْكُرُونَ اللَّهَ قُولُوا: اللَّهُ أَكْبَرُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، بِوَاحِدَةٍ عَشْرًا، وَبِعَشْرٍ مِائَةً، مَنْ زَادَ زَادَهُ اللَّهُ، وَمَنْ سَكَتَ غَفَرَ لَهُ، أَلَا أَخْبَرْتُكُمْ بِخَمْسٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: مَنْ حَالَثَ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدِّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَهُوَ مُضَادٌّ لِلَّهِ فِي أَمْرِهِ، وَمَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِغَيْرِ حَقٍّ فَهُوَ مُسْتَظِلٌّ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَبْرُكَ، وَمَنْ قَفَا مُؤْمِنًا أَوْ مُؤْمِنَةً حَبَسَهُ اللَّهُ فِي رَذْعَةِ الْخَبَالِ عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ، وَمَنْ مَاتَ =

إِهَانَةٌ لَهُ بِسُوءِ صَنِيعِهِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى عَظَمِ حَرَمَةِ الْمُؤْمَنِ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَنْتَهَكَ، وَأَنْ مِنْ انْتِهَاكِ حَرَمَةَ الْمُؤْمَنِ، فَقَدْ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَلِهَذَا يَجِبُ احْتِرَامُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَقْدِيرُهُمْ، وَعَدَمُ تَحْقِيرِهِمْ وَالْإِقْلَالُ مِنْ شَأْنِهِمْ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ كَرِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَدْ أَعَزَّهُ اللَّهُ وَكَرَّمَهُ بِالْإِيمَانِ، فَالْمُؤْمِنُونَ هُمْ الْأَعْلَوْنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالَّذِينَ يَنْتَقِصُونَهُمْ وَيَحْتَقِرُونَهُمْ وَيَقْلِلُونَ مِنْ شَأْنِهِمْ دَاخِلُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ أَحْصَيْنَا بُهْتَانَكُمْ وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، فَضْلًا عَمَّا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَهِينُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْ يَسْكُنَهُمْ رَدْغَةُ الْخُبَالِ، حَتَّى يُخْرِجَ الْقَائِلُ مِمَّا قَالَ فِي أَخِيهِ، وَذَلِكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ هَذِهِ الْكَبِيرَةِ، وَيَتَحَلَّلُ مِنَ الْمَقُولِ فِيهِ.



=وَعَلَيْهِ دَيْنٌ أُخِذَ لِصَاحِبِهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، لَا دِينَارَ ثَمٍّ وَلَا دِرْهَمَ، وَرَكْعَتَا الْفَجْرِ حَافِظُوا عَلَيْهِمَا فَإِنَّهُمَا مِنَ الْفَضَائِلِ».

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «اتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(١).

الشَّيْخُ

وأما حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو ثاني حديثي الباب، وفيه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟»، فهو تفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد فسر الغيبة في حديث أبي هريرة وبينها، وهذا من تفسير السنة النبوية للقرآن، ولكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يلق عليهم التفسير ابتداء لأهميته، بل سألهم عن معنى الغيبة من أجل التنبيه، وهذا فيه التعليم بطريقة السؤال والجواب في الأمور المهمة.

قوله: «قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» فيه: أن المسلم إذا سئل عن شيء وهو لا يدري بأنه لا يتخرص، بل يحيل السائل إلى من يعلم الجواب، ويقول: الله أعلم.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، فلا تذكر عيوب أخيك؛ لأنه يكره ذلك، كما أنه لو ذكر هو عيوبك لكرهت أنت ذلك، فكيف ترضى

لأخيك ما لا ترضاه لنفسك؟ وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١)، فعرض أخيك مثل عرضك، فكما لا ترضى أنت أن يمس عرضك بالغيبة، فلا ترض أن يمس عرض أخيك بالغيبة، أما أن تذكره بما يحب، كأن تشني عليه، وتمدحه في غيبته، فهذا شيء طيب، وهو لا يكرهه، وهذا فيه رفع من شأنه؛ لأنك أنت لا تكره أن يشني عليك أحد ويمدحك في غيبتك، فعليك أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ»؛ لأن المؤمن أخو المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فكيف تغتاب أخاك المؤمن؟

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِمَا يَكْرَهُ»، أما إذا ذكرته بما يحب، فهذا من الإحسان إليه، ثم إنهم سألوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف يكون هذا غيبة؟ أي: والكلام الذي قلته موجود فيه، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَابْتَهُ»؛ لأنه يكره هذا الكلام، ولو كان معناه موجوداً فيه، فالمسلم يستر أخاه المسلم، ويدافع عن عرض أخيه في حال غيبته، وفي الحديث: «مَنْ رَدَّ عَنْ عَرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، فالمطلوب من المسلم أن يدافع عن عرض أخيه، لا أن يقع فيه.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»، هذا أشد الكذب - والعياذ بالله -.

(١) سبق تخريجه (ص ٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٣١)، وأحمد (٥٢٨/٤٥) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَا فَاَلْمَغْتَابُ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَغْتَابًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَذَابًا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ ذِكْرُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا يَكْرَهُونَ فِي غَيْبَتِهِمْ فِي الْمَجَالِسِ، وَإِنْ كَانَ هَذَا أَصْبَحَ فَاكْهَةً كَثِيرًا مِنَ الْمَجَالِسِ الَّتِي يَغْتَابُ الْمُجْتَمِعُونَ فِيهَا إِخْوَانَهُمْ وَوَلَاةَ الْأُمُورِ وَالْعُلَمَاءِ وَلَا يُوقِرُونَ أَحَدًا، فَلَا تَعْمُرُ مَجَالِسُهُمْ وَلَا يَأْنِسُونَ إِلَّا بِالْغَيْبَةِ وَالتَّفَكُّهِ بِأَعْرَاضِ النَّاسِ.

فَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ وَيَتَعَدَّ عَنْهَا؛ لَمَّا وَرَدَ فِيهَا مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي اللَّعْنِ

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاحًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعَنَ، فَإِنْ كَانَ لَدَيْكَ أَهْلًا وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ^(١).
وَلَهُ شَاهِدٌ عِنْدَ أَحْمَدَ بِسَنَدٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).
وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَوَاهُ ثِقَاتٌ، لَكِنْ أُعْلِلَ بِالْإِزْسَالِ^(٣).

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٠/٦) عَنْ الْعِزَّارِ بْنِ جَزُولٍ الْحَضْرَمِيِّ، عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ يُكْنَى أَبَا عُمَيْرٍ، «أَنَّهُ كَانَ صَدِيقًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ زَارَهُ فِي أَهْلِهِ، فَلَمْ يَجِدْهُ قَالَ: فَاسْتَأْذَنَ عَلَى أَهْلِهِ، وَسَلَّمْ، فَاسْتَسْقَى، قَالَ: فَبَعَثَتِ الْجَارِيَةُ نَحْبَهُ بِشَرَابٍ مِنَ الْخَيْرَانِ، فَأَبْطَأَتْ، فَلَعَنَتْهَا، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ، فَجَاءَ أَبُو عُمَيْرٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، لَيْسَ مِثْلُكَ يُغَارُ عَلَيْهِ، هَلَّا سَلَّمْتَ عَلَى أَهْلِ أَخِيكَ، وَجَلَسْتَ وَأَصَبْتَ مِنَ الشَّرَابِ؟ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، فَأَرْسَلْتُ الْخَادِمَ، فَأَبْطَأَتْ، إِمَّا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ، وَإِمَّا رَغِبُوا فِيهَا عِنْدَهُمْ، فَأَبْطَأَتْ الْخَادِمُ، فَلَعَنَتْهَا، وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّعْنَةَ إِذَا وُجِّهَتْ إِلَى مَنْ وَجِّهَتْ إِلَيْهِ، فَإِنْ أَصَابَتْ عَلَيْهِ سَبِيلًا، أَوْ وَجَدَتْ فِيهِ مَسْلَكًا، وَإِلَّا قَالَتْ: يَا رَبِّ، وَجِّهْتُ إِلَى فُلَانٍ، فَلَمْ أَجِدْ عَلَيْهِ سَبِيلًا، وَلَمْ أَجِدْ فِيهِ مَسْلَكًا، فَيُقَالُ لَهَا: ازْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ»، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ الْخَادِمُ مَعْدُورَةً، فَتَرْجِعَ اللَّعْنَةُ، فَأَكُونَ سَبِيهَا».

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذي (١٩٧٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «أَنَّ رَجُلًا لَعَنَ الرِّيحَ - وَقَالَ مُسْلِمٌ: إِنَّ رَجُلًا نَارَعَتْهُ الرِّيحُ رِدَاءَهُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَعَنَهَا -، =

الشَّجُّ

اللعن: هو الدعاء بالطرد من رحمة الله تعالى^(١)، واللعن كبيرة من كبائر الذنوب، فعلى المسلم أن ينزه لسانه عنه، فقد جاء في الحديث: «لَيْسَ الْمُسْلِمُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ»^(٢).

فالأصل في المسلم أنه يترفع عن هذه الأخلاقيات الذميمة، فإذا حدث بينه وبين أحد سوء تفاهم، فلا يجوز له أن يلعنه، أي: أن يدعو عليه بالطرد من رحمة الله تعالى، فكيف تطلب من الله أن يطرد أخاك من رحمته؟

وسأتي بيان ما يترتب ما إذا تلفظ الإنسان باللعن في حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْآتِي أَنَّهُ لَا يَذْهَبُ هَدْرًا.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا»، أي شيء -ليس الأدمي فقط-، كأن يعلن الدابة، أو البقعة، أو الساعة، أو اليوم، وغير ذلك. فالأصل في المسلم أن يمسك لسانه عن هذه الكلمة القبيحة؛ لأن هذه الكلمة القبيحة إذا ما صدرت من لسان الإنسان، فإنها لا تذهب هدرًا، بل تصعد إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وهذه كلمة خبيثة،

= فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلْعَنُهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، وَإِنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ».

(١) سبق تعريف اللعن (ص ١٠٦).

(٢) سبق تحريمه (ص ١٧٨).

فلا تصعد إلى السماء، ولأن فيها ظلمًا لمن صدرت في حقه، ثم تهبط إلى الأرض، فتُغلق أبواب الأرض دونها، فلا تقبلها الأرض ولا تقبلها السماء، ثم تذهب يمينًا وشمالًا بين السماء والأرض، فإن كان الذي صدرت في حقه يستحقها وإلا رجعت إلى من قالها، فيكون هو الملعون -والعياذ بالله-، فكأنه حين لعن أخاه لعن نفسه، فكيف يلعن الإنسان نفسه بهذه الكيفية؟

فعلى الإنسان ألا يعود لسانه على اللعن، بل ينزه لسانه عن ذلك، حتى لو كان الذي لعنه يستحق ذلك، فلا ينبغي له أن يلعن.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ أن هذا الحديث له شاهد يعضده ويقويه عند أحمد وأبي داود وغيرهما، وهذا يدل على سعة اطلاعه ومعرفته بالأدلة التي يسوقها في أبواب هذا الكتاب.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي بَرزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: أَنَّ امْرَأَةً لَعَنَتْ نَاقَةً لَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةً عَلَيْهَا لَعْنَةٌ»^(١).
وَلَهُ عَنْ عِمْرَانَ نَحْوُهُ^(٢).

الشَّيْخُ

حديث أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم أن امرأة كانت تسير مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض الأسفار، فلعنت ناقةها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةً عَلَيْهَا لَعْنَةٌ»، وورد عنده من طريق أخرى من حديث عمران ابن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ».

وفي رواية أخرى عند أحمد قال عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَكَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ»^(٣).

وهذا يدل على أنه لا يجوز لعن البهائم، فكيف بلعن المسلم؟

(١) أخرجه مسلم (٨٢) (٢٥٩٦) عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ الْقَوْمِ إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَضَاقَى بِهِمُ الْجَبَلُ، فَقَالَتْ: حُلْ، اللَّهُمَّ ائْتِنَا، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةً عَلَيْهَا لَعْنَةٌ».

(٢) أخرجه مسلم (٨٠) (٢٥٩٥) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجَرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ»، قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ».

(٣) أخرجه أحمد (٩١/٣٣)، ومسلم (٨٠) (٢٥٩٥).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي إِفْشَاءِ السَّرِّ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا» (١).
وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ رَوَاهُ مُسْلِمٌ» (٢).

الشَّيْخُ

السِّر: هو الأمر الذي لا يجب الإنسان أن يطلع أحد عليه، وهو أمانة عند من أفضى إليه به، فإذا أسر إليك أخوك سرًا وأبداه لك، فالواجب عليك أن تحفظه، فلا تخبر به أحدًا، فإن أفشيتَه فقد ارتكبت كبيرة، وخنت الأمانة.

ومن الأسرار التي يجب حفظها وعدم إفشائها: ما يكون بين الزوجين كما جاء في حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإذا خلا أحدهما بالآخر، فإنه يكون بينهما من الأسرار والحديث والأعمال ما لا يجوز لأحدهما أن يتحدث به؛ لأن في إفشائه حرجًا لكلا الزوجين وخدشًا للحياء، فمن فعل ذلك كان من شرار الناس، سواء في ذلك الزوج أو الزوجة.

فدل ذلك على أن إفشاء السر من الكبائر، ولذلك ذكره الشيخ في كتاب الكبائر.

(١) أخرجه مسلم (١٢٣) (١٤٣٧).

(٢) أخرجهما مسلم (١٢٤) (١٤٣٧).

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ ثُمَّ انْتَفَتَ، فَهِيَ أَمَانَةٌ». حَسَنُهُ التِّرْمِذِيُّ (١).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ»، وَذَكَرُ الرَّجُلِ هُنَا عَلَى الْغَالِبِ، لَا عَلَى التَّخْصِيسِ.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ انْتَفَتَ» يَمِينًا وَشِمَالًا عَلَى قَصْدٍ أَلَا يَطْلُعُ عَلَى حَدِيثِهِ غَيْرَ الَّذِي حَدَّثَهُ بِهِ، وَهَذَا دَالٌّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَرِيدُ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ أَفْضَى إِلَيْهِ بِهِ أَنْ يَحْفَظَهُ؛ لِأَنَّ التَّفَاتَهُ تَحْفَظُ مِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُ اتَّيَمَنَهُ عَلَيْهِ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْشِيَهُ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْخِيَانَةُ لِلْأَمَانَةِ.



وَلَا تَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ سَمِعَ مِنْ رَجُلٍ حَدِيثًا لَا يَشْتَهِي أَنْ يُذَكَّرَ عَنْهُ، فَهُوَ أَمَانَةٌ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْتِمَهُ»^(١).

الشَّيْخُ

حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمِعَ مِنْ رَجُلٍ حَدِيثًا لَا يَشْتَهِي أَنْ يُذَكَّرَ عَنْهُ، فَهُوَ أَمَانَةٌ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْتِمَهُ»، أي: وإن لم يطلب منه كتمانها.

فإذا أفضى إليك أحد بأمر من الأمور السرية دون أن يظهره لغيرك كانت هذه أمانة عندك، وعليك أن تحفظها فلا تفش سره، ولو لم يقل: اكنمه، فلا ينبغي أن يتساهل في هذا الأمر؛ لأنه من باب حفظ الأمانات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، هذا جاء في سياق ذكر صفات المؤمنين، فحفظ الأمانات من الصفات الكريمة التي ينبغي أن يتخلق بها المؤمن، والأمانات ليست قاصرة على الأموال التي تودع عند الشخص كما يفهم ذلك بعض الناس من أنها الوديعة التي تودع عند شخص، بل هذا نوع منها وإلا فهي كثيرة.

منها: ما بينك وبين الله من عبادته وأداء فرائضه، واجتناب محارمه. وكذلك من الأمانات: ما يكون بين الناس من الأسرار التي لا يحبون أن تنتشر، وإنما يحدثون بها بعض الناس الذين يثقون بهم، فإذا وثق بك

(١) أخرجه أحمد (٥٠٢/٤٥).

أخوك، وأفشى إليك سرًّا من أسرارهِ، فإن عليك ألا تنشره بين الناس؛ لأن هذا من خيانة الأمانة.

ومن الأمانات -أيضًا-: أنه إذا ولَّك ولي الأمر عملًا ما من الأعمال الوظيفية، فعليك أن تقوم بعملك على الوجه المطلوب، ولا تبخس منه شيئًا؛ لأنه أمانة كذلك.



بَابُ مَا جَاءَ فِي لَعْنِ الْمُسْلِمِ

عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»
أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

تقدم أن اللعن مطلقاً كبيرة من كبائر الذنوب، سواء لعن الإنسان أو الحيوان أو أي شيء آخر، ولكن لعن المسلم خاصة من أشد الكبائر، فالمسلم له حرمة وحق وكرامة عند الله جَلَّ وَعَلَا، فلا يجوز أن تدعو عليه باللعن، وقد علمت معناه، فأنت لا ترضى أن يلعنك أحد، فكيف تلعن أخاك المسلم؟

وفي حديث ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»، أي: إذا قلت لأخيك: لعنك الله، فكأنما قتلته، وقتل المؤمن جريمة عظيمة رتب الله عليها عقوبات شديدة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظُمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فقد اشتملت هذه الآية على أنواع من الوعيد الشديد -والعياذ بالله-.

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٥)، ومسلم (١١٠) عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ شَيْئًا عُدَّ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ».

فلعن المسلم مثل قتله في الإثم، نعم هو لا يوجب القصاص ولا الدية ولا الكفارة، لكنه مثل القتل في الإثم الذي يستحقه عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنك إذا قتلتَه فقد أخرجته من الحياة، وإذا لعنتَه فقد أخرجته من رحمة الله، فهذا وجه مشابهة لعن المؤمن بقتله، كل منهما إخراج، إما من الحياة إلى الموت، وإما إخراج له من الرحمة إلى العذاب.

فالواجب على المسلم أن ينزه لسانه عن اللعن؛ لأنه كبيرة من كبائر الإثم، واللعن وإن كان منهيًا عنه مطلقًا، إلا أنه في حق المؤمن أعظم حرمة؛ لكرامة المؤمن على الله.



وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُمْ ضَرَبُوا رَجُلًا قَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْرَاكَ اللَّهُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا هَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ»^(١).

الشَّجَرُ

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري، وفيه: «أَنَّهُمْ ضَرَبُوا رَجُلًا قَدْ شَرِبَ الْخَمْرَ»، فالمسلم ليس معصوماً فقد يقع في الذنوب، وتغلبه نفسه الأمانة بالسوء والشيطان، فقد يقع منه فعل بعض المحرمات وبعض الكبائر كشرب الخمر، وهذا لا يخرج من الإسلام أو الإيمان - كما تقول الخوارج -، بل هو مؤمن ناقص الإيمان، ويقام عليه الحد تعزيراً له عن هذه الجريمة، وزجراً له ولغيره من الوقوع فيها؛ لأن شرب المسكر جناية على العقل، وقد جاء الإسلام بحماية الضرورات الخمس، التي منها حفظ العقل، فإذا شرب ما يفسد عقله فإنه يجلد؛ حماية لعقله الذي كرمه الله به، وميزه به عن غيره من المخلوقات، والذي هو مناط التكليف والأوامر والنواهي، فإذا جنى عليه بشرب الخمر فإنه يقام عليه الحد؛ كما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلد الشارب نحواً من أربعين، ولما كانت خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثر شرب الخمر؛ لأنه في عهده اتسعت رقعة الخلافة، وكثر الذين دخلوا في الدين، وصار يحدث منهم ما يحدث، وكثرت الرعية، وكان منهم من لا يكون منضبط الإيمان لحداثة قربه وعهده بالإسلام، ولما كثر شرب الخمر في عهده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استشار

(١) أخرجه البخاري (٦٧٧٧).

الصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في أن الأربعين جلدة لا تردع شارب الخمر، فأشاروا عليه أن يرفع حد الجلد إلى ثمانين جلدة^(١)؛ قياساً على حد القاذف الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَةٍ فَلَجِدُوهُنَّ مَتْنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، قالوا: إذا سكر هذى، وإذا هذى، افترى، يعني: قذف بالزنا أو بالواط، فلا يملك لسانه، ومن هذا الوجه قاسوه على القذف، وأوجبوا فيه الحد ثمانين جلدة، وهذا من سنة الخلفاء الراشدين، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»^(٢)، فالشاهد من الحديث الذي ساقه المصنف أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلده، فدل هذا على أن شارب الخمر يجلد، وأن هذا حد من حدود الله، ولما جلدوا هذا الرجل وانتهوا وذهب الرجل، قال أحد الحاضرين: «أَخْزَاكَ اللَّهُ»، وفي رواية: «اللَّهُمَّ الْعَنهُ»^(٣)، فقال لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا هَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ»؛ لأنه قد يؤثر عليه، فيقع في شرب الخمر مرة ثانية، فيكون دعاؤكم عليه إعانة للشيطان عليه في ارتكاب المعصية، وهي شرب الخمر.

(١) أخرجه مسلم (١٧٠٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص ٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨٠)، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأَتَى بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فُجِلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

فدل هذا على أن الإنسان إذا أقيم عليه الحد، فإنه يجب ألا يتكلم فيه من قبل الآخرين ولا يذم، يكفي أنه أقيم عليه الحد، فلا يزداد على الحد بالتوبيخ أو بالذم؛ لأنه مؤمن والمؤمن له حرمة، هذه ناحية.

والناحية الأخرى: أن هذا قد يعين عليه الشيطان، فيكابر ويشرب الخمر، ومعلوم أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح، وهذا فيه درء مفسدة في ألا يغريه الشيطان، فيجعله يغضب ويحقد على من سبوه، فيقع في الجريمة ثانية؛ مناهضة لهم، فقد يحمله الدعاء عليه على التماذي أو يقنطه من قبول التوبة، فكأنهم قد أعانوا على حصول مقصود الشيطان، ولهذا نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن لعن المسلم.

فدل على أن المسلم لا يُسب، حتى ولو كان فاعلاً لكبيرة من كبائر الذنوب، ولكن يستر عليه، ويحترم ولا يوبخ ولا يتكلم في عرضه، بل يندب الدعاء له بالتوبة والمغفرة.



بَابُ: ذِكْرُ تَأْكِيدِهِ فِي الْأَمْوَاتِ

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: ذِكْرُ تَأْكِيدِهِ فِي الْأَمْوَاتِ)، أي: تحريم اللعن في الأموات؛ لأن سب الأموات يجري مجرى الغيبة، فإن الواجب احترام الأموات وعدم الوقع في أعراضهم، فكما أنه لا يجوز الوقوع في أعراض الأحياء، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، فالوقوع في أعراض الأموات أشد، فلا يجوز ذكر مساوئهم وغيبتهم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ»، أي: بأي نوع من السب والتنقص، حتى وإن كانوا عصاة؛ لأنهم مسلمون، وحرمة المسلم ميتاً كحرمة حيّاً، ولأنه كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»، أي: وصلوا إلى ما عملوا من خير أو شر، فلا تلاحقهم أنت بعد موتهم، ولكن كل أمورهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولأن في سب الأموات إهانة للأحياء؛ كما في الحديث: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَتُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ»^(٢)، فهذا الميت قد يكون له أقارب وأولاد، فإذا سُبَّ تأذى بذلك أقاربه، فالحاصل أن سب الأموات محظور من كل الوجوه، فلا يجوز سبهم ولا تنقصهم، وإنما يُنْدَبُ الترحم على أموات المسلمين والدعاء لهم، فإن رحمة الله واسعة.

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٢)، وأحمد (١٥٠ / ٣٠) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَابُ ذِكْرِ قَوْلِ: «يَا عَدُوَّ اللَّهِ»، أَوْ «يَا فَاسِقٌ»، أَوْ «يَا كَافِرٌ»، وَنَحْوِهِ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا يَزِمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالنُّسُوقِ، وَلَا يَزِمِيهِ بِالْكَفْرِ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَهُ كَذَلِكَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

الشَّيْخُ

من الألفاظ القبيحة التي لا تقال في حق المسلم: يا عدو الله، أو يا فاسق، ونحو هذه الألفاظ، وليس هذا خاصًا باللفظ المذكور، إنما يدخل في ذلك أية كلمة فيها ذم وتنقص، أو رمي بالكفر أو الفسق، أو بعداوة الله، فإن هذا منهي عنه.

وهذا القول من كبائر الذنوب، فالذي ينال من أخيه وينعته، فيقول: يا عدو الله، يا فاسق، يا كافر، ونحو ذلك من الألفاظ التي يتفوه بها بعض الناس عند النزاع والخصومات، فإنه يكون قد وقع في كبيرة من كبائر الإثم. وفي حديث أبي ذر إخبار من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «لَا يَزِمِي»، أي: لا يقذف أحدًا أحدًا بالكفر أو بالفسوق، والفسوق هو: الخروج عن طاعة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا قال المسلم للمسلم: يا كافر، أو قال: فلان كافر أو فاسق، فحكمه حكم اللعن، فإن لم يكن من قيلت في حقه مستحقًا لها رجعت لصاحبها الذي تفوه بها، فيكون وصف نفسه بهذا الوصف القبيح.

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٥).

وَعَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا بِغَضَبِهِ، وَلَا بِالنَّارِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

الشَّيْخُ

حديث سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ»، أي: لا يلعن بعضكم بعضًا.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا بِغَضَبِهِ، وَلَا بِالنَّارِ»، أي: لا تقولوا: غضب الله عليك، فتدعو عليه بالغضب، وكذلك لا يجوز أن تدعو عليه بالنار، فتقول: أوقعك الله في النار، أو أخزأك الله في النار، أو أدخلك الله النار.

فلا يجوز التلاعن بين المسلمين بهذه الألفاظ أو غيرها؛ لأن الأصل في علاقة المسلم بأخيه المسلم أنها قائمة على الأخوة والمحبة والمودة، وبعض الناس يظن أن الكلام يذهب مع الهواء، فلا يدري أنه يكتب ويسجل، وأنه يحاسب عليه يوم القيامة، فهو لا يحسب لهذه الأشياء حسابًا، إنها يطلق لسانه من غير محاسبة، والله عَزَّجَلَّ قَالَ: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، أي: إن ملكين يسجلان الحسنات والسيئات، فليس من قول إلا ويسجل، فإما أن يكون لك، وإما أن يكون عليك، فاختر لنفسك.



(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٦)، والترمذي (١٩٧٦)، وأحمد (٣٤٤ / ٣٣).

وَلَهُمَا عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالنُّكْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»^(١).

الشَّجَرُ

وفي حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالنُّكْرِ»، أي: قال له: يا كافر، أو يا عدو الله، وهو «وَلَيْسَ كَذَلِكَ»، أي: ليس كافراً، ولا عدوًّا لله، «إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»، أي: رجع عليه كلامه وتحمله وكتب في صحيفته.

وهذا فيه التحذير من هذه الأمور والتراشق بها، وألاً يتشفى إنسان من آخر بهذه الكلمات، فإنها لا تذهب سدى، ولها عواقب وخيمة، فالمسلم يظهر لسانه من الكلام البذيء والجارح الذي يؤذي إخوانه.



(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (١١٢) (٦١).

بَابُ مَا جَاءَ فِي لَعْنِ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «مَنْ أَكْبَرَ الْبُكَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

من أقبح اللعن: لعن الرجل والديه، فقد سبق ذكر النهي عن اللعن والتلاعن بين الناس، فكيف إذا وصل الأمر إلى أن يلعن الرجل والديه -والعياذ بالله- اللذين جاء حقهما بعد حق الله تعالى، فقد قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَصَّ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فجاء الأمر ببرهما بعد مقام العبودية لله، وهذا يدل على عظيم حقهما، ثم قَالَ: ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمُؤْمَرٍ أَوْ لِمَا نَهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: فلا تسمعهما قولًا سيئًا حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، بل قل لهما قولًا طيبًا حسنًا بتأدب وتوقير وتعظيم، ولكن هل يجرؤ أحد على ذلك؟ لكن يتسبب في لعنهما من غيره، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبَيِّنُ هذا بقوله: «يَلْعَنُ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَلْعَنُ أَبَاهُ»^(٢)، فيكون هو المتسبب في لعن والديه، «وَيَلْعَنُ أُمَّهُ، فَيَلْعَنُ أُمَّهُ»، فيرد عليه مثل ما قال.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (١٤٦) (٩٠).

(٢) لفظ أبي داود (٥١٤١).

بَابُ: النَّهْيُ عَنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ

وَلَمَّا قَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ! وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبْدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ» وَغَضِبَ لِذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا^(١).

الشَّيْخُ

في إحدى غزوات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصلت مشادة، شاب من المهاجرين وشاب من الأنصار نادى بسببها كل شاب قبيلته؛ لتناصره على خصمه، فسمع ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستنكره، وغضب من أجلهم؛ لأن المسلمين إخوة من جميع القبائل والأجناس، والاعتزاز بالقبيلة من أمور الجاهلية، وقد نهينا عن التشبه بالجاهليين، وأمرنا بترك أمورها.

وهذا ما يسمى اليوم بالعنصرية والقومية، فلا يجوز إحيائها بعد إذ أماتها الله بأخوة الإسلام والاعتزاز بالإسلام.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٦٢) (٢٥٨٤) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «اقْتَتَلَ غُلَامَانِ غُلَامٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَغُلَامٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَنادى الْمُهَاجِرُ أَوْ الْمُهَاجِرُونَ، يَا لَلْمُهَاجِرِينَ وَنادى الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا دَعَا أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ؟»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا أَنَّ غُلَامَيْنِ اقْتَتَلَا فَكَسَعَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، قَالَ: «فَلَا بَأْسَ وَلَيْضَحُ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ، فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ».

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْنِسٍ أَوْ تَمِيمٍ^(١)



(١) البيت لِنَهَارِ بْنِ تَوْسَعَةَ الْيَشْكُرِيِّ الْمُتَوَفَّى بَعْدَ الثَّمَانِينَ هِجْرِيَّةً. انظر: الشعر والشعراء (٥٢٨/١)، والكامل في اللغة والأدب (١٣٣/٣)، والمختصص (١١١/٤)، والدر الفريد وبيت القصيد (١١٥/٢).

بَابُ: النَّهْيِ عَنِ الشَّفَاعَةِ فِي الْحُدُودِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ الْمَخْزُومِيَّةِ: «اتَّشَفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟»^(١).

وَفِي «المَوْطَأِ» عَنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا بَلَغَتْ الْحُدُودَ السُّلْطَانُ، فَلَعَنَ اللَّهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفَّعَ»^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ»^(٣).

الشَّيْخُ

تجب إقامة الحدود الشرعية إذا ثبتت عند الحاكم بالإقرار أو البينة، ولا يجوز لأحد أن يتدخل لإسقاطها بشفاعه أو بذل مال أو سلطة. ويجب أن تقام على الشريف والضعيف، والغني والفقير، وقد جاء الوعيد الشديد في حق من تدخل لإسقاط حد؛ كما في هذه الأحاديث التي ذكرها الشيخ في هذا الباب، وقد لعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آوى محدثاً^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (٨) (١٦٨٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١٢٢١/٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٩٧)، وأحمد (٢٨٣/٩).

(٤) أخرجه مسلم (٤٣) (١٩٧٨) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَزْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ دَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدَّثًا، =



=وَلَعَنَّ اللَّهَ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ». وَأَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (١٨٧٠)، وَمُسْلِمٌ (٢٠) (١٣٧٠)، وَالْفِطْرُ لِلْبَخَارِيِّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ، وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَائِثٍ إِلَى كَدَّاءٍ، مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَّثًا، أَوْ آوَى مُحَدِّثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ، وَقَالَ: ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ، وَلَا عَدْلٌ، وَمَنْ تَوَلَّى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ، وَلَا عَدْلٌ»، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «عَدْلٌ: فِدَاءٌ».

بَابُ مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ فِي الْبَاطِلِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ الآية [المائدة: ٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

الشَّجَرُ

الناس تحدث بينهم خصومات ومنازعات، وهذا من طبيعة البشر، ولذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتاب؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال -سُبْحَانَهُ-: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وَقَالَ: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ولما توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان العلماء هم الذين يقومون بالحكم بين الناس؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء، يحكمون بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ لأن الله قال: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، والرد إلى الله تعالى هو الرد إلى كتابه الكريم، والرد إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته هو الرد إلى السنة الشريفة، والذين يأخذون الحكم من الكتاب والسنة هم العلماء الذين

يحكمون بين الناس بموجب ما جاء في الكتاب والسنة، وهذا أمر ضروري للبشر، لا سيما للمسلمين.

والخصوم ليسوا على حد سواء، فقد يكون منهم من هو ألحن بالحجة من الآخر، وعنده بلاغة، والآخر قد يكون دون ذلك، فالحاكم بشر، يقضي على نحو ما يسمع؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْخَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»^(١).

وحكم الحاكم لا يغير الحق؛ لأنه يقضي على نحو ما يسمع، والحق قد يكون على خلاف ما قصي به؛ لأن الحكم إنما هو على الظاهر، أما الباطن فلا يعلمه إلا الله، ولذلك تعاد الخصومات عند الله يوم القيامة، ويتنصف للمظلوم من الظالم، وتؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يقول أحد: ما دام القاضي حكم في القضية، فالحق صار لي، وهو يعلم في قرارة نفسه أن الحق لأخيه.

هذا لا يجوز؛ لأن حكم الحاكم لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا، وإنما يقضي على نحو ما يسمع وبما توفر إليه من البيّنات، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَتْرُكْهَا».

وقد يكون هناك من ينوب على الخصم -كالوكلاء والمحامين-، وهذا موضوع الباب، فمن كان يتوكل عن غيره في خصومة فعليه أن يتقي الله، ولا يزور الحجج، وإنما يدلي بالحق والصدق، سواء كان له أو على موكله؛

لأن بعض المحامين والوكلاء يريدون أن يكسبوا الأجرة، فيزور القضية، ويأتي بشهود زور؛ حتى يكسب القضية، ويحصل على ما يعطى مقابل المحاماة والوكالة، فعليه أن يتقي الله؛ لأنه هو الذي يتحمل الوزر؛ حيث جلب لموكله شيئاً ليس له، وظلم الخصم؛ حيث أخذ منه الحق، وأعطاه غيره، وفي الأثر: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَبْدًا أَذْهَبَ أَخْرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ»^(١)، فهو أخذ الحق من صاحبه، وأعطاه لغير صاحبه بسبب تزويره وخصوماته وبلاغته في الحجة.

فعلى الذين يتولون المحاماة والوكالات وأمر الخصومات أن يتقوا الله عزَّ وجلَّ، وألا يخاصموا إلا بحق، أما أن يتعمدوا التزوير، ويغرروا بالقاضي، ويستخدموا لذلك الأساليب الملتوية، كأن يكون هناك رشوة أو شهادة زور، فهذا في غاية الخطورة.

فالخصومة بالباطل خطرهما عظيم، وشرها كبير، فعليهم أن يتقوا الله تعالى، ويعلموا أنهم مسؤولون أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ﴾، أي: على الخير والإصلاح والصلاح.
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، أي: ولا تعاونوا على الضد والنقيض منها، فالإثم ضد البر، والعدوان هو: الاعتداء على الناس بسلب حقوقهم.

(١) أخرجه الشهاب في مسنده بلفظه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١٧٣/٢)، وأخرجه بنحوه الطيالسي في مسنده (١٥١/٤)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (١١٤/١)، وأبو نعيم في الحلية (٦٥/٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٧/٩).

فالخصومة بالباطل من التعاون على الإثم والعدوان، وهذا محل الشاهد من الآية الكريمة، فالمخاصم بالباطل يكون متعاوناً على الإثم والعدوان، وقد قال الله تعالى في نهاية الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٢]، أي: اتقوا عذاب الله وغضبه إن أنتم خاصمتم بالباطل وظلمتم الناس، فإنكم حينها تستوجبون غضب الله وعقوبته، فعليكم أن تتقوا ذلك الغضب بترك هذا الفعل الخطير، وعليكم بتقوى الله؛ لأنه رقيب على الجميع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: اتقوا عقابه، فإن عذابه ليس سهلاً تحمله، بل هو شديد لا طاقة لكم به.

فهذا فيه تحذير من المعاونة على الخصومة بالباطل، فمن فعل وأعان على ذلك، فقد عرض نفسه لعقاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥])، الشفاعة قسماً:

القسم الأول: شفاعة عند الله تعالى، وهذه له شروطها؛ كما جاءت في الكتاب والسنة.

والثانية: عند المخلوقين.

والشفاعة: هي ما يسميها الناس اليوم (الوساطة)، والوساطة في تحصيل الطلب هي: أن يتقدم شخص بطلب من الوالي أو الحاكم لشيء له فيه مصلحة، وليس فيه ظلم أو عدوان على أحد، لكن قد يكون الحاكم لا يلقي بالآ لهذا الطلب؛ لأن الطالب ليس ذا شأن، أو لا يعرفه الحاكم، فيأتي

بعض الناس، فيشفعون عند الحاكم لهذا الطالب في طلبه، والشفاعة مأخوذة من الشفع، والشفع: ضد الوتر، فصاحب الطلب كان منفردًا في طلبه، ثم جاء هذا بالواسطة، فصار شافعًا له، فتحول بذلك من كونه منفردًا في طلبه، إلى أن أصبح شفعا^(١).

والشفاعة في الخير وفيما ينفع الناس مطلوبة، وفيها أجر عظيم، قال النبي ﷺ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ»^(٢)، فالشافع في الخير مأجور، سواء قبلت شفاعته أم لم تقبل؛ لأن الله سُبحانه وتعالى يقول: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾؛ لأن هذا من التعاون على البر والتقوى، ومن جلب النفع للمسلمين.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: نصيب من أجرها، فالحاكم إذا استجاب وأعطى هذا الطالب ما ينفع ويفيد، صار للحاكم أجر وللشافع أجر، ولهذا قال: ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾؛ أي: يناله نصيب مع الحاكم أو الشخص الذي أجاب الطلب بما ينفع، وهذا ترغيب من الله في الشفاعة في الخير.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً﴾، فهذا في مقابل الشفاعة الحسنة، وهي الشفاعة بالباطل، أو في ظلم وعدوان، أو في أخذ حقوق

(١) انظر: تهذيب اللغة (١/٢٧٧)، والصحاح (٣/١٢٣٨)، ومقاييس اللغة (٣/٢٠١)، ولسان العرب (٨/١٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٤٥) (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري

الناس، هذا شفاعة سيئة، ﴿يَكُنْ لَهُ كَفَلٌ مِّنْهَا﴾، أي: نصيب منها، فيكون على الذي أجاب الشفاعة -وهو الوالي أو من عنده الطلب- إثم يشترك فيه مع الشافع.

وهذا فيه تحذير من الشفاعة بالباطل لأخذ حقوق الناس، كما أن منع إقامة الحدود فيه إعانة للظالم على ظلمه، وهذا من الشفاعة السيئة، وسيأتي ذكر ما فيها من الوعيد.

وهذه الآية قسمت الشفاعة إلى نوعين:

القسم الأول: شفاعة حسنة حث الله عليها ورغب فيها، ورتب عليها الأجر والثواب، ولهذا ينبغي للمسلم أن يسعى فيها ولا يتوانى؛ لأن هذا من باب التعاون على البر والتقوى، وما ينفع المسلم به أخاه المسلم.

والقسم الثاني: شفاعة سيئة، وهي ما يحصل بها ظلم للناس، أو مصادرة لحقوقهم بسبب الشافع، ومناصرة للظالم على المظلوم، فهذه الشفاعة ينال الشافع فيها كفلاً، أي: نصيباً من إثمها وشرها، وهذا محل الشاهد من الآية التي في الباب.



عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّجَلْ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ أَمْرَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، فَلَيْسَ بِالْدِّينَارِ وَلَا بِالْدِّرْهَمِ، وَلَكِنَّهَا الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ، وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رِذْءَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «وَمَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(٢).

الشَّجَرُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّجَلْ»، الحد: هو العقوبة المقدرة التي شرعها الله في معصية؛ لتمنع من الوقوع في مثلها؛ كحد الخمر، والزنا، والقذف، وسائر الحدود التي شرعها الله سُبْحَانَهُ^(٣)، فإذا تقرر الحد على شخص، فلا يجوز لأحد أن يشفع فيه؛ لأنه إذا فعل، فقد عطل حداً من حدود الله، وفي هذا فساد للمجتمع وسعي في شفاعاة سيئة.

وأشد من ذلك أنه «ضَادَّ اللَّهَ أَمْرَهُ»، أي: خالف أمره؛ لأنه -سُبْحَانَهُ- أمر بإقامة الحدود على مستحقيها، وهذا الذي يشفع ويخالف الله في أمره،

(١) أخرجه أحمد (٢٨٣/٩)، وأبو داود (٣٥٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٩٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) انظر: مادة (حدد) في لسان العرب (٣/١٤٠)، ومقاييس اللغة (٣/٢)، ومختار الصحاح (١/٥٣)، والمعجم الوسيط (١/١٦٠). وانظر: المبدع (٧/٣٦٥)، والإنصاف (١٠/١٥٠)، ومنار السبيل (٢/٣٦٠)، والشرح الممتع (١٤/٣١٦).

وينازعه -سُبْحَانَهُ- في هذا الأمر توعده الله بالوعيد الشديد، فإذا تقررت الحدود، وحكم بها القاضي، فلا بد من تنفيذها، ولا يجوز الشفاعة فيها.

فقد سرت امرأة من بني مخزوم على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع يدها، وشق ذلك على أهلها، فذهبوا إلى أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطلبوا منه أن يشفع لهم عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَأَلَّا تَقْطَعَ يَدَهَا، حينها تكلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغضب غضباً شديداً، وقال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟»، إلى أن قَالَ: «وَأَيْنُمُ اللَّهُ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١).

فالشاهد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضب على أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مع أنه يحبه ويجب أباه؛ بسبب أنه شفع في حد من حدود الله، وأنكر عليه ذلك، وأقسم -وهو الصادق المصدوق- أنه لا يجابي أحداً في حدود الله، حتى ابنته فاطمة لو سرت لقطع يدها، ولا يشفع لها كونها ابنة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو القائل في الحديث نفسه: «إِنَّمَا أَهْلُكَ الَّذِينَ قَبْلُكُمْ أَنْتُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ»، وقد كان هذا من فعل الأمم السابقة التي غضب الله عليها، فلا يجوز أن يكون في هذه الأمة، فمن وجب عليه القصاص، وطالب أهل الدم بإقامته، فلا بد من إقامة القصاص عليه إلا إذا أسقط أهل القصاص حقهم، وعفوا عنه، أما إذا طالبوا به، وجاء من يريد أن يمنعهم حقهم، فقد ضاد الله، وكذلك الأمر في سائر

(١) سبق تخريجه (ص ٤٥٨).

الحدود، فإنه لا يجوز الشفاعة فيها، وحقوق الناس كذلك، فلا تجوز الشفاعة فيما يسقط حقاً من حقوقهم، فهذه هي الشفاعة السيئة -والعياذ بالله-.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ»، وهذا محل الشاهد من الحديث: أن من خاصم في باطل، أو أعان على الخصومة في الباطل، فقد أتى إثماً عظيماً، وهذا فيما إن كان يعلم أنه باطل، وأما إن كان مجتهداً، ولا يدري أنه باطل، فهو غير مؤاخذ، لكن إذا علم، فإنه «لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ»، أي: لم يزل الله ساخطاً عليه، وهذا فيه وصف لله بأنه يسخط ويغضب، لكن ليس كسخط المخلوقين، وإنما هو سخط وغضب يليق بجلاله، فهو من صفات الله تعالى.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَتَّى يَنْزِعَ»؛ أي: يترك. وينتهي عن محاصمته، وذلك بأن يتوب منه، ويستحل من المقول فيه.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَذْعَةً الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»، المسلم له حرمة؛ كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(١)، فمن تكلم في عرض أخيه وسبه وشتمه، أو اغتابه أو خونه، أو قَالَ له: يا فاسق، أو يا فاجر، أو يا عدو الله، أو قذفه بفاحشة، فإن الله يحبسه في رذعة الخبال، أي: في النار -والعياذ بالله-.

وقد سبق بيان المراد بردغة الخبال، وفي هذا عقوبة شديدة حتى ينزع عن ذلك، يعني: أن يستسمح من المظلوم الذي تكلم فيه.

ومن ذلك -أيضاً- الوشاية بالمؤمنين عند الحكام وذوي الشأن بغير حق، فهذا مما يستوجب الوعيد الشديد.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ يَظْلِمُ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، هذا محل الشاهد من الحديث، وهذا يشمل الوكيل والمحامي؛ لأن كلا منهما معين على الخصومة بالباطل.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَقَدْ بَاءَ» أي: رجع، أو تبوأ مكاناً من النار -والعياذ بالله-.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ»، الغضب والسخط والأسف بمعنى واحد، فالله يغضب ويسخط، وهذا من صفاته، وغضب الله لا يقوم له شيء.

وفي هذا الوعيد الشديد لمن اتصف بهذه الصفة المذمومة، وفيه كذلك الترغيب لمن وقع في مثل هذه الأمور -كأن يكون صدر منه ظلم أو إساءة أو خصامة بالباطل - لأن يعود إلى الله، ويتوب ولا يعود لمثله.



بَابُ: مَنْ شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ، أَوْ لِيَسْكُتْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّيْخُ

الأصل في المسلم ألا يتكلم إلا بخير، ويدخل في هذا الكلام المباح الذي لا فائدة فيه، فإنه ينبغي عليه أن يمسك عنه مخافة الانجرار إلى حرام أو مكروه، فكيف إذا كان كلامه سيشعل نار الفتنة، ويؤجج العداوة بين إخوانه؟

ولذلك فإنه على المسلم لو حضر حدوث خلاف بين إخوانه، فإما أن يمسك لسانه إلا من كلمة خير يصلح بها، أو موعظة ينصح بها، فإن لم يستطع ذلك، فلا أقل من أن يسكت حتى يسلم هو، ولا يؤجج المشاحنة بين أخويه، فإن استطاع حل المشكلة والإصلاح بينهما فليفعل؛ لأن له بذلك أجراً عظيماً.

وجاء في حديث آخر: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٢)، فإن كان الكلام فيه خير تكلم به، وإن لم يكن فيه خير وكان فيه فتنة، فعليه أن يصمت، ولا يشارك فيما يحدث من خصومات أو مشادات.

(١) أخرجه مسلم (٦٠) (١٤٦٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٢٤).

بَابُ، مَا يُحَذَرُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْفِتَنِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ تَسْتَنْظِفُ الْعَرَبَ قَتْلَاهَا فِي النَّارِ، اللِّسَانُ فِيهَا أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ السَّيْفِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١).

وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ صَمَاءٌ بِكَمَاءٍ عَمِيَاءُ، مَنْ أَشْرَفَ لَهَا اسْتَشْرَفَتْ لَهُ، وَإِشْرَافُ اللِّسَانِ فِيهَا كَوْقُوعِ السَّيْفِ»^(٢).

وَلِابْنِ مَاجَهٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «إِيَّاكُمْ وَالْفِتَنَ، فَإِنَّ اللِّسَانَ فِيهَا مِثْلُ وَقْعِ السَّيْفِ»^(٣).

الشَّيْخُ

الفتن: جمع فتنة، وهي: الابتلاء والامتحان، وهذه الدار دار امتحان وفتن، وهذه حكمة الله جَلَّ وَعَلَا يبتلي عباده؛ ليميز المؤمن الصادق من الكاذب في إيمانه، فيجري هذه الفتن والمحن من أجل أن يتميز أهل الإيمان الصادق من أهل النفاق.

والفتنة أصلها: ما يعرض على النار من الحديد والذهب؛ ليزول ما علق بهما من الأوساخ، أو ما شابهها من الغش، فيعرض على النار من أجل

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٦٥)، والترمذي (٢١٧٨)، وابن ماجه (٣٩٦٧)، وأحمد (٥٦٢/١١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٦٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٩٦٨).

أن يخلص معدنه، ويذهب ما عليه من الدخيل، فما يجري في هذه الدنيا من أمور فيها شر إنما هي امتحانات وابتلاءات من الله؛ ليميز الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه على بعض^(١).

ولولا الفتن ما تميز أهل الإيمان من أهل النفاق، بل صار الناس سواء، فمن حكمة الله أنه يجري هذه الفتن والشدائد؛ ليميز بين الفريقين.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ»، هذا إخبار من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه ستكون فتن، ليس فتنه واحدة، إنما تذهب واحدة، وتأتي أخرى، أي: تتابع.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَسْتَنْظِفُ الْعَرَبَ»، أي: تستوعبهم هلاكاً، والعرب خاصة؛ لأنهم هم الذين حملهم الله هذا الدين وهذه الرسالة، وأنزل القرآن بلغتهم، وبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم، فكان الواجب عليهم أن ينشروا هذا الدين، وأن يدعوا إلى الله تعالى، ويجاهدوا في سبيله، فإذا قعدوا عن ذلك وتقاعدوا سلط الله عليهم الفتن التي تأتي عليهم جميعاً.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَتَلَاهَا فِي النَّارِ»؛ لأن هؤلاء القتلى هم الذين سببوا هذه الفتن وأوقدوها، وشاركوا في إزكائها، فإذا قتلوا استحقوا عذاب جهنم؛ لأن قتلهم كان بسبب إشعالهم الفتن، وأما الذي يتعد عنها وينزه لسانه ويده فإنه يسلم.

(١) قال الأزهرى في تهذيب اللغة (١٤ / ٢١١): (جَمَاعٌ مَعْنَى الْفِتْنَةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْإِبْتِلَاءُ وَالْامْتِحَانُ، وَأَصْلُهَا مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِكَ: فَتَنْتُ الْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ إِذَا أَذْبَتَهُمَا بِالنَّارِ لِيَتَمِيزَ الرَّدِيُّ مِنَ الْجَيِّدِ). وانظر مادة (فتن) في: الصحاح (٦ / ٢١٧٥)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣ / ٤١٠)، ولسان العرب (١٣ / ٣١٧).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللِّسَانُ فِيهَا أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ السَّيْفِ»، يعني: الكلام الذي يتكلم به في هذه الفتنة، سواء كان بلسانه الذي يتكلم به، أو بقلمه الذي يكتب به، أو بما يلقيه عبر وسائل الإعلام، فيتشرب بسرعة، فهذا الذي يفعل ذلك إذا قتل فهو في النار، فلسانه حينها يكون أشد من السيف، ويدخل في ذلك الذين يدعون بألستهم وأقلامهم إلى التعري والسفور والتهتك والتطاول على الأحكام الشرعية، كما هو واقع الآن.

فإذا لم تحفظ هذا اللسان، وتستعمله في سبيل الحق، فإنه سيجني عليك وعلى مجتمعك.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَكُونُ فِتْنَةٌ صَمَاءٌ بِكَمَاءٍ عَمِيَاءُ»، المراد: أنها تعمي بصائر الناس، فلا يرون مخرجاً، فهم يصمون عن استماع الحق، أو المراد: أنها فتنة لا تبصر، ولا تسمع، فهي تفقد الحواس، ولهذا فإن أصحابها لا يسمعون، ولا يتكلمون بخير، ولا ينظرون إلى ما فيه مصلحة الناس، وإنما يصرون على نشر هذه الفتن دون تراجع، أو قبول للنصيحة.

ولو نظرنا إلى واقع الناس اليوم لوجدنا أن هذا الحديث ينطبق عليهم، فأهل الفتن لا يقبلون مناصحة، وإنما هم مندفعون في شرهم، سادرون في غيهم.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَشْرَفَ لَهَا اسْتَشْرَفَتْ لَهُ»، أي: من تطلع عليها جرته لنفسها، فلا يكون الخلاص منها إلا في البعد عنها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِشْرَافُ اللُّسَانِ فِيهَا كَوُقُوعِ السَّيْفِ»، أي: إطالته بالكلام والخوض فيها كوقوع السيف في الحروب، بل هو أشد؛ لأن السيف إذا ضرب قتل أو جرح واحداً، وأما اللسان فيصيب بأذاه خلقاً كثيراً.

ومن هنا فإنه من الواجب على المسلم وقت الفتنة أن يتكلم بالحق، ويبين ذلك الحق، فإن لم يكن عنده مقدرة على الكلام، أو كانت عنده تلك المقدرة لكنه منع من ذلك، فعليه أن يسكت، وإن استطاع تكلم بخير؛ من أجل وأد الفتنة في مهدها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْفِتْنَةَ، فَإِنَّ اللُّسَانَ فِيهَا مِثْلُ وَقْعِ السَّيْفِ» كلمة «إِيَّاكُمْ» فيها تحذير، وقوله: «الْفِتْنَةَ» منصوب على التحذير، والمراد: احذر الفتنة، والمشاركة في إيقادها ونشرها باللسان.



بَابُ: قَوْلُ: هَلَكَ النَّاسُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلُكُهُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّيْخُ

هذا فيه النهي أن يقول المسلم: هلك الناس، وهذا يرجع لأمرين:
الأمر الأول: لأن فيه تزكية للنفس، يعني: هلك الناس إلا القائل،
ويكون ذلك فضل نفسه عليهم ورأى أنه خير منهم.

والأمر الثاني: أن فيه تشاؤماً وتعميماً، أي: إن الناس كلهم في نظره على
شر، على سبيل ازدرائهم واحتقارهم وتقبيح أحوالهم، فلا يجوز تعميم الهلاك
على الناس، فإن الخير موجود، وكيف تحكم على جميع الناس بالهلاك، وأنت
لست مطلعاً على أحوالهم جميعاً؟ وفي هذا القول تقنيط للناس وتشيط للهمم.

فالواجب على المسلم أن يمسك لسانه إلا عن قول الخير، فلا يهلك
الناس جميعاً، ولا يكفر الناس جميعاً؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ
مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ
كَذَلِكَ»^(٢)، فهذا يقتضي ألا يهلك الناس جميعاً، فإذا قلت: «هلك الناس»،

(١) أخرجه مسلم (١٣٩) (٢٦٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٩٢٠) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أخرجاه
من حديث جابر وثوبان والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالفاظ متقاربة.

فكلهم في نظرك ضالون هالكون، وهذا خلاف قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تبرر قولك هذا، وتدعى أنه من باب الغيرة وإنكار المنكر.

وهذه اللفظة ورد في ضبطها روايتان، الأولى: «أَهْلَكُهُمْ» بالضم، أي: هو أشدهم هلاكًا.

وفي رواية: «أَهْلَكَهُمْ» بالفتح، يعني: جعلهم هالكين، لا أنهم هالكون في الحقيقة، فهو بهذا الكلام قد أزال الخير كله من الناس؛ حيث حكم عليهم بأنهم هالكون.



بَابُ: الْفَخْرِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ الآية [الأعراف: ١٢].

وَعَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْفَخْرِ)، الفخر هو التناول على الناس، والإعجاب بالحسب والنسب، والتكبر، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، أي: كثير الفخر.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»^(٢)، فهو حين يقول هذا، فإنما يتحدث عن نعمة أنعم الله بها عليه، لا من باب الفخر، وإنما من باب الإخبار عن الشيء، من باب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ ليشكر هذه النعمة ويثني عليها، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا فَخْرَ»، ومن هذه يفهم أنه ينبغي ألا يفتخر الإنسان بحسبه ونسبه أو أعماله، بل عليه أن يتواضع ويعتبر نفسه مقصرًا في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله تعالى عن إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، أي: من آدم.

أول من افتخر إبليس لما أمر بالسجود كما أخبر الله عن افتخار إبليس بأصله، فقال: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فهذا قياس

(١) أخرجه مسلم (٦٤) (٢٨٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٣) (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

باطل؛ لأن الطين خير من النار؛ لأن الطين ينبت الأشجار والنار، وفيه معادن ومصالح أخرى للناس، وأما النار، فهي تحرق ولا تنتج، فهو قاس قياساً باطلاً، وافتخر بأصله؛ حيث قال: ﴿خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾، وعصى أمر الله تعالى حيث أمره بالسجود، والذي حمله على المعصية هو الفخر؛ حيث قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، أما الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فسجدوا كما أمرهم الله -سُبْحَانَهُ-، ولم يعصوا أمره كما فعل إبليس، ولم يفتخروا بأصلهم وهو أن الله خلقهم من نور.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا»، أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الله أوحى إليه، والوحي: هو الإخبار بخفاء^(١)، ويكون بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو قد يكون بأن يقذف الله في روعه، أو يكون إلهاماً.

فالوحي قسمان:

القسم الأول: وحي إلهام وقذف في الروع.

القسم الثاني: وحي بواسطة الملك، وكلاهما حدث للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَوَاضَعُوا» أمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالتواضع، وهو ضد الاستكبار؛ «حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»، البغي هو: الاعتداء على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فلا يعتدي أحد على أحد في نفسه أو في ماله أو عرضه، وقد يكون الاعتداء والبغي بالكلام السيئ في حق الناس.

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (ص ١٠٤٦)، والقاموس المحيط (٤/ ٣٩١)، ومختار الصحاح (ص ٧١٣).

وَلَهُ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَزْبَعُ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَ الْجَاهِلِيَّةَ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَخْسَابِ، وَالطُّغْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ، وَقَالَ: النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبِ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْيَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدَرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَزْبَعُ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَ الْجَاهِلِيَّةَ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَخْسَابِ...»، الجاهلية: مأخوذة من الجهل، وهو ضد العلم، والجاهلية إذا أطلقت أريد بها ما كان عليه الناس قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢)، فالناس قبل بعثته كانوا في جاهلية؛ لأن آثار الرسل انقطعت ما بين عيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- بما يزيد على أربعمائة سنة، وفي هذه الفترة الزمنية كانت قد انقطعت وانقرضت آثار الرسالة، فكان الناس في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء من جميع النواحي، فلما بعث الله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاءهم بالكتاب والسنة، زالت الجاهلية العامة، وجاءهم العلم -ولله الحمد-، لكن قد يبقى من خصال الجاهلية أشياء في بعض الناس، كما هي هذه الأربعة التي ذكرها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأولها: «الْفَخْرُ بِالْأَخْسَابِ»، ويراد به: الفخر بالمنصب والمنزلة، وقد يدفعه هذا إلى التكبر على الناس وازدراءهم.

(١) أخرجه مسلم (٢٩) (٩٣٤).

(٢) انظر: (ص ٨١).

فإذا أعطاك الله المنزلة، فلتشكر الله وتحمده وتتواضع ولا تفخر بحسبك.

الثاني: «وَالطَّغْنُ فِي الْأَنْسَابِ»، والأنساب: جمع نسب، وهو: الانتساب إلى قبلية معروفة من القبائل العربية، فمن خصال الجاهلية أن يفتخر المرء على الناس بقبيلته وعشيرته، ويرى أن له فضلاً على الناس بذلك، وأن غيره أقل منه؛ لأنه من قبيلة كذا، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالآية بينت أن المقصود من جعل الناس شعوباً وقبائل إنما هو التعارف، وليس الافتخار والترفع على الناس، فالكرامة عند الله بالتقوى، وإن لم يكن للتمييز نسب معروف، والشريف وضع إن لم يكن تقياً، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فيوم القيامة سيقف الناس جميعاً في صعيد واحد الرئيس والمرؤوس، الفقير والضعيف، الحسيب والوضيع، فمن خفت موازينه فلا ينفعه نسبه، ولو كان من قريش أو من بني هاشم، ومن ثقل موازينه فلا يضره دناءة نسبه، فإن تقواه يرفعه الله بها، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(١)، فالأصل واحد؛ لأن الكل من آدم، وآدم خلق من تراب - كما سيأتي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وأما الأنساب فما وضعت إلا للتعارف والتواصل بين الأقارب، فالذي يفخر بنسبه فيه خصلة من خصال الجاهلية.

الثالث: «وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ»، وهو نسبة نزول المطر إلى طلوع النجم الفلاني أو غروبه، وهو من الشرك، ومن أمور الجاهلية، فإن المشركين كانوا ينسبون سقوط الأمطار للنجوم في طلوعها أو سقوطها من المغرب، فعندهم إذا طلع النجم الفلاني نزل المطر، وهذا أمر باطل، فإنزال المطر إنما هو بفضل الله وكرمه، وإنزاله بقدر معلوم، قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٦﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴿فَلَا أَقْسِدُ بَمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَفَسَدٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفِيْهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٩-٨٢]، ومفهوم الآيات: النهي عن قولهم في الأنواء: «مطرنا بنوء كذا، وبنوء كذا»؛ لأن إنزال المطر إنما هو من عند الله.

الرابع: «وَالنِّيَّاحَةُ»، وهي إظهار الجزع والسخط عند موت القريب، وهذا مما لا يجوز، فعلى الذي يفقد عزيزاً أن يصبر ويحتسب ويسترجع؛ حتى ينال الرحمة، ولا بأس بالبكاء، فالنبي صلى الله عليه وسلم بكى عند فراق ابنه (١)، والله

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٦٢) (٢٣١٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سِنْفٍ الْغَنِيِّ، وَكَانَ ظَنَرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذَرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ =

لا يعذب بدمع العين، ولكن يعذب أو يرحم باللسان، فالأصل في المسلم أن يصبر عند المصيبة، ويستعين بالصلاة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فلا يجزع ولا يأتي بالنائحات؛ لأن هذا يعد تسخطاً لقضاء الله وقدره، وهو من أمور الجاهلية، وهو موجود عند بعض المسلمين، ومن كان فيه شيء من هذه الأمور الجاهلية كان عنده نقص في إيمانه.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا»، ثم أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن النائحة التي تنوح على الميت - كما كانت عادة العرب، أنهم يستأجرون النوائح لضرب الحدود وشق الجيوب -، وهذا العمل لا ينفع الميت بل يضره، ولا ينفع الحي، فالمصيبة قد حصلت ولن ترتفع بالنياحة، وإذا لم تتب هذه النائحة التي تعمل كبيرة من كبائر الذنوب، قامت يوم القيامة «وَعَلَيْهَا سِرْيَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ»، وهو النحاس المذاب، و«دِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»، وهو مرض جلدي، فيكون لباسها معذباً لها وجلدها معذباً لها، فهذه هي عقوبتها إذا لم تتب إلى الله، أما إن تابت، فالله يتوب عليها - والله أعلم -.

فدل هذا الحديث على أن هناك خصالاً من خصال الجاهلية تبقى في بعض الناس، ذكرت في الحديث من باب التحذير؛ حتى لا يقع فيها المؤمن.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَذْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ».

والشاهد منه: الطعن في الأنساب، فالمرء الذي تحقر نسبه قد يكون أرفع منك ديناً وتقوى عند الله، فما ضر بلاً وصهيياً وسلمان وخباباً أنهم كانوا موالى، وما نفع أبا جهل وأبا لهب أنهما كانا من قريش، فمع كون أبي لهب من بني هاشم لم ينتفع بنسبه هذا بسبب كفره، فالذي ينفع هو التقوى لا النسب.

فدل الحديث على أن عادات الجاهلية لا تنقطع، فعلى المسلم أن يحذر منها؛ كما دل على أن من كان فيه خصلة من خصال الجاهلية أنه لا يكفر.



وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ: «لَيَنْتَهَيْنَ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِأَبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا، وَإِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعَلِ الَّذِي يُدْهِدُهُ الْخِرَاءُ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبَيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ»^(١). وَعُبَيَّةٌ -بِتَشْدِيدِ الْبَاءِ وَكُسْرِهَا-: الْكِبَرُ وَالْفَخْرُ.

الشَّجَرُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيَنْتَهَيْنَ» -بلام مفتوحة- جواب قسم مقدر، أي: والله ليمتنعن عن الافتخار «أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِأَبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا» على الكفر، وهذا بيان للواقع، «أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعَلِ الَّذِي يُدْهِدُهُ الْخِرَاءُ بِأَنْفِهِ»، والجعلان جمع جعل: وهو دويبة سوداء تلامس الغائط، وهذا يدل على شناعة الافتخار والتكبر على الناس بالحسب والنسب، وكيف يفعل المسلم هذا، وقد مَنَّْ الله عليه بأن أذهب عنه «عُبَيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ»، أي: نخوتها وكبرها؟ «إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ»، فالإنسان إما مؤمن تقي أو فاجر شقي؛ يعني: الناس رجلان: مؤمن تقي، فهو الفاضل وإن كان وضيعاً، وفاجر شقي، فهو الوضيع وإن كان حسيباً، ثم إن الناس كلهم بنو آدم، خلقوا من تراب، فلا ينبغي لمن خلق من تراب التكبر، فإذا كان الأصل واحداً، فالكل متساوون في أصل النسب، فدل هذا على أن المسلم ليس من خلقه التكبر، وإنما هو متواضع.

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٥٥)، وأبو داود (٥١١٦)، وأحمد (٤٥٦/١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَابُ: الطُّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطُّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»^(١).

الشَّجَرُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِثْنَتَانِ»؛ أي: خصلتان من كن فيه وأخذ بهما صارت به خصلة من خصال الكفر، وليس معنى هذا أنه يخرج من الملة، لكن يكون فيه خصلة من خصال الكفر، والكفر على نوعين:
الأكبر: وهو المخرج من الملة.

والأصغر: وهو نقص في الإيمان، ولا يكفر صاحبه، إنما ارتكب كبيرة، فمثلاً «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(٢)، المقصود به: الكفر الأصغر، لكنه كبيرة من أعظم الكبائر.

ثم بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخصلتين: الأولى: «الطُّعْنُ فِي النَّسَبِ»، أي: الوقوع في تنقص الناس بنحو القدح في نسب ثابت، ونحن قد ذكرنا فيما سلف أن العبرة ليست بالأنساب؛ فإن النسب لا يرفع العبد عند الله، وإنما العبرة بالعمل الذي عمله الإنسان، فالذي يطعن في أنساب الناس فيه خصلة من خصال الكفر الأصغر؛ لأن كلمة الكفر إذا جاءت معرفة بالآلف واللام،

(١) أخرجه مسلم (١٢١) (٦٧).

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٧٠).

فإنها تعني الكفر الأكبر؛ كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالتَّكْفُرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»^(١)، أما إذا جاءت بدون الألف واللام -منكرة-، فإنها تعني الكفر الأصغر.

والخصلة الثانية: «النِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»، وقد سبق ذكر أنها إظهار الجزع على الميت بقول أو فعل؛ لأن الواجب الصبر والاحتساب، فالنياحة على الميت تكون بالقول كأن تقول النائحة: واجبله، واسنده، أو تكون بالفعل كشق الجيوب، ولطم الخدود، ودعوى الجاهلية، فالنياحة حرام؛ لأنها تنم عن الاعتراض على الله تعالى، وليس البكاء من النياحة؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يمنع نفسه من البكاء؛ لأن البكاء من الرحمة؛ كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند موت ابنه إبراهيم؛ حيث جعلت عينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تذرفان الدمع، فلما قيل له، قال: «إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(٢)، فالعبرة باللسان وما يصدر عنه من شكاية وتسخط، أو بالفعل عند المصيبة كاللطم وشق الجيب، ولا يؤاخذ العبد بدمع العين.



(١) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٨١).

بَابُ: مَنْ ادَّعَى نَسَبًا لَيْسَ لَهُ

وَلَهُمَا عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ»^(١).

وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَمَنْ رَغَبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ»^(٢).

وَلَهُمَا عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا»^(٣).

الشَّجَرُ

المراد من حديث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من تحول عن نسبه لأبيه، وانتسب إلى غير أبيه عامدًا مختارًا، كما كانوا في الجاهلية لا يستنكرون أن يتبنى الرجل ولد غيره، ويصير الولد ينسب إلى الذي تبناه، حتى نزل قول الله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، وهذا كمثل إنسان معروف نسبه، فيذهب ويدعي نسبًا أرفع من نسبه؛ ليرفع نفسه به، أو من أجل تحصيل مال أو عمل أو وظيفة، كالذي يذهب إلى بلد فيغير نسبه من أجل الحصول على

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢٦)، ومسلم (١١٥) (٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٦٨)، ومسلم (١١٣) (٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (٤٦٧) (١٣٧٠)، واللفظ له.

أمر من أمور الدنيا، فهذا كبيرة من كبائر الذنوب، فلا يجوز للإنسان أن يغير نسبه، وذلك لأن الأنساب يترتب عليها أمور كثيرة، فيجب أن يبقى الكل على نسبه.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ»؛ أي: إن العقوبة تترتب عليه إذا كان يعلم أباه، أما إذا كان لا يعلم أباه، ثم تحرى فهذا لا يأثم، فالذي يعرف نسبه ونسب عائلته ثم يدعي إلى غير أبيه، يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وهو متوعد بالحرمان من الجنة -والعياذ بالله-.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ»؛ أي: لا تتركوا الانتساب إلى آبائكم وتنتسبون إلى غيرهم من أجل أمر من الأمور، فهذا لا يجوز؛ لأن هذا يترتب عليه محاذير وأضرار وخديعة للناس.

ومعنى «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ»، أي: تركه، وأما معنى «رغب فيه» يعني: أنه يحبه ويرضاه، فالمعنى هنا: لا تتركوا الانتساب إلى آبائكم، لتنتسبوا لغيرهم.

ومعنى «فَهُوَ كُفْرٌ»: المقصود الكفر العملي، وليس الكفر المخرج من الملة الاعتقادي، فدل على أن هذا الفعل كبيرة من كبائر الذنوب.

وقوله: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ»، «من ادعى إلى غير أبيه» سبق بيانه، أما من انتمى إلى غير مواليه، فلأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ»^(١)، أي: ميراثه، فالولاء لا يجوز تغييره، فمن أعتق

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦)، ومسلم (١٥٠٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

شخصاً، فلا يجوز له أن يبيع هذا الولاء، أو يهبه لغيره، وإنما يكون لعتقه، فإن ذلك أمر معنوي كالنسب لا يتأتى انتقاله، وقد كانوا في الجاهلية ينقلونه بالبيع.

الولاء على قسمين:

القسم الأول: ولاء الموالاة، ويكون بين القبائل، وهو ليس المقصود منها.

والقسم الثاني: ولاء العتاقة الذي هو سبب من أسباب الإرث، فأسباب الميراث ثلاثة: نكاح وولاء ونسب، فلا يجوز لإنسان إذا أعتق عبداً، وصار له ولاؤه أن يبيع هذا الولاء لغيره، فمن غير نسبه أو غير ولاءه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

فدل هذا على أن هذا كبيرة من كبائر الذنوب، وأن الله «لَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفاً»، يعني: فريضة، «وَلَا عَدَلاً»؛ يعني: النافلة أو الفدية، فالمقصود من هذا الحديث: أن تغيير النسب من كبائر الذنوب.



بَابُ مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ نَسَبِهِ

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ مَرْفُوعًا: «كُفِّرَ مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ نَسَبٍ وَإِنْ دَقَّ، أَوْ ادَّعَى نَسَبًا لَا يُعْرَفُ»^(١).
وَلِلطَّبْرَانِيِّ مَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)^(٢).

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ نَسَبِهِ)، أي: كأن يقول إنسان نسبه معروف: أنا بريء من هذا النسب، فهذا لا يجوز؛ لأن التخلص من النسب يترتب عليه أمور ومفاسد، منها قطيعة الرحم، وسقوط نسبه بين الناس، فلا يجوز التصرف فيه، فإن فعل، كان عليه الوعيد الشديد.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُفِّرَ مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ نَسَبٍ وَإِنْ دَقَّ»، المعنى: أن من تخلى عن نسبه فقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، فإن الكفر هنا معناه الكفر الأصغر، أي: الذي لا يخرج صاحبه من الملة.

(١) أخرجه أحمد (٥٩٢ / ١١)، وابن ماجه (٢٧٤٤) بنحوه، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُفِّرَ تَبَرُّؤُ مَنْ نَسَبٍ وَإِنْ دَقَّ، أَوْ ادَّعَاءٌ إِلَى نَسَبٍ لَا يُعْرَفُ».

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨١٨)، والبزار (١٣٩ / ١)، والدارمي (١٨٩٠ / ٤)، وابن أبي شيبة (٢٨٣ / ٥)، وعبد الرزاق (٥١ / ٩) عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُفِّرَ بِاللَّهِ: ادَّعَاءُ نَسَبٍ لَا يُعْرَفُ، وَكُفْرٌ بِاللَّهِ: تَبَرُّؤُ مَنْ نَسَبٍ وَإِنْ دَقَّ».

فدل الحديث على أنه لا يجوز للمسلم أن يجحد نسبه ويتبرأ منه ويغيره،
 وإلا فقد وقع في الكفر وهو كفر النعمة، حتى وإن كان نسبه ليس مَرْفُوعًا
 عند الناس، وعليه أن يرضى به مهما كان، فإن مكانة الناس عند الله إنما هي
 بالتقوى، فإن كان عبدًا تقيًّا لم يضره نسبه وإن كان وضيعًا، وإن كان فاجرًا
 شقيًّا، فلن ينفعه نسبه وإن كان شريفًا.



وَلَا بِي دَاوُدَ وَابْنِ حَبَّانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَنْ يَدْخُلَهَا اللَّهُ جَنَّتَهُ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ اخْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ، وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»^(١).

الشَّيْخُ

ما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ»، بأن تنسب المرأة لزوجها ولدها من غيره، وهذا الفعل من الكبائر؛ لأنه يترتب عليه مفسد كثيرة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ»، هذه براءة من الله عَزَّجَلَّ من التي تفعل مثل هذا الأمر، والوعيد الآخر أن الله يحرمها من الجنة، وهذا وعيد شديد، فتوعدها بعدم الرحمة والعفو، وهذا وعيد شديد، فلا يجوز للمرأة أن تلصق بالقبيلة من ليس منهم.

وكذلك إذا أنكر الولد والده، أو أنكر الوالد ولده، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ»، أي: يعرف أنه ولده، فإذا ما نفاه وأنكره فهو متوعد يوم القيامة بأن يحتجب الله عنه، فلا ينظر إلى الله يوم القيامة كما ينظر إليه المؤمنون، فيحرم من لذة النظر إلى الله عَزَّجَلَّ، ودل على أن هذا كبيرة من كبائر الذنوب، والأمر الآخر: أن الله يفضحه على رؤوس الخلائق يوم القيامة.

والحاصل: أنه لا يجوز للأباء أن يتبرؤوا من أبنائهم، ولا للأولاد أن يتبرؤوا من آبائهم.

(١) أخرجه أبو داود (٢٢٦٣)، وابن ماجه (٢٧٤٣)، والنسائي (٥٦٤٥)، والحاكم (٢/٢٢٠)، وابن حبان (٤١٨/٩).

بَابُ: مَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَمَنْ إِذَا خَاصَمَ فَجَرَ

فِيهِ حَدِيثُ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١).

الشَّجَرُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ)، كأن يدعي أحد حقوق الآخرين؛ ليأخذها ظلماً، أو يدعي أنه يعمل عملاً صالحاً أو أنه يتصدق، وهو ليس كذلك، وهذا كبيرة من الكبائر كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازِقٍ مِنْ أَلْعَابٍ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وهذه صفة اليهود الذين يحبون أن يحمداً بما لم يفعلوا، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ كَلَابِيسِ ثَوْبِي زُورٍ»^(٢)، فدل هذا على أن الأصل في المسلم أنه لا يدعي ما ليس له، سواء كان ذلك حقاً للناس، أو صفة من الصفات، أو منزلة من المنازل التي لم يبلغها؛ لأن هذا تزوير وكذب وخداع.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمَنْ إِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)، هذه من صفات المنافقين: أنه إذا خاصم كذب، أما المسلم فإنه إذا خاصم صدق، سواء كان له الحق أو عليه،

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (١٠٦) (٥٨) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

(٢) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (١٢٦) (٢١٢٩) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فالمسلم حتى وإن وقع عليه ظلم، فلا يخرج هذا عن تمسكه بأحكام دينه
 فلا يزور، ولا يكذب من أجل أن تخرج القضية لصالحه، أما المنافق فيستخدم
 كل الوسائل حتى غير المشروعة من أجل تحقيق مصالحه، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(١)،
 «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ»^(٢).



(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (١٠٧) (٥٩)، واللفظ له من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 (٢) أخرجه مسلم (١٠٩) (٥٩).

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ قَالَ أَنَا مُؤْمِنٌ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ قَالَ هُوَ فِي الْجَنَّةِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ قَالَ هُوَ عَالِمٌ، فَهُوَ جَاهِلٌ»^(١).

الشَّجَرُ

حديث ابن مسعود وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه: أنه «مَنْ قَالَ أَنَا مُؤْمِنٌ فَهُوَ كَافِرٌ»؛ لأن المسلم لا يزكي نفسه، ف«مَنْ قَالَ أَنَا مُؤْمِنٌ، فَهُوَ كَافِرٌ»؛ يعني: الكفر الأصغر، ومن حكم لنفسه أنه في الجنة فهو في النار؛ لأنه لا يدري ماذا تكون عاقبته، وهو كذلك لا يدري ما عنده من العمل الذي يؤهله لدخول الجنة، وهذه الصفة هي صفة اليهود والنصارى الذين قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى﴾ [البقرة: ١١١]، وَقَالَ: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَتِينَا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، فالذي يدعي أنه سيدخل الجنة فقد شابه اليهود والنصارى، وكذلك لا يجوز للمسلم أن يشهد لغيره أنه في الجنة أو في النار؛ لأنه لا يدري ما عاقبتهم، إلا من شهد له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأننا لا ندري مآلات الأمور التي يؤول لها العباد، وفي الحديث أن رجلاً قَالَ: «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِضُلَّانٍ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأْتِي عَلَيَّ إِلَّا أَخْفِرَ لِضُلَّانٍ؟ فَإِنِّي هَذَا غَضَرْتُ لِضُلَّانٍ، وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ»^(٢)، وقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]،

(١) أخرجه الحارث في مسنده (١/١٦٢)، والطبراني في الصغير (١/١٢٠)، وفي الأوسط (٧/٥٩)، والخلال في السنة (٤/١٠٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٣٢).

فالواجب على المسلم أن يتأدب مع الله عَزَّجَلَّ ومع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعرف قدر نفسه ولا يزكيها، فلا يجوز له أن يدعي ما ليس له لا من جهة العلم ولا من جهة العمل، وذلك من وجهين:

الأول: أنه تزكية للنفس، وهو لا يعلم بماذا يختم له.

والثاني: أن فيه أمناً من مكر الله عَزَّجَلَّ، وقد قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩]، فما استثنى نبياً ولا صديقاً.

قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَمَنْ قَالَ هُوَ فِي الْجَنَّةِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ قَالَ هُوَ عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ»، فمن قال: أنا في الجنة، فهو في النار، ومن قال: أنا عالم، فهو جاهل؛ لأنه حتى وإن كان عنده علم، فإن فوقه من هو أعلم منه، والله أمر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول: ﴿ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه: ١١٤]، وهو القائل جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وما أكثر الذين يدعون العلم اليوم ويفتون ويتكلمون بغير علم! وإنما يدعونه مجرد ادعاء فقط، فإن العلم يحتاج إلى عمل.



وَلَهُمَا عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لغيرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، وَلَيَتَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»^(١).

الشَّيْخُ

حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا»، وهو الذي ترجم له الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (مَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ)، أي شيء، سواء ادعى علمًا لم يبلغه، أو مرتبة لم يصل إليها، أو ادعى أموال الناس وحقوقهم، وهي ليست له، فهؤلاء جميعًا قد تبرأ منهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «فَلَيْسَ مِنَّا»، وهذا فيه وعيد شديد من هذه الآفة الخطيرة.



(١) أخرجه البخاري (٣٥٠٨)، ومسلم (١١٢) (٦١).

بَابُ: الدَّعْوَى فِي الْعِلْمِ افْتِحَارًا

عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «يُظْهَرُ الْإِسْلَامُ حَتَّى يَخْتَلِفَ التُّجَارُ فِي الْبَحْرِ، وَحَتَّى تَخُوضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، يَقُولُونَ: مَنْ أَقْرَأَ مِنَّا؟ مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمَ مِنَّا؟» ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ فِي أَوْلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «أَوْلَيْكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَأَوْلَيْكَ هُمْ وَقَوْمُ النَّارِ». رَوَاهُ الْبَزَارُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ^(١).

وَلِلطَّبْرَانِيِّ مَعْنَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ الْمُنْذِرِيُّ: إِسْنَادُهُ حَسَنٌ^(٢).

الشَّيْخُ

التفاخر أمر محرم شرعًا، وهو من كبائر الذنوب، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، فلا يجوز للمسلم أن يفتخر على

(١) أخرجه البزار (١/ ٤٠٥)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٥٠) عَنْ أُمِّ الْفَضْلِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ قَامَ لَيْلَةً بِمَكَّةَ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَكَانَ أَوَّاهًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَحَرَضْتُ، وَجَهِدْتُ، وَنَصَحْتُ اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَحَرَضْتُ وَجَهِدْتُ وَنَصَحْتُ، فَأَصْبَحَ، فَقَالَ: «لَيُظْهَرَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَرُدَّ الْكُفْرُ إِلَى مَوَاطِنِهِ وَلَيَحَاضَّ الْبَحَارُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ فِيهِ الْقُرْآنَ فَيَعْلَمُونَهُ وَيَقْرَءُونَهُ، ثُمَّ يَقُولُونَ قَدْ قَرَأْنَا وَعَلَّمْنَا فَمَنْ ذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَهَلْ فِي أَوْلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ؟» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ. وَمَنْ أَوْلَيْكَ؟ قَالَ: «أَوْلَيْكَ مِنْكُمْ، وَأَوْلَيْكَ هُمْ وَقَوْمُ النَّارِ».

وانظر: الترغيب والترهيب (١/ ٧٦)، برقم (٢٢٨).

غيره، أو أن يعجب بنفسه، بل عليه أن يتواضع لله عَزَّجَلَّ، ويتواضع لعباد الله، وهذه هي صفة المؤمنين، ففي الحديث: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ»^(١).

والفخر محرم، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، لا سيما إذا كان ذلك من أهل العلم، فأهل العلم أولى بالتواضع؛ لأنهم قدوة، ولأنهم يعلمون ما في الفخر من الإثم، فهم أولى أن يتواضعوا وألا يفتخروا.
وقوله: «مَرْفُوعًا»، أي: إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُظْهِرُ الْإِسْلَامُ»، هذا إخبار منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بظهور الإسلام وانتشاره في الأرض، وقد وقع كما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩]، فقد أظهر الله الإسلام، فبلغ المشارق والمغارب، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ودخلت فيه الأمم والدول، وذلك بسبب الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، ولصلاحية هذا الدين، وأنه دين الفطرة، ودين يدخل القلوب بأحكامه وحكمته ونوره، فالذي يريد الحق يبادر إلى الدخول فيه، ولا يتركه إلا المعاند؛ لذلك انتشر الإسلام بالحكمة والعلم والدعوة إلى الله، والجهاد إنما ينكره الذين يصدون عن سبيل الله، الذين يريدون بقاء الكفر وعدم انتشار الإسلام.

(١) سبق تخريجه (ص ٤٣).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَتَّى يَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي الْبَحْرِ»، يعني: حتى يتسع اقتصاد المسلمين، فينشط المسلمون في طلب التجارة في البحار، وتأمين السفن، وكل ذلك في ظل الإسلام.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَحَتَّى تَخْوُضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، أي: للجهاد، فإنها تقطع الأرض والبحار والأنهار، فلا تترك مكاناً إلا بلغته، وهذه الفتوحات التي بلغت المشرق والمغرب شاهد على ذلك حتى امتد الإسلام من بلاد السند إلى بلاد الأندلس في أقصى المغرب، وهذا ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ظهر -والله الحمد والمنة-.

ثم ينشأ في هذه الأمة قراء يقرؤون القرآن، ويمجدون التلاوة، ويحفظون آياته، ولكن دون أن يكون عندهم فقه، ومع هذا يقولون: «مَنْ أَقْرَأَ مِنَّا؟ مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟»، يعجبون بأنفسهم، وهذه الصفة ليست من صفات طالب العلم ولا العلماء؛ لأنه ما من عالم إلا ويوجد من هو أعلم منه، قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فلا يجوز لأحد أن يدعي لنفسه أنه بلغ مرتبة ليس فوقه أحد؛ لأن هذا من باب التفاخر المحرم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما ذكره من باب التحذير لطلبة العلم والعلماء من هذه الصفة القبيحة، أي: تفاخرهم بعلمهم، فإن العلم لا تدرك له غاية.

إِنَّمَا الْعِلْمُ كَبَحْرٍ زَاخِرٍ فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ (١)

(١) هذا البيت ذكره السفيري الشافعي في شرحه لصحيح الإمام البخاري (٢/ ٨٩)، وأصله أثر ينسب لعلي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم: «الْعِلْمُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ». انظر: الرسائل الأدبية (١/ ١٦٣)، والكمال في اللغة والأدب (٢/ ٢١١)، والتمثيل والمحاضرة (١/ ١٦٥)، وأدب الدنيا والدين (١/ ٥١)، وجامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٣٧).

وَقُلْ لِلَّذِي يَدْعِي فِي الْعِلْمِ مَغْرَفَةً حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ^(١)

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وطالب العلم إنما ينال قسطًا قليلًا منه، فالذي يدعي أنه أحاط بالعلم، وأنه لا أحد أعلم منه، يدل بذلك على قصوره وجهله، ولذلك جاء في الحديث: «وَمَنْ قَالَ هُوَ عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ»^(٢)، والعالم الحقيقي هو الذي يرى نفسه مقصرًا، فيطلب العلم ليزداد منه، أما الذي يرى أنه بلغ مبلغًا من العلم، وأنه قد اكتفى بما عنده، فهذا يقف ولا يتعلم ولا يتزود، وللأسف فإن هذا حال كثير من الناس اليوم، خصوصًا الذين يتخرجون من المعاهد والجامعات، فيكتفون بالشهادات، ويظنون أنها تكفيهم، ولذلك تراهم لا يطلبون العلم ولا يذكرونه، ولا يدرسون الناس، ويرون أنهم أعلم الناس، لا سيما إن حصلوا على «الماجستير» و«الدكتوراه»، وهذا غلط ووهم، فالعالم الحقيقي أو المتعلم إنما يشعر بالنقص والجهل مهما حصل من العلوم، ولهذا فهو لا يتوقف عن طلب العلم عند حد معين، فالعلم بحر لا ساحل له، فكيف إذا افتخر، فقال: لا أحد أعلم مني ولا أفقه مني؟ فماذا حصل من العلم حتى يقول هذا الكلام؟ ومن فعل هذا، فقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب؛ بدليل أنه جاء في آخر الحديث: «فَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ»، والتوعد بالنار من ضوابط الكبيرة، ولهذا فإن الذي يبلغ هذه المرتبة من الافتخار يجب أن يعلم بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد توعد بالنار؛ لأنه تكبر وأعجب بنفسه، والله لا يحب المتكبرين، وقد جعل النار مثوى لهم.

(١) هذا البيت لأبي نواس الشاعر العباسي المعروف. انظر: المنصف للسارق والمسروق منه (٥٥٨/١)، والفهرست (٢١١/١)، والدر الفريد وبيت القصيد (٣٤٣/٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٩٥).

بَابُ ذِكْرِ جُحُودِ النُّعْمَةِ

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَخَلْتُ النَّارَ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ، يَكْفُرْنَ»، قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»^(١).

الشَّجَرُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ ذِكْرِ جُحُودِ النُّعْمَةِ)؛ أي: إنكارها؛ لأن النعمة يجب أن تشكر، سواء كانت من الله، أو أجراها -سُبْحَانَهُ- على يد مخلوق، وإلا فالنعمة كلها من الله، قال الله تعالى: ﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، فَإِنْ أَجْرَى اللَّهُ نِعْمَةً عَلَى يَدِ الْمَخْلُوقِينَ، فَيَجِبُ عَلَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا، ثُمَّ يَشْكُرُوا مَنْ أَسَدَى إِلَيْهِمْ مَعْرُوفًا مِنْ الْخَلْقِ كَذَلِكَ، وَلَا يَجْحَدُوا النُّعْمَةَ، فَإِنْ جَحَدَهَا كَفَرَ أَصْغَرَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْمِلَّةِ، لَكِنَّهُ مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والنعمة لا تستقر إلا بالشكر، وإلا فإنها تزول وتبدل بالنقمة إن لم تشكر، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ

(١) أخرجه البخاري (٢٩)، ومسلم (١٧) (٩٠٧).

الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿[النحل: ١١٢]﴾، والنعمة إذا زالت لا تعود، فيجب على المسلم أن يشكر الله تعالى على نعمه التي أنعمها عليه، وأن يحدث لكل نعمة شكرًا، والشكر يكون باللسان والقلب والعمل، وأركانها ثلاثة:

أولها: أن يتحدث بالنعمة ظاهرًا من باب ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

[الضحى: ١١].

ثانيها: أن يعترف بها باطنًا بأنها من الله، وليست بحوله ولا كده ولا قوته.

والثالث: أن يصرفها في طاعة الله، فإذا اختل ركن من هذه الأركان يكون قد كفر بالنعمة، وعرضها للزوال -والعياذ بالله-.

وكذلك ينبغي للمنعّم عليه أن يشكر المخلوق الذي أسدى الله على يده هذه النعمة، فإن النبي ﷺ قَالَ: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»^(١).

وقوله ﷺ: «دَخَلْتُ النَّارَ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، إن أكثر الناس كفرًا بالنعمة النساء، والنبي ﷺ أرى الجنة والنار، وهذا من معجزاته، فرأى أكثر أهل النار النساء، والسبب أنهن يكفرن أزواجهن، أي: يجحدن إحسانهم، فالواجب على المرأة أن تشكر لزوجها ما أسدى إليها من العشرة الطيبة والقوامة والستر، فهو يكدح وينفق عليها ويسكنها ويكفيها

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٣٥٩)، وأحمد (٢٦٦/٩) من حديث ابن عمر

المؤنة ويعفها، فإن له عليها أيادٍ كثيرة، وهي مع هذا كله لو حصل منه أدنى تقصير كفرت كل ما أسدى إليها من قبل، فتنسى كل ذلك وتجده، هذه صفة المرأة؛ لذلك صارت النساء أكثر أهل النار، وهذا فيه دليل على أن كفران النعمة كبيرة من كبائر الذنوب توجب دخول النار، وفيه أن المرأة يجب أن تقدر زوجها، وتشكر له أياديه عليها، وتنظر إلى محاسنه وما أجرى الله لها من الخير على يديه، ولتنظر إلى نعمة الله عليها وقد رزقها زوجًا، ولتنظر إلى العوانس والأيامى، وما هن فيه من التعب والضيق والكدر والشدة، فإن هي تنكرت لزوجها وجحدت إحسانه، فإنها متوعدة بهذا الوعيد، وبذلك صارت النساء أكثر أهل النار بهذه الخصلة الذميمة.



وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»
صححه الترمذي وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ^(١).

الشَّجَرُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»، في هذا أن من لا يرى المعروف من الناس، فهو لا يرى المعروف من الله عَزَّوَجَلَّ، وأما إن كان يرى النعمة من الناس ويشكرها، فإنه من باب أولى يرى النعمة من الله تعالى ويشكرها، فكما أنه يشكر الله عَزَّوَجَلَّ، فلا بد أن يشكر الناس على المعروف ولا يجحده.



(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٤)، وأحمد (٢٣٣/١٨)، والبخاري (٢٢٦/٨).

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُتِنِ بِهِ، فَإِنْ أَتَى فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»^(١).

الشَّيْخُ

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ»، يعني: من أعطي من الناس عطاء، أي: مُنح مالا أو هدية أو صدقة، أو مساعدة على قضاء دين، فإنه يجب عليه أن يشكر من أحسن إليه، فإن وجد مالا، أعطى من أحسن إليه، قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فإن لم يجد ما يقابل ما أعطاه إياه، فإنه من الواجب عليه أن يدعو له، هذا هو الطريق الصحيح فيما يكون بين الناس في بذل المعروف والشكر عليه.

فدلت هذه الأحاديث على أن الشكر واجب على المنعم عليه، سواء كان من الله تعالى، أو أجراها -سُبْحَانَهُ- على أيدي عباده، فإن لم يشكر وجحد، فإن هذا الجحود يدخل في باب الكبائر.



(١) أخرجه أبو داود (٤٨١٣)، والترمذي (٢٠٣٤).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي لَمَزِ أَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ

وَالْأَسْتِهْزَاءِ بِضَعْفِهِمْ

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَائِي، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعٍ هَذَا، فَنَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] الْآيَةُ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي لَمَزِ أَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالْأَسْتِهْزَاءِ بِضَعْفِهِمْ)، هذا الباب في بيان صفات المنافقين الذين يلمزون أهل طاعة الله، أي: يعيبونهم، ويستهزئون بهم، والاستهزاء لا يجوز مطلقاً، قال الله تعالى: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وَقَالَ: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: لا يعيب بعضكم بعضاً؛ لأنك إذا عبت أخاك فإنما تعيب نفسك؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، ولأن المؤمن يجب لأخيه ما يجب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكرهه لنفسه، واللمز: التنقص.

(١) أخرجه البخاري (١٤١٥)، ومسلم (٧٢) (١٠١٨).

وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، اللقب ما أشعر بمدح أو ذم^(١)، والمنهي عنه اللقب الذي فيه ذم، ثم قَالَ: ﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١]، فقد سَمَى الله السخرية واللمز والتنابز بالألقاب فسوقاً، أي: معصية، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَنْتَبْ﴾، أي: عن ذلك كله، ويترك هذه الخصال الذميمة، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، والظلم يكون بين العبد وربّه -وهو الشرك والكفر-، ويكون بين الناس -أيضاً- بجحد حقوق الناس وظلمهم، فلا بد لهؤلاء من توبة، يعني: الذين لمزوا وتنقصوا غيرهم من المؤمنين.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ...»)، أبو مسعود هو: البدرى، والمراد أنه لما أنزل الله الآية التي أمر الله فيها بالصدقة على المحتاجين، وكان الصحابة فقراء يشتغلون بالأجرة، ولذلك قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كُنَّا نَحْمِلُ»، أي: يحملون الأمتعة والأشياء المنقولة على ظهورهم ورؤوسهم مقابل الأجرة، ثم يتصدقون من كسبهم؛ امتثالاً لأمر الله -سُبْحَانَهُ-؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أكثر الناس استجابة لكلام الله.

وكان في المدينة منافقون يظهرون الإسلام، ويسخرون من المؤمنين ويلمزونهم -وهذه هي طريقتهم- وهي علامة من علامات النفاق في كل زمان ومكان، وكما هو حاصل اليوم من اللمز لأهل العلم، وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأئمة المساجد، ولعباد الله الملتزمين بدينهم، وهذا ديدنهم، فإن المنافقين موجودون في كل زمان ومكان؛ ابتلاءً من الله

(١) انظر: التعريفات (١/١٩٣)، والتوقيف على مهمات التعاريف (١/٢٩١)، وتاج العروس (٤٣٣/٣٦).

لعباده المؤمنين، والمنافقون هذا شأنهم؛ لأن قلوبهم مريضة تحقد على المؤمنين، فلا يستغرب مما يحدث من هؤلاء الذين يسخرون بالمؤمنين؛ لأن لهم سلفاً في فعلهم، ولما جاء بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ يَتَصَدَّقُ بِهِ، فَقَالُوا: هَذَا مُرَاءٍ، وَجَاء آخَرُ بِنَصْفِ صَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ عَنْ صَاعٍ هَذَا لَغَنِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وَالْمُطَّوِّعُونَ هُمُ الَّذِينَ يَبْذُلُونَ الْمَالَ الْكَثِيرَ، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ هُمُ: الْفُقَرَاءُ، فَقَالُوا عَنْ الْأَوَّلِ: مُرَاءٍ، وَعَنِ الثَّانِي: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِي عَنْ صَدَقَتِهِ، فَمَاذَا كَانَ جَزَاؤُهُمْ؟ لَقَدْ عَامَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ فَسَخَرَهُ مِنْهُمْ؛ انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد لهم في الآخرة عذاباً أليماً؛ لأنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وَسَخَرِيَّتُهُ بِهِمْ عَدَلَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَالسَّخَرِيَّةُ مِنَ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ مَذْمُومَةٌ؛ لِأَنَّهَا ظَلَمٌ.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دل على تحريم ذلك من الناس عموماً ومن المسلمين خصوصاً؛ لأنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ لَهُمْ مِيزَةٌ عَلَى الْخَلْقِ، لَا سِوَا إِذَا كَانُوا مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ مِنْ وَلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ كَانُوا مِنْ عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفَتُهُمْ، فَالْمُسْلِمُ لَهُ حَقٌّ، وَهُوَ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَقِصَ.



بَابُ: الْأَسْتِهْزَاءِ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرًا حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ الآية [الحجرات: ١١].

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْأَسْتِهْزَاءِ)، الاستهزاء هو التنقص، أي: تنقص أهل الفضل أو الناس بشكل عام، وهو من كبائر الذنوب المستحقة لعقوبة الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [المطففين: ٢٩])، الذين أجمروا: هم الذين يتنقصون ضعفة المسلمين كعمار وصهيب وبلال وسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، تنقصهم المشركون وسخروا بصفاتهم، فوصفهم الله تعالى بالمجرمين، ووصف عباده المطيعين بالمؤمنين، ثم فرق بعد ذلك بين المؤمنين والمجرمين، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُتْلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُم كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الفلم: ٣٥-٣٦].

فانظر المقابلة بين الإيمان والإجرام، فهم أولى بالسخرية والتنقص، ومع ذلك قبلوها على أهل الإيمان والفضل والطاعة والتقوى، وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، أي: كان هؤلاء الذين أجمروا إذا مر المؤمنون

بهم تغامزوا فيما بينهم؛ تنقصًا واستخفافًا بهؤلاء المارة من المؤمنين، ﴿وَإِذَا
 أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]، أي: وإذا رجعوا إلى بيوتهم
 تحدثوا فيما بينهم معجبين باستهزائهم بالمؤمنين، فهم يتلذذون بذلك.
 ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾، أي: وإذا رأوا المؤمنين.

﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾، حينما يرون المؤمنين وما هم عليه من
 العبادة والطاعة والصلاة والصيام والزهد، فيقولون عنهم: هؤلاء حرموا
 أنفسهم من مشاركة الناس في متعهم، وأتعبوا أنفسهم بالعبادة والطاعة،
 وحرّموا أنفسهم من التمدن والحضارة، كما يزعم البعض اليوم على السنة
 تلاميذ هؤلاء القوم وورثتهم.

فهذه طريقة المنافقين في السخرية والاستهزاء في قديم الزمان وحديثه،
 وهي من كبائر الذنوب، فالمؤمن عزيز على الله، فلا يجوز تنقصه ولو كان
 فقيرًا، ولو كانت عليه ثياب رثة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ
 نَوَاقِسَمَ عَلَى اللَّهِ لَابِرُهُ»^(١).

المؤمن عزيز على الله ولو كان فقيرًا معدمًا، فالقضية ليست بالمظاهر
 والأشكال، فانظر وتفكر ما قاله الله في المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ
 أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فهم يظهرون بالأشكال
 الحسنة والفصاحة واللباقة، ولكنهم مع ذلك في الدرك الأسفل من النار
 -والعياذ بالله-، فلم تنفعهم فصاحتهم ولباقتهم ولا أناقتهم ولا لباسهم،
 ولا حسن أجسامهم عند الله لما لم يكن عندهم إيمان بالله عَزَّجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠])، أي: فسخرتم من المؤمنين في دعائهم إياي وتضرعهم إلي، كما فعل المشركون بعمار وبلال وصهيب رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿حَتَّىٰ أَسْوَكَتُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، أي: حتى أنساكم اشتغالكم بالاستهزاء خوف عقابي في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾، أي: على أذاكم لهم وصبرهم على طاعتي ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]؛ أي: بالسعادة والسلامة واللجنة والنجاة من النار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١])، القوم: الجماعة من الرجال دون النساء، فالله تعالى فرق بين الرجال والنساء، سمي الرجال قومًا، وسمى النساء نساء، فدل على أن اسم القوم لا ينطبق على النساء، وإنما هو مختص بالرجال، قَالَ الشاعر^(١):

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرِي أَقَوْمُ آلِ حِضْنٍ أَمْ نِسَاءُ



(١) الشاعر هو زهير بن أبي سلمى. انظر: العين (٢٣١/٥)، وتهذيب اللغة (٢٦٦/٩)،
والصحيح (٢٠١٦/٥)، ولسان العرب (٥٠٥/١٢).

عَنِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ يَفْتَحُ لِأَحَدِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلُمَّ هَلُمَّ، فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ، فَإِذَا جَاءَ أُغْلِقَ دُونَهُ، فَمَا يَزَالُ كَدَلَكَ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ يَفْتَحُ لَهُ الْبَابَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلُمَّ فَمَا يَأْتِيهِ مِنَ الْإِيَّاسِ». أخرجه البيهقي (١).

الشَّجَرُ

قوله في الحديث: «إِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ يَفْتَحُ لِأَحَدِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ...»، هذا الحديث فيه بيان أن الذي يسخر من الناس في الدنيا، فإن الله يسخر منه يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

فيوم القيامة يفعل بهم هكذا جزاء وفاقاً، يفتح لأحدهم باب إلى الجنة، وهو في كرب وشدة وضيق فيفرح بذلك، فإذا وصله أغلق وصد عنه، ثم يفتح له الباب الآخر حتى إذا جاء أغلق، ثم يفتح له ويدعى فييأس فلا يأتي؛ لشدة يأسه وقنوطه، وهذا استهزاء به، فكان جزاؤه من جنس عمله.



(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٩/٩).

وَلَا بِنِ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرِهِ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «مَنْ مَاتَ هَمَازًا مُلَاقًا لِلنَّاسِ كَانَ عَلَامَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَسْمَهُ اللَّهُ عَلَى الْخُرْطُومِ مِنْ كَلَامِ الشُّدْقَيْنِ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ مَاتَ هَمَازًا مُلَاقًا لِلنَّاسِ كَانَ عَلَامَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَسْمَهُ اللَّهُ عَلَى الْخُرْطُومِ مِنْ كَلَامِ الشُّدْقَيْنِ»، فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، فَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١].

وقوله: «مُلَاقًا لِلنَّاسِ»، يَعْنِي: يَلْقُبُ النَّاسُ بِالْقَابِ الدِّم، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْخُرْطُومِ الْوَجْهَ، وَالْمُرَادُ: أَنَّ اللَّهَ يَسُودُ وَجْهَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فَيَسُودُ اللَّهُ وَجْهَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي الدُّنْيَا هَمَازًا لِقَابًا؛ جَزَاءً وَفَاقًا.



(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣/٦٥)، وفي الأوسط (٨/٣٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/١٠١)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٣٦٥).

بَابُ: تَرْوِيعِ الْمُسْلِمِ

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَرُوعَ مُسْلِمًا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١).

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: تَرْوِيعِ الْمُسْلِمِ)، الترويع يعني: الإخافة والإرعاب (٢)، فلا يجوز للمسلم فعل شيء يكون سبباً في إلقاء الخوف في قلب أخيه؛ لأن الترويع فيه ضرر على المسلم، فمن فعل ذلك، فإنه يجازى يوم القيامة على صنيعه، ويمكن أن ينال عقابه في الدنيا، ويدخل في ذلك ما يصدر من البعض الذين يتبنون أفكاراً منحرفة تدفعهم إلى إرهاب الناس وإخافتهم من خلال التفجير، وترويع الآمنين والمستأمنين والمعاهدين، فالواجب تأمين المسلمين وتأسيسهم وإكرامهم، لا تخويفهم وإرهابهم.

وقوله: «كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ»، وذلك أنهم كانوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٤).

(٢) انظر مادة (روع) في: العين (٢/٢٤٢)، وتهذيب اللغة (٣/١١٢)، والصحاح (٣/١٢٢٣)، ومقاييس اللغة (٢/٤٥٩)، ولسان العرب (٨/١٣٥).

في سفر، فنام أحدهم، وجاء رجل ليمزح، وأخذ حبله فروعته، ولا يجوز الترويع حتى بالمزاح، وأياً كان هذا الترويع، سواء بالكلام، أو يأتيه على حين غفلة فيخيفه، أو من خلال الاتصال بالهاتف، كأن يخبره بخبر يفزعه على سبيل المزاح أو بالفعل كأن يحمل عليه السلاح تخويفاً له، أو استغفاله وهو نائم؛ لأن كل ذلك من شأنه أن يسبب له ضرراً، فالحاصل أن ترويع المؤمن بأي حال لا يجوز، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، وفيه إدخال الأذى والضرر على المسلم، و«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(١).



(١) سبق تخريجه (ص ١١٨).

بَابُ: الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ

وَلَهُمَا عَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي ضَرَّةً، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَتَشَبَّعَ مِنْ مَالِ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِيسٍ ثَوْبِي زُورٍ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ)، أي: المتزين بما ليس عنده يتكثر بذلك، ويتزين على غيره بالباطل، وفي الحديث أن امرأة ذكرت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لها ضرة، وسألت: إن كان يجوز لها أن تظهر أمامها، وتدعي بأن زوجها قد خصها بما تفضلها به، كمحبة أو أي شيء آخر أكثر من ضرتها؟ فأنكر عليها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ»؛ أي: الذي يظهر الشبع وليس بشبعان، والمقصود: إظهار فضيلة لم تحصل له.

فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يجوز، وأن فاعل ذلك «كَلَابِيسٍ ثَوْبِي زُورٍ»، وهو الذي يزور على الناس، فيظهر أمامهم بصفة ليست فيه على الحقيقة، والمراد أنه كان شبيهاً بمن لبس ثوبين لغيره وأوهم أنها له، ويدخل في ذلك ادعاء صفات وأحوال ليست موجودة في الحقيقة كما نهى عن ذلك؛ لأن هذه الصفة هي من صفات اليهود؛ حيث قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَيُحْمَدُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨].

(١) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (١٢٧) (٢١٣٠) من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بَابُ: التَّحَدُّثِ بِالْمَعْصِيَةِ

وَلَهُمَا عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: التَّحَدُّثِ بِالْمَعْصِيَةِ)، الواجب على المسلم أن يتجنب المعاصي والتحدث بها مهما أمكنه ذلك؛ لأن المعاصي فيها شر كبير، وقد تتزايد على الإنسان إذا تساهل فيها، والمعصية تجر إلى معصية أكبر منها، فعلى المسلم أن ينأى بنفسه عن المجالس التي تذكر فيها المعاصي -يعني: أن يأخذ بالوقاية-، فإن المعاصي تؤثر على الدين وعلى المروءة، والله قد حذرنا من المعاصي ومن الوقوع فيها.

والمعصية: كل مخالفة لأمر الله أو أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي تتفاوت، فبعضها أشد من بعض، ولكن لا يتساهل فيها؛ لأنها تمرض القلب، وتضعف الإيمان، وتجلب العقوبة إلى غير ذلك من المحاذير التي تنشأ عنها، ولكن على المسلم إذا ابتلي بشيء منها أن يبادر بالتوبة، والنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٥٢) (٢٩٩٠).

(٢) سبق تخريجه (ص ٣١).

وقد قال -سُبْحَانَهُ-: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِمَهَلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧]، فلا ينبغي للمسلم أن يؤخر التوبة، فربما تتزايد المعصية، وتجرحه إلى ما لا تحمد عقباه، وربما لا يدرك الوقت الذي يريد أن يتوب فيه، فيموت وهو مقيم عليها، فلا بد من المبادرة بالتوبة، هذا أولاً.

وعليه أن يستحي من الله عَزَّوَجَلَّ، ويستعظم المعصية مهما كانت صغيرة، فقد جاء في الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»^(١)، فالأصل في المسلم أنه يخاف، ويستحي من الله ومن الناس كذلك، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢).

فالحياء: صفة في النفس تحمل على فعل ما يحمد، وترك ما يذم ويعاب. ولا يجاهر ويتمدح، فإن المجاهرة والتحدث بالمعصية جرم آخر يضاف إلى جرمه، ولهذا فإن من الواجب عليه أن يستر نفسه، ويبادر بالتوبة، وأن يندم على ذنبه، ويعزم ألا يعود إليه، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حذر من المجاهرة بالمعاصي؛ حيث قَالَ: «وَأَنَّ مِنَ الْمَجَاهِرَةِ أَنْ يَفْعَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُضْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُضْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ».

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص ٣٣١).

ثم إن الذي يجاهر بالمعصية حري ألا يعفو الله عنه، أما إذا كانت المعصية تستوجب حدًّا من الحدود وقد جاهر بها، فإنه يقام عليه الحد؛ لأن الجريمة إذا وصلت للقضاء، وثبتت، فلا بد من إقامة الحد على مرتكبها، ولو أنه ستر نفسه، وتاب إلى الله لما كان عليه ملامة، أما إذا تحدث بها وأقر بها، وكان تستوجب حدًّا من حدود الله، فإنه يقام عليه الحد.

ويستفاد من الحديث: أنه من وقع في معصية، وستر نفسه، وتاب إلى الله، ولم يتحدث بها فإنه معافي، وذلك بأن ينال عفو الله، وأما من جاهر، فإنه يكون غير معافي؛ لأنه انتهك الستر الذي ستره الله به، واعترف على نفسه بالجريمة، فيترتب على ذلك ما يترتب، ويسقط مكانته عند المسلمين، ويضع نفسه في موضع اتهام وشبهة، وبالتالي يحذره الناس؛ لأنه وضع نفسه في هذا الموضع، فدل هذا على أن المجاهرة كبيرة من الكبائر، ولذلك ساق الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ هذا الحديث تحت باب التحدث بالمعصية.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي الشَّتْمِ بِالزُّنَا

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ، وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ» (١).

الشَّيْخُ

من الأمور التي حرمها الله: عرض المسلم، فلا يظن به إلا الخير، فالله حرم عرض المسلم وماله ودمه، والعرض: هو ما يقبل المدح والذم، هو أعز عند المسلم من المال، فإنه إن سرق أو ضاع ماله، فهو يرجو أن يعوضه الله، وأما العرض فلا يعرض إن ضاع أو انتقص، يقول الشاعر (٢):

أَصُونُ عِرْضِي بِمَا لِي لَا أَدْنُسُهُ لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعِرْضِ فِي الْمَالِ
أَحْتَالُ لِلْمَالِ إِنْ أَوْدَى فَأَكْسِبُهُ وَلَسْتُ لِلْعِرْضِ إِنْ أَوْدَى بِمُخْتَالِ

فعرض المسلم حرام كحرمة ماله ودمه، والقذف بالفاحشة - سواء بالزنا أو اللواط - اعتداء على الأعراض، وهو كسائر الذنوب؛ حيث رتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى قَذْفِ الْمُسْلِمِ الْحَدَّ، وهو عقوبة مقدرة شرعاً، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (٣٧) (١٦٦٠).

(٢) البيتان لشاعر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: شرح ديوان الحماسة للأصفهاني (١/١١٨٤)، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي (٢/٢٥٣)، والتذكرة الحمدونية (٢/٩٨)، والدر الفريد وبيت القصيد (٢/١٨٥).

فالقاذف تترتب عليه ثلاث عقوبات:

أولها: الجلد؛ حيث يضرب ظهره وجلده بالسياط.

والثانية: أنه لا تقبل له شهادة أبداً.

والثالثة: أنه يوصف بالفسق، أي: بالخروج عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فقد توعدهم الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ

الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢٣﴾

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ

دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿[النور: ٢٣-٢٥].

فاحترام أعراض المسلمين والستر عليهم ودعوتهم إلى التوبة والإصلاح

من الأمور التي رغب فيها الإسلام، ودعت الشريعة إلى الالتزام بها والتشديد

على مراعاتها، فلا يجوز أن يرمى المسلم بفاحشة حتى وإن وقعت منه؛ إذ

الأصل في ذلك أن يستر عليه ويدعى إلى التوبة، لا أن يكشف أمره؛ لأنه

لا بد له في هذه الحالة من أن يأتي بالشهود؛ دليلاً على صحة كلامه، وإلا

فيجلد ثمانين جلدة، وكل ذلك حماية لأعراض المسلمين، ولأن في ذلك

إشاعة للفاحشة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٩﴾

[النور: ١٩]، وإنما يشيع الفاحشة في المسلمين أهل النفاق، أما المؤمن فإنه يكره

ذلك لنفسه ولأخيه ولمجتمعهم، فالأصل أن تخفى الجريمة، ولا يعلن عنها إلا

في حدود ضيقة.

وقد دل الحديث على أن القذف من كبائر الذنوب؛ لما ترتب عليه من الحد، ودل على أن السيد إذا قذف عبده لم يجب عليه الحد، وإنما عليه الوعيد الشديد الذي ورد في الحديث في الآخرة.



بَابُ: النَّهْيُ عَنْ تَسْمِيَةِ الْفَاسِقِ سَيِّدًا

عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

الشَّيْخُ

الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو على قسمين: القسم الأول: أن يكون من المؤمنين، ولكنه ارتكب كبيرة دون الشرك، فإنه يحكم عليه بالفسق.

القسم الثاني: ألا يكون مؤمنًا، بل يدّعي الإيمان ويظهره وهو في الباطن مخادع، وهذا هو المنافق، والمنافق يسمى فاسقًا، يعني: خارجًا عن طاعة الله، وخارجًا من الإسلام.

والفاسق لا يجوز أن يمدح ولا يعظم، بل ينزل منزلته اللاتقة به، فلا يقال له: سيد، وهو منافق أو فاسق من المؤمنين.

والحديث جاء في سياق ذكر المنافق، ويدخل فيه الفاسق من المؤمنين، ولهذا ترجم الشيخ للباب بقوله: (بَابُ: النَّهْيُ عَنْ تَسْمِيَةِ الْفَاسِقِ سَيِّدًا)، فلا يسود المنافق، والسيد: هو المعظم والرئيس، فالأصل ألا يولى في الوظائف

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٧٧)، وأحمد (٢٣/٣٨).

والمناصب التي تجعله سيِّداً؛ لأن الله يغضب إذا رفع هذا الفاسق أو المنافق فوق المنزلة التي يستحقها؛ لأن في ذلك تشجيعاً لهم على هذه الجريمة -أي: جريمة الفسق والنفاق-، فلا ينبغي أن يمكننا من التولي على أهل الإيمان والعقيدة؛ لأنهم قد ينشرون الشر بين الناس، ولأن فيه تغاضياً عن جرمهم وعن فسقهم، وهذا يضر بالدين، فلا يجوز مدحهم، ولا يجوز أن يولوا المناصب التي لها شأن في المسلمين.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ»؛ لأن ذلك يجعله جريئاً على الفسق والجريمة، فإذا فعلتم هذا وسودتموه، فقد أغضبتكم ربكم.



بَابُ: النَّهْيُ عَنِ الْحَلْفِ بِالْأَمَانَةِ

عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

الشَّيْخُ

الحلف معناه: توكيد الشيء بذكر معظم^(٢)، والحلف تعظيم للمحلف به، وهذا لا يستحقه إلا الله تعالى؛ لأن هذا نوع من أنواع العبادة؛ لذلك قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ»^(٣)، وفي الحديث الآخر: «إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَضْمُتْ»^(٤).

فالْحَلْفُ لا يكون إلا بالله؛ لأنه تعظيم للمحلف به، فلا يجوز الحلف بالأب أو بالنبي أو بالولي أو بالشرف ولا بالأمانة، أو بغير ذلك؛ لأنه لا يستحق التعظيم إلا الله تعالى، فالْحَلْفُ لا يكون إلا بالله، أو بصفة من صفاته، ولا بشيء سوى ذلك.

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، وأحمد (٨٢/٣٨).

(٢) انظر: المطالع على ألفاظ المقنع (١/٤٧٠)، والمبدع في شرح المقنع (٨/٥٧)، والإقناع في فقه الإمام أحمد (٤/٣٢٩)، ومتمهى الإرادات (٥/٢٠٩)، وكشاف القناع (٦/٢٢٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (١٠/٢٤٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١/١٦٤٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن الحلف بغير الله: الحلف بالأمانة، والأمانة: هي العهدة التي يؤتمن عليها العبد، والأمانة تكون بين العبد وبين ربه، وبين الناس بعضهم مع بعض، والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، ولا يتهاون بالأمانة إلا أهل النفاق، ولكن لا يحلف بها؛ لأن الحلف بها حلف بغير الله، ولكن نجد كثيرًا من الناس يجري على ألسنتهم الحلف بالحياة والأمانة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا»، هذا يدل على أن الحلف بالأمانة كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن من ضوابط الكبيرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبرأ ممن فعل ذلك وحلف بالأمانة، ولذلك ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث في كتاب الكبائر؛ لأن هذا الأمر قد يتساهل فيه كثير من الناس، وهو خطير.

فقلوه: «فَلَيْسَ مِنَّا»، هذا فيه تحذير ووعيد شديدان من هذا الأمر الخطير، وأن فاعل ذلك قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، ولكنه لا يحكم عليه بالكفر.



بَابُ: النَّهْيُ عَنِ الْحَلْفِ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ

عَنْ أَبِي زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا، فَهُوَ كَمَا قَالَ» أَخْرَجَاهُ^(١).

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَلَفَ، فَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَنْ يَزْجَعَ إِلَيَّ الْإِسْلَامُ سَالِمًا» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(٢).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: النَّهْيُ عَنِ الْحَلْفِ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ)، وَمَنِ الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ الْحَلْفُ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ، كَأَنْ يَقُولَ: «هُوَ يَهُودِي، أَوْ نَصْرَانِي، إِنْ كَانَ فَعَلَ كَذَا»، وَهُوَ كَاذِبٌ مُتَعَمِّدٌ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ كَاذِبًا، أَوْ كَانَ كَاذِبًا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْكَذِبَ، وَإِنَّمَا غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَهَذَا لَا يَدْخُلُ فِي الْوَعِيدِ، لَكِنْ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَجَنَّبَ هَذَا الْأَمْرَ، وَلَا يَحْلِفُ إِلَّا بِاللَّهِ، وَيَتَجَنَّبُ الْحَلْفَ بِسِوَاهِ، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَسْلُكُ طَرِيقَ النِّجَاةِ. وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَنْ يَزْجَعَ إِلَيَّ الْإِسْلَامُ سَالِمًا»، أَيُّ: سَالِمًا مِنَ الْإِثْمِ وَاللُّومِ؛ بِسَبَبِ مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ، فَيَنْقُصُ إِسْلَامَهُ بِذَلِكَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ هَذَا الْحَلْفِ وَلَوْ كَانَ صَادِقًا فِي كَلَامِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٦٣)، وَمُسْلِمٌ (١٧٦) (١١٠).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٢٥٨)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢١٠٠)، وَالنَّسَائِيُّ (٤٦٩٥)، وَأَحْمَدُ (١١٤/٣٨).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْغِيْبَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية [الحجرات: ١٢].

الشَّيْخُ

قوله: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْغِيْبَةِ)، حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه، ولو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في قوله أو في دينه أو في عرضه؛ لأن انتهاك الأعراض من الغيبة، قال -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَجِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ولما نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الغيبة وأمر بتقواه دل هذا على أن المغتاب ليس عنده تقوى، أو أن تقواه ناقصة، فالغيبة قد فسرها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «اتَذَرُونَ مَا الْغِيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَابْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(١)، فالذي يتكلم في أعراض الناس وهم غائبون لا يخلو من أمرين: إما أن يكون كذاباً، وإما أن يكون مغتاباً، وكلا الأمرين كبيرة، فعلى المسلم أن يحفظ لسانه عن أعراض المسلمين؛ حتى ينجو من الأمرين، وذلك بالألا يتنقصهم بذكر عيوبهم، كأن يقول: فلان بخيل، أو فلان جبان، أو يقول: فلان أعور، أو فلان في جلده كذا، فهذا كله

من الأمور التي يراد بها السخرية والاستهزاء، ويدخل في باب الغيبة التي تحبط الحسنات يوم القيامة.

فالواجب على المسلم أن يحافظ على أعراض إخوانه كما يحافظ على عرضه؛ لأن المسلمين كالجسد الواحد، فكما لا ترضى أن يغتابك الناس، فلا تغتب أحداً، ومع أن الغيبة من كبائر الذنوب إلا أن بعض الناس لا يتورعون عنها، بل يتفكهون بها في المجالس، فيتقصون الناس ويلمزونهم، ويخوضون في أعراضهم، مع أن الواجب على المسلم أن يكف لسانه عن الخوض في عرض أخيه، بل يجب إن كان في مجلس واغتيب فيه أحد أن ينكر ذلك، ويذب عن عرض أخيه، وفي الحديث: «مَنْ رَدَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

والأعراض لها مكانة عند الله والمسلمين، فلا يتهاون بها لا بقذف، ولا بغيبة، ولا بهمز، ولا بلمز، فالله عَزَّجَلَّ يقول: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَوْا أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَوْا أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]. وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، اللقب هو: ما أشعر بمدح أو ذم، وسمى الله عَزَّجَلَّ ذلك بالفسوق، وأن من لم يتب فإنه ظالم.

وبما تجدر الإشارة إليه أن الغيبة تشتد إذا كانت في ولاية أمور المسلمين والعلماء؛ لأن هؤلاء أمر الله باحترامهم، ولأنه يترتب على غيبة ولاية الأمور -إضافة لما مضى- إلقاء الفتنة بين المسلمين، وتبغيض الرعية للراعي والراعي للرعية، وهذا لا شك أن فيه ضرراً كبيراً على المسلمين.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «الْأَيْسَ ذَا النِّجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «الْأَيْسَ بَلَدُ اللَّهِ الْحَرَامِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «الْأَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، وَتَتَلَقَّوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضٌ مَنْ يُبْلَغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى مِمَّنْ سَمِعَهُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قَالَهَا ثَلَاثًا. أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خُطْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطِبَ عِدَّةَ خُطَبٍ، فَقَدْ خُطِبَ يَوْمَ عَرَفَةَ الْخُطْبَةُ الْبَلِيغَةُ الْعَظِيمَةُ، وَخُطِبَ يَوْمَ النَّحْرِ - وَهِيَ هَذِهِ الْخُطْبَةُ -؛ لِيَعْلَمَ النَّاسُ مَنَاسِكَ الْحَجِّ وَالْأُمُورِ الْعَامَةِ، وَهَذِهِ الْخُطْبَةُ الْبَلِيغَةُ أَرَادَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا أَنْ يَبَيِّنَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ، وَهَذَا مِنْ كِهَالِ نَصَحِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٧٣٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٩) (١٦٧٩).

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَنْبَهُهُمْ، وَيَلْفِتَ الْإِتْبَاهَ لَخَطُورَةِ مَا أَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَهُ لَهُمْ، فَسَكَتُوا، وَهَذَا مِنْ أَدْبِهِمْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا النُّجْبَةِ؟»، أَيُّ: الشَّهْرِ الَّذِي يُؤْدِي فِيهِ الْحَجُّ، وَهُوَ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، فَقَالَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «بَلَى».

ثُمَّ سَأَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((«فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ بَلَدُ اللَّهِ الْحَرَامِ؟» قُلْنَا: بَلَى؛ يَعْنِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ مَكَّةَ، ثُمَّ قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، فَسَكَتُوا وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَسْمِيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، ثُمَّ إِنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَنْ انْتَبَهَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَتَهَيَّأَتْ قُلُوبُهُمْ لِلْقَوْلِ (قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمُ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»))، فَالدِّمَاءُ وَالْأَعْرَاضُ وَالْأَمْوَالُ حُرْمَتُهَا كَحُرْمَةِ هَذِهِ الْحُرْمَاتِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ: الْبَلَدُ الْحَرَامُ، وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ، وَيَوْمُ النَّحْرِ.

ثُمَّ إِنَّهُ حَذَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرٍ خَطِيرٍ، فَقَالَ: «فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»، وَهَذَا فِيهِ تَحْذِيرٌ وَنَهْيٌ عَنْ اتِّهَاكِ الدِّمَاءِ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ دَمَ الْمُسْلِمِ وَالْمُعَاهِدِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، فَلَا يَجُوزُ الْإِعْتِدَاءُ عَلَيْهِمَا، وَلَا سِيَّيَا فِي أَيَّامِ الْفِتْنَةِ، فَإِنْ حَصَلَتْ فِتْنَةٌ فَالْمُسْلِمُ يَكْفُفُ وَلَا يَشَارِكُ فِيهَا، وَيَكُونُ عَامِلًا لِلْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوهُمَا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، هَذَا هُوَ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْإِصْلَاحَ، فَإِنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَنْجُو بِنَفْسِهِ، وَيَبْتَئِدُ عَنْ شَرِّهَا، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْفِتْنَةِ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُفَّارًا»، المراد بالكفر هنا: الكفر الأصغر، وهو الكفر العملي، ليس الكفر المخرج من الملة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ثم قَالَ فِي آخِر ذَلِكَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فبعد أن ذكر القتال فيما بين المسلمين لم ينف عنهم الأخوة في الإيمان.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ» هذا فيه الحث على تبليغ ما ورد عن الله وعن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدعوة إلى نشر العلم بين المسلمين، فمن أعطاه الله علمًا، فلا بد أن ينشره ولا يكتمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، فلا يجوز كتمان العلم إلا إذا ترتب على كتمان بعضه مصلحة راجحة؛ كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ. قال: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَكْبُلُوا»^(١).

أما إذا لم يترتب على نشر بعض العلم مفسدة، فإنه من الواجب عليه أن يبلغ العلم ولا يكتمه؛ لأن الناس بحاجة إليه.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَكْبُلُوا».

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَاعْلَمْ بَعْضَ مَنْ يُبْلَغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى مِمَّنْ سَمِعَهُ»، فالناس يتفاضلون في هذا، فمنهم من يحفظ النصوص، ولكنه قليل الفهم لا يستطيع أن يعرف ما فيها من أحكام ألفاظ هذه النصوص، والذين لم يحضروا ولم يسمعوا ما سمع من الأمور العلمية قد يكونون أفقه ممن حضروا، فيستفيدون مما بلغوا، ويفيدون غيرهم.

وهذه هي فائدة نشر العلم أن يصل لأناس يفقهونه، فدل على أن المقصود ليس إيصال النصوص فقط، وإنما المطلوب الفقه فيها والعمل.

ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قَالَهَا ثَلَاثًا)، وهذا في أن الأصل في الخطب ألا تطول، وإنما تختصر اختصارًا غير مخل؛ لأن هذا أدعى للفهم والانتباه، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقَصْرَ خُطْبَتِهِ مِئْنَةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ»^(١).

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِئْنَةٌ مِنْ فِقْهِهِ»، أي: علامة على فقهه، لكن بعض الناس يخالف السنة، فيقصرون الصلاة، ويطيلون الخطبة، فيجعلون الصلاة في دقيقتين والخطبة في ساعة أو أكثر، ولا يعلق منها شيء في الذهن ولا يحفظ منها شيء.



(١) أخرجه مسلم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَاتَّهَجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ» (١).

الشَّرْحُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، فالمراد بالمسلم هنا: كامل الإسلام؛ لأن الغيبة نقص في الإسلام، فمن كمال الإسلام ترك الغيبة، فمن تركها كمل إسلامه.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ»، كالسب والشتم والغيبة، وسلم المسلمون من يده بضربهم وإيذائهم بقتل أو أخذ مال، فاليد جارحة من الجوارح يكتسب بها المسلم أفعالاً خيرية أو أفعالاً محرمة، فمن الإسلام كف المسلم يده عن أذى النفس، ولسانه عن أعراضهم، فإسلام العبد يحتاج إلى المحافظة عليه مما يؤثر فيه من الأقوال المخلة والأفعال القبيحة وسائر التصرفات.

فالمسلم يكون مسلماً فيما بينه وبين الله بإخلاص العبادة له، وبتسليم قلبه له، ويكون مسلماً بينه وبين المسلمين بكفه لسانه عن شتمهم، ويده عن ضربهم وإيذائهم، فأفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق المسلمين.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»، الهجرة في اللغة: هي ترك الشيء^(١)، قال تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [الدثر: ٥]، أي: اترك عبادة الأصنام، ومنه ترك الوطن والخروج منه إذا كان في بقائه فيه مضرة على الدين، فالمسلم يفر ويخرج بدينه إلى مكان يأمن فيه على دينه؛ لذلك قَالَ العلماء في تعريف الهجرة: هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فرارًا بالدين.

كما هاجر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من مكة إلى المدينة، والهجرة باقية إلى قيام الساعة، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢)، أي: عند قيام الساعة حين تخرج الشمس على خلاف مخرجها من المشرق، فتخرج من المغرب، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فإذا خرجت الشمس من مغربها تنقطع الهجرة، ويغلق باب التوبة، ويبقى المسلم على إسلامه والكافر على كفره عليه علامة الكفر.

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ انْفِطِحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»^(٣)، أي: من مكة، فلا هجرة من مكة إلى المدينة؛ لأنها -أي: مكة- صارت بلد إسلام بعد فتحها، أما الهجرة العامة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فهي باقية.

(١) سبق تعريفها: (ص ١٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، والنسائي في الكبرى (٨٦٥٨) عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٣، ٢٨٢٥) بهذا اللفظ، ومسلم (١٣٥٣) بنحوه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه مسلم (١٨٦٤) بهذا اللفظ من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والمقصود: أن المهاجر كامل الهجرة من ترك الشرك، وترك المعاصي كالزنا وشرب الخمر وكل ما نهى الله عنه، وترك بلاد الكفر، فالهجرة تكون بالبدن، وهي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وتكون قلبية وذلك بترك المحرمات، أما من هجر بعض الذنوب والمعاصي، وبقي مستمرًا على بعضها، فهذا هجرته ناقصة.

والشاهد من الحديث: ترك الغيبة وهجرها؛ لأن فيها ضررًا على المسلمين.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا قُرْبَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: كُلُّهُ حَيًّا كَمَا أَكَلْتَهُ مَيِّتًا. فَيَأْكُلُهُ، وَيَخْلَجُ وَيَصِيحُ». رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى بِسَنَدٍ حَسَنٍ^(١).

وَلَا بِنِ حَبَّانَ وَصَحَّحَهُ عَنْهُ فِي قِصَّةٍ مَا عَزِزَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِأَخْرَ: انْظُرْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ تَدْعُهُ نَفْسُهُ حَتَّى رُجِمَ رَجْمَ الْكَلْبِ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلَا مِنْ جِيفَةِ هَذَا الْحِمَارِ الْمَيِّتِ كَمَا أَكَلْتُمَا مِنْ عَرِضِ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ مَا أَكَلْتُمَا أَشَدُّ مِنْ أَكْلِ هَذِهِ الْجِيفَةِ»^(٢).

الشَّجَرُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا قُرْبَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: كُلُّهُ حَيًّا كَمَا أَكَلْتَهُ مَيِّتًا. فَيَأْكُلُهُ، وَيَخْلَجُ وَيَصِيحُ»، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، فأكل لحوم الأموات أمر تنفر منه النفوس، والمغتاب إنما يأكل لحم أخيه بكلامه في عرضه، فكما أن أكل لحوم الناس بعد موتهم أمر تكرهه النفوس، فكذلك يجب أن تكره أكل أعراضها في حال حياتها؛ لأن ذلك أكل معنوي.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٢/٢)، وأبو يعلى (١١/١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٤/٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٤٤/١٠)، وأبو داود (٤٤٢٨)، والنسائي (٧١٢٦).

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»^(١).

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُرْدِ» نَحْوَهُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِيهِ: «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَغْتَابُ النَّاسَ»^(٢).

وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وَلِأَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِثْلُهُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢١٦)، وَمُسْلِمٌ (١١١) (٢٩٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَعَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرِ وَاحِدَةً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسَسَا».

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُرْدِ (ص ٢٥٦) بِرَقْم (٧٣٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَى عَلَى قَبْرَيْنِ يُعَذَّبُ صَاحِبَاهُمَا، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، وَبَلَى، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَغْتَابُ النَّاسَ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَتَأَدَّى مِنَ الْبَوْلِ»، فَدَعَا بِجَرِيدَةٍ رَطْبَةٍ، أَوْ بِجَرِيدَتَيْنِ، فَكَسَرَهُمَا، ثُمَّ أَمَرَ بِكُلِّ كِسْرَةٍ فَعَرَسَتْ عَلَى قَبْرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا إِنَّهُ سَيُهَوَّنُ مِنْ عَذَابِهَا مَا كَانَتْ رَطْبَتَيْنِ، أَوْ لَمْ يَبْسَسَا».

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٧/٣٤) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرَةَ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَأَمَاسِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي، وَرَجُلٌ عَنْ يَسَارِهِ، فَإِذَا نَحْنُ بِقَبْرَيْنِ أَمَامَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، وَبَلَى، فَأَيُّكُمُ يَأْتِينِي بِجَرِيدَةٍ؟» فَاسْتَبَقْنَا، فَسَبَقْتُهُ، فَأَتَيْتُهُ بِجَرِيدَةٍ، فَكَسَرَهَا نِصْفَيْنِ، فَأَلْفَى عَلَى ذَا الْقَبْرِ =

الشَّجَرُ

حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، فَأَحْوَالُ أَهْلِ الْقُبُورِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَلَكِنْ اللَّهُ يَطْلُعُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا يَشَاءُ، فَقَدْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى حَالِهَا، وَهَذَا مِنْ مَعْجَزَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَا نَحْنُ فَنَمُرُ عَلَى الْقُبُورِ، فَلَا نَرَى شَيْئًا، فَهَمُ فِي عَالَمٍ وَنَحْنُ فِي عَالَمٍ آخَرَ.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ»، وهذا دليل على أن العبد يعذب في قبره، فنحن نؤمن بذلك؛ كما أخبر الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعذاب القبر ثابت بالتواتر، وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نستعيز بالله منه في التشهد الأخير من الصلاة، ففي الحديث: استعيزوا بالله من أربع: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(١).

=قُطْعَةٌ، وَعَلَى ذَا الْقَبْرِ قُطْعَةٌ، وَقَالَ: «إِنَّهُ يَهُونُ عَلَيْهِمَا مَا كَانَتَا رَطْبَتَيْنِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ إِلَّا فِي الْبَوْلِ، وَالْغِيَةِ».

وأخرجه الطيالسي (٣٦٩/٤) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ فِي غَيْرِ كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ صَاحِبَ نَمِيمَةٍ»، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَوَضَعَ نِصْفَهَا عَلَى هَذَا الْقَبْرِ، وَنِصْفَهَا عَلَى هَذَا الْقَبْرِ وَقَالَ: «عَسَى أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهَا مَا دَامَتَا رَطْبَتَيْنِ».

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (١٢٨) (٥٨٨)، واللفظ لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ =

فلا ينكر عذاب القبر إلا أهل الضلال، أما أهل السنة والجماعة فيؤمنون به، ويعتقدونه، وهو من أصول العقيدة، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ»، ثم بين سبب تعذيبهما، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»، أي: هو سهل عليهما تركه، ومع ذلك لم يتركاه.

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ»، أي: إنه من كبائر الذنوب. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ»، وفي رواية: «لَا يَسْتَنْزِهُ»، والمقصود: لا يستنجي، ولا ينقي ذكره بالاستجمار، فالواجب على المسلم أن ينتظر حتى ينقطع البول، ثم يستجمر بالأحجار، أو يستنجي بالماء، فالذي لا يتحرز من بوله يعذب في قبره، وذلك كبيرة من كبائر الذنوب.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَمَّا الْآخَرُ، فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، هذا محل الشاهد من الحديث، وهي الوشاية ونقل الحديث على وجه الإفساد، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (١٠) هَازٍ مَشَامٍ بَنِيمٍ ﴿[القلم: ١٠-١١]. وفي الأثر: «يُفْسِدُ النَّهَامُ وَالْكَذَّابُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُ السَّاحِرُ فِي سَنَةٍ»^(١)، فالنهام أشد خطراً من الساحر من ناحية الإفساد بين الناس.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بعضاً ممن يتسبون إلى العلم يستخدمون الغيبة والنميمة من أجل التفريق بين العلماء وطلبة العلم، ونحن ندعوهم أن يكفوا عن ذلك.

يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ.

(١) سبق تحريجه (ص ٤٢٦).

وَلِلَّتَرْمِذِيِّ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا» - قَالَ بَعْضُ الرُّوَاةِ: تَعْنِي أَنَّهَا قَصِيرَةٌ - قَالَ: «لَقَدْ قُلْتُ كَلِمَةً لَوْ مُزِجْتُ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجْتُهُ». قَالَتْ: «وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا، فَقَالَ: مَا أَحَبُّ أَتَى حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنْ لِي كَذَا وَكَذَا»^(١).

الشَّيْخُ

حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه أنها قالت عن صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا. تَعْنِي: أَنَّهَا قَصِيرَةٌ» فإن صفية هي أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عرفت بصلاحها وتقواها، وهي صفية بنت حيي ابن أخطب، ومعلوم ما يكون بين النساء الضرائر، فعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا غارت منها، وقالت: «حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا. تَعْنِي أَنَّهَا قَصِيرَةٌ»، فقال لها النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَقَدْ قُلْتُ كَلِمَةً لَوْ مُزِجْتُ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجْتُهُ»، ولم يشفع لها أنها أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر عليها هذه الكلمة، وهذا فيه أنه يجب على المؤمن إنكار المنكر.



(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠٢، ٢٥٠٣)، وأبو داود (٤٨٧٥)، وأحمد (٤٢ / ٣٦١).

بَابُ: مَا جَاءَ فِي إِضْلَالِ الْأَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ أَضَلَّ الْأَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ»^(١).

وَلَا يُدَاوِدُ عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ، أَرَاهُ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»^(٢).

الشَّيْخُ

لقد حثت الشريعة على الرفق بالضعفاء وإعانتهم والشفقة عليهم، ومنهم الأعمى الذي لا يبصر الطريق، فالواجب إرشاده وتجنبيه ما أمامه من أخطار؛ لأنه فاقد للبصر، وأنت أنعم الله عليك بهذه الحاسة، والأصل استعمالها واستغلالها بما يرضي الله، وينفع الآخرين، سيما وفي هذا الحديث

(١) أخرجه أحمد (٢٦/٥) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أَبَاهُ، مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أُمَّهُ، مَلْعُونٌ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ تَحْوِمَ الْأَرْضِ، مَلْعُونٌ مَنْ كَمَّه أَعْمَى عَنِ طَرِيقٍ، مَلْعُونٌ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَيْمَةٍ، مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ بِعَمَلِ قَوْمٍ لُوطٍ». وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٠٧) برقم (٨٩٢)، والطبراني في الكبير (٢١٨/١١)، والحاكم (٣٩٦/٤)، وابن حبان (٢٦٥/١٠)، والبيهقي في شعب الإيثار

(٢٧٢/٧)، وأبو نعيم في الحلية (٩/٢٣٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٣)، وأحمد (٤٠٦/٢٤).

لعن من أضل الأعمى عن الطريق، سواء تعمد ذلك أو كان مازحاً، فإنه يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

وأما ما جاء في حديث أبي داود: «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ، أَرَاهُ قَالَ: بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»، فهذا الحديث فيه مسألتان:

المسألة الأولى: أن الواجب على المسلم أن يبادر لحماية أخيه ممن اغتابه، فيذب عنه مما يقوله المغتاب، فلا يجوز للمسلم أن يعيب أخاه ويتنقصه، بل يرفع من شأنه ويشني عليه، لا أن يشينه.

المسألة الثانية: إن فعل وشان أخاه كان جزاؤه أن الله يحبسه على جسر جهنم حتى يخرج مما قال؛ لأنه يوم القيامة ينصب الصراط، وهو الجسر الذي يضرب على متن جهنم؛ ليمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فإذا مر المسلمون عليه، فإنهم يمنعون من دخول الجنة حتى يوقفوا على القنطرة؛ ليقترض بعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم بدخول الجنة؛ لأن الجنة طيبة، لا يدخلها إلا الطيبون.

فالخط من أقدار المسلمين وتصغير شأنهم واحتقارهم أمر عظيم أشار إليه هذا الحديث، ولا سيما ما يفعله الكثيرون من أجل أن ينفض الناس عن فلان، فيطعنوا في أمانته وعلمه، وبعضهم يبرر عمله هذا بقوله: إن كلامي هذا من باب إنكار المنكر.

فسبحان الله! إن هذا هو المنكر بعينه؛ لأن ما قلته في أخيك غيبة، والغيبة من أعظم المنكر، والمنكر لا يقابل بمنكر أشد منه، فالواجب على المسلم أن يعرف هذه الأمور، ويحذر من لسانه، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: «وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»^(١).

فالكلام الذي يقوله الإنسان يحفظ ويدون على العبد، ومن ثم يجزى به، ويقتص منه للمظلوم، فلا بد أن يحذر العبد من اللسان؛ لأنه قد يضيع الحسنات، لا سيما إذا استخدمه في الكلام النابي والقذر، ومن أفذر الكلام الغيبة والنميمة التي تساهل فيها كثير من الناس.



بَابُ تَشْيِيعِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

الشَّيْخُ

تشيع الفاحشة بين المؤمنين معناه: ذكر الفاحشة التي تقع من بعض الناس، أو اختلاق شيء لم يقع، وذلك بنشرها في المجالس والاجتماعات أو في الصحف ووسائل الإعلام، وهو أمر لا يجوز من وجوه، منها: أنه فيه فضيحة وتشهير لمن وقع في الخطأ، ولأن هذا يبعث على التساهل في أمور الفواحش، ويجري الفسقة على ارتكابها، فيجب ألا تذكر في المجالس والصحف وغيرهما، وهذا الصنيع من الكبائر، فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أورد هذا الشيء في كتاب الكبائر لأهميته، وقد توعده الله تعالى الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا بأن لهم عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، فإذا كان فاعل ذلك متوعداً بالعذاب، فإن ذلك يدل على أنها كبيرة من كبائر الإثم؛ لأن هذا التوعد من ضوابط الكبيرة.

والمطلوب على ضوء ذلك محاصرة الجريمة وسترها وعدم نشرها، فالواجب على المسلم الإقلاع عن إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وأن يستر عليهم، والأصل في المسلم البراءة، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

بَابُ: الرِّشْوَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية [البقرة: ٤١].

عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ». وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

وَلِأَحْمَدَ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ وَالرَّائِشَ»^(٢)، يَعْنِي: الَّذِي يَمْشِي بَيْنَهُمَا.

الشَّرْحُ

من الكبائر: الرشوة، وهي المال الذي يدفع إلى الحكام والموظفين والمسؤولين، فالذي يدفع لهم رشوة يحصل على طلبه، والذي لا يدفع يمنع منه، والرشوة آفة عظيمة لا تنتشر في مجتمع من المجتمعات إلا أفسدته؛ لأنها تسبب الظلم ومنع المستحقين من تحصيل حقوقهم وإعطاءها إلى الظلمة.

والرشوة مأخوذة من الرشاء، وهو: الحبل الذي يستخرج به الماء من البئر، فالذي يدفع الرشوة يشبه الذي يدي بالحبلى إلى البئر؛ ليحصل على الماء^(٣)، والرائش هو الوسيط بين الراشي والمرتشي، قال الله تعالى:

(١) أخرجه الترمذي (١٣٣٧)، وأبو داود (٣٥٨٠)، وابن ماجه (٢٣١٣)، وأحمد (٨٧/١١).

(٢) أخرجه أحمد (٨٥/٣٧).

(٣) انظر: العين (٢٨١/٦)، وتهذيب اللغة (٢٧٩/١١)، والصحاح (٢٣٥٧/٦)، ولسان العرب (٣٢٢/١٤).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وَقَالَ عَنِ الْيَهُودِ: ﴿أَكَلُونَ لِلشُّحِّ﴾ [المائدة: ٤٢]، والسحت هو: الرشوة.

ففي تعاطي هذه الآفة خطر عظيم، فينبغي للمسلمين أن يتعاونوا ويتضافروا في إنكارها والتحذير منها والسعي إلى منعها؛ لأنها إن فشت في المجتمع ضاعت الحقوق، وانتشر الظلم، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

والرشوة أنواع، فقد تكون مالا أو منفعة، فكل شيء يبذل من أجل سلب حقوق الناس، فهو رشوة، وسواء سميت رشوة أو هدية أو إكرامية فهي رشوة، فالواجب على المسلم أن يتنزه عن الرشوة ولا يدفعها ولا يأخذها، ولا يسكت عمن يرى أنه يتعامل بها؛ لأن هذا منكر يجب إنكاره، فلقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١).



بَابُ: هَدَايَا الْأَمْرَاءِ غُلُولٌ

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدَّمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَالُ الرَّجُلِ نَسْتَعْمِلُهُ عَلَى الْعَمَالَةِ مِمَّا وَلَانِي اللَّهُ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي إِلَيَّ، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرُ هَلْ يُهْدَى إِلَيْهِ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خُورًا، أَوْ شَاةٌ تَبْعُرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالَهَا ثَلَاثًا»^(١).

الشَّيْخُ

وهذا نوع آخر من أنواع أكل أموال الناس بالباطل، وهو الغلول، والغلول: هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها؛ لأن الغنيمة التي تؤخذ من الكفار في الجهاد تجمع، ثم تقسم من قبل ولي الأمر أو من فوض إليه توزيعها على المقاتلين، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وإنما يأخذ المقاتل ما يقسمه له الوالي بعد نزع الخمس: للراجل سهم، وللفراس ثلاثة أسهم:

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢).

سهم له، وسهمان لفرسه^(١)، ولا يحق لأحد أن يخفي شيئاً، ويدخل في ذلك ما يؤخذ من بيت مال المسلمين، كأن يأخذ الموظفون من بيت المال دون إذن ولي الأمر، فيلحق هذا بالغلول؛ لأنه مال مشترك.

وأما حديث أبي حميد، وفيه: «اِسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا عَلَى الصَّدَقَةِ....» إلى آخره، هذا الحديث يشير إلى نوع آخر من أنواع الغلول، وهو هدايا العمال، فإذا ولي ولي الأمر عمالاً لجباية الزكاة، فلا يجوز لهم أن يأخذوا من أصحاب الأموال شيئاً غير الزكاة التي عمدوا في جبايتها.

فقد استعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً ليجبي الزكاة، فصار هذا الرجل يقبل الهدايا من الناس بحكم منصبه، فلما قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه أموال الزكاة، دفعها، وقال: هذا لكم، وأمسك ما أهدي إليه، فغضب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «مَا بَالُ الرَّجُلِ نَسْتَعْمِلُهُ عَلَى الْعَمَالَةِ مِمَّا وَلَّانِي اللَّهُ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أَهْدِي إِلَيَّ، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرَ هَلْ يَهْدِي إِلَيْهِ شَيْءٌ أَمْ لَا؟»، ثم بيّن أن من أخذ شيئاً بأنه يأتي بحمله يوم القيامة فضيحة له؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

والإنسان لا يستطيع أن يحمل بعيراً أو بقرة على رقبته، ولكن يكلف هذا؛ عقوبة له وفضيحة.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٨٦٣، ٤٢٢٨)، ومسلم (١٧٦٢): عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ، وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا» قَالَ: فَسَرَّهُ نَافِعٌ فَقَالَ: «إِذَا كَانَ مَعَ الرَّجُلِ فَرَسٌ فَلَهُ ثَلَاثَةُ أَشْهُمٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَسٌ فَلَهُ سَهْمٌ».

بَابُ: الْهَدِيَّةِ عَلَى الشَّفَاعَةِ

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ شَفَعَ لِأَخِيهِ شَفَاعَةً، فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا، فَقَبِلَهَا، فَقَدْ أَتَى بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الرِّيَاءِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١).

وَرَوَاهُ إِبْرَاهِيمُ الْحَرَبِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «السُّخْتُ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ الْحَاجَةَ فَتُقْضَى لَهُ، فَيُهْدِي إِلَيْهِ فَيَقْبَلَهَا» (٢).

وَلَهُ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ رَدَّ عَنْ مُسْلِمٍ مَظْلَمَةً، فَأَعْطَاهُ عَلَيْهَا قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا، فَهُوَ سُخْتُ. قُلْنَا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا كُنَّا نَرَى السُّخْتَ إِلَّا الرُّشُوءَ فِي الْحُكْمِ؟ قَالَ: ذَلِكَ كُفْرٌ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]» (٣).

الشَّيْخُ

الشفاعة هي: الوساطة في تحصيل المطلوب، فهناك طالب ومطلوب منه. وشافع: وهو الواسطة بين الاثنين لقضاء حاجة الطالب من المطلوب، وسميت شفاعة من الشفع، هو ضد الوتر؛ لأن الطالب كان وترًا في طلبه، أي: منفردًا، فجاء الشافع، فانضم إليه، فصار شفعا بعد أن كان وترًا في

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٤١)، وأحمد (٥٨٨/٣٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٤/٤)، والطبراني في الدعاء (ص ٥٨٠).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/٢٢٥)، وفي الدعاء (ص ٥٨٠)، وأبو يعلى (٩/١٧٣)، والبيهقي في الكبرى (١٠/٢٣٤)، وفي شعب الإيمان (٧/٣٥٥)، وابن أبي شيبة (٤٤٣/٤).

طلبه، هذا اشتقاقها من حيث اللغة^(١)، قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾

[النساء: ٨٥].

فالشفاعة الحسنة فيها ثواب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ»^(٢)، إلا في الحدود، فإن الشفاعة فيها لا تجوز إذا بلغت السلطان، أما إذا كانت الشفاعة فيها مصلحة للمشفوع له في غير الحدود، وليس فيها مضرة لأحد، ولا يأخذ الشافع في مقابلها شيئاً، فإن فيها أجراً عظيماً وهي شفاعة حسنة، ويحتسب الأجر فيها عند الله.

أما حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ شَفَعَ لِأَخِيهِ شَفَاعَةً»، يعني: شفاعة حسنة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَهْدَى لَهُ»، أي: المشفوع له.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَدِيَّةٌ عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا، فَقَدْ أَتَى بَاباً مِنْ أَبْوَابِ الرَّيَا»؛ لأن الأصل ألا يأخذ شيئاً؛ لأنه يريد الأجر الأخروي، فلا يبطله بأخذ الأجرة الدنيوية؛ لأن هذا يعطل الشفاعة بين الناس، فإن أخذ هذه الهدية، يكون قد وقع في الربا؛ لأن الربا هو الزيادة التي تؤخذ من غير مقابل، ويكون في المعاملات وغيرها، وهو أخذ بغير حق، هذا من ناحية.

والأمر الآخر: أن الشفاعة عمل خير، فالأصل أن تكون خالصة لله عَزَّ وَجَلَّ لا يقصد بها طمع الدنيا، فكيف يأخذ عليها أجراً؟

(١) سبق بيانه (ص ٤٦٤).

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٦٤).

ما رُوِيَ عن إبراهيم الحربي عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «السُّحْتُ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ الْحَاجَةَ، فَتَقْضَى لَهُ، فَيُهْدَى إِلَيْهِ فَيَقْبَلُهَا»، فسمى الهدية على الشفاعة سحتًا، يعني: محرماً شديد التحريم.

فالشفاعة الحسنة تكون في تحصيل مطلوب مباح، أو بدفع ضرر، فلا تقبل هدية في مقابل ذلك؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سموها هذا سحتًا، قيل للصحابي: أليس السحت هو الرشوة في الحكم؟ فقال: ذلك كفر، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد يكون الحكم بغير ما أنزل الله كفرًا أكبر مخرجًا من الملة، وقد يكون كفرًا أصغر بحسب اعتقاد الحاكم، كأن يتعمد الحكم بغير ما أنزل الله، فإن استباحة الحكم بغير ما أنزل الله كفر أكبر، على تفصيل في المسألة في كتب أهل العلم، وقد بين ذلك ابن كثير في تفسيره عند ذكر هذه الآية^(١).



(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١١٩-١٢٠).

بَابُ: الْغُلُولُ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية [آل عمران: ١٦١].

الشَّرْحُ

سبق بيان أن الغلول ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: غلول يؤخذ من المغانم.

القسم الثاني: غلول العمال الذين يأخذون الهدايا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١])، فسبب نزول هذه الآية أنه في بعض المغازي جمعت الغنائم وأحصيت، ولكنهم فقدوا قطيفة حمراء، وقالوا: لعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذها؛ لأن له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتصرف بحكم ولايته، فنفى الله عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يغل، يعني: لو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذها لكان غالاً، فكيف بغيره؟^(١).

فهذا يدل على شدة تحريم الغلول، سواء كان من نبي، أو من غيره إلا ما خص به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما أباحه الله له بقوله تعالى: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر: ٦].

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/ ١٩٣)، وزاد المسير (١/ ٣٤١)، والقرطبي (٤/ ٢٥٤)، وابن كثير (٢/ ١٥٠).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ خَيْبَرَ انْطَلَقْنَا إِلَى الْوَادِي، وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدٌ لَهُ، يُقَالُ لَهُ: مَدْعَمٌ، فَلَمَّا نَزَلْنَا الْوَادِي رُمِيَ بِسَهْمٍ فَمَاتَ، فَقُلْنَا النَّاسُ: هَنِئًا لَهُ بِالشَّهَادَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ لَتَلْهَبَ عَلَيْهِ نَارًا، أَخَذَهَا مِنْ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصْبِحْهَا الْمَقَاسِمُ»، فَفَزَعَ النَّاسُ، فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكِ أَوْ بِشِرَاكِينِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَبْتُ يَوْمَ خَيْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «شِرَاكِ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكِانِ مِنْ نَارٍ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّجَرُ

وفي هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء غزوة خيبر مشى هو وأصحابه في وادٍ، وكان مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد مملوك له، فأصيب بسهم، فقالوا: «هنيئًا له الشهادة»؛ بناء على ظاهره، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ لَتَلْهَبَ عَلَيْهِ نَارًا»، والشملة: نوع من الكساء يلبسه الإنسان، إما أن يكون إزارًا ورداءً، أو قطعة واحدة كان قد أخذها هذا العبد قبل القسمة، فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها ستتحول إلى نار يعذب بها، فدل على أن الغلول يمنع من تحصيل أجر الشهادة، فإذا قتل المجاهد وكان غالًا، فلا ينال أجر الشهداء، فالغلول يمنع الشهادة، فجاء رجل لما سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول ذلك بشراك أو

شراكين، والشراك: سير النعل الذي يكون على ظهر القدم، كان قد أخذهما، وما ظن أن لهما حكم المغنم، فقال النبي ﷺ: «شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ».

والمعنى: أن الغلول يوجب النار وإن كان شيئاً حقيراً، فما أخذ من الغنيمة مهما كان صغيراً أو كبيراً قبل القسمة، فإنه يكون غلولاً وناراً على صاحبه.

فحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المراد منه: أنه على المجاهد إذا أخذ غنيمة أن يرجعها؛ لأنها أمانة، فيدفعها إلى المغنم؛ لكي تقسم، ويكون هو من ضمن الذين تقسم عليهم ولا يقول: أنا وجدتها.



بَابُ: طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] الآية. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنقِضُوا إِلَهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦] الآية.

الشَّرْحُ

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ)، لما كان لا بد للناس من اجتماع يتعاونون فيه على مصالح دينهم ودنياهم؛ لأن هذا من الضرورات، فالإنسان لا يعيش وحده منفردًا، بل لا بد أن يجتمع مع بني جنسه؛ كما قالوا في المثل: «الإنسان مدني بالطبع»، لما كان الأمر كذلك، وكانوا إذا اجتمعوا في مدينة، أو في قرية، أو في بادية، أو في أي مكان يحصل من بعضهم اعتداء على الآخر، إما في النفس، وإما في المال، وإما في غير ذلك، طبيعة البشر، الإنسان من طبيعته الظلم والعدوان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وكان لا بد مِمَّنْ يحكم بينهم في رد الظالم وإنصاف المظلوم، لا بد من حاكم يرجعون إليه ويفصل بينهم ويتولى شؤونهم، وهذا الحاكم هو السلطان، وهو ولي الأمر، ولا يتم ولا يحصل إقامة السلطان إلا بالسمع والطاعة له، ولذلك أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَوْلَاةِ الْأُمُورِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن

نَنْزَعُكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿[النساء: ٥٩].

فَأَمْرٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِطَاعَةِ وَلَاةِ الْأُمُورِ بَعْدَ طَاعَتِهِ - سُبْحَانَهُ - وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَطَاعَةِ وَلَاةِ الْأُمُورِ تَابِعَةً لَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، الْمَرْجِعُ الَّذِينَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ وَيَحْتَكِمُونَ إِلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ، ﴿فَإِنْ نَنْزَعُكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، الْمَرْجِعُ هُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ، وَالْمَنْفَذُ هُوَ السُّلْطَانُ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ، وَلِذَلِكَ نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْ مَعْصِيَةِ وَلَاةِ الْأُمُورِ، وَعَنْ مَخَالَفَتِهِمْ مَا دَامُوا مُسْتَقِيمِينَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا تَجُوزُ مَعْصِيَتُهُمْ، وَلَا الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ؛ لِمَا يَسْبِيهِ ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاسِدِ مِنْ اخْتِلَالِ الْأَمْنِ، وَتَسَلُّطِ الظُّلْمَةِ، وَاعْتِدَاءِ الْمَجْرِمِينَ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي بَعْضِ وَلَاةِ الْأُمُورِ شَيْءٌ مِنَ النِّقْصِ فِي دِينِهِ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الْكُفْرِ، حَتَّى لَوْ كَانَ بَعْضُ الْوَلَاةِ ظَالِمًا فَإِنَّهُ تَجِبُ طَاعَتُهُ، فَيَحْرَمُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِ، وَيَجِبُ الصَّبْرُ عَلَى مَا يَحْصُلُ مِنْهُ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ، وَلِمَا فِي مَعْصِيَتِهِمْ - الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ - مِنَ الشَّرُورِ الْكَثِيرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُخَدَّنَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُخَدَّنَةٍ

بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١)، ولهذا صار إقامة السلطان، وإقامة ولي الأمر أمراً ضرورياً، وواجباً على الأمة، ولا يجوز لهم أن يبقوا بدون ولي أمر، ولهذا يقول الشاعر^(٢):

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهِاتُهُمْ سَادُوا

فلا بد من إقامة الحكم وإقامة السلطان؛ لما يزع الله به من الشرور، ويدفع به من الفتن، ولهذا يقول أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-: «إِنَّ اللَّهَ يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ -يعني: يدفع بالسلطان- مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ»^(٣)، القرآن الناس يقرؤونه، ولكن يعتادون، ولا يمنعهم هذا، وإن كانوا يقرؤون القرآن لا يمنعهم ذلك من العدوان، لكن السلطان يردعهم بالقوة، ويأخذ على أيديهم، ويمنعهم من العدوان بعضهم على بعض، فمنصب السلطان منصب عظيم، ولا بد منه وهو من الضرورات، ولا يجوز للمسلمين أن يعيشوا ولو فترة يسيرة بدون سلطان، ولهذا لما توفي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يشتغلوا بتجهيزه -من تغسيله وتكفينه، والصلاة عليه، ودفنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حتى نصبوا ولي الأمر، وبايعوا أبا بكر الصديق

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (١٢٦/٤)، والدارمي (٩٥)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١٧٨/١)، والحاكم في المستدرک (١٧٦/١)، والبيهقي في الكبرى (١١٤/١٠).

(٢) البيت للأفوه الأودي صَلَاة بن عمرو بن مالك اليميني (المتوفى: ٥٦٠م). انظر: ديوانه (٦٦/١)، والشعر والشعراء (٢١٧/١)، والعقد الفريد (١١/١)، والصحاح (١٠٩٩/٣).

(٣) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٩٨٨/٣)، بلفظ: «لَمَّا يَزَعُ السُّلْطَانُ النَّاسَ أَشَدَّ مِمَّا يَزَعُهُمُ الْقُرْآنُ»، وأخرجه بنحوه ابن عبد البر في التمهيد (١١٨/١).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَلِيفَةُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِمَا يَعْلَمُونَهُ مِنَ الضَّرُورَةِ لِنَصَبِ
الإمام، وأنها لا تمر ساعة بدون إمام.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ﴾ [النساء: ٥٩])، هذا خطاب من الله ونداء من الله للمؤمنين
الذين يؤمنون بالله ورسوله؛ لأنهم يمثلون أمر الله، ويستمعون لنداء الله،
فلذلك وجه النداء إليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾، الدرجة الأولى:
طاعة الله جَلَّ وَعَلَا بامثال أوامره واجتناب نواهيه؛ لما في ذلك من العبودية لله،
ولما في ذلك من المصلحة للناس.

وبعد طاعة الله طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه المبلغ عن الله، قال
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيفًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ
بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقد ذكر الله ما في طاعة الرسول من الفوائد
العظيمة: ﴿وَلِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، تأتي طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم الدرجة الثالثة: أولو الأمر للمسلمين، ولادة أمور المسلمين تجب
طاعتهم ما لم يأمرُوا بمعصية، فإذا أمرُوا بمعصية، فلا طاعة لهم في المعصية،
وإنما يطاعون فيما عداها مما ليس فيه معصية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، وأولو الأمر في الدرجة الأولى هم ولادة الأمور
أمور السلطة، العلماء من ولادة الأمور من الناحية العلمية، والأمراء من

الناحية السياسية، فلا بد أن يُطاع ولاية الأمور من الأمراء ومن العلماء؛ لأنهم هم ولاية الأمور.

طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر تتكامل بها الحياة السعيدة، تتكامل بها مصالح البشر ومنافع الناس.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦])، اتقوا الله، أي: اتخذوا بينكم وبين الله وقاية تقيكم من عذابه، وذلك بفعل أوامره -سُبْحَانَهُ-، وترك نواهيه، فإن هذا الذي يقيك من عذاب الله، ومن غضب الله، وتقوى الله بحسب الاستطاعة؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، أي: تستطيع، وما لا استطاع فإن الله لا يكلف به. فيجب على المسلم أن يتقي الله مهما استطاع، فإذا عجز فإنه غير مؤاخذ.



عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ مَرْفُوعًا: «الْغَزْوُ غَزْوَانٍ: فَأَمَّا مَنْ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ، وَأَطَاعَ
الْإِمَامَ، وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ، وَيَاسَرَ الشَّرِيكَ، وَاجْتَنَبَ الْفُسَادَ، فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنُبْهَهُ أَجَرَ
كُلِّهِ، وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخَرًّا وَرِبَاءً وَسُمْعَةً، وَعَصَى الْإِمَامَ، وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ
لَمْ يَزِجْغْ بِالْكَفَافِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ^(١).

الشَّرْحُ

الغزو هو الخروج للجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، غزو الكفار
والمفسدين في الأرض؛ لأجل إزالة ضررهم، وهذا من مناصب الإمام،
الغزو من صلاحيات الإمام، ولا يقوم غزو ولا جهاد بدون إمام بدون ولي
أمر، فإمام المسلمين هو الذي ينظم الجهاد، وهو الذي يأمر به، وهو الذي
ينظر في أحوال المسلمين: هل يستطيعون الجهاد، أو لا يستطيعون، فهذا من
صلاحيات ولي الأمر.

وقد قسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغزو إلى قسمين:

القسم الأول: غزو صحيح، وهو الذي تكون فيه المصالح والمقاصد
العظيمة، وهو الغزو الذي يكون لإعلاء كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونشر الإسلام
والدفاع عن الدين.

القسم الثاني: غزو ليس في سبيل الله، وهو ما يُراد به الرياء والمفاخرة
والسمعة، أو طمع الدنيا، وهذا محرم.

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٥)، والنسائي (٤٣٨٢)، وأحمد (٣٦٨/٣٦)، والدارمي (٢٤٦١).

ولهذا سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيَرَى مَكَائِهِ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١))، الذي يكون قصده إعلاء كلمة الله فهو في سبيل الله، ومن عداه فإنه في سبيل ما قصدوا، ليس لهم غير ما قصدوا، وهذا كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(٢) حسب النيات، ليست العبرة بالمظاهر، إنما العبرة بالنيات والمقاصد، والله يعامل الخلق بحسب نياتهم ومقاصدهم، ولا يعلم النيات والمقاصد إلا الله جَلَّ وَعَلَا، فهو الذي يعلمها، ويعامل العباد بموجبها.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْغَزْوُ غَزَوَانِ: فَأَمَّا مَنْ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ، وَأَطَاعَ الْإِمَامَ»، أما من ابتغى بالغزو وجه الله، وهذا كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ هِيَ الْعُلْيَا» هذا الذي ابتغى وجه الله.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَطَاعَ الْإِمَامَ»، هذا محل الشاهد من الحديث للباب، «أَطَاعَ الْإِمَامَ»: إمام المسلمين، فدل هذا على أن الجهاد من صلاحيات الإمام، وأن الغزو من صلاحيات الإمام، فلا أحد يغزو أو يجاهد بدون إذن إمام المسلمين، فمن أصلح نيته لله وأطاع الإمام حصل على المقاصد العظيمة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ»، يعني: في سبيل الله، أنفق المال الجيد، الكريمة يعني: المال الجيد، ليس المال الرديء أو القليل، الذي لا ينفع أو يقل نفعه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَبِّئَتِ مَا

(١) سبق تخريجه (ص ٢٧٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ٦٣).

كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ ﴿[البقرة: ٢٦٧]﴾، الخبيث يعني: الرديء من المال، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِعَاجِزِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَكِيمٌ﴾، فإذا أراد الإنسان أن ينفق فإنه ينفق من أجود ما عنده، أو من متوسط ما عنده، وأما من ينفق الرديء الذي ليس له به رغبة هذا لا فائدة فيه ولا أجر فيه، وكلما طابت النفقة كانت من كسب طيب ومن مال حلال، وكانت -أيضاً- نفقة جيدة النوع كثيرة النفع، فإن أجرها يكون أعظم، نفقة كريمة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيَأْسَرَ الشَّرِيكَ»؛ لأن الناس يشتركون في حاجة الناس للشركات والاشتراك في البيع والشراء والمشاريع وغير ذلك، فيكون الشريك ناصحاً لشريكه، ويكون -أيضاً- متفاهماً معه، ولا يكون بينهم شقاق، ولا يخون شريكه، بل يكون ناصحاً لشريكه، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحديث القدسي: «أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ»^(١)، الشركة تقوم على المناصحة، وعلى الصدق، وعلى الوفاء.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَجْتَنَّبَ الْفُسَادَ»، واجتنب الفساد بعمومه، الفساد ضد الصلاح، يجتنب المعاصي؛ لأنها فساد، اجتنب أنواع المنهيات؛ لأن كل المناهي هي فساد، فالغازي أولى بهذه الأمور أن يُخلص نيته لله عَزَّجَلَّ، وأن يطيع ولي الأمر، وأن يتصالح مع شريكه في الغزو أو في غيره، وأن ينفق من أجود ما أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٨٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنُبْهَهُ أَجْرُ كُلُّهُ»، إذا اتصف بهذه الصفات فإنه يؤجر على أحواله في الغزو، سواء كان مستيقظاً أو كان نائماً؛ معاملة له بنيته الطيبة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخَرًّا وَرِيَاءً وَسُمْعَةً، وَعَصَى الْإِمَامَ»، وأما من غزا فخرّاً وعصى ولي الأمر، هذا النقيض من الأول، ما غزا لوجه الله عَزَّجَلَّ، وابتغاء مرضاته، إنما غزا للمفاخرة؛ لِيُمدح، ويقال عنه، ويقال: إنه بطل، وإنه شجاع، إلى آخره....، وعصى الإمام، لا يتماشى مع أوامر الإمام، ويحتقر الإمام، فهذا لم يتأدب بآداب الغزو، وعصى الإمام، الفخر عرفنا، والرياء: أن يقصد بعمله المدح، يعمل الأعمال؛ ليراه الناس، ويمدحوه إذا رأوه، فالرياء فيما يُرى من الأعمال، والسمعة فيما يُسمع من الأقوال، كأن يقرأ القرآن، وكثير من التسييح والتهليل بذكر الله، وهو يريد بذلك أن يسمعه الناس، فيثنوا عليه، هذا في الغازي وفي غيره.

«وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ تَمَّ يَرْجِعُ بِالْكَفَافِ»: لا يتجنب المفسد، لا يتجنب إضاعة الصلاة، لا يتجنب الغيبة والنميمة، لا يتجنب أكل الحرام، لا يتجنب جميع أنواع الشهوات المحرمة، بل يعطي نفسه ما تريد مما لا يحل لها، فهذا لا يرجع كفافاً، يعني: لا يرجع سالمًا، الأول رجع غائبًا ومأجورًا ومغفورًا له، وهذا لا يرجع كفافاً، يكون خروجه تبعاً عليه، ولا يرجع منه بفائدة، والشاهد منه: «وَعَصَى الْإِمَامَ»؛ لأن الباب بَابُ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ.



وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

«عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ» لمن؟ لولي الأمر.
«فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ»، يعني: سواء كان أمر ولي الأمر يوافق رغبته وهواه، أو لا يوافق رغبته وهواه، أما الذي ما يطيع ولي الأمر إلا فيما يرغبه، ولا يطيعه فيما لا يرغبه، فهذا متبع لهواه، فعلى المسلم السمع والطاعة فيما أحب وفيما كره -يعني: ما لا يرغبه-؛ لما في ذلك من المصلحة العظيمة، قد يكره الإنسان شيئاً، وهو خير له؛ كما قال تعالى: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فليست العبرة برغبة الإنسان، العبرة بما يترتب على الشيء من المصالح والمنافع، وإن كان يكرهه في نفسه، لكن العاقبة تكون حميدة، وقد يحب الإنسان شيئاً، ويرغب في شيء، وهو ضرر عليه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، الله يعلم ما فيه مصلحتكم، ولو كرهتموه،

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٥، ٧١٤٤)، ومسلم (٣٨) (١٨٣٩).

ويعلم ما فيه مضر تكم ولو أحببتموه، فأطيعوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه لا يأمركم إلا بما هو صالحكم، ولا ينهاكم إلا عما فيه مضر تكم؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون، ويعلم العواقب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فعلق رغبتك بأمر الله وأمر رسوله، فإذا أمر الله أو أمر رسوله بشيء، فبادر بالامتثال ولو كانت نفسك تتثاقل، أو تكره هذا الشيء؛ لأنك تعتقد وتتيقن أن هذا هو عين المصلحة.



بَابُ: الْخُرُوجِ عَنِ الْجَمَاعَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْخُرُوجِ عَنِ الْجَمَاعَةِ)، عرفنا في الباب السابق أنه لا بد من الجماعة، لا بد للناس من الاجتماع، والاجتماع لا يتم إلا بولي أمر، وولاية الأمر لا تتم إلا بالسمع والطاعة، وعدم المعصية لولي الأمر، وهذا من الكبائر، ولذلك ذكر الشيخ هذا الباب في كتاب الكبائر معصية ولاة الأمور من كبائر الذنوب.

فلما ذكر في الباب السابق وجوب السمع والطاعة لولاية الأمور، وما في ذلك من المصالح ودفع المضار ذكر في هذا الباب ما في الخروج عليهم ومعصيتهم من المضار الخطرة عاجلاً وآجلاً، الخروج على ولي الأمر كبيرة من كبائر الذنوب، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»^(١).

طاعة ولي الأمر من طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل من طاعة الله؛ لأن الله قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾،

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (٣٢) (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فطاعة ولي الأمر من طاعة الله ورسوله، إلا إذا أمر بمعصية - لأنه بشر قد يأمر بمعصية-، فأنت تتجنب المعصية، ولا تفعلها، «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»^(١).

لكن ليس معنى هذا أنك تنقض البيعة وأنك تخرج على الإمام، تقول: لأنه أمر بمعصية، المعصية تجنبها لا تفعلها، وأما أن تطيعه في بقية الأمور فهذا واجب عليك.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِيهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥])، هذا وعيد نتركه في غيه وضلاله، ﴿وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ﴾، و﴿تُولِيهِ مَا تَوَلَّى﴾ هذا في الدنيا - والله أعلم -، ﴿وَنُصِّلِهِ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة هذا مصيره.

﴿يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ ما معناه؟ يخالف الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكون في شق، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شق آخر، هذا مشاقة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الرسول يأمر وينهى، وهو مخالف لنهي الرسول وأمره، يكون في جانب آخر، ليس هو في الجانب الذي فيه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا نَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾، أما إذا كان جاهلاً ولا يدري، فإنه معذور حتى يعلم، فإذا علم وشاق الرسول بعد العلم هذا توعدده الله بهذا الوعيد: ﴿تُولِيهِ مَا تَوَلَّى﴾؛ يتركه الله في ضلاله وفي غيه؛ عقوبة له عاجلة في الدنيا، ويعذبه في الآخرة.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٤٥/٦)، والخلال في السنة (١١٣/١) من حديث الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]، هذا محل الشاهد من الآية.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، المؤمنون جماعة واحدة، وتحت قيادة
إمام واحد، فهو يخرج عليهم، ويتبع غير سبيلهم، ﴿تَوَلَّاهُ مَا قَوَّيْ وَنُصَلِّهِ
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فهذا فيه تحريم الخروج على ولي الأمر؛ لأنه اتباع لغير سبيل المؤمنين؛
لأن سبيل المؤمنين طاعة ولي أمر المسلمين، وهذا عصي ولي أمر المسلمين،
فخرج عما عليه المسلمون واتبع غير سبيلهم.

وقد احتج الأصوليون -أصحاب أصول الفقه- بهذه الآية على حجية
الإجماع أن المؤمنين إذا أجمعوا على شيء، فلا تجوز مخالفتهم، مخالفة الإجماع
خطيرة جدًا، وشذوذ عن جماعة المسلمين، وانفراد عن طاعة ولي الأمر،
فهو شاق الرسول عن علم وعن معرفة، وتجنب ما عليه المسلمون، اتباع
غير سبيل المؤمنين، فهذا جنى على نفسه أعظم الجناية، فالآية فيها دليل على
تحريم الخروج عما عليه المسلمون، ومن ذلك طاعة ولي الأمر الذي هو من
صالح الجميع، فائدة الجميع.

فأنت لو فكرت وتدبرت حالة ولي الأمر وحالة المسلمين معه ولي الأمر
يتعب، ويواجه المشاكل، ويواجه الأخطار، ودائمًا هو في عراك مع المشاكل،
وأنت في راحة وفي أمن واستقرار تحت ظل ولي الأمر، فهذا مما يوجب
الشكر، على المسلمين أن يشكروا الله الذي جمعهم وأقام لهم إمامًا يسهر على

مصالحهم وعلى أمنهم واستقرارهم، فهو عليه التعب العظيم لكنه مأجور، إذا صلحت نيته هو مأجور أجراً عظيماً، ونحن في راحة واستقرار وفي أمن، وفي رغد من العيش.

هو - كما تعلمون - دائماً يصارع المشاكل، دائماً يجاذر من العدو، دائماً يخشى من هجوم العدو، ومن مخاطر الفتن والشور، وأنتم آمنون مستقرون، تنامون وتأكلون وتشربون، فهذا يجب على المسلم أن يتفكر فيه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]).

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، هذا محل الشاهد، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ الذي هو القرآن، تمسكوا به، القرآن والرسول والإسلام كله حبل الله جَلَّوَعَلَا، تمسكوا به، اعتصموا به، الاعتصام أن تلجأ إلى شيء تأمن تحته؛ لأنك في هذه الدنيا في مجال حوادث وتغيرات وشور، فأنت تلتجئ إليه من هذه الشور وهذه الفتن، تلتجئ إلى كتاب الله، وإلى سنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى دين الإسلام، تعتصم بذلك.

ثم قال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، نهى عن التفرق؛ لأن التفرق عذاب، والاختلاف عذاب، والاجتماع رحمة وأمن واستقرار، فهذا في قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، النهي عن الخروج على ولي الأمر؛ لأنه تفرق واختلاف، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وهذا من مصالحنا نحن، والخير راجع إلينا، نحن الذين نجني الثمرات من الاجتماع والائتلاف وطاعة ولاية الأمور، نحن الذين نجني الفوائد، ونجني الراحة والاستقرار، فلنا الثمرة، وعليهم التعب والمشقة، فلذلك يجب أن نحترمهم، وأن نجلهم، وأن نتعاون معهم، وأن ندعو لهم بالصلاح والاستقامة والتوفيق؛ لأن هذا من صالح المسلمين، وأن نناصحهم، ونتعاون معهم؛ حتى يستقيم الأمر لنا ولهم.



عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيُضْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شَبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيُضْبِرْ»، هذا فيه أن الأمير قد يحصل منه شيء يكرهه، ليس دائمًا كل أوامره صالحة، أو كلها ترضيك، أو كلها مصلحتك، لا، قد يكون فيها أشياء لا ترضاها لدينك، أما دينك فلا تقبلها، لكن دينك تكرهها؛ لأن فيها نقصًا عليك في الدنيا، أو مشقة عليك في الدنيا، أو يظلمك، يأخذ مالك، أو يضرب ظهرك، فعليك أن تصبر، ولا تنازع ولي الأمر، ولا تشق عصا الطاعة؛ لأن الصبر على هذا أخف من الفتن التي تحصل بسبب الخروج على ولي الأمر، مهما ينالك من ولي الأمر من الظلم ومن المشقة لا شك أنك تكره هذا، وأنه ضرر عليك، لكن يقولون: «ارتكاب أخف ضررين لدفع أعلاهما واجب»، فأنت عليك ضرر، لكن خروجك عليه فيه ضرر أكثر، وهو شق عصا الطاعة وتفريق الكلمة، هذا من ناحية العموم.

من ناحية الخصوص -أيضًا- فإذا خرجت عن جماعة المسلمين، وخلعت ربة الإسلام من عنقك، ستموت ميتة جاهلية؛ لأن أهل الجاهلية هم الذين لا يصبرون على طاعة ولا تنهم، وهم الذين لا تجمعهم غاية، أهل الجاهلية معروفون بالتفرق والاختلاف والثرات والغارات بينهم، فمن

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (٥٥) (١٨٤٩).

خرج من الإسلام وعصى ولي الأمر خرج إلى الجاهلية، فإذا مات ولم يتب فإنه يموت على ما كانت عليه الجاهلية، يموت على خصلة من خصال الجاهلية، وهي معصية ولي الأمر والخروج عليه.

هذا دليل على أن الخروج على ولي الأمر كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن أمور الجاهلية كلها كبائر، ومن ذلك معصية الولاية، وهذا معروف عن أهل الجاهلية.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ حَظِيْفَةِ مَرْفُوعًا: «سَتَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُونُ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَسْمَعُ وَتَطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِع»^(١).

الشَّجَرُ

هذا حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -أيضاً- يحث على الصبر على ما ينال الإنسان من الولاة، الولاة بشر يحصل منهم غضب، يحصل منهم بطش، يحصل منهم مصادرة أموال للناس، يحصل منهم معاصي في أنفسهم، يحصل منهم فسق في أنفسهم، لكن يُصبر على هذا في مقابل جمع كلمة المسلمين -ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما-، فدل هذا على وجوب السمع والطاعة، حتى لو نالك من الأمير ما ينالك من ضرب ظهرك بالسياط، وأخذ مالك بالمصادرة، وهذا ظلم، ولكن تصبر عليه، ولا تشق عصا الطاعة، ولا تقلب على الأمير؛ لأن هذا يترتب عليه من المفسدة أعظم من

(١) أخرجه مسلم (٥٢) (١٨٤٧) عَنْ أَبِي سَلَامٍ قَالَ: قَالَ حَظِيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ، فَجَاءَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، فَفَنَحْنُ فِيهِ، فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُونُ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَسْمَعُ وَتَطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِع».

المفسدة التي نالتك أنت في نفسك؛ لأن مفسدة هذا عامة للناس كلهم، أما ما نالك أنت فهذا خاص بك، مضرّة فردية تصبر عليها، ولك الأجر عند الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، هذا مع الولاة الظلمة والفساق، فكيف بالولاة الطيبين والولاة الصالحين والعادلين، والذين لم يحصل منهم تعدّد على الناس، ولا ظلم للناس؟ بل هم يعطون الناس، وينظرون في مصالح الناس، هذا من أكبر النعم على المسلمين.

قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»، يكون فيهم ظلم، قلوبهم قاسية، وفيهم ظلم وغشم، وهذا -أيضاً- يحصل بسبب العباد أنفسهم، العباد إذا أساءوا سلط الله عليهم الظلمة، العباد إذا أساءوا مع الله عصوا الله -**سُبْحَانَهُ**- الله يسلط عليهم من ينتقم منهم، يسلط عليهم الظلمة: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فعلى المسلم أن يصبر على هذه الأمور.

قد يكون قلب السلطان ليس القلب الصالح النقي، يكون فيه ظلم، فيه قسوة، فيه غشم، لكن المصلحة العامة التي هي اجتماع الكلمة ودفع الفتن، زوال هذه أعظم من المضرّة الجزئية التي تحصل على بعض الناس.



وَلَهُ عَنْ عَرْفَجَةَ الْأَشْجَعِيِّ مَرْفُوعًا: «مَنْ أَنَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»^(١).

الشَّيْخُ

دل هذا الحديث على أنه إذا تم الأمر، وانعقدت البيعة لواحد من المسلمين، وتآلفت الجماعة، ثم قام شخص يريد شق عصا الطاعة، ويفرق الجماعة، فإنه يجب قتله؛ لراحة المسلمين؛ لأنه لا يقتل إلا لأمر كبير، فدل على أن الخروج على ولي الأمر كبيرة تستحق القتل؛ عقوبة له، وتعذيرًا له، وردعًا لأمثاله، وهذا من دفع الشر الأعظم الذي يحصل على المسلمين للشر الأقل الذي هو قتل هذا الشخص، بما في ذلك من القضاء على دابر الفتنة، وإن كان مسلمًا؛ لأنه يريد شق عصا الطاعة، وتفريق الجماعة، ويريد الإخلال بالأمن، ويترب عليه مفسد كثيرة.

فدل هذا على: أننا لا نطيع دعاة الضلال، الآن هناك دعاة ضلال هائجون على ولاية الأمور، يتلمسون لهم العثرات، وينسون ما لهم من الحسنات، يغمرونها ويدفنونها، ويتلمسون زلاتهم ينفخون فيها، وينشرونها في الناس؛ لأجل تهيج الفتنة وشق عصا الطاعة، فيجب أن نحذر من دعاة الضلال دعاة السوء، والذين يحرشون بين المسلمين وبين ولاية الأمور ورعيتهم، يجب أن نحذر من هذا الصنف من الناس، وأن نكون ضدهم، وأن نحذر منهم؛ لأن الدولة دولة الجميع، والمصلحة للجميع، فليست

المصلحة لولي الأمر أنه يصير سلطاناً وأنه يصير أميراً، وأن يصير له جاه، ليست المصلحة له وحده، مصلحتنا نحن أكثر من مصلحة ولي الأمر، بل ولي الأمر عليه التعب والسهر تحمل مصالح، والثمرات للرعية.

فإذا جاء من يريد الإفساد، يريد أن يشق عصا الطاعة، وقد لا يكون عنده مقدرة أن يخرج على الإمام، لكن يهيج الناس بيث الفتن والشور، والتحريض على ولاية الأمور، الولاية بشر، بلا شك يحصل منهم أخطاء ومخالفات ونقص، ولكن ما داموا على الإسلام لم يكفروا، لم يخرجوا عن الإسلام، فإنه يجب طاعتهم، ويجب القيام معهم ومناصرتهم.

المسلمون فيما سبق كانوا مع الولاية، والولاية - كما تعلمون - فيهم وفيهم، الحجاج بن يوسف وفلان وفلان عندهم هفوات، وعندهم أمور، لكن العلماء وقادة المسلمين معهم، ويجاهدون معهم، ويدعون لهم ويناصرونهم.

الإمام أحمد ماذا حصل عليه من المحنة والفتنة؟ ومع هذا ما حرض على ولي الأمر، ولا خرج عن طاعته، ولو أشار إلى الناس إشارة، لو أشار للناس أدنى إشارة لبادروا معه، لكنه رَحِمَهُ اللهُ يراعي المصلحة العامة، ويراعي أحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويصبر على ما أصابه.

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ماذا حصل عليه من السجون ومن المناظرات؟ ومع هذا ما حرض على ولي الأمر، بل يحث على طاعته ويدعو

له، الأئمة يحصل عليهم ما يحصل من ولاية الأمور، ومع هذا يصبرون،
وينهون عن الخروج عليهم، ويدعون لهم بالصلاح والاستقامة.

فهذا منهج عظيم للمسلمين يجب أن يعرفوه، ويتنبهوا له وأن يحذروا
من المندسين من أصحاب الفتنة والمهيجين، قد يكونون من نفس البلد، وقد
يكونون جاؤوا من الخارج واندسوا بينهم، أو أنهم يرسلون لنا من الفتن
والشُرور من خلال الفضائيات، من خلال وسائل الإعلام، قد ينشرون هذه
الشُرور وهم في مكانهم، وهم بعيدون عنا، لكن تصل إلينا شرورهم، علينا
أن نحذر من هذه الأمور، وأن نُحذر، وأن ننصح لولاية أمورنا ولا نسكت،
إذا رأينا من يريد هذا الأمر علينا أن نناصحه أولاً، فإن ترك هذا الشيء وكف
عنه، وإلا يجب علينا أن نبلغ عنه؛ حتى يؤخذ على يده، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يقول: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ،
أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ»، ما قال: «اسكتوا عنه»، قال: «اقتلوه»، قتل،
فعلى الأقل نبلغ عنه ونبين ضرره ونحذر منه.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْفِتَنِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] الآية. وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] الآية.

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْفِتَنِ)، أي: ما جاء في التحذير من الفتن في كتاب الله، وفي سُنَّةِ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الله -سُبْحَانَهُ- حَذَّرَ من الفتن، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَذَّرَ من الفتن، والفتن جمع فتنة، وهي الابتلاء والامتحان، ومن ذلك ما يجري من بعض الولاة من التصرفات السيئة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَبْتَلِي عِبَادَهُ ويمتحنهم؛ ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، فلو ترك الناس بدون امتحان لما تميز هذا من هذا، ولصار الناس سواء، ولا يُعرف من هو المؤمن، ومن هو المنافق، ومن هو الصادق، ومن هو الكاذب.

فمن حكمة الله جَلَّ وَعَلَا أنه يجري الفتن لهذه الحكمة العظيمة، قال الله -سُبْحَانَهُ-: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (١) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ [العنكبوت: ١-٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ

حَتَّى يَمِيزَ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴿١٧٩﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فلا يتبين لنا أهل الإيـمان من أهل النفاق، وأهل الصدق من أهل الكذب إلا إذا جرت المحن والفتن، فإن المؤمنين الصادقين يثبتون عند الفتن، والمنافقون والكاذبون ينـجرفون، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]، على طرف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

والفتن على قسمين: فتن شُبُهات، وفتن شهوات.

فتن الشُبُهات: تكون في العقيدة والإيمان كفتن الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، والشيعة، وغيرهم من الفرق، فإنهم إنما انحرفوا في عقائدهم بسبب الشُبُهات التي عرضت لهم، فانحرفت بهم عن دين الله إلى دين الضلال، أي: فتن الشُبُهات.

كذلك عباد القبور الذين عبدوا غير الله، إنما فعلوا هذا بسبب الشُبُهات، شُبُه لهم أن الأموات يضررون وينفعون، وأنهم يتبرك بهم، ويتوسل بهم، فعبدوهم من دون الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الشبهة أنهم ينفعون ويضررون، وأنهم عبادُ صالحون، ولهم مكانة عند الله إلى آخر شبهاتهم.

وأما فتنـة الشهوات: فهي أخف من فتنة الشُبُهات، تكون في المعاصي التي دون الشرك، كشهوة الزنا، والسـرقـة، وشرب الخمر، وأكل الربا، هذه شهوات تشتهيها النفوس، فتميل معها، فتكون فتنة لها، وقد تكون الفتن بالمصائب؛ لأن الله يتلي بعض عبادـه بالمصائب هل يصبرون على المصائب، ويرضون بقضاء الله وقدره، أو أنهم يجزعون، ويتسخطون، ويكرهون قضاء

الله وقدره؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٥]، أي: لنختبرنكم، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿[البقرة: ١٥٥-١٥٧]، فهذا موقف أهل الإيمان عند المصائب.

وأما موقف ضِعَاف الإيمان عند المصائب، فإنهم يجزعون، يتسخطون، ويكون النياحة، ويكون ضرب الخدود، وشق الجيوب، والتحسر على المصائب، فهذا موقف الناس من المصائب.

قد تكون الفتن في الأموال والأولاد، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، فالأموال فتنة: هل صاحب المال يتقيد بأوامر الله ورسوله لكسب الحلال وترك الحرام، أو يحمل له حب المال على المجازفة بالمعاملات، دخول في الربا، والقمار والميسر، وما أشبه ذلك؟

فالأموال فتنة، ثم هي فتنة -أيضاً- في تصريفها، وقد يصرفها في طاعة الله، ويخرج ما أوجب الله، ويتصدق منها، وينفق في سبيل الله، في طاعة الله، وقد ينفقها في معصية الله، في سخط الله، ويستعين بها على الفسوق، وعلى المعاصي، فالأموال فتنة.

الأولاد فتنة: هل يربيهما على طاعة الله، ويخاف الله فيهم، ويتقي الله فيهم، ويربيهم على الطاعة وعلى الخير، ويصبر على ما يناله في سبيل ذلك، أو

أنه يهملهم ويتركهم، ولا يبالي بهم ويضيعهم، فينشؤون على الشر؟ فهم فتنة، الأولاد فتنة، وأمانة في أعناق آبائهم.

ومن الفتن كذلك فتنة الناس بعضهم ببعض؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]، فالله يبتلي المؤمن بالمنافق، ويبتلي المسلم بالكافر، ويبتلي أوليائه بأعدائه، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿[الفرقان: ٣١]، والله جَلَّ وَعَلَا يبتلي بعض الناس ببعض.

وأيضًا: هل يقوم الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كتاب الله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ تَشَاءَ اللَّهُ لَآنْصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّبَلَّوْا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ⑥ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُقِيمُوا أَقْدَامَهُمْ ﴿[محمد: ٤-٧]، فالله يبتلي المسلمين بالكفار من أجل أن يقوم سوق الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله وإطفاء الكفر.

فالفتن كثيرة ومتنوعة، وكلُّ سيناله منها ما يناله، ولهذا حذّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفتن؛ كما سيأتي في الأحاديث التي يوردها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب.

فعلى المسلم أن يعلم هذا، وأن يثبت على دينه ويصبر، لاسيما في آخر الزمان، فإنها تكثر الفتن، تشتد أشد مما كانت من قبل بسبب غربة الدين، وقلة المناصرين -والله المستعان-.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥])، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾، أي: احذروا وخذوا الوقاية من فتنة تحصل، وفتنة نكرة للتعظيم؛ لأنها فتنة عظيمة، وهذه الفتنة إذا حدثت، فإن أنكرها الناس وقاموا بالواجب نجوا منها، وإن تركوها وأهملوها ولم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن منكر، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم من مقاومة هذه الفتنة، فإنها لا تصيب الذين ظلموا خاصة، بل تعم عقوبتها الصالح والطالح، ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ الْمَغْصِيَةَ إِذَا أُخْفِيَتْ لَمْ تَضُرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا أُعْلِنَتْ فَلَمْ تُغَيِّرْ ضَرْبَ الْعَامَّةِ»^(١)، فإن لم تنكر عمت عقوبتها الصالح والطالح، وذلك لأن العاصي يجازى بمعصيته، والصالح يجازى في كونه لم ينكر، ولم يقم بما أوجب الله عليه، فيعاقبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ذَلِكَ.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾، وذلك ما يحصل في الجو وما ينزل من السماء، ما ينزل من السماء من العذاب والصواعق، والهلاك والرياح المدمرة والأعاصير المهلكة، هذا يأتي من فوق ينزله الله على العباد.

﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، وذلك بأن يخسف الله بكم الأرض، أو تحصل الزلازل المروعة المدمرة، أو ما يكون مخبوءاً في الأرض من الأسلحة المدمرة، التي تنفجر فتهلك الحرث والنسل، هذا بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويكون من تحت الأرجل.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٩٤)، وابن وضاح في البدع (ص ١٨٩)، برقم (٢٨٨)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٨٠)، والبخاري في شرح السنة (١٤/ ٣٥٠).

﴿أَوْ يَلِسَكُمْ شِيْعًا﴾، وهذه أشد، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ سَلَطَ بعض الناس على بعض، فنفرقوا وصاروا شيعًا وأحزابًا وأقسامًا، فهذا فيه التحذير من التحزب والانقسام، والحث على الاجتماع -اجتماع الكلمة-، وطاعة ولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، والتحذير من الشيع والأحزاب المتفرقة؛ لأن الله يسلط بعضها على بعض بالقتال؛ حتى يهلك بعضهم بعضًا، كما تعلمون الآن من الفتن بين الناس والحروب الطاحنة لا شيء إلا لأن الله سلط بعضهم على بعض بسبب كفرهم، وبسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وبسبب اختلافهم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالاختلاف هو سبب القتال، والتشيع والشيع معناها التفرق والفرق، فهذه أخطر من العذاب الذي ينزل من فوق، أو ينفجر من تحت، الشيعة أشد -والعياذ بالله-؛ لأن فيها قضاء على الأمن والاستقرار، وفيها ينتشر الخوف والرعب، فهي أشد على الناس، ولهذا استعاذ منها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»^(١).



(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٨) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قَالَ: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا أَهْوَنُ -أَوْ هَذَا أَيْسَرُ-».

عَنِ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَفَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُّ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنْ أُمَّتُكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيَرْقُقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرْ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِئِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ، وَثَمَرَةً قَلْبِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخِرِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّجَرُ

هذا حديثٌ عظيم، فإن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا في سفر كما ذكر عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَفَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا»، فزَلُوا وتفرق الناس في أشغالهم، هذا «يُصْلِحُ خِبَاءَهُ»، وهذا «يَنْتَضِلُّ»، يعني: يصلح سلاحه وسهامه، «وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ»، يعني: في شغله الخاص، بينما هم كذلك، «إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ»؛ ليحضروا الصلاة.

«الصَّلَاةُ»: بالنصب منصوبٌ على الإغراء أن يحضروا الصلاة.
«جَامِعَةً»: حال.

«الصَّلَاةُ جَامِعَةً»، احضروها، اجتمعوا لها، فاجتمعوا، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرهم بما سيكون من الفتن؛ من أجل أن يستعدوا لها: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنْ أُمَّتُكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا»، وأخبر أن أول عافية هذه الأمة في أولها في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعهد الخلفاء الراشدين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والقرون المفضلة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(١)، ثم بعد القرون المفضلة تحدث الخلافات والفتن والشرور، كلما تأخر الزمان ازدادت الفتن.

«وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيَرْقُقُ بَعْضُهَا بَعْضًا»، يعني: تكون كل فتنة أشد من التي قبلها، تكون التي قبلها بالنسبة لها خفيفة ورقيقة.

وإذا جاءت الفتنة فإن المؤمن يجزم أنه سيهلك فيها، يقول: «هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ»، ثم تأتي فتنة أشد منها، فيقول: «هَذِهِ هَذِهِ»، أي: هذه مهلكتي من شدتها.

ثم حث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على اجتماع الكلمة، وعلى طاعة ولي أمر المسلمين؛ لأن هذا مما يستعان به على درء الفتن، فالإمام يدرأ الله به كثيرًا من الشرور، ويكون سترًا للرعية وحجابًا دونها، يدرأ الله به الفتن عن الرعية، والرعية

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢١٤) (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعاون معه وتطيعه، فيكون للمسلمين دولة وظل يهابهم العدو، يهابهم الكافر، ولا يطمع فيهم ماداموا مجتمعين تحت قيادة إمامهم، فإذا اختل هذا الأمر حصل على الأمة الشر، فإذا كانوا مجتمعين على إمام واحد، وجاء آخر يريد أن يفرق جماعتهم، وأن يشق عصا الطاعة، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بقتله؛ لإزالة شره، فدلّ هذا: على قتل دعاة الضلال ودعاة الفتنة الذين يأتون جماعة المسلمين وإمام المسلمين، ويبثون الفتن والشور والتحريش، وإثارة القلق بين الناس، ويأتون بالكفر، يكفرون ولي الأمر، يكفرون المسلمون، ويريدون أن يحدثوا البلبلة في مجتمع المسلمين، هؤلاء يستحقون القتل؛ لإزالة شرهم؛ لأنهم يعتدون على أمن المسلمين واستقرار المسلمين.

هذا فيه أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يهتمون بأمر أممهم، فيدلوهم على الخير، ويحذرونهم من الشر، ومن ذلك: التحذير من الفتن، وأعظمهم تحذيرًا ونصيحة رسول الله محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه حذر أمته من الفتن، كما حذرت الأنبياء السابقة أممهم من الفتن، فهذا فيه التحذير من الفتن، وأنه شأن النبيين وأتباعهم إلى يوم القيامة.

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ» من الفتن والشور، ويدلهم على خير ما يعلمه لهم من الصلاح والاستقامة واجتماع الكلمة.

«وَأَنْ أَمْتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ»، سيصيب آخر هذه الأمة بلاء، أي: اختبار وامتحان، «وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا»؛ لمخالفتها لما كان عليه أول هذه الأمة.

«وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ؛ مما يدل على أن الفتن تشتد -والعياذ بالله-، كل فتنة أشد من التي قبلها.

«فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرْ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِئْتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾ نجا من النار، و﴿زُحِرَ﴾ يدل على أن الأمر خطير، وأن الخروج من النار فيه مشقة وخوف؛ لأن الأهوال يوم القيامة تشيب الرؤوس، كل يخاف حتى الأنبياء يقولون: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»^(١)؛ من شدة الأخطار التي يلقاها الناس يوم القيامة من الوقوف

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (٢٩٩) (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «فَيَدْعُوهُمْ فَيَضْرِبُ الصَّرَاطَ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمْنِي، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيْبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبِقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجْرَدُ ثُمَّ يَنْجُو».

في المحشر، والميزان، ووزن الأعمال، وتطائر الصحف باليمين أو بالشمال، من الحساب، ومن المرور على الصراط: ﴿وَلَيْنَ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، يمر الناس كلهم على الصراط المؤمنون والكفار والمنافقون.

ما الصراط؟ جسرٌ على متن جهنم، جسر دقيق أدق من الشعرة، وأحد من السيف، وأحر من الجمر، دقيق جداً، هذا الصراط يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح، منهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف، فيلقى في جهنم، والنبليون على جنبتي الصراط يقولون: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»، أهوال عظيمة.

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾، نجا من هذه الأهوال، ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، يعني: نجا، وسلم، وريح، وأفلح^(١).

وأما من لا يدخل الجنة فإنه خاسر وهالك -والعياذ بالله-؛ لأن ما في الآخرة إلا داران؛ إما الجنة، وإما النار، ليس هناك غيرهما؛ إما أن تكون في الجنة، أو تكون في النار، ليس هناك مكان ثالث أبداً.

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، لا تغرکم الدنيا وتشغلکم عن الآخرة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْخَزَ عَنِ النَّارِ،

(١) تكاثرت الأحاديث في وصف الصراط وأحوال الناس عليه، منها ما أخرجه البخاري (٨٠٦، ٦٥٧٣، ٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢، ١٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومنها ما جاء عن أبي سعيد الخدري، وأنس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، رضي الله عن الجميع.

وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَلَتَاتِهِ مَنِيتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»، لا نجاة إلا بهذا الإيمان بالله، الإيمان برسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا لا يحصل إلا بمعرفة الإيمان، ومعرفة الإسلام، ومعرفة الدين، والتمسك به، والثبات عليه، وهذا فيه فتن وشُرور قليل من يثبت على الدين بسبب الفتن.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَتَاتِهِ مَنِيتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَنِيَّاتٍ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»، يعامل الناس مثل نفسه، فكما أنه يكره الشر لنفسه يكره الشر للناس، فلا يحصل منه شرٌ للناس.

كيف تطلب من الناس أن يحسنوا إليك، وأنت تسيء إليهم؟ عاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وفي الحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١)؛ اتخذ نفسك مقياساً، فعامل الناس مثلما تعامل نفسك، وهذا هو النصح.

وأما الذي يريد الخير لنفسه، ويريد الشر للناس، ويعامل الناس بالشرور والفتن، فهذا لا يزحزح عن النار، ولا يدخل الجنة؛ لأن الله شرط شروطاً للزحزحة من النار ودخول الجنة وهي: الإيمان بالله ورسوله، والموت على الإسلام.

من يضمن أنه يموت على الإسلام، ويسلم من الفتن، وتصلح خاتمته؟ الخوف شديد من سوء الخاتمة أن يختم للإنسان بشر، فيكون من أهل النار، فالموت على الإسلام وعلى الإيمان بالله ورسوله له سبب، وهو أنك تلازم طاعة الله وطاعة رسوله، وتؤدي ما فرضه الله عليك، وتتجنب الفتن، وتحذر منها، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الله، فإذا فعلت هذا يسر

الله لك حُسن الخاتمة، وأما إذا أسأت وضيعت وغفلت، فحريٌّ أن يهجم عليك الموت وأنت على سوء الخاتمة.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُتْقَ الْآخِرِ»، وهذا من أسباب النجاة من الفتن، وهو لزوم بيعة إمام المسلمين، وليست البيعة معناها أن كل الناس يبايعون -الرجال والنساء والأطفال-، وكما يسمونه الانتخابات عند دول الكفر، البيعة تكون لأهل الحل والعقد من المسلمين، إذا بايع أهل الحل والعقد من العلماء والأمراء والقادة بايعوا ولي الأمر، فإن من عداهم تابعٌ لهم، هذه بيعة ولي أمر المسلمين، فإذا بايعه أهل الحل والعقد فأنت قد بايعته بواسطتهم؛ لأنهم ينوبون عنك في ذلك، ولا تقل: أنا ما بايعت، أنت بايعت بواسطة أهل الحل والعقد من المسلمين، فانصح لولي الأمر في الطاعة في غير المعصية، وبالדعاء له وبمناصحته وبأداء العمل الذي يكله إليك على الوجه المطلوب، هذا من النصح لولي الأمر، وهذا موجب البيعة الذي بايع عليه المسلمون ولي أمرهم، ﴿فَمَنْ تَكَّ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُيَوِّدُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وإذا جاء أحدٌ يشاق ولي الأمر، فكن مع ولي الأمر في صد هذا العدوان وقتل هذا الفاتن، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُضْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُضْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١).

الشَّيْخُ

هذا الحديث فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ»، والمبادرة معناها: المسارعة وانتهاز الفرصة التي أعطاك الله، ولا تضيعها بالتباطؤ والتكاسل والخمول فإنها تذهب ولا ترجع إليك، فبادر بالأعمال قبل أن تأتي فتن، ما دمت معافي، مادمت في أمن واستقرار وفي عافية، فبادر هذه الفرصة، واشتغل بالأعمال الصالحة، ولا تضيعها، فإنها إذا جاءت الفتن -والعياذ بالله- شغلتك عن العمل، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا»، أي: اسبقوا بالأعمال قبل حدوث هذه الفتن؛ لأن المؤمن مادام في أمن واستقرار متمكنًا من العمل، فإذا حدثت الفتن انشغل، وقد يدخل في الفتن -أيضًا- قد ينشغل عن العمل، وقد يحصل أكثر من ذلك، وهو أن يدخل في الفتن وتحوطه الفتن -والعياذ بالله-، فعلى المسلم أن يبادر زمن الإمكان، وإذا جاءت الفتن فليعتزلها وليتمسك بدينه.

وقد وصفها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها شديدة «كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ»، لا يبصر الإنسان فيها الطريق الصحيح، ويلتبس عليه الأمر، وهذا أشد من الفتنة، فيلتبس الأمر على الإنسان، ولا يدري ما هو الطريق الصحيح؛ لأن دعاة

الضلال يلبسون على الناس، فيجعلونهم كأنهم في ليل، يقبلون لهم الحق باطلاً، والباطل حقاً، واليوم - كما تعلمون - الفتن ووسائل الفتن العصرية كيف يستعملها أهل الشرور، ويحركونها من قريب ومن بعيد؛ ليهلكوا بها المسلمون، فهي «كَطِيعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ» وليست هي فتنة واحدة، بل فتناً، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا»، ما قال: «فتنة»، بل هي فتن كثيرة متتابعة وشديدة مظلمة كظلمة الليل، لا يستطيع الإنسان أن يسير على الطريق الصحيح فيها إلا من ثبته الله وصار عنده علمٌ يعرف به الفتن، والفتن إذا أقبلت لا يعرفها إلا العلماء، أما الناس فيغترون بها، أما إذا أدبرت، عرفها كل الناس، إن أدبرت الفتن كلٌ عرفها، لكن في إقبالها أول ما تأتي لا يعرفها إلى العلماء، أما كثير من الناس فيغترون بها ويقبلونها.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُضْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا»، مؤمناً بالله عَزَّجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «وَيُمْسِي كَافِرًا»، في يومٍ واحدٍ يرتد عن دينه، يصبح مؤمناً ويرتد عن دينه، ويمسي كافراً - والعياذ بالله -.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُضْبِحُ كَافِرًا»، يرتد عن دينه، السبب ما هو؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»، هذه فتنة، وبعض الناس يعطى طمعاً - إما وظيفة، وإما جائزة، وإما هدية، أو مال، مغريات - فيبيع دينه، السلعة هي الدين، يدفعه لأهل الضلال، يأخذ منهم عرضاً زائلاً من أعراض الدنيا، استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»، هذا فيه التحذير من فتنة الدنيا، كثيرٌ من الناس يبيعون دينهم بالمناصب بالهدايا بالمغريات بالرواتب بالعطايا التي تمنحها الدول الكافرة أو دعاة الضلال، فيبيع دينه ويطيع الكفار، وينخلع من الإسلام بسبب أنه أعطي طمعًا دنيويًا، فهذا تحذيرٌ من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



وَلَهُ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَجْرِ كَالْهَجْرِ
إِلَيَّ»^(١).

الشَّحْجُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَجْرِ كَالْهَجْرِ إِلَيَّ»، «الْهَجْرُ» المراد به:
الاختلاف إذا حصل بين المسلمين اختلاف، سوء تفاهم ومنازعات، فإن
كثيراً من الناس ينشغلون عن العبادة بهذا «الْهَجْرِ»، ويدخل فيه القتل -أيضاً-،
وسفك الدماء يدخل في الهجر، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حثَّ على العبادة في وقت
الهجر -أي: في وقت الفتنة-؛ لأن أكثر الناس ينشغلون عن العبادة، فالذي
يشتغل بالعبادة كالمهاجر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعلمون فضل الهجرة،
والهجرة في اللغة هي الترك^(٢)، ﴿وَالرَّجَزَ فَاهْجُرْ﴾ [المذثر: ٥]، أي: الأصنام
اتركها، اترك الأصنام، والتهاجر هو التقاطع بين الناس، فالهجر هو الترك.
فالذي يأخذ العبادة في وقت الفتنة، ولا تشغله الفتنة عن العبادة، هذا له
أجر المهاجر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن المهاجر ترك وطنه وخرج فارّاً بدينه
إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا في أول الإسلام في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالهجرة يراد بها الهجرة الشرعية، يراد بها ترك الوطن ووطن الكفر إلى
وطن الإيمان؛ فراراً بالدين، ويراد بها مطلق الترك -ترك الشيء^(٣)-، فالذي
يترك الفتنة، ويبتعد عنها، ويشتغل بالعبادة، هذا انتقل من الفتنة إلى العبادة.

(١) أخرجه مسلم (١٣٠) (٢٩٤٨).

(٢) سبق تعريفها (ص ١٠٠).

(٣) سبق تعريفها (ص ١٠٠).

ففيه معنى الهجرة؛ لأن الهجرة معناها: الانتقال والترك، فهذا انتقل وترك الفتنة والخوض فيها، واشتغل بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو كالمهاجر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالهجرة عامة، معناها: الترك -ترك الشيء-، ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(١)، يعني: من ترك ما نهى الله عنه، فهذا يعتبر مهاجرًا؛ لأنه انتقل مما نهى الله عنه إلى ما أمر الله به فهو مهاجر.

هذا الحديث فيه الترغيب في الانشغال بالعبادة وقت الفتنة؛ لأن الفتنة تُشغل عن العبادة إلا من منَّ الله عليه، فترك الفتنة، وأقبل على عبادة الله، هذا فيه اعتزال الفتنة مهما أمكن الإنسان أن يعتزل منها، لكن ليس معنى هذا أنه لا يحذر منها، ولا يبينها للناس، بل هو يتركها في نفسه أولاً، ثم يحذر الناس منها، وينهاهم عنها؛ لأنه كما سبق يجب أن يأتي إلى الناس ما يجب أن يُؤتى إليه، كما أنه يجب لنفسه الخير والنجاة من الفتنة، كذلك يجب للناس النجاة من الفتنة، فيحذرهم وينذرهم ويبين لهم ويشرح لهم هذه الفتنة، وهذا من الجهاد في سبيل الله ومن إنكار المنكر.



وَلَهُمَا عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَيُّكُمْ يَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْفِتْنَةِ كَمَا قَالَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: إِنَّكَ لَجَرِيءٌ، وَكَيْفَ قَالَ؟ قَالَ: قُلْتُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ يُكْفَرُهَا الصِّيَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»، فَقَالَ عُمَرُ: لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، إِنَّمَا أُرِيدُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا لَكَ وَلَهَا، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابٌ مُغْلَقٌ، قَالَ: أَفَيُكْسَرُ الْبَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، بَلْ يُكْسَرُ، قَالَ: ذَلِكَ أُخْرَى أَلَّا يُغْلَقَ أَبَدًا، قَالَ: فَقُلْنَا لِحُذَيْفَةَ: هَلْ كَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ مِنَ الْبَابِ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ دُونَ عِدِ اللَّيْلَةِ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَعَالِيطِ، قَالَ: فَهَبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ: مِنَ الْبَابِ؟ فَقُلْنَا لِمَسْرُوقٍ: سَلْهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: عُمَرُ»^(١).

الشَّجَرُ

حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أمين سر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَرُّ إِلَيْهِ شَيْئًا لَا يُخْبِرُ بِهِ أَصْحَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَسْأَلُونَ حذيفة، حتى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَسْأَلُ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لَأَنَّهُ هُوَ الْمُخْتَصُّ بِذَلِكَ، «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُذَرِّكَنِي»^(٢)، فَلِذَلِكَ سَأَلَهُ عُمَرُ

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥، ١٤٣٥، ١٨٩٥، ٣٥٨٦، ٧٠٩٦)، ومسلم (٢٣١) (١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الفتن، أو سأل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحضور عن الفتن، فتقدم حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالإجابة؛ لأنه كان خبيراً بها، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّكَ لَجَرِيءٌ، وَكَيْفَ قَالَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ يُكْفَرُهَا الصِّيَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»، فأخبره أن الفتن على قسمين:

القسم الأول: فتنٌ صغيرة تُكفرها العبادات.

القسم الثاني: فتنٌ غليظة.

الفتن الصغيرة مثل: فتنه الإنسان في أهله -يعني: في زوجته-، وفي ولده، وفي ماله، فهذه الزوجة يفتن فيها، إذا كان له زوجات يميل إلى إحداهنَّ هذه الفتنة تُكفرها الصلاة والصيام والعبادات، كذلك فتنته في ولده، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، ففتنته في ولده وماله، فقد ينشغل بولده، وينشغل بماله عن طاعة الله، فيحصل عليه نقص: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، لكن هذه تُكفرها العبادات من صلاة وغيرها.

قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَيْسَ هَذَا أَرِيدُ، إِنَّمَا أَرِيدُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ»، أي: ليس هذا الذي أسألك، يسأله عن الفتنة الغليظة التي تموج بالناس، فيحصل بسببها سفكٌ للدماء واختلالٌ بالأمن وشقٌّ لعصا الطاعة؛ لأن الناس كانوا بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجتمعين على خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان الشر مدحوراً والخير ظاهراً في عهد الخليفين.

فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا لَكَ وَلَهَا، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ: أَفَيُكْسَرُ الْبَابُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، بَلْ يُكْسَرُ، قَالَ: ذَلِكَ آخَرَى أَلَّا يُغْلَقَ أَبَدًا، قَالَ: فَقُلْنَا لِحَدِيفَةَ: هَلْ كَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ مِنَ الْبَابِ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا يَعْلَمُ أَنَّ دُونَ عَدِ اللَّيْلَةِ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَعَالِيطِ، قَالَ: فَهَبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُدَيْفَةَ: مِنَ الْبَابِ؟ فَقُلْنَا لِمَسْرُوقٍ: سَلْهُ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: عُمَرُ، هَذَا شَيْءٌ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ الْحَاضِرُونَ، وَلَكِنْ حُدَيْفَةُ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَعْلَمَانِ مَا هُوَ، الْحَاضِرُونَ لَا يَعْلَمُونَ مَا هُوَ هَذَا الْبَابُ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْفَتَنِ، فَلذَلِكَ اسْتَحْيَا أَنْ يَسْأَلُوا حُدَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ ذَلِكَ، وَفِي الْآخِرِ أَوْصَا مَنْ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكُسِرَ قَتْلُهُ، فَقُتِلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَتَلَهُ أَبُو لَوْلُؤَةَ الْمَجُوسِي، وَهُوَ يَصْلِي الْفَجْرَ بِالْمُسْلِمِينَ، فَحِينَئِذٍ لَمْ يَحْصُلْ فِتْنٌ؛ لِأَنَّ النَّاسَ بَايَعُوا عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْخَلِيفَةَ الثَّلَاثَ، وَفِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ كَانَ الْأَمْرُ مُسْتَقِيمًا، ثُمَّ إِنْ خَبِثَ يَهُودِيًّا جَاءَ مِنَ الْيَمَنِ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ^(١)، سُمِّيَ ابْنُ السُّودَاءِ؛ لِأَنَّ أُمَّهُ سُودَاءُ حَبَشِيَّةٌ، فَأَظْهَرَ هَذَا الْخَبِيثَ الْإِسْلَامَ، وَجَعَلَ يَسِبُ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَجَالِسِ، وَتَجْمَعُ عَلَيْهِ مَنْ تَجْمَعُ مَنْ يَرِيدُونَ الْفِتْنَةَ، وَيَسْتَهْوِيهِمُ الْكَلَامُ فِي وَلِيِّ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ الشَّرَّ إِذَا وَجِدَ وَجِدَ لَهُ مَنْ يَرِيدُهُ، هُنَاكَ نَاسٌ يَهُوُونَ الْكَلَامَ فِي وِلَاةِ الْأُمُورِ، وَيَسْتَلْذُونَ ذَلِكَ، فَهَذَا مَبْدَأُ أَمْرِهِ، فَتَجْمَعُ عَلَيْهِ النَّاسُ، ثُمَّ انْتَبَهَ لَهُ، فَهَرَبَ إِلَى مِصْرَ، تَجْمَعُ النَّاسُ عَلَيْهِ هُنَاكَ، فَكُونُوا لَهُمْ طَائِفَةٌ خَبِيثَةٌ يَرِيدُونَ شِقَ عَصَا الطَّاعَةِ، فَانْتَهَى الْأَمْرُ بِقَتْلِ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هَذِهِ الْمَرَّةُ الثَّانِيَّةُ، الْأُولَى قَتَلَ عُمَرَ، فَانْكَسَرَ الْبَابُ، ثُمَّ جَاءَتْ قَضِيَّةُ قَتْلِ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَبَقِيَّتُهُ

انفتح باب الشر على المسلمين، فتحت الفتنة، وحصلت الحروب، وبسبب عبد الله بن سبأ وأتباعه الذين يُحرّشون بين المسلمين ويوقظون الفتنة، وفي النهاية قُتل عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخليفة الرابع، وتابع قتل الخلفاء كله بسبب هذا الخيث وشلته الخبثاء الذين اجتمعوا حوله، وصاروا يحكيون الفتن، ثم إن الله جمع المسلمين على أمير المؤمنين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تنازل له الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فتمّ الأمر لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واجتمع المسلمون، وانسد على هؤلاء الأشرار عملهم بحنكة وحكمة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلاجه للأمر، وسُمّي هذا العام الذي تنازل فيه الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عام الجماعة، اجتمع المسلمون، تحققت فيه معجزة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما قال في الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١)، فاستتب الأمن وانسد الباب على دعاة الفتنة، وشتتهم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وما منهم إِلَّا مَنْ قُتِلَ شَرِّ قِتْلَةٍ، وعاقبه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عاجلاً. فهذا مضمون هذا الحديث.



(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) من حديث الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَنِيرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبَلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ أُخْرَى وَيَقُولُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

وَلِمُسْلِمٍ: عَنْ أَبِي بَكْرَةَ مَرْفُوعًا: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنٌ، أَلَّا تُمْ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا، أَلَّا فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ»، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ؟ قَالَ: «يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ، ثُمَّ لَيَنْجُ إِنْ اسْتَطَاعَ النُّجَاءَ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَكْرَهْتُ حَتَّى يُنْطَلِقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَيْنِ، أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ، فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ، أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ: «يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ، وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنٌ، أَلَّا تُمْ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا»، هذا الحديث مفاده التحذير من عِظَم هذه الفتن، والحث على تجنبها، والهرب منها، وأن شرها على حسب التعلق بها، والمقصود: الفتن العامة العظيمة المهلكة، وهي ما يكون من اختلال الأمن، وضياع الولاية، وشق عصا الطاعة، هذه هي الفتن الخطرة والفتن المهلكة، فهذه المسلم يتأني فيها، ويتخلف عنها ولا يدخلها، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ

(١) أخرجه مسلم (١٣) (٢٨٨٧).

مَنْ السَّاعِي إِلَيْهَا»، ففي هذه الحالة ينبغي للمسلم أن يتأني، وألا يدخل فيها، ويُبعد نفسه عن الفتنة مهما أمكن، ويطلب النجاة، فإن كان له مصد يصد فيه عن الفتنة، ويُبعد عنها في المكان.

أولاً: يُبعد عنها بنفسها، فلا يستعجل ويدخل فيها إذا كان في موطن الفتنة.

ثانياً: وإن حصل له ملجأ يبتعد فيه عن موطن الفتنة، ويتقل من مكان الفتنة ليلفعل.

«فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيُلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيُلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيُلْحَقْ بِأَرْضِهِ»، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَرْضٌ وَزُرَاعَةٌ، يُلْحَقْ بِهَا؛ حتى يعتزل الفتنة، هذا كله في النجاة من الفتنة، وأن المسلم يجتنب الفتنة مهما استطاع، ولا يدخل فيها.

(«فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ؟ قَالَ: «يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ»)، إذا كان عنده سيف وسلاح، فإنه يُتلفه؛ لئلا يدخل في الفتنة يكسر سيفه، ولهذا لما جاءت الفتنة على أهل المدينة في عهد يزيد في وقعة الحرّة، جمع ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أهله وَمَنْ حوله ومنعهم من المشاركة في الفتنة، سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اعتزل الفتنة، وجلس في قصره في العقيق، وغيرهما من كبار صحابة رسول الله اعتزلوا الفتنة ما أمكنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فهذا الحديث يدل على أن المسلم يبتعد عن الفتنة مهما استطاع، ولا يدخل فيها.

(فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَيْنِ، أَوْ إِحْدَى الْفُتَيْنِ، فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ، أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ: «يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ، وَيَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ»)، سَأَلَهُ رَجُلٌ: إِنْ ذَهَبَ بِهِ إِلَى الْقِتَالِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأُجِرَ عَلَى هَذَا، ثُمَّ قُتِلَ، أَصَابَهُ سَهْمٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ رَمِيَّةٌ، فَمَاتَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ، وَيَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ»؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي ابْنِي آدَمَ الَّذِينَ قَتَلَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

فهذا كله يدل على أن الإنسان يكف يده في الفتن بين المسلمين؛ لأن القتال بين المسلمين، ليس القتال بين المسلمين والكفار حتى يكون مع المسلمين على الكفار، إنما هذا قتالٌ بين المسلمين، فهو إذا دخل فيها عززها وقواها، وأيضاً قد يقتل من المسلمين، يسفك من دماء المسلمين، فهذه فتنة، فإذا كثر المتعدون عنها، خمدت الفتنة، أما إذا دخل فيها المسلم، ودخل فيها الآخر والآخر، فإن الفتنة تعظم حيثئذٍ، ويكون وقودها المسلمين، فإذا كان هناك قتالٌ بين المسلمين، فالمسلم يعتزل مهما استطاع ذلك، وهذا يدل على حرمة دم المسلم - كما يأتي في الباب الذي بعده -، وأن الإنسان يبتعد عن سفك دم المسلم مهما استطاع، حتى لو أن المسلم اعتدى عليه، يكف هو عنه، ويكون كابني آدم اللذين ذكر الله قصتهما في القرآن الكريم، الإنسان يكف يده عن الفتنة مهما أمكن، حتى ولو أدى ذلك إلى أنه يُقتل، إذا لم يكن هو البادئ، فإن الإثم يكون على من بدأ الفتنة.

وَلِأَيِّ دَاوُدَ عَنْ سَعْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَى بَيْتِي وَبَسَطَ يَدَهُ لِيَقْتُلَنِي؟ فَقَالَ: «كُنْ كَخَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ»، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِنَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] الْآيَةَ^(١).

الشَّرْحُ

وهذا -أيضاً- في كف اليد، إذا جاء مسلمٌ ودخل عليه بيته ليقته، فخيرٌ له أن يكف يده عنه، هذا خيرٌ له، وإن قتله دفعًا للصائل، هذا قد أذن فيه الشارع، أذن الشارع للمسلم أن يدافع عن نفسه، لكن كونه يكف ولو أدى هذا إلى قتله هذا خير، إذا كان في هذه الحالة كف اليد لو دخل عليه من يريد قتله كف اليد خير، فكيف بالذي يذهب هو إلى الفتنة، ويؤاشرها، ويحرض عليها؟

فهذا فيه دليل على أن المسلمين يكفون عن الفتنة مهما استطاعوا، لا يدخلون فيها؛ لأنها إذا تُركت خمدت، أما إذا تحركوا فإنها تزيد وتشتد، فهذا هو العلاج للفتن إذا حصلت أن الإنسان يُبعد نفسه عنها، فإذا ابتعد عنها فلان وفلان والمبتعدون خمدت، وإذا دخلت فيها الناس اشتعلت وأتت على الأخضر واليابس، فهذا مما تُعالج به الفتن الابتعاد عنها، وعدم الدخول فيها، ولذلك لما دخل المجرمون على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كف يده، وكف

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي (٢١٩٤)، وأحمد (١٦١/٣).

أيدي الحاضرين أن يدافعوا عنه حتى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يريد بذلك تقليل القتل في المسلمين؛ لأنه لو اشتعل القتل في بيت عثمان تمدد مثل النار إذا اشتعلت، فهو أراد أن يُقلل منها مهما أمكن، وقَدَّم نفسه فداءً للمسلمين؛ لئلا تشتعل فتنة يصعب دفعها وعلاجها.



بَابُ: تَعْظِيمِ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: تَعْظِيمِ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، نَهَى اللَّهُ -سُبْحَانَهُ- فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَالَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ هِيَ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبَ عَذَابٍ لِّهٖ﴾ [النساء: ٩٣]، وَكَذَلِكَ نَفْسُ الْمَعَاهدِ فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا، فَالنَّفْسُ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا نَفْسُ الْمُؤْمِنِ وَنَفْسُ الْمَعَاهدِ مِنَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّهُ يَحْرِمُ قَتْلَ الْمَعَاهدِ، وَلِهَذَا فِي الْقَتْلِ الْخَطَأِ: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى آلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] فِيهِ الْكَفَّارَةُ فَقَطْ، وَلَيْسَ فِيهِ دِيَةٌ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلَا يُعْطَى الْكَفَّارُ الدِّيَةُ مِنَ الْمُسْلِمِ، لَكِنْ هُوَ مِمَّنْ حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهُ؛ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ، لَكِنْ كَوْنُهُ مَعَ الْكُفَّارِ لَا تَجِبُ فِيهِ دِيَةٌ وَإِنَّمَا تَجِبُ فِيهِ الْكَفَّارَةُ؛ لِأَنَّهُ

نفس مؤمنة ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ﴾، هذا محل الشاهد: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ﴾، يعني: المعاهد، وقتله مؤمن خطأ ما تعمد فيه الدية والكفارة؛ كما في قتل المؤمن ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ فِدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾، وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴿فَجَعَلَ فِي قَتْلِ الْمُؤْمِنِ الْمَعَاهدِ خَطَأً كَمَا فِي قَتْلِ الْمُسْلِمِ خَطَأً، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ قَتْلِ الْمَعَاهدِ مِنَ الْكُفَّارِ، وَأَنَّ دِمَاءَهُمْ كَدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مُحَرَّمَةٌ حَتَّى قَتْلِ الْخَطَأِ فِيهِ الدِّيَّةُ وَالْكَفَّارَةُ كَمَا فِي قَتْلِ الْمُسْلِمِ، وَهَذَا فِي قَتْلِ الْخَطَأِ لِلْمَعَاهدِ، أَمَا قَتْلُ الْعَمْدِ لِلْمَعَاهدِ فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١)، هذا في مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا عَمْدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ - نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ! -، وهذا وعيدٌ شديد، فهذا كله يدخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، والحق هو: ما يُبَيِّحُ قَتْلَهَا، كالقصاص، وكالثيب الزاني، وكالمرتد التارك لدينك المفاارق للجماعة، فهذا قتلٌ بحق.



عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: «يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَسْأَلُكُمْ عَنِ الصَّغِيرَةِ، وَأَرْكَبُكُمْ لِلْكَبِيرَةِ! سَمِعْتُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا»، وَأَوَّمَا بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ، «وَأَنْتُمْ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا قَتَلَ مُوسَى الَّذِي قَتَلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خَطَاً، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لَهُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَجِئْنَاكَ مِنَ الْغَيْرِ وَفَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّجَّ

هذا سالم بن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهم جميعاً- سأله أهل العراق عن دم البعوض: هل هو نجس؟ فقال: «يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَسْأَلُكُمْ عَنِ الصَّغِيرَةِ، وَأَرْكَبُكُمْ لِلْكَبِيرَةِ!» تسألون عن دم البعوض، وأنتم تقتلون المؤمنين «سَمِعْتُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ»، يعني: عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا»، وَأَوَّمَا بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ»، يعني: إلى العراق؛ لأن مشرق المدينة هو العراق، وليس مشرق المدينة هو اليمامة، من هنا يغلط مَنْ يحمل الحديث على أهل اليمامة وعلى أهل نجد؛ لأن نجدًا ليست مشرقًا للمدينة، ولم يُشر إليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنما أشار إلى العراق، هذا موضع الإشارة منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا»، وَأَوَّمَا بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ؛ لأن الشيطان هو الذي يوقد الفتنة بين بني آدم، ويُحَرِّشُ

بينهم، فسالم بن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنكر على أهل العراق تشددهم في النجاسة، وتساهلهم في قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

(قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا»، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ)، الفتنة هي سفك الدماء، والفتنة بين المسلمين، «إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ»، وكان هذا ينطبق على العراق؛ لأنه مشرق المدينة، والواقع -أيضاً- فإن العراق نشأت منه الفتن الحرورية ومن تابعهم، واشتعال الحروب في العراق بين المسلمين بسبب الخوارج بين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين الخوارج، فالفتن إنما تجيء من قبل العراق، هذا ما أخبر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْفِتْنَةَ تَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا»، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ، وَأَنْتُمْ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)، وأنتم -يا أهل العراق- يضرب بعضكم رقاب بعض في الفتنة التي حصلت في العراق من ظهور الخوارج، والمعارك التي صارت بين المسلمين بسببهم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وإِنَّمَا قَتَلَ مُوسَى الَّذِي قَتَلَ، مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ خَطَأً فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُونًا﴾» [طه: ٤١] موسى عَلَيْهِ السَّلَام قصته مذكورة في القرآن، وهي أنه نشأ عَلَيْهِ السَّلَام في بيت فرعون، رباه فرعون، وغذاه بما يُغذي به بيته، وهذا من تسخير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه كان يحذر أن يظهر عليه أحد من بني إسرائيل، فأراد الله أنه هو الذي يُربي عدوه، ربي موسى عَلَيْهِ السَّلَام مع حاشيته، وكان يركب من مراكبه، ويلبس من ملابسه، صار ذات يوم وجاء ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا

فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴿[القصص: ١٥]﴾، يقتتلان يعني: يتضاربان، ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ من بني إسرائيل، ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من الأقباط، ﴿فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى﴾، ضربه بيده وكان قويا، ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ بتلك الضربة وقتله، ثم إنه ندم عَلَيْهِ السَّكَّامُ، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴿[القصص: ١٦-١٨]﴾، بعد قتل هذه النفس وكان آل فرعون يبحثون عن القاتل؛ ليتقموا منه، وكان موسى عَلَيْهِ السَّكَّامُ خائفاً أن يعثروا عليه، صارت مرة ثانية بين القبطي وبين إسرائيلي، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴿[القصص: ١٧-١٨]﴾؛ يطلب منه الغوث مرة ثانية، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ ﴿[القصص: ١٨]﴾ أَرَادَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّكَّامُ ﴿أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾، انكشف الأمر حينئذ وعُرف من هو القاتل.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى ابْنَ الْمَلَأَ﴾ ﴿[القصص: ٢٠]﴾، يعني: من القبط ﴿يَأْتِمُرُونَ بِكَ﴾ مجتمعين يتشاورون في قتلك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿[القصص: ٢٠-٢١]﴾، وذهب إلى مدين وقصته مذكورة

في القرآن، فهذا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قتل هذه النفس بغير حق، واعترف بأنه أخطأ، واستغفر ربه، فغفر له ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخاف من العدو وهرب، هذا ما حصل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدل على أن قتل النفس بغير حق ممنوع؛ لأنه يترتب عليه محاذير أصابت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من الغم ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠] حصل عليه غم بسبب هذا وخوف حتى هرب من مصر إلى أرض مدين، هذا كله من أسباب قتل النفس، مع أنه ما تعمّد، إنما ضربه ليردعه عن الإسرائيلي، فقتل الرجل قتل خطأ، فقال الله تعالى له: ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَئْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتْنَاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، قال الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ممتناً عليه بعد أن كلمه برسالته، وقصة إلقاء العصا وما حصل لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الرعب والخوف منها، ثم أمّنه الله، الله امتنّ عليه، قال: ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا﴾، يعني: من جملة النعم التي أنعمها الله عليك ﴿وَقُلْتَ نَفْسًا فَجَئْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾، يعني: من جراء قتلها ما أصابك من الغم، وهيانا لك الطريق، وهيانا لك مَنْ يستقبلك في أرض مدين، وهو الرجل الصالح، وتزوج هناك، ورعى الغنم، فهذا من نعمة الله، وأمن فيها، ﴿لَا تَخَفْ فَنُوحُوا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، هذا مما مَنْ الله به على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَفُتْنَاكَ فُتُونًا﴾، ما جرى عليه من المحن:

أولاً: أنه ولد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في العام الذي يقتل فيه فرعون المواليدي، فألهم الله أمه أن تجعله في تابوت، وأن تُلقيه في النيل، وذهب به النهر حتى ألقاه في بيت فرعون عدوه فأخذه وأرادوا قتله، فقالت امرأة فرعون: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، ثم إنه كف عن قتله،

طلبوا له الرضاع، فحرم الله عليه المراضع، يعني: منعه من قبول ثدي النساء، بقي بلا رضاع، لكنه يموت، ماذا نعمل؟ الله جَلَّ وَعَلَا دبر له أن أخته جاءت وهم لا يعرفون أنها أخته، فعرضت عليهم أن تذهب به إلى مرضعة تُرضعه لهم، وهي لهم من الناصحين، فقبلوا ذلك؛ لأنهم وقعوا في ضيق من شأن هذا الطفل، ذهبوا به ورجعه الله إلى أمه تُرضعه، وتأخذ الأجرة ﴿فَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]، هذا أول امتحان على موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

الامتحان الثاني: امتحان قتل هذا الرجل وما حصل عليه من الخوف.

الامتحان الثالث: خوفه وهربه وخروجه من مصر ومن بيت الثروة والغنى، وهربه إلى مدين ﴿وَفَتَّاكَ فُتُونًا﴾، فتن كلها وامتحانات وابتلاءات جرت على موسى عَلَيْهِ السَّلَام، ﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُوسَى﴾ [طه: ٤٠]، هذا كلام الله له عند بعثته رسولا إلى بني إسرائيل.



وَلَهُمَا عَنِ الْمَقْدَادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَأَقْتُلْتَنِي، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَازَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسَلَمْتُ لَكَ، أَقْتُلْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقْتُلْهُ» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَطَعَهَا، أَفَأَقْتُلْهُ؟ قَالَ: «لَا تَقْتُلْهُ فَإِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلْهُ، وَأَنْتَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ»^(١).

الشَّيْخُ

وهذا -أيضاً- مما يدل على تحريم قتل المسلم، حتى ولو كان إسلامه حديثاً، فهذا يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو التقى مع كافر في الجهاد، فقطع الكافر يد المسلم، ثم بعدما قطعها وأراد المسلم أن ينتقم منه، قال الرجل: أمنت وأسلمت، هل يجوز لي أن أقتله بعد ما أسلم؟ قال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقْتُلْهُ»؛ لأنه أصبح مسلماً، وأصبح دمه حراماً، «لَا تَقْتُلْهُ فَإِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلْهُ»؛ يعني: إنه بمنزلك لما أسلم صار مسلماً بمنزلك -منزلة المسلم-، وإن قتله صرت بمنزله، يعني: إنه يجب عليك القصاص، ليس أنك بمنزله أنك تكفر.. لا، «بِمَنْزِلَتِهِ» بمعنى أنك مُهدر الدم، يجب عليك القصاص، كما أنه كان قبل أن يُسلم مُهدر الدم، فأنت تصبح بمنزله مُهدر الدم بالقصاص.

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٩)، ومسلم (١٥٥) (٩٥).

فالشاهد من الحديث: أن فيه تحريم قتل المسلم ولو كان إسلامه حديثاً، فَمَنْ دخل في الإسلام يُكف عنه، فإن استمر على الإسلام وأصلح قُبِلَ منه ذلك، وإن ظهر منه ما يُخالف الإسلام حُكِمَ عليه بالردة، لكن لا بد من التثبت في هذا وعدم العجلة، ولا يقال: إنه مسلم يخاف من الموت، أو يخاف من القتل، هذا ما ندخل فيه؛ كما سيأتي في قصة أسامة بن زيد رضي الله عنه لما قتل الرجل.



وَلَهُمَا عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحُرَقَاتِ، فَصَبَّخْنَا الْقَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، فَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا عَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَنِي بِرُمْحِي فَقَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَّغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، قُلْتُ: إِنَّمَا قَالَهَا مُتَعَوِّذًا، فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا، حَتَّى تَمَيَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ»^(٢).

وَلِمُسْلِمٍ: أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»^(٣).

الشَّيْخُ

هذا الحديث فيه أن أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتل هذا الرجل بعدما قال: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يظن أنه قَالَهَا يَتَّقِي بِهَا السَّيْفَ، لَمْ يَقْلُهَا صَادِقًا، هَذَا الَّذِي حَمَلَ أُسَامَةَ عَلَى قَتْلِهِ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَهَا نِفَاقًا، يَرِيدُ أَنْ يَسْلِمَ مِنَ الْقَتْلِ، النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْكَرَ عَلَيْهِ غَايَةَ الْإِنْكَارِ، وَكَرَّرَ عَلَيْهِ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟»، فَهَذَا إِنْكَارُ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَتْلِ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، وَلَا يَقَالُ: إِنَّهُ أَظْهَرَهُ نِفَاقًا، نَحْنُ لَنَا الظَّاهِرُ، مَا نَعْلَمُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٨٧٢)، وَمُسْلِمٌ (١٥٨) (٩٦).

(٢) أَخْرَجَهَا مُسْلِمٌ (١٥٨) (٩٦).

(٣) أَخْرَجَهَا مُسْلِمٌ (١٦٠) (٩٧).

ما في البواطن، «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟»، فلا ندخل في البواطن، إنما نعمل بالظواهر، هو أعلن الإسلام، وشهد أن لا إله إلا الله نكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَسُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]، يعني: تثبتوا، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، فالواجب الثبوت وعدم التسرع والتدخل في النيات وما في القلوب، هذا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَمَنْ أعلن الإسلام قبلنا منه وكفنا عنه، فإن ظهر منه ما يخالف الإسلام حكمنا عليه بالردة، وإن لم يظهر منه ما يخالف الإسلام، فهو مسلم ظاهراً وباطناً، فهذا فيه تحريم قتل المسلم ولو كان حديث عهدٍ بالإسلام.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقْتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟»، استعظم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الفعلة من أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مع إنه من أحب الناس إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبوه من أحب الناس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع هذا أنكر عليه هذا الإنكار؛ لِيُعْلَمَ المسلمون عدم التسرع في التكفير، الآن كثيرٌ من الجهَّال والمتحمسين يحكمون بالتكفير لأدنى سبب وهم لا يعلمون ما في القلوب، ولا ما هي النيات والمقاصد، فيجب الثبوت في هذا الأمر وعدم التسرع في التكفير وأخذ الناس بدون تثبت، هذا درسٌ عظيم هذا الحديث لهؤلاء المكفرين التكفيريين الذين يتسرعون في إطلاق التكفير على الناس لأدنى سبب وهم لا يعلمون، ولا يعرفون شروط التكفير وضوابط التكفير.

وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا»^(١).

الشَّيْخُ

هذا فيه أن المسلم في سلامة وعافية بسبب دينه وإسلامه ما لم يُصَبْ دمًا حرامًا، فإنه يقع حينئذٍ في الابتلاء والامتحان، وهو الذي أوقع نفسه، فهذا فيه النهي عن سفك الدم الحرام؛ كما عقد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في أول الباب (بَابُ: تَعْظِيمِ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)، فهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، فإذا أصاب المسلم دمًا حرامًا وقع حينئذٍ في الخطر، وتحمل الإثم والعقوبة، أما قبل أن يقتل فهو في عافية وفي فسحة من دينه، فهذا فيه الحث على احترام دماء المسلمين ودماء المعاهدين التي حرمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحرمها رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



بَابُ: تَكْثِيرِ السَّوَادِ فِي الْفِتَنِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّيْخُ

قول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: تَكْثِيرِ السَّوَادِ فِي الْفِتَنِ) معناه: أنه يُنْهَى أن الإنسان يدخل مع أهل الفتن، ويكثر عددهم، بل - كما سبق - عند الفتن المسلم يعتزل هذه الفتن، ويكف يده ولسانه عن الدخول فيها إلا إذا كان له مهمة في الإصلاح وتقليل الشر أو منعه، فإنه يدخل لأجل الإصلاح، أما أن يدخل ويُشارك في نشر الفتنة والقتال فيها، فهذا منهى عنه.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ»، هذا فيه منع مشاركة الإنسان في الفتن، فلا يحمل السلاح فيها، بل يكف يده.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَيْسَ مِنَّا»، هذه براءة من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن فعل ذلك، قد اختلف العلماء في معنى قوله: «فَلَيْسَ مِنَّا»: هل معناه أنه يكفر، أو أن ذلك من باب الزجر والوعيد ولا يكفر، أو أنه يُتَوَقَّفُ عن تفسيره، ويُمر كما جاء؟ وهذا هو الصحيح: أنه يُمر كما جاء، ويُتَوَقَّفُ عن تفسيره، لكن مع العلم أن الإنسان لا يكفر إلا بالنواقض المعروفة - نواقض الإسلام المعروفة -، ولكن هذا - والله أعلم - من باب الوعيد والزجر؛

(١) أخرجه مسلم (١٦٤) (١٠١).

ليكيف الإنسان عن الفتن، وعلى كل حال فكما سبق أنها إذا اشتعلت الفتنة فعلى المسلم أن يسعى في الإصلاح وإطفاء الفتنة مهما استطاع، فإذا لم يكن له تأثير ولم يُقبل منه، أو ليس عنده استعداد لهذه المهمة فإنه يتعد عن الفتن، يتعد بنفسه عن الفتن، ولا يُشارك فيها بين المسلمين.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، الغش معناه: عدم النصيحة، الغش ضد النصيحة، فالمسلم يكون ناصحاً - «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ»، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»^(١)، يعني: خالياً من الغش، ناصحاً يعني: خالياً من الغش، ويكون ظاهره كباطنه نقيّاً سليماً طاهراً، والغش كبيرة من كبائر الذنوب بدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَيْسَ مِنَّا»، فإن هذه اللفظة إذا جاءت مرتبةً على ذنب دل على أن هذا الذنب كبيرةٌ من كبائر الذنوب.

والواجب على المسلم النصيحة: النصيحة في المعاملة، النصيحة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والتذكير، النصيحة في المشورة، إذا استُشير فإنه يُبدي المشورة الصحيحة التي يراها، النصيحة إذا أُوْتِمِنَ على شيء من الأسرار أو من الأموال أو من الأعمال، فإنه يكون ناصحاً - أي: خالياً من الغش -، هذه صفات المؤمن، فإن لم يكن كذلك فهو متوعدٌ بهذا الوعيد.



وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبِي الْأَسْوَدِ قَالَ: «قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْثٌ، فَاكْتُتِبَتْ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَتَنَهَانِي أَشَدَّ النَّهْيِ، وَقَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكْثِرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَأْتِي السَّهْمُ يُرْمَى بِهِ فَيَصِيبُ أَحَدَهُمْ، فَيَقْتُلُهُ أَوْ يُضْرَبُ فَيَقْتُلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] الْآيَةَ، وَقَوْلُهُ: وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ»^(١).

الشَّجُّ

هذا الحديث فيه أنه فرض على أهل المدينة أن يُجهزوا جيشاً لقتال المسلمين في الفتنة التي نشبت بين أهل الشام وبين ابن الزبير وبين الأمويين، فهذا الرجل اكتتب في هذا الجيش الذي طُلب من أهل المدينة أن يُجهزوه ليغزو فيه، فلقية عكرمة البربري مولى ابن عباس وتلميذه، فأنكر عليه ذلك، أنكر عليه أن يكتتب في هذا الجيش الذي يُشارك في الفتنة وفي القتال بين المسلمين، هذا محل الشاهد من الحديث.

وذكر عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ

سَيِّلاً ﴿١٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿[النساء: ٩٧-٩٩]﴾
 أن هذه الآية نزلت في أناسٍ من المسلمين تركوا الهجرة وهم يقدرُونَ عليها،
 وبقوا في مكة، فلما صارت وقعة بدر خرج المشركون بهؤلاء المسلمين،
 وأجبروهم على أن يخرجوا معهم؛ ليقاتلوا المسلمين، فكان منهم من يُقتل،
 من المسلمين من يُقتل، فأنزل الله في حقهم هذا الوعيد؛ لأنهم كثَّروا سواد
 المشركين على المسلمين على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فلا يجوز تكثير سواد أعداء الإسلام على المسلمين من الكفار والمشرِكين،
 وهذا يدل -أيضاً- على أنه لا يجوز تكثير أهل الفتنة، فكل قتالٍ مُحَرَّم لا يجوز
 للمسلم أن يُشارك فيه؛ لأنه يُكثِّر سواد أهلِهِ، ويساعدهم على الفتنة، كما أن
 من كان مع الكفار يساعدهم على المسلمين.

وَقَوْلُهُ: «وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ»، هذا في الولاية الذين يحصل منه ظلمٌ،
 ولاية أمور المسلمين هم من المسلمين، ولاية من المسلمين يكون منهم ظلم على
 الناس، أو يكون منهم فعل شيءٍ من المنكرات التي لا تصل إلى حد الكفر،
 ومنها: تأخير الصلاة عن وقتها، فيحصل منهم مخالفات، لكنها لا تصل إلى
 حد الكفر، فهؤلاء من أنكر عليهم بلسانه فقد برئ بأن يعظهم، ويُذكرهم،
 ويُخوِّفهم بالله، وكذلك من أنكر عليهم بقلبه، ولم يَرْضَ فعلهم فقد برئ، لكن
 من لم يُنكر لا بلسانه ولا بقلبه ورضي وتابع معهم فإنه يكون آثماً، فهذا دليلٌ
 على أصلٍ من أصول أهل السُّنَّة في أنه لا يجوز الخروج على الولاية مهما بلغ من

تصرفاتهم السيئة ما لم تصل إلى حد الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن في الخروج عليهم
أضرارًا كثيرة أشد من البقاء على ما هم عليه من التقسيم، من سفك الدماء
واختلال الأمن، وتسلط الكفار، فلا يُخرج عليهم من أجل منكرٍ لا يصل إلى
حد الكفر؛ لأن الخروج عليهم يلزم عليه فتنٌ وشُرورٌ وأمورٌ فظيعة.

ولكن ليس معنى هذا أن الإنسان لا يقوم بالواجب من النصيحة،
وموعظة الولاية، وتذكير الولاية ونصيحتهم.



بَابُ ذِكْرِ الْعُقُوقِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ ذِكْرِ الْعُقُوقِ)، من الكبائر بعد الشرك عقوق الوالدين، والعقوق من العق، وهو القطع، فإذا قطع الولد بر والديه، فقد عَقَهُمْ^(١)، والعقوق كبيرة من كبائر الذنوب، بل هو أكبر الكبائر بعد الشرك؛ لأن الله -سُبْحَانَهُ- ذكر حقه أولاً بعبادته وحده لا شريك له، ثم ذكر حق الوالدين في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴿[لقمان: ١٣-١٤]، هكذا يأتي حق الوالدين بعد حق الله -سُبْحَانَهُ-، فمن أخل بحق الوالدين فهذا عقوق، وهو كبيرة عظيمة من كبائر الذنوب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤])، ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]، فأمر بشكره

(١) انظر مادة (عق) في: العين (١/٦٢)، وتهذيب اللغة (١/٤٧)، والصحاح (٤/١٥٢٧)، ومقاييس اللغة (٤/٣)، ولسان العرب (١٠/٢٥٥).

-سُبْحَانَهُ- على نعمه التي لا تُعد ولا تحصى، والتي كلها منه لا من غيره، ثم أمر بشكر الوالدين؛ لأن الوالدين أعظم محسنٍ بعد الله -سُبْحَانَهُ- على الولد، فأولاً إحسان الله على الإنسان، ثم إحسان الوالدين، فهما أعظم محسنٍ على الولد بعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فحقهما يأتي بعد حق الله، وعقوقهما يأتي بعد الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ في الإثم والفضاعة.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾، وصيناه، وفي الآية الأخرى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥] أن يُحسن إليهما بالقول وبالفعل وبجميع أنواع الإحسان، وبالخدمة لهما، وبالتواضع لهما، وبكف البذاءة والكلام السيئ ورفع الصوت عليهما، وغير ذلك، كل هذا من القطيعة ومن العقوق.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾، ثم ذكر العلة في ذلك الحق العظيم: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾، لا شك أن حمل الأم للجنين فيه مشقة عليها عظيمة، وفيه آلام ومُقاساة لا يعلمها إلا الله، تحصل للحامل، تحمل إنساناً في بطنها وفي أحشائها، هذا يكون فيه مشاق عظيمة على جهدها وصحتها ونشاطها، ثم وضعه، وما في الوضع من الخطورة التي قد تُفضي إلى الموت.

حملة وفصاله يعني: فطامه إرضاعه ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهُ﴾ في عَامَيْنِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فالأم تقاسي من الحمل، وتقاسي من الوضع، وتقاسي من الرضاعة، فلذلك صار حقها على الولد عظيماً -كما يأتي-، وعقوق الوالدين كبيرة تأتي بعد الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَبَايُعُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ، قَالَ: «فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟» قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: «فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَخْسِنْ صُحْبَتَهُمَا». أَخْرَجَاهُ، وَالْفُظْ لِمُسْلِمٍ^(١).

الشَّيْخُ

وهذا الحديث -أيضاً- فيه أن هذا الرجل أتى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَايِعُهُ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْهَجْرَةِ مِنْ بِلَادِ الشُّرْكِ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، الْهَجْرَةَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْتَغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَيْسَ لَهُ قَصْدٌ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَقَالَ: «فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟» قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: «فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَخْسِنْ صُحْبَتَهُمَا»، فَأَرْجَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى وَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكْتَبْهُ فِي الْجِهَادِ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى عَظَمِ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ، وَأَنْ حَقَّهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الْجِهَادِ الَّذِي هُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ، مَعَ فَضْلِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُخْرَجُ لِلْجِهَادِ الشَّرْعِيِّ إِلَّا بِإِذْنِ وَالِدَيْهِ إِذَا كَانَ الْجِهَادُ فَرْضُ كِفَايَةٍ؛ لِأَنَّ حَقَّ الْوَالِدَيْنِ فَرْضُ عَيْنٍ، وَفَرْضُ الْعَيْنِ مُقَدَّمٌ عَلَى فَرْضِ الْكِفَايَةِ.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٥) (٢٥٤٩) من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ففي هذا ردُّ على هؤلاء الذين يخرجون إلى ما يُسمونه الجهاد - وهو ليس جهادًا، إنما هو فتنة وشر - بدون إذن الوالدين - أيضًا -، فجمعوا بين جريمتين: عقوق الوالدين، وأنهم توجهوا إلى شيء ليس هو من الجهاد في سبيل الله، بل هو من الفتن والشرور.



وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَانْزِمِهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ (١).

الشَّجَرُ

وهذا الحديث مثل الذي قبله، هذا الرجل جاء يستشير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجهاد، فسأله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَانْزِمِهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا»؛ أي: ابقِ عندها، ولازم خدمتها، وكن تحت أمرها، فإن الجنة تحت قدميها، بمعنى: أن الجنة والثواب في خدمة الوالدين وبر الوالدين، وقريبة منها، الجنة قريبة منهما لمن وفقه الله لبر والديه، وأن البر بالوالدين أفضل من الجهاد الذي هو فرض كفاية.

وهذا -أيضاً- يؤكد أنه لا يجوز الخروج للجهاد الذي هو فرض كفاية إلا بإذن الوالدين، بعدما يأذن الوالدان أو أحدهما من كان موجوداً منهما.



(١) أخرجه النسائي (٤٢٩٧)، وابن ماجه (٢٧٨١)، وأحمد (٢٩٩/٢٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صُحْبَتِي؟»، قَالَ: «أُمُّكَ»، فَقَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: «أُمُّكَ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

وهذا يؤكد حق الوالدين، ويُرجِّح حق الوالدة، فهذا الرجل سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أحق الناس بحسن صحبته؟ أي: بمصادقته وملازمته، فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمُّكَ»، فقال: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ: «أُمُّكَ»، فلهذا دليل على أن حق الأم أعظم من حق الأب؛ لأن الأم قاست من الآلام والأتعاب والمشقة أكثر مما يُقاسيه الأب، فكان أجرها مضاعفًا على أجر الأب ثلاث مرات؛ لأنها لها أجرٌ على حملها، وأجرٌ على وضعه، وأجرٌ على إرضاعه، ثم تشترك مع الأب في الأجر الرابع، وهو التربية -تربية الولد-، فالأب له أجرٌ واحد، والأم لها ثلاثة أجور؛ لأنها تُقاسي من الأتعاب والمشاق والآلام أكثر مما يُقاسيه الوالد، فلكلٍّ من الوالدين حق، ولكن حق الأم أرجح.



وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»^(١).

الشَّيْخُ

«الْكَبَائِرُ»، يعني: من الذنوب؛ لأن الذنوب تنقسم إلى قسمين: كبائر، وصغائر.

والكبائر تختلف العلماء في تعريفها، والصحيح: أن الكبيرة: كل ذنبٍ توعده الله عليه بالنار، أو لعن من فعله، أو رتب عليه حدًّا في الدنيا^(٢)، كالزنا، والسرقه، وشرب الخمر، فهذه هي الكبائر.

أما الصغائر، فهي ما نُهي عنه، ولم يُرتب عليه شيءٌ من هذه الأمور، بل نُهي عنه فقط، وأما الكبائر، فهي: ما نُهي عنه، ورُتبت عليه هذه الأمور، فهذا هو الفرق بين الكبائر والصغائر.

والكبائر تنقسم إلى قسمين: أكبر الكبائر، وما دونها^(٣).

الكبائر ليست على حدٍّ سواء، بعضها أكبر من بعض، وأكبر الكبائر الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم عقوق الوالدين، ثم الزنا.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»، هذه من أكبر الكبائر، فمن أكبر الكبائر هذه الثلاث: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، قتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٧٥).

(٢) انظر: (ص ٢٤).

(٣) انظر: (ص ٢٤).

وقد سأل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ»، وأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ (١٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ (١٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠] ^(١)، فجعل الشرك بالله، والزنا بزوجة الجار، وقتل الولد، القتل كله مُحَرَّمٌ بغير حق، قتل المؤمن محرَّمٌ بغير حق، ولكن قتل القريب أشد، كما أن الزنا بزوجة الجار أشد من الزنا بغيرها، فالكبائر تتفاوت بعضها أشد من بعض.

الشاهد من هذا: أنه عد عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، فدل على تحريم العقوق، وأنه من أعظم الكبائر.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»، هي: التي تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار، واليمين الغموس لا كفارة لها إلا التوبة والاستغفار، ومعناها: أن يحلف على أمرٍ ماضٍ كاذبًا متعمدًا، كأن يقول: اشتريت هذه السلعة بمائة ريال، وهو كذاب؛ لأجل أن يرفعها على المشتري، ويحلف على ذلك، يقول: والله لقد اشتريتها بكذا، وهو كذاب، أو أنها سيمت منه بكذا، وهو كذاب، هذه اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار،

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (١٤١) (٨٦).

وفي الحديث: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فَيَقُولُ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ»^(١)،
 وورد في حديث آخر: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ»^(٢)، هذه هي اليمين الغموس، وليس لها كفارة إلا التوبة إلى الله -سُبْحَانَهُ-، والاستغفار، وعدم العود لمثلها.



(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٩)، ومسلم (١٧٣) (١٠٨) من حديث أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١) (١٠٦) من حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَابُ ذِكْرِ الْقَطِيعَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

الشَّجَّ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ ذِكْرِ الْقَطِيعَةِ)، لما ذكر عقوق الوالدين وهو أكبر القطيعة ذكر القطيعة مع بقية الأقارب، فالأقارب جعل الله لهم حقاً على قريبيهم، وهم كل من تجمعك بهم قرابة من جهة الأب أو من جهة الأم، كالإخوة والأخوات، والأعمام والعَمَّات، والأجداد والجَدَّات، وبنو الإخوة وبنو الأعمام، والأخوال والخَالَات، كل من تجمعك بهم قرابة من جهة الأبوين فإنهم من ذوي الأرحام لهم حق جعله الله بعد حق الوالدين: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] وذوو القربى هم من بيننا ضابطهم أن تجمعك بهم قرابة من جهة الأب أو من جهة الأم، لهم حق عليك، وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]، فلعن من قطع أرحامه، فهذا يدل على أن هذا كبيرة من كبائر الذنوب، فذوو الأرحام لهم حق من الحقوق العشرة المذكورة في هذه الآية: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً

وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿النساء: ٣٦﴾، وهذه الآية تُسمى
آية الحقوق العشرة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٣٦)
الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

قال تعالى في القرآن: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾، أي: القرآن، ﴿وَيَهْدِي
بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾، والفاسق هو: الخارج عن طاعة
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الفسق في اللغة هو الخروج^(١).

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ مَنْ هُمْ؟ ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فذكر أن من جملة الفاسقين الذين يقطعون ما
أمر الله به أن يُوصَلَ والأرحام؛ لأنها أمر الله أن توصل، فالذي يقطعها ممن
يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، فذكر أن الله يُضلُّهم، وذكر أنهم فاسقون،
وذكر أنهم خاسرون، فهذا وعيدٌ شديد لمن قطع رَحِمَهُ.



(١) انظر مادة (فسق) في: العين (٨٢/٥)، وتهذيب اللغة (٣١٥/٨)، والصحاح
(١٥٤٣/٤)، ومقاييس اللغة (٥٠٢/٤)، ولسان العرب (٣٠٨/١٠).

وَلَهُمَا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ رَحِمٍ»^(١).

الشَّجَرُ

عن جبير بن مطعم بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ رَحِمٍ»، هذا وعيدٌ شديد، ليس معناه أنه يُحْرَمُ مِنَ الْجَنَّةِ نَهَائِيًّا كَمَا يُحْرَمُ الْكَافِرُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -، مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، فَقَدْ يُعَذَّبُ فِي النَّارِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَهُوَ لَا يَدْخُلُهَا كَمَا يَدْخُلُهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، بَلْ قَدْ يَتَأَخَّرُ دُخُولُهُ، قَدْ يُعَذَّبُ بِالنَّارِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُحْرَمُ نَهَائِيًّا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْكَافِرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ لَيْسَ كَافِرًا، إِنَّمَا هُوَ مَرْتَكِبٌ لِكَبِيرَةٍ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ.



وَلَهُمَا عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افْرُقُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]»^(١).

الشَّجَرُ

الرَّحِمُ من جُملة المخلوقات، خلقها الله جَلَّ وَعَلَا، ولما خلقها عازت بالله، أي: لجأت إليه، واعتصمت به من القطيعة، فقال الله لها: «أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ»، فهذا دليل على أن من وصل رحمه وصله الله، ومن قطع رحمه قطعه الله؛ لأن الجزء من جنس العمل، وأن الله أعطى الرَّحِمَ هذا الحق، فدل على عظم حق الرَّحِمِ، ووجوب صلتها، وتحريم قطعها، ثم إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استشهد بقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣]، فذكر ② أولئك الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿[محمد: ٢٢-٢٣]، فذكر أن قاطع الرَّحِمِ مع المفسدين في الأرض، وتوعدهم الله باللعنة، فهذا وعيدٌ شديد، وخطرٌ كبير في قطيعة الأرحام.



بَابُ: أَذَى الْجَارِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: أَذَى الْجَارِ)، من الكبائر أَذَى الجار، والجار هو: الذي يسكن إلى جوارك، سواءً كان ملاصقاً لبيتك، أو قريباً منك، فالجار له حقٌّ في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى من جملة الحقوق العشرة: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: ٣٦]، فالجار له حقٌّ من جملة الحقوق العشرة.

وفيه أحاديث أخرى، منها حديث: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَثُهُ»^(١)، وجاء الوعيد الشديد على من آذى جاره.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦]).

﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾، أي: الذي يقرب منك.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٤)، (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٤)، (٢٦٢٥) من حديث عائشة

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ الذي له قرابة نسبية منك، الجيران ثلاثة^(١):

جارٌ له ثلاثة حقوق: وهو الجار القريب المسلم، له حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام.

وجارٌ له حقان: وهو الجار المسلم غير القريب، له حق الجوار، وحق الإسلام.

وجارٌ له حقٌ واحد: وهو الجار غير المسلم.

الجار له حق، ولو كان غير مسلم، لو كان يهوديًا أو نصرانيًا فله حق، له حقٌ واحد.



(١) كما في الحديث الذي أخرجه البزار (١٨٩٦) كشف الأستار، والطبراني في مسند الشاميين (٣/٣٥٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/٢٠٧)، والبيهقي في الشعب (٣/١٠٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ وَهُوَ أَذْنَى الْجِيرَانِ حَقًّا، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ وَهُوَ أَفْضَلُ الْجِيرَانِ حَقًّا، فَأَمَّا الْجَارُ الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ فَالْجَارُ الْمُشْرِكُ لَا رَحِمَ لَهُ وَلَهُ حَقُّ الْجَوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَالْجَارُ الْمُسْلِمُ لَا رَحِمَ لَهُ، وَلَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الْجَوَارِ، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ: فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذُو رَحِمٍ لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الْجَوَارِ، وَحَقُّ الرَّحِمِ، وَأَذْنَى حَقِّ الْجَوَارِ إِلَّا تُوْذِيَ جَارَكَ بِقَتْلِهِ قَدْرَكَ إِلَّا أَنْ تَقْدَحَ لَهُ مِنْهَا».

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»، والضيف هو الذي يمر بك في القرى أو في البوادي يُريد القرى - أي: الطعام والشراب -؛ لأنه مسافر ومحتاج، فله حق، فمن الإيثار بالله إكرام الضيف، والذي لا يُكرم ضيفه هذا يدل على أنه لا يؤمن، يعني: ليس إيمانه كاملاً، وليس معناه أن من لم يُكرم ضيفه يكون كافراً، وإنما معناه أنه ناقص الإيمان.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ»، وهذا محل الشاهد من الحديث، فدل على أن إيذاء الجار نقصٌ يُنقص الإيمان.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»، يُراعي لسانه، فإن كان الكلام فيه خيراً في الدين والدنيا فليتكلم، وإن كان الكلام فيه شراً في الدين أو في الدنيا فإنه يُمسك لسانه، والشاهد منه: «فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ».



وَلَهَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»^(١).

الشَّيْخُ

في هذا الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حلف ثلاث مرات، قال: «لَا يُؤْمِنُ»، أي: لا يؤمن الإيمان الكامل، (قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟)، من الذي هذا شأنه؟ قال: «مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، أي: لا يأمن جاره غدراته؛ لأن الجار له حق أن تُكرمه وأن تحترمه، وألا تطلع على عوراته، وألا تستمع إلى كلامه الذي لا يجب أن يُستمع إليه، الجار لا يتجسس على الجيران، ويتسمع ما يقولون، ولا ينظر إلى بيوتهم، ويتطلع إلى عوراتهم، ولا يكون في بيته شيء يؤذيهم من أصواتٍ أو معازفٍ أو مزاميرٍ أو روائع كريمةٍ أو غير ذلك، يكف أذاه عن جاره؛ لأن الجار له حق، والجار ائتمنك، وسكن إلى جنبك؛ لأجل أن تُحافظ على كرامته، فإذا ختته في دارك واطلعت على عوراته، ونظرت إلى بيته، وتطلعت إلى نسائه فقد ختته، وبُقيت به، والبوق هو الخيانة، والخيانة ضد الأمانة.

فعلى المسلم أن يحترم جاره غاية الاحترام، كما يحترم نفسه، كما لا يرضى هو أن أحدًا يؤذيه، أن أحدًا يطلع على داخل بيته، أن أحدًا يتسمع عليه، ويُفشي ما يسمع، أن أحدًا يصدر منه عليه أذى، كيف يرضاه لجاره؟

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٦)، ومسلم (٧٣) (٤٦)، واللفظ للبخاري.

فَالْإِنْسَانُ يَقِيسُ عَلَى نَفْسِهِ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ
لِنَفْسِهِ»^(١).

ولاحظوا أن هذا الجار عام، حتى الكافر إذا كان جارًا لك، فلا بُدَّ أن
يأمن بوائقك وغدراتك.



وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَنُهُ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»^(١).

الشَّجَرُ

خير الأصدقاء خيرهم لصديقه، يُعينه على ما ينفعه وينصحه ويعلمه ما يحتاج إليه ويسد حاجته إذا احتاج بإطعامه أو إقراضه إذا احتاج إلى قرض أو غير ذلك، هذا خير الأصدقاء.

«وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»، كذلك تبذل نفعك لجارك، حتى لو أنك صنعت مرقّة، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرْقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»^(٢)، فلا تظهر أنك تشتري الفواكه واللحوم وهم فقراء، وتشق عليهم في أنهم محرمون من هذه الأشياء، وأنت تُظهر هذه الأشياء، إما أن تُخفيها ولا يدرون بها، وإما أن تُطعمهم منها، تدفع لهم شيئاً منها، ولا تجعل مع أولادك مظاهر غنى وأولاد جيرانك فقراء، فيحصل بذلك كسر لنفوسهم، فكل هذه من الأمور التي تُراعى مع الجيران.



(١) أخرجه الترمذي (١٩٤٤)، وأحمد (١٢٦/١١).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٢) (٢٦٢٥) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَصَحِيحِ الْحَاكِمِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «أَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمْ امْرُؤٌ جَائِعٌ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ الذِّمَّةُ»^(١).

وَفِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ»^(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يُؤْمِنُ مَنْ بَاتَ شَبَعَانِ وَجَارُهُ طَاوِيًا»^(٣).

الشَّبْعُ

العَرْصَةُ المراد بها: المكان والمحل، فإذا كان أهل هذه العَرْصَةِ من جيرانهم أحدٌ جَائِعٌ، «فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ الذِّمَّةُ» ذِمَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا وعيدٌ شديد في أن الجار لا يجوز له أن يشبع وجاره جائع، بل يُطْعَمُهُ وَيُعْطِيهِ مَا يَسُدُّ فَاقَتَهُ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ»، هذا نفي كمال الإيمان «الَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ»، ليس عنده شيء، بل عليه أن يُطْعِمَ جاره، وأن يُعْطِيَهُ مَا يَسُدُّ جُوعَتَهُ، فهذا من محاسن هذا الدين الإسلامي، حتى ولو كان -لاحظوا- ولو كان هذا الجار كافرًا، إذا كان فقيرًا لا تشبع وهو يجوع، بل تُعْطِيهِ وَتَطْعَمُهُ مَا يَسُدُّ خَاجَتَهُ.

(١) أخرجه أحمد (٤٨٢/٨)، والحاكم (١٤/٢).

(٢) أخرجه الحاكم (١٥/٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٦٤/٦).

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يُؤْمِنُ مَنْ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارَهُ طَاوِيًا») مثل الأول، «لَا يُؤْمِنُ»، يعني: لا يؤمن الإيمان الكامل «مَنْ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارَهُ طَاوِيًا»، يعني: بات جاره على الجوع، هذا بات على الشُّبع، وهذا بات جاره على المجاعة، الذي يتصف بهذه الصفة يكون ناقص الإيمان، وعليه وعيدٌ شديد، فهذا فيه الحث على تعاهد الجيران بالإحسان، وسد الحاجة التي يُعانون منها.



بَابُ: الْأَسْتِخْفَافِ بِأَهْلِ الْفَضْلِ

عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ شَرَفَ كَبِيرَنَا». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

الشَّيْخُ

قال المؤلف: (بَابُ: الْأَسْتِخْفَافِ بِأَهْلِ الْفَضْلِ)، الاستخفاف بالمسلمين عموماً لا يجوز، وهو تنقيص قدرهم، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِثْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، المسلم له حرمة لا يجوز انتقاصها، وإذا كان ذلك لأهل الفضل فهو أشد، إذا كان هذا الانتقاص لأهل الفضل من المسلمين كالعلماء والصالحين فإن الإثم أشد.

قال سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، فيجب تقدير أهل الفضل، والاعتراف بفضلهم الذي أعطاهم الله إياه، وقد يكون هذا الاستخفاف عن حسد، فيكون الأمر أشد، يجمع بين الاستخفاف بأهل الفضل وتنقيص قدرهم، ويكون -أيضاً- فيه حسد، والحسد كبيرة من كبائر الذنوب، قد يكون

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٤٣)، والترمذي (١٩٢٠)، وأحمد (٣٤٥ / ١١).

الإنسان في نفسه حقيرًا، فيريد أن يزهد الناس في أهل الفضل، وليس من الأنصاف أن يدفع الفتى يد النقص عنه بانتقاص الأفاضل، فهذا من كبائر الذنوب، ولذلك عده الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كِتَابِ الْكِبَائِرِ، فينبغي الحذر من هذا الأمر.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ: (عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ)، الواجب على المسلم أن ينزل الناس منازلهم، فيرحم الصغير الذي فيه الضعف، فيرحمه ويساعده ويدفع عنه ضعفه، ويعرف شرف الكبير، الكبير في السن، والكبير في الدرجة، الكبير يشمل: الكبير في السن له حق، والكبير في العلم له حق، والكبير في الجاه -أيضًا- له حق، فينزل الناس منازلهم، ولا يستخف بهم.



وَلِأَبِي دَاوُدَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ». حَدِيثٌ حَسَنٌ^(١).

الشَّيْبُ

من إجلال الله سُبحَانَهُ، الله جَلَّ وَعَلَا يُجَلِّ وَيُعْظِمُ، وكذلك يُجَلِّ من يجلهم الله ويعظم قدرهم.

في الأول: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»، فيجمله لشيبته وإسلامه لأمرين:

الأمر الأول: أنه ذو شيبة وكبر.

والأمر الثاني: أنه مسلم، فلا يتقصه، لا سيما وهو قد شاب في الإسلام، فهو سابق إلى الخير ومتقدم فيه، فلا يُنتقص، هذا واحد.

والثاني: «وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ»، حامل القرآن، أي: الذي يحفظ القرآن، حمله المراد به: حفظه، أو إجادة تلاوته، ولو من غير حفظ، فهو حامل للقرآن كلام الله -سُبحَانَهُ-، فله ميزة على غيره من الذين لا يحملون القرآن من العوام، فيُجل من أجل ما يحمله من كلام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، حملة القرآن لهم ميزة على غيرهم، لكن لا بد أن يكون حامل القرآن متأدبًا بأداب القرآن، فلا يغلو، أي: يشتد، ويزيد في القرآن، وهذا يشمل أمرين:

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٣).

الأمر الأول: ألا يشتد ويزيد في العمل، والقرآن يدعو إلى السباحة، وإلى الاعتدال في العمل، فلا يزيد في العمل، يسهر الليل بالقيام، ويصوم النهار، القرآن لا يأمره بذلك؛ كما في الحديث: «جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا بِهَا كَأَنَّهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَآيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنِّي أَصُومُ الدَّهْرَ فَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا أَعْتَرِلُ النِّسَاءَ وَلَا أَتَزَوِّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَّا إِنِّي لِأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لِكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي، فَلَيْسَ مِنِّي» (١).

فالقرآن لا يأمر بالغلو، وكذلك ألا يغلو في القرآن في الأحكام، ويستدل بالقرآن على غير وجهه كأن يستدل بالآيات المتشابهات، ولا يردّها إلى الآيات المحكمات، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، فلا يؤخذ طرف، ويترك الطرف الآخر الذي يبينه ويفسره، كلام الله لا يتناقض، ولا يختلف؛ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْفُ قُرْآنٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فلا يأخذ طرفًا من الآيات، ويقطعها عن الآيات التي تفسرها وتبينها؛ فيكون من الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويكون من أهل الزيف، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، فهذا من الغلو.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبهذا ضلّ الخوارج والمعتزلة في أخذهم الآيات التي هي من المتشابه، وعدم ردهم إلى الآيات المحكمة التي تفسرها، فهذا من الغلو، غلو الخوارج، وغلو المعتزلة في الحكم بالقرآن، وهم يزعمون أنهم يستدلون بالقرآن، وهم في الواقع لم يستدلوا بالقرآن؛ لأنهم أخذوا بعضه، وتركوا بعضه، فهم لم يستدلوا بالقرآن، هذه طريقة أهل الزيغ، لا طريقة أهل الهداية.

وكذلك من الغلو في القرآن: الغلو في تلاوته، الإفراط في أحكام التجويد، التقعر فيها، المدود والغنة، وأحكام التجويد، فبعض الناس يتقعر في التجويد، ويزيد على الحد المألوف والمطلوب، فهذا من الغلو في القرآن، يكون من الغالين في القرآن بتلاوته.

وكذلك هَذِهِ هَذَ الشَّعْرُ^(١)، وهو السرعة فيه، هذا من الغلو في التلاوة، التلاوة تكون معتدلة بين السرعة وبين التمثيط وتثقل القراءة على القارئ وعلى السامع، يجب أن يتنبه لهذا القراء وحفظة القرآن وأئمة المساجد.

والثالث: «وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمَقْسُوطِ»، الذي ولاه الله أمر المسلمين وهو عادل في حكمه، فهذا يُجَلُّ ويُحْتَرَم؛ لأن له مكانة عند الله والله يجله، أما إذا كان عنده جور وعنده ظلم، فهذا يُصْبِر على جوره وعلى ظلمه، ولا يجوز الخروج عليه؛ لما في ذلك من الفتنة والشر المستطير الذي هو أكثر مما عنده من النقص.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٧٧٥، ٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢): عَنْ شَقِيقٍ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي بَجِيلَةَ يُقَالُ لَهُ: نَبِيْكَ بْنُ سِنَانٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَقْرَأُ الْمَفْصَلَ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذَا كَهَذَا الشَّعْرِ، لَقَدْ عَلِمْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بَيْنَ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ».

وَلَا أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجَلِّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ» انتهى^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجَلِّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفَ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»، «لَيْسَ مِنَّا» هذه الكلمة عظيمة، معناها: البراءة؛ وأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبرأ من هذه صفاته، وهذه كلمة عظيمة تدل على أن هذا الفعل من الكبائر، الذي لا يجل الكبير في السن، أو الكبير في القدر -أيضاً-.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا»، فالذي لا يرحم الصغير، الصغير ضعيف، ولا يدفع عن نفسه، ولا يُحسن ما ينفعه أو يضره، فهو بحاجة إلى من يعطف عليه، ويرحمه.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيَعْرِفُ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»، وكذلك الذي لا يُجل العالم بالسرعة، العالم له حق، والله رفع من شأن العلماء، قَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾: هذا استفهام استنكار، معناه: لا يستويون لا يستوي العالم وغير العالم، العالم له مكانة تُعرف عند المسلمين؛ لأجل علمه، قال -سُبْحَانَهُ-: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، والله يرفع العلماء درجات، فكيف

(١) أخرجه أحمد (٤١٦/٣٧)، والحاكم (٢١١/١) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نخفض درجاتهم ونتقصهم؟ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَأِنَّ فَضْلَ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»^(١)، وفي رواية: «فَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنَاكُمْ»^(٢)، فالعالم له مكانة ومنزلة بعلمه، فيُحترم ويُجَل ولا يهون من شأنه؛ لأن هذا فيه عدوان على شخصه، وفيه عدوان على العلم الذي يحمله، فيتساهل الناس في العلم، يتساهلون في العلماء، وإذا تساهلوا في العلم والعلماء هلكوا.



(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (١٩٦/٥)، والدارمي (٣٤٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/٢٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٢٦٢) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَكُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَيَتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

بَابُ إِغْضَابِ الزَّوْجِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] الآية.

الشَّرْحُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: إِغْضَابِ الزَّوْجِ)، الله جَلَّ وَعَلَا جعل للزوجة حقوقاً على زوجها، قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ﴿وَكُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى بالنساء، والرجل له حق على زوجته أكثر من حقها عليه، ومن ذلك أنها تحترمه وتطيعه في غير معصية الله عَزَّجَلَّ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤])، والصالحات من النساء قانتات حافظات، فالصالحات هذا مبتدأ، ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ﴾، أي: مطيعات لأزواجهن، مطيعات لله أولاً، ومطيعات لأزواجهن، فالقنوت هنا المراد به: الطاعة، الصالحات من النساء قانتات، أي: مطيعات لله جَلَّ وَعَلَا، ومطيعات لأزواجهن، ويداون من على ذلك.

﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾، إذا غاب زوجها عنها، حفظته في نفسها وفي ماله حتى يرجع، وقيل: ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾، أي: حافظات للسر الذي بينها وبين زوجها.

هذه صفات عظيمة يجب على الزوجة أن تتحلّى بها مع زوجها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْتِي عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا زَوْجَهَا»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ». أَخْرَجَاهُ^(٢).

الشَّيْخُ

من حقوق الزوج على زوجته: أنه إذا دعاها للاستمتاع أنها تجيب؛ لأن هذا هو الغاية من الزوجية قضاء الوطر، فلا تمنع من غير عذر شرعي، لا تمنع إذا دعاها، بل تبادر؛ لأن هذا من حقه، بل هو في رأس حقه عليها، فإذا امتنعت بات الذي في السماء ساخطاً عليها، أي: الله جَلَّ وَعَلَا وملائكته يسخطون عليها، ويغضبون عليها؛ لأنها فعلت جريمة كبرى، وهي نشوزها عن زوجها في هذه الحالة.

وإضافة إلى ذلك في الرواية الثانية: «لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»، والملائكة مستجابو الدعوة، فإذا دعت عليها باللعنة فهم مجابون.

فهذا يدل على أن معصية المرأة لزوجها كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن سخط من في السماء عليها ولعنة الملائكة لها يدلان على أن هذا كبيرة من كبائر الذنوب.

(١) أخرجه مسلم (١٢١) (١٤٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٢٠) (١٤٣٦).

وَعَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

الشَّيْخُ

لما قدم معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الشَّامِ، وَكَانَ قَدْ رَأَى النِّصَارِيَّ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ - عَلَى عَادَتِهِمْ -؛ تَعْظِيمًا لَهُمْ، فَأَرَادَ مَعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَسْجُدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ^(٢)؛ لِأَنَّ السَّجُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي شَرِيعَةٍ مِنْ قَبْلِنَا؛ إِلَّا أَنَّهُ فِي شَرِيعَتِنَا مُحَرَّمٌ، وَفِي آخِرِ الْحَدِيثِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»، هَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمِ حَقِّ الزَّوْجِ عَلَيْهَا، فَيَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَبْذِلَ حَقَّهُ بِالْمَعْرُوفِ.



(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (١١٥٩)، وَالْحَاكِمُ (٤/١٨٩)، وَابْنُ حِبَانَ (٩/٤٧٠)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١٣٤/٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (١٨٥٣)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا هَذَا يَا مُعَاذٌ؟» قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ، فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا، وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسُهَا وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ لَمْ تَمْتَنِعْ».

بَابُ: أَذَى الصَّالِحِينَ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا
اَكْتَسَبُوا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: أَذَى الصَّالِحِينَ)، لا يجوز أذية الصالحين وتنقصهم
والخط من قدرهم، وهذا بأذيتهم وإلحاق الأذى بهم بقول بأن يستطيل
عليهم بلسانه، أو بفعل بأن يستطيل عليهم بيده، سواء كان ممن له أمر، أو
ليس له أمر، فلا يجوز أذية الصالحين والاعتداء عليهم، الأذية لا تجوز في حق
كل أحد، لكن الصالحين من باب أولى؛ لشرفهم عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ومحبة
الله لهم وإجلاله لهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اَكْتَسَبُوا فَقَدْ اَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾
[الأحزاب: ٥٨])، دلت هذه الآية على تحريم أذية المسلمين بغير حق.



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَخَذْتُ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَا أَخَذَهَا، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغَضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتُ أَغَضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغَضَبْتُ رَبِّكَ»، فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ أَغَضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّيْخُ

هذا الحديث فيه أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى المدينة في الفترة التي بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، وهو على الكفر لم يسلم بعد، فلما مرّ على سلمان الفارسي وصهيب وبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهم من سادات المسلمين، ومن الذين أودوا في الله، وعذبوا في الله قالوا: «وَاللَّهِ مَا أَخَذْتُ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَا أَخَذَهَا»، يريدون أنه يُقتل؛ انتقاماً منه؛ لما حصل منه لما كان على الكفر، ولكن الله منّ عليه بعد ذلك بالإسلام، فأسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم أتى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر له ما حصل من قول هؤلاء الثلاثة في حق أبي سفيان، وهو رجل من أكابر قريش، بل هو مقدم قريش في وقته، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغَضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتُ أَغَضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغَضَبْتُ رَبِّكَ»، أغضبت سلمان وبلالاً وصهيباً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،

يعني: بهذا الكلام الذي قلته لهم، فقال أبو بكر: «يَا إِخْوَتَاهُ أَغَضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَخِي»، فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاف أن يكون أغضب هؤلاء الأجلاء من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا له: لا، لم نغضب عليك، ودعوا له بالمغفرة.

فدلّ هذا على: أن إغضاب الصالحين يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يجوز لمسلم أن يغضب عباد الله الصالحين، بل يلتبس سرورهم وفرحهم، ولا يغضبهم، ويلتبس رضاهم عنه، ويتأدب معهم، هذا هو المطلوب، وفي هذا رد على الذي ينتقصون الصحابة من الشيعة، ويتكلمون فيهم، ويحطون من قدرهم، ويحددون فضائلهم بأن الله - سُبْحَانَهُ - يغضب عليهم.



وَلِلْتَرْمِذِيِّ وَحَسَنَهُ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ أَهَانَ السُّلْطَانَ، أَهَانَهُ اللَّهُ»^(١).

الشَّجَرُ

سبق أن السلطان المقسط يُجِلُّ، وأن إجلاله من إجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، السلطان المقسط هو العادل، وهذا الحديث فيه: أنه لا يجوز إهانة السلطان مطلقاً حتى ولو كان جائراً أو ظالماً أو عاصياً فلا يجوز إهانته؛ لأن في هذا إهانةً لولي الأمر، وأيضاً يسبب هذا بُغض الرعية لولي الأمر، وبالتالي يؤول إلى افتراق الكلمة، وقد يؤول إلى الخروج، فولي الأمر له حق، وله مكانة يُعَظَم ويُجِلُّ؛ من أجل منصبه وولايته، وما فيه من المصالح للإسلام والمسلمين يدفع الله به شرواً كثيرة، ويحفظ الله به الأمن، ويحفظ الله به الحقوق، ويردع الله به الظلمة، ويقيم الحدود، فالسلطان ظل الله في الأرض، فيه مصالح عظيمة للمسلمين، فلا يجوز انتقاصه والكلام فيه.

فهؤلاء الذي يتنقصون ولادة الأمور الآن في المجالس، أو في الأشرطة، أو في بعض المحاضرات والخطب يدخلون في هذا الحديث، ويستحقون هذا الوعيد، والله جَلَّ وَعَلَا يبينهم، هم يزعمون أنهم بهذا يترفعون بزعمهم أن هذا من إنكار المنكر، ويلتمسون به الرفع، لكن العكس الله جَلَّ وَعَلَا يبينهم في مقابل ما أهانوا السلطان.

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٢٤)، وأحمد (٧٩/٣٤). وقال الترمذي: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ).

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْأَمَانَةِ وَالْخِيَانَةِ فِيهَا وَتَفْسِيرِ الْأَمَانَةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]
الآية، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْأَمَانَةِ وَالْخِيَانَةِ فِيهَا وَتَفْسِيرِ الْأَمَانَةِ)،
الأمانة مأخوذة من الأمن، وهو ضد الخوف، والأمانة كلمة عامة تشمل
كل المسؤوليات التي على العبد أن يقوم بها نحو الله جَلَّ وَعَلَا ونحو المخلوقين،
وتشمل: الودائع والوظائف كلها أمانات، وتشمل -كما يأتي- العبادات:
الصلاة، والصيام، والغتسال من الجنابة، أمانات في ذمة العبد، ولهذا قَالَ
-سُبْحَانَهُ-: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]،
الأمانة هنا: هي أمانة التكاليف الشرعية كلها، عرضها الله على السماوات
والأرض والجبال عرض تخيير لا عرض إلزام، لو عرضها عرض إلزام لما
تخلت عنها هذه الكائنات، لكنه عرضها عرض تخيير، وقالت: ما لنا فيها،
قال: إن أحسنتم لكم الأجر، وإن أسأتم فلکم العقوبة، فأثروا العافية، آثرت

السموات والأرض والجبال العافية، الإنسان - وهو آدم وذريته - آثروا الغنيمة، آثروا الأجر الذي فيها فحملوها؛ لجهلهم بحق الأمانة تحملوها.

قال رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ أيها العباد ﴿أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾، أي: أن تدفعوها ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الذين ائتمنوكم عليها، الله يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، فالأمين مطلوب منه أن يحفظ الأمانة مدة بقائها عنده، فإذا طلبها صاحبها، فليدفعها إليه تامةً غير ناقصة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢]، صفات المؤمنين: أنهم لأماناتهم وعهدهم راعون.



رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا إِلَّا الْأَمَانَةَ وَالْدِّينَ، يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَالُ: أَدَّ أَمَانَتَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟ قَالَ: فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْهَوَايَةِ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى الْهَوَايَةِ، وَيُمَثَّلُ لَهُ أَمَانَتُهُ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ دُفِعَتْ إِلَيْهِ، فَيَرَاهَا فَيَعْرِفُهَا فَيَهْوِي فِي أَثَرِهَا حَتَّى يُذَرِّكَهَا، فَيَحْمِلُهَا عَلَى مَنْكِبَيْهِ حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ خَارِجٌ زَلَّتْ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَهُوَ يَهْوِي فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الْأَبْدِينَ، ثُمَّ قَالَ: الصَّلَاةُ أَمَانَةٌ، وَالْوُضُوءُ أَمَانَةٌ، وَالْوَزْنُ أَمَانَةٌ، وَالْكَيْلُ أَمَانَةٌ، وَأَشْيَاءُ عَدَدَهَا، وَأَعْظَمُ ذَلِكَ الْوِدَائِعُ، فَاتَيْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ فَقُلْتُ: أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ؟ قَالَ: «كَذَّاءٌ» قَالَ: كَذَّاءٌ قَالَ، صَدَقَ، أَمَا سَمِعْتَ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: «هِيَ الصَّوْمُ، وَالْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ، وَمَا خَفِيَ مِنَ الشَّرَائِعِ»^(١).

الشَّجَرُ

هذا الحديث عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الشهيد وهو الذي يُقتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وجاء في فضله آيات وأحاديث أنه يُغفر له كل شيء من الذنوب، إلا شيئين: الأمانة والدين، فلا بد من أدائهم إلى أصحابهم؛ لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة لا تسقط عن الإنسان إلا إذا سمح بها

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/٢٠٧)، وفي الكبرى (٦/٤٧١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٠١).

صاحبها، أما الذنوب التي بين العبد وبين ربه، فإن الله يغفرها للشهيد، لكن تبقى عليه حقوق المخلوقين حتى يسمح عنها.

ثم ذكر أن صاحب الأمانة إذا خان فيها، فإنه في يوم القيامة يُقال له: «أَدَّ أَمَانَتَكَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟»، فما فيها أموال، الدنيا فيها أموال، ويمكن الإنسان يعمل ما يتخلص به، ولكن الآخرة ليس فيها أموال، لكن فيها الأعمال فقط والجزاء، فيقال: «انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْهَآوِيَةِ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى الْهَآوِيَةِ»، جهنم يعني إلى الهاوية، وهي النار، من أسماء النار: ﴿فَأَمُّهُ هَآوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩]، أي: النار، «وَيُمَثَّلُ لَهُ أَمَانَتُهُ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ دُفِعَتْ إِلَيْهِ، فَيَرَاهَا فَيَعْرِفُهَا فَيَهْوِي فِي أَثَرِهَا حَتَّى يُذَرِّكَهَا»، فيرى أمانته تتمثل كحالتها يوم أن كانت عنده، فيهوي في أثرها؛ لأجل أن يتخلص، ثم يحملها، فإذا شارف على الخروج بها زلت من على كتفه، ثم هوى في طلبها، وهكذا أبد الأبد، فهذا فيه عظم الأمانة، ومثل هذا لا يقوله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من رأيه، إنما له حكم الرفع - كما هو معلوم.

قال: «فَاتَيْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ فَقُلْتُ: أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ؟ قَالَ: كَذَا، قَالَ، كَذَا قَالَ، صَدَقَ أَمَا سَمِعْتَ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]»، ذهب راوي الحديث عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سأل عما قاله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: لقد صدق، أما قرأت قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]؟ فدلّ على أنه لا بد من أداء الأمانة، لا يحيص من ذلك، ثم فسر

الأمانة بأنها أكثر من الوديعة؛ لأنها العبادات، ومنها: الصلاة، والصيام، والاغتسال من الجنابة، وغير ذلك.

فالدين أمانة في ذمتك، الناس لا يطلعون عليك في دينك، يمكن أنت تصلي معهم، وأنت لست على وضوء، أو عليك جنابة، ما يدري الناس، يمكن أنك تظهر أنك صائم وأنت غير صائم، الناس ما يطلعون على هذا، إنما الذي يطلع على هذا هو الله، فهو أمانة بينك وبين الله جَلَّوَعَلَا، عليك أن تخاف الله في عباداتك، وأن تؤديها خالصة لوجه الله ليس فيها شرك ولا رياء ولا سمعة، وأن تؤديها -أيضاً- على سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس فيها بدعة ولا إحداث ولا تغيير؛ لأنها أمانة في ذمتك تحافظ عليها.



بَابُ: الْوَلَايَاتِ مِنَ الْأَمَانَةِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَ النَّبِيَّ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ، فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْوَلَايَاتِ مِنَ الْأَمَانَةِ) من الأمانة الولايات، الوظائف أمانة، ما هي فقط وظيفة حصلت عليها، وترفعت -ما شاء الله-، وحصل لك راتب ودخل، وانتهى الأمر، لا، الوظيفة أمانة أن تقوم بها على الوجه المطلوب، وألا تحابي أحداً، وألا تنقص حق أحد، وألا تسرق شيئاً من وقت الوظيفة، وتنقص الدوام، الوظيفة والولاية أمانة، سواء كانت وظيفة مكتب، أو ولاية إمارة، أو ملكاً، أو غير ذلك، الولايات أمانة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، هذا أمر للولاية أن يؤدوا الأعمال، أن يولوا الأعمال من يقوم بها، ويؤمن عليها، فهي أمانات، فالوظيفة أمانة، أي وظيفة كانت كبيرة أو صغيرة، بعض الناس ما همها من الوظيفة إلا الطمع وأخذ الراتب، ولا يحاسب نفسه لأداء الوظيفة، والقيام بأعمالها، والأمانة فيها، وإذا ولي على مال من بيت المال المسلمين أن يحفظه، وأن يحافظ عليه، لا يهمه إلا الوظيفة والراتب، أما أعمال

(١) أخرجه البخاري (٥٩).

الوظيفة، فقليل من يهتم بها، هذا مما تساهل فيه الناس، وأشد من ذلك لو أنه لا يمشي الأعمال إلا بالرشوة التي يأخذها من المراجعين، إن أعطوه رشوة مشى أعمالهم ومعاملاتهم، وإن لم يعطوه عرقلها وشقّ على أصحابها، هذه أمور يجب على المسلم أن يتنبه لها.

وفي الحديث هذا الأعرابي سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَتَى السَّاعَةُ؟» الساعة لا يعلم وقت قيامها إلا الله -سُبْحَانَهُ-، استأثر الله بعلمه، ووقت قيامها، لكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر له علامة قيام الساعة، فعلامات قيام الساعة معروفة، ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَيْنَهَا: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، أي: علاماتها، فعلاماتها تُعرف، ومنها: إذا ضُيِّعَت الأمانة انتظر الساعة، قَالَ: «وكيف إضاعة الأمانة؟»، قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ»، فدلّ هذا على أن الولايات أمانة؛ كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الترجمة أن الأعمال والوظائف والولايات أمانة يجب أن تُسند إلى أهلها، فإذا وسدت إلى غير أهلها فانتظر الساعة، ولكن هل المراد بالساعة الساعة العامة، أو ساعة الدولة، وخراب الدولة؟ العلماء يقولون: المراد ساعة الدولة، يعني: إذا ضُيِّعَت الولايات، ووليت إلى غير أهلها، فهذا مؤذن بزوال هذه الدولة، وهي ساعتها.



بَابُ: النَّهْيُ عَنْ طَلِبِهَا

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَمْزُ عَنْ يَمِينِكَ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: النَّهْيُ عَنْ طَلِبِهَا)، النهي عن طلب الولاية والوظيفة، هذه مشكلة؛ لأن أكثر الناس اليوم يطلبون الوظائف، وعندما لا يتوظف هذا يصبح ليس له قيمة، وليس له رزق -أيضًا-، فلا ينبغي للإنسان أن يطلب الولاية؛ لأنه ما يدري أيقوم بها، أم لا يقوم بها؛ لأنها عهدة، ومنها الولاية يطلب إمارة.

هذا الحديث فيه مسألتان:

المسألة الأولى: النهي عن أن يسأل الإنسان الإمارة -أن يتولى إمارة-، سواء كانت إمارة عامة أو إمارة خاصة، كالإمارة على الجيش، أو على مدينة، أو على إقليم، أو على إمارة خاصة أو عامة، لا تسأل الإمارة، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»،

(١) أخرجه البخاري (٦٧٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

هذا فيه دليل على أن الإنسان لا يسأل الإمارة؛ لأنه لا يدري هل يقوم بحقها أو لا؟ وهي مَسْئُولية، والإنسان ضعيف، بشر يعتريه ما يعتريه، فالسلامة والعافية لا يعدلها شيء، فلا يسأل الإمارة، لا يسأل القضاء، لا يسأل وظيفة الحسبة، لا يسأل وظيفة التعليم، الأمور التي فيها عهدة لا يسألها، لكن إذا أُعطِيها من غير مسألة، ولا استشراف نفس فإن الله يعينه عليها، وأما إذا طلبها فإن الله يكله إليها، ولا يعينه، يكله إليها وإلى جهده ولا يعينه عليها، هذا وعيد شديد.

لكن قالوا: إذا احتاج الأمر إلى أنه يتدخل ويطلب وإلا تضيع الأمور إذا لم يوجد أحد فيه كفاءة غيره، إذا لم يوجد من فيه كفاءة، وهو يعرف من نفسه الكفاءة، ولا يوجد غيره، فإنه يتقدم لطلبها؛ لئلا تضيع المَسْئُولية، وتضيع الحقوق، في هذه الحالة لا بأس؛ استنقاذاً لها من الضياع، سواء كان طلب إمارة، أو طلب قضاء، أو غير ذلك من المَسْئُوليات التي يحتاجها المسلمون، ولو تركها لضاعت، فلا بأس أن يتقدم لطلبها، أما أن يطلبها لأجل طمع الدنيا، فهذا لا يجوز.

المسألة الثانية: «وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَّرْ عَنْ يَمِينِكَ»، إذا حلف لا يتصدق على المحتاج، أو لا يصل رحمه، فلا شك أن الصدقة خير من عدمها، وصلة الرحم خير من عدمها، فلا يستمر في اليمين، بل يأتي الذي هو خير، يفعل الخير، ويكفر عن يمينه، وهذا لقوله -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٤]،

فإذا حلف لا يفعل الخير، فلا يجوز له أن يستمر على اليمين، ويترك الخير، لو حلف أنه ما يصلي تراويح، أو لا يصلي الوتر، فإنه لا يستمر على يمينه، بل يكفر، أو لا يصل رحمه يكفر ويأتي الذي هو خير.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِكَ» يدل على أنه يؤخر الكفارة، يفعل المحلوف على تركه، ثم يكفر، وفي رواية: «فَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِكَ وَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»^(١)، هذه الرواية تدل على: أنه يقدم الكفارة، والرواية التي معنا تدل على: أنه يؤخر الكفارة، فدلّ على جواز الأمرين: إن شاء قدم، وإن شاء أخر.



(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٩) (١٦٥٢) ..

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»^(١).

الشَّجَرُ

هذا أبو ذر الصحابي الجليل الورع المعروف بالزهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، طلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستعمله، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلمه بحاله، وأنه لا يستطيع القيام بالولاية ضرب على كتفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا»، أي: لا تستطيع القيام بمهام الإمارة أو المسؤولية، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمه ووقَّره عن أن يوليه شيئاً؛ لأجل أن يسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: «إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ»، يعني: الولاية أمانة - وهذا كما سبق -، وإنها ستكون حسرةً وندامة يوم القيامة، تكون الولاية إذا لم يقم بها في الدنيا حسرة عليه وندامة يوم القيامة، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشفق على أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذه المسؤولية؛ رحمةً به، لا لنقص في دينه أو في علمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل لأنه ضعيف عن تحمل الأمانة، فهو وقَّره ورحمه من أجل أن يسلم من تبعاتها.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي غِشِّ الرَّعِيَّةِ

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١).

وَفِي رَوَايَةٍ: «فَلَمْ يَخْطُهَا بِنَصِيحَةٍ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ». أَخْرَجَاهُ^(٢).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي غِشِّ الرَّعِيَّةِ)، أي: غش الوالي لرعيته، أي: ما جاء من الوعيد الشديد، مما يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب؛ لأن الواجب على الوالي أن يهتم برعيته، والغش ضد النصح، فالواجب على الوالي أن ينصح لرعيته، كما أن الواجب على الرعية أن تنصح -أيضًا- للوالي، فتكون النصيحة متبادلة بين الراعي والرعية؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ»، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»^(٣).

فالواجب على من ولاه الله رعية أن ينصح لها، والواجب عليها أن تنصح له -أيضًا-، تكون النصيحة متبادلة بين الوالي والرعية حتى يتم

(١) أخرجه البخاري (٧١٥١)، ومسلم (٢٢٧) (١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٥٠).

(٣) سبق تخريجه (ص ٢٦٧).

أمرهم، ويستقيم شأنهم، أما إذا حصل الغش حصل الفساد في الرعية، واختل الأمن، وتفرقت الكلمة، وحصل من الأضرار الشيء الكثير، فالولاية أمانة - كما سبق - يسأل عنها الوالي يوم القيامة؛ كما يأتي في الأحاديث.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»)، الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي يولي الولاية؛ لأن كل شيء هو بقضاء الله وقدره، فالله ولاه إياهم قدرًا وشرعًا، فالولاية منصبٌ مهم، ومسؤوليةٌ عظيمة، فكون الرعية هم الذين اختاروه، أو هو استولى عليهم إنما هذا بقضاءٍ وقدر من الله.

والله شرع - أيضًا - تولية الرعاة - الولاية -؛ لئلا تكون الأمور فوضى، فالراعي عليه مسؤوليةٌ عظيمة يجب عليه أن يقوم بها، فمن استرعاها الله رعيةً من الناس فمات يوم يموت، وهو غاشٌّ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة، هذا وعيدٌ شديد في غش الراعي للرعية.

الرواية الثانية تُفسر الرواية الأولى: «فَلَمْ يَحْطُهَا بِنَصِيحَةٍ إِلَّا تَمَّ يَجِدُ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»، قد علمنا أن الغش ضد النصيح، فالواجب على الوالي أن يسوق رعيته لما يُصلحها، ويدفع عنها الضرر، وألا يسمح بأي خللٍ يدخل عليها، فهو معنى كونه راعيًا؛ أنه مستحفظ على هذه الرعية كالراعي للغنم، والراعي للمواشي، لو يهملها لضاعت، أو افترستها السباع، وكل راعٍ له مسؤوليةٌ بحسبه، فهذا مما يوجب على الرعاة وولاية الأمور أن يبذلوا جهدهم فيما يصلح الرعية، وأن يدفعوا عنهم ما يضرهم.

فمن الغش للرعية أن يتركوا على ما يريدون وما يشتهون؛ كالذي يقول:
حرية الرأي، أو الديمقراطية، فهذا غش، فالواجب على الوالي أن يحسم الأمر،
ولا يترك الأمر للرعايا والسذج يبدون آراءهم الضارة، وينظر إلى أقوالهم،
وإنما يأخذ الرأي من أصحاب الرأي والناصحين، أصحاب التجربة، لا يأخذ
الرأي من كل من هب ودب؛ لأن الناس إذا أعطوا الرأي كلهم أغلبهم يريد
الأمر الفاسد، والأمور الضارة، والشهوات المحرمة، فيجب على الراعي
أن يقف ضدهم، وأن يسد هذا الباب، ولا يترك للمفسدين مجالاً، ويقول:
هذا من حقهم، وهذا من حرية الرأي، وهذا وهذا، كما نسمع الآن، الواجب
على الوالي أن ينظر في المصلحة، وأن يستشير أهل الرأي والمعرفة والخبرة
والعلم، ويحزم الأمر، ولا ينظر إلى من يريدونها عوجاً.



بَابُ: الشَّفَقَةُ عَلَى الرَّعِيَّةِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَتَكُنَّ مِنْهُ لَبِيبًا﴾ [الأنعام: ١٠٩].

الشَّرْحُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الشَّفَقَةُ عَلَى الرَّعِيَّةِ)، وهذا -أيضاً- من مهمات الراعي والوالي أن يشفق على الرعية، وأن يرحمهم، وألا يشق عليهم، وأن ينظر فيما يجلب راحتهم ولا يشق عليهم، ولا يرهقهم أمراً يصعب عليهم -كما يأتي-، فهو ينظر في مصالحهم، وينظر -أيضاً- إلى ضعفائهم ومساكينهم، فيرحمهم ويشفق عليهم، ولا يقتصر نظره إلى الأقوياء، أو إلى ذوي الشأن، بل -أيضاً- الضعفاء والمساكين لهم حق ولهم رعاية، فهم رعية من رعيته، يشفق عليهم ويرحمهم ويعطف عليهم، ويدفع عنهم الضرر، ولا يسلط عليهم الأقوياء، بل إنه يكون نائباً عنهم فيما يرفق بهم ويصلح شأنهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨])، قول الله تعالى لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي راعٍ، هو أول الرعاة، هو أول الولاة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل من يأتي بعده فإنه يخلفه في هذا المنصب -منصب الولاية-، قال الله جَلَّ وَعَلَا له: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، أي: تواضع لهم، خفض الجناح معناه: التواضع لهم وعدم الترفع عليهم، في الآية الأخرى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، في

آيتين من كتاب الله أن أمر الله نبيه أن يتواضع لضعفاء أمته ورعيته؛ لأنهم بحاجة إلى العطف، وبحاجة إلى جبر نقصهم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِهِ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ﴾) [آل عمران: ١٥٩] ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، الباء حرف جر، ﴿فِيمَا﴾ «ما» هذه حرف صلة، والأصل (فبرحمة من الله)، ولذلك صار الاسم مجرورًا بالباء، ولم تمنعه «ما» من الجر، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي جعل هذه الرحمة في قلبك، ﴿لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ﴾، أي: لأصحابك، ﴿لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ﴾: استمعت لرأيهم، واستشرتهم، فهذا من الرحمة التي جعلها الله في قلب نبيه محمد ﷺ، فيجب على الولاة من بعده أن يقتدوا بذلك، وأن يلينوا لرعاياهم ويخفصوا لهم جناح التواضع، وأن يلينوا لهم في القول وفي العمل.

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾، والفظ معناه: الشديد الذي في قلبه شدة، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، فكونه ﷺ يلين لهم سبب لاجتماعهم وتألفهم، والتفافهم حول ولي أمرهم، وأما الفظاظة والغلظة فإنها سبب لنفورهم من ولي أمرهم، فهكذا ينبغي لولاة الأمور أن يتصفوا بهذه الصفة النبوية العظيمة، وهذا وجه سياق المصنف رَحِمَهُ اللهُ هاتين الآيتين في هذا الباب؛ لأجل أن يقتدي الولاة برسول الله ﷺ؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].



عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»^(١).

الشَّجَرُ

هذا الحديث فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا للولادة من شق على رعيته أن الله يشق عليه؛ لأن الجزء من جنس العمل عقوبة له، وأن من ولي أمرهم ورفق بهم، واقتدى بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن الله يرفق به، فإن الجزء من جنس العمل، فهذا فيه الحث على أن ولي الأمر يتجنب الأمر الذي يشق على الرعية من أوامره وتدابيراته وسياسته، وأن يتحرى الرفق دائمًا وأبدًا، ويأخذ بما هو الأرفق؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^(٢)، فالرفق خير، فالوالي يتحرى ما فيه الرفق، وما هو الأحسن لرعيته، ويتجنب ما فيه مشقة عليهم، وهذا فيه أن الجزء من جنس العمل، وهو يضع سياسةً عظيمةً لولادة الأمور في أنهم دائمًا عندما يضعون الأنظمة أو يأمرهم، ويصدرون الأوامر أن يتحروا الرفق بالرعية، وأن يتجنبوا المشقة على الرعية.



(١) أخرجه مسلم (١٩) (١٨٢٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٨٦).

بَابُ: الْاِخْتِجَابِ دُونَ الرَّعِيَّةِ

عَنْ أَبِي مَرْيَمَ الْأَزْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّجَلَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَاجْتَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقَّرَهُمْ اجْتَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ (١).

وَلِأَبِي دَاوُدَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ الْجَهَنِيِّ نَحْوَهُ، صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ (٢).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْاِخْتِجَابِ دُونَ الرَّعِيَّةِ)، مما يجب على الوالي -أيضاً- أن يستقبل الرعية، ويسمع إلى شكواهم وطلباتهم مباشرةً بينه وبينهم كما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك، كان الخلفاء الراشدون يفعلون ذلك أنهم لا يمنعون الناس من الوصول إليهم ورفع طلباتهم لهم، وينظرون فيها مباشرةً، هذا هو الواجب على الراعي، فإن احتجب -أي: جعل حاجباً بينه وبينهم، لا يدخلون عليه ولا يتكلمون معه في شؤونهم-، فإن الله جَلَّ وَعَلَا

(١) أخرجه أبو داود (٢٩٤٨)، والتِّرْمِذِيُّ (١٣٣٣).

(٢) أخرجه التِّرْمِذِيُّ (١٣٣٢)، والحاكِمُ (١٠٦/٤) قَالَ عَمْرِو بْنُ مُرَّةَ لِمُعَاوِيَةَ: «إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ إِمَامٍ يُغْلِقُ بَابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ، وَالْخَلَةِ، وَالْمُسْكِنَةِ إِلَّا أَغْلَقَ اللَّهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَ خَلَّتِهِ، وَحَاجَتِهِ، وَمُسْكِنَتِهِ»، فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ».

يحتجب عنه يوم القيامة عن حاجته؛ لأن الجزء - كما سبق - من جنس العمل.

قال رحمه الله: (عَنْ أَبِي مَرْيَمَ الْأَزْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّجَلَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَاخْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ، وَخَلَّتْهُمْ وَفَقَّرَهُمْ اخْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتْهُ، وَفَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَجَعَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ»)، هذا الحديث فيه أن هذا الصحابي نصح معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ولاه الله أمور المسلمين، وصار أمير المؤمنين، فهذا فيه أن ولي الأمر تبذل له النصيحة من قبل العلماء، فهذا الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نصح لولي الأمر، وروى له حديثاً عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغه إياه، وهذا فيه أنه يجب على العلماء أن يبلغوا ولي الأمر الأحاديث الخاصة بالولاية؛ لأجل أن يمثلوها، وأن يناصحوا ولاية الأمور، وهذا يكون مباشرة مع ولي الأمر يخاطبه به بينه وبينه لا أنه يتكلم بهذا غائباً عنه، فإن هذا لا يجدي شيئاً، بل يجر شراً، تكون النصيحة بين الوالي وبين الناصح سراً بينه وبينه.

فهذا الحديث فيه أن هذا الصحابي بلغ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّجَلَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَاخْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتْهُمْ وَفَقَّرَهُمْ»، والخلة - بفتح الخاء -: شدة الحاجة، «اخْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتْهُ وَفَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ لأن الجزء من جنس العمل، والناس يعرضون على رب العالمين يوم القيامة، ويجازيهم

على أعمالهم في الدنيا، يعرض الولاية والرعايا والأفراد يعرضون على الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يجازي كلاً بعمله ويحاسبه، فلذلك معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جعل ناظرًا
ينظر في حوائج الناس ينوب عنه في ذلك، فهذا فيه أن ولي الأمر إذا لم يستطع
مباشرة كل أعمال الناس وأعمال الرعية لا بأس أن يقيم من يثق به، ومن فيه
الكفاءة؛ ليحل مشاكل الناس، ففيه اتخاذ الوزراء الصالحين الذين يساعدونه
على مهام الرعية؛ لأنه بشر يعجز عن مباشرة كل أمور الناس، خصوصًا إذا
كثرت رعيته مثل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه تولى على المسلمين عمومًا على وجه
الأرض؛ لذلك احتاج إلى من يعينه على مهام الولاية.



بَابُ: الْمُحَابَاةِ فِي الْوَلَايَةِ

أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لَهُ: يَا يَزِيدُ، إِنَّ لَكَ قَرَابَةً، فَهَلْ عَسَيْتَ أَنْ تُؤَثِّرَهُمْ بِالْإِمَارَةِ، وَذَلِكَ أَكْثَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ بَعْدَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا، فَأَمَرَ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ» (١).

الشَّجَرُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْمُحَابَاةِ فِي الْوَلَايَةِ)، مما يجب على ولي الأمر -أيضًا-: أن يولي الأعمال الأكفاء من الناس الذين يقومون بها، ولا يجابي فيها أحدًا صديقًا أو قريبًا، لا يجابي بالولايات مَنْ لا يقوم بها، بل الولاية أمانة؛ كما قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] أي: أن تسندوا الأمور إلى من يقوم بها على الوجه المطلوب، فالوظائف التي تحت نظر ولي الأمر هي أماناتٌ أوْتُمِنَ عليها، فيجعل في كل عملٍ مَنْ يصلح له الأكفاء الثقات، ولا يجابي أحدًا من الناس، وهو لا يصلح لهذا الأمر، وإنما يريد نفعه بهذا العمل، هذا أمرٌ لا يجوز، وهذا يفسد السياسة، ويفسد أحوال الرعية، إذا تولى مهام الناس غير أكفاء ضاعت الأمور، دخلها الغش والغدر (١) أخرجه أحمد (٢٠٢/١)، والحاكم (١٠٤/٤)، وقال: (هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُجَرَّجَاهُ).

والقصور، فهذا فيه أن ولي الأمر يختار للمناصب من يقوم بها على الوجه المطلوب دون نظرٍ إلى قرابته، أو إلى صداقته، أو إلى محبته له، وإنما يولي الأمور من يقوم بها، هذا من النصح للرعية.

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لَهُ: يَا يَزِيدُ، إِنَّ لَكَ قَرَابَةً فَهَلْ عَسَيْتَ أَنْ تُؤَثِّرَهُمْ بِالْإِمَارَةِ، وَذَلِكَ أَكْثَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ، بَعْدَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا فَأَمَرَ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ»)، هذا أبو بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصي يزيد بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويزيد بن أبي سفيان هو أخو معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقد ولاه على الشام، واستمر واليًا على الشام إلى أن توفي، ثم خلفه من بعده معاوية أخوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً فاضلاً عادلاً ساس الولاية سياسةً حسنة، وأبو بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حذره من أن يولي قرابته محاباةً لهم، وأخبره أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توعد من فعل ذلك بأن الله جَلَّ وَعَلَا يدخله النار، الذين يجابون في المناصب ويؤثرون بها مَنْ ليس من أهلها فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدخلهم جهنم يوم القيامة، ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً والصرف قالوا: هو الفريضة، والعدل: هو النافلة، أو العكس، وأن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فهذا وعيدٌ آخر، وعيد أن عليه اللعنة، ثلاثة أنواع من الوعيد:

الوعيد الأول: أن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

والوعيد الثاني: أن الله يدخله جهنم.

والوعيد الثالث: أن الله لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً.

هذه أنواع من الوعيد تجعل ولي الأمر على حذر في تولية المناصب التي

هي مهام الرعية أن يوليها لمن ينصح فيها، ويقوم بها على الوجه المطلوب.



وَلِلْحَاكِمِ وَصَحَّحَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «مَنْ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى عِصَابَةٍ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ، وَخَانَ رَسُولَهُ، وَخَانَ الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

الشَّيْخُ

هذا -أيضاً- وعيدٌ شديد: «مَنْ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى عِصَابَةٍ وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ، وَخَانَ رَسُولَهُ، وَخَانَ الْمُؤْمِنِينَ»، أي: في جماعة ولو كانت قليلة، عصابة من الناس جماعة من الناس لها شأن، من ولي عليها ورأس عليها رجلاً وهناك من هو أصلح منه، فقد خان الله ورسوله، هذه خيانة، الواجب أن يولى الأصلح، هذا يدل على أن على ولي الأمر أن يولى المناصب الأصلح من الناس، فيختار الأصلح للولاية، مهما أمكن ذلك من يقوم بها، والصلاح والصلاحية تختلف في الزمان والمكان، فالأمثل فالأمثل، ما يمكن الكمال من كل وجه وألّا يولى إلا من هو كامل، لكن الأمثل فالأمثل، يولى أحسن الموجودين، الأصلح منهم، على حسب حالهم، هذا في الولاية الخاصة، في العصابة، فكيف في الولاية العامة؟ الأمر أكد زيادة.



(١) أخرجه الحاكم (٤/ ١٠٤)، وقال: (هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُجَرَّجَاهُ).

بَابُ: الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ وَخَطَرِ الْوِلَايَةِ

الشَّيْخُ

قال رحمه الله: (بَابُ: الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ وَخَطَرِ الْوِلَايَةِ)، من الآفات التي تعترض الولاية والموظفين والمسؤولين: الجور وهو ضد العدل، والظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه^(١)، فمن أخطر ما يصادف الولاية والمسؤولين الجور والظلم.

خطر الولاية: إن الولاية مسؤولية، وإن الإنسان إن سألها وُكِّلَ إليها، وإن لم يسألها أُعِينَ عليها - كما سبق -، «لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلَّتْ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنَتْ عَلَيْهَا».

فخطر الولاية شديد، الجور والظلم خطر الولاية، والجور عُرف أنه ضد العدل، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، أخذ الحق وإعطاؤه لغير مستحقه هذا ظلم، فإذا وضعت الحق بيد غير يد صاحبه لقد ظلمت.

والظلم يكون للناس بأموالهم، ويكون في دمائهم، ويكون في أعراضهم، فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة الغيبة ظلم، والنميمة ظلم في الأعراض، والقذف والسب والشتم هذا ظلمٌ في الأعراض، والظلم في الدماء والأنفس الاعتداء على الناس بالقتل والضرب وغير ذلك، والاعتداء في الأموال هو أخذها

(١) قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: أَصْلُ الظُّلْمِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. انظر: تهذيب اللغة (١٤/ ٢٧٤)، والصحاح (٥/ ١٩٧٧)، ومقاييس اللغة (٣/ ٤٦٨)، ولسان العرب (١٢/ ٣٧٣).

بغير حق، أخذ أموال الناس بغير حق، فكل هذه أمور تعرض لها الولاة إلا من عصم الله، فيجب على الوالي أن يحذر هذه الأمور؛ لأنه تولى مهمة صعبة، مَسْئُول عنها يوم القيامة، ليس الأمر في الدنيا وينتهي، بل تعاد هذه الأمور يوم القيامة في أخرج المواقف، ولا يجد الإنسان يوم القيامة إلا ما قدم، لا يجد مالا، لا يجد ما يتفادى به ما حصل منه إلا الحسنات يوم القيامة أو النار، الحسنات أو النار - نسأل الله العافية -.



أَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَكُونُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَا يَعْدِلُ فِيهِمْ إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ»^(١).

الشَّيْخُ

هذا لم يعدل، هذا هو الجور ضد العدل، فمن تولى من أمور هذه الأمة شيئاً قليلاً أو كثيراً ولايةً خاصة، أو ولايةً عامة، ثم لم يعدل فيه إلا كبه الله يوم القيامة في النار على وجهه، هذا وعيد شديد تعرض له من تولى شيئاً من أمور المسلمين حتى ولو كانت وظيفة صغيرة وتحتها مسؤولية، والناس يراجعونك، فهذه مسؤولية، عليك بالعدل وعدم الجور، وقضاء حوائج الناس، وعدم تأخيرها والمشقة عليهم.



(١) أخرجه الحاكم (١٠٢/٤)، وقال: (وهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

وَلَهُمَا عَن مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» (١).

الشَّيْخُ

لما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ مُعَلِّمًا وَقَاضِيًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (٢) أَوْصَاهُ بِوَصِيَّةٍ، فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»، يَعْنِي: مِنَ النَّصَارَى نَصَارَى نَجْرَانَ، «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدِينِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ اقْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خُمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدِينِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ اقْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدِينِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»، هَذَا مَحَلُّ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»، فَهَذَا فِيهِ أَنْ وَلِيَ الْأَمْرَ إِذَا وَلِيَ أَحَدًا عَلَى أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الرِّعْيَةِ أَنَّهُ يَتَّقِي دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ، لَا يَظْلِمُ أَحَدًا حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي الرِّعْيَةِ مِنْ هُمْ غَيْرُ مُسْلِمِينَ كَالنَّصَارَى وَالْيَهُودِ مِمَّنْ يَدْفَعُونَ الْجِزْيَةَ، وَلَهُمْ عَهْدٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَجُوزُ ظَلْمُهُمْ، وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ مُسْلِمِينَ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ ۖ أَنْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٩٥، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧١، ٧٣٧٢)، وَمُسْلِمٌ (١٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٥٤).

صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلْرِ وَالنَّقْوَى وَلَا
تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿المائدة: ٢﴾، وقال
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿المائدة: ٨﴾، فواجب العدل،
وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا
ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿الأنعام: ١٥٢﴾، فالعدل واجب،
لا سيما ولاية الأمور والمسؤولين يجب عليهم العدل بين الناس، وعدم الجور
عليهم والظلم، وأخذ أموالهم بغير حق حتى الذي يجبي الزكاة لا يأخذ أكثر
مما يجب إلا بطيية من نفس الدافع، ولا يأخذ الكريمة من الأموال -يعني:
الجيدة- كما أنه لا يأخذ الرديء، وإنما يأخذ المتوسط، يأخذ في الزكاة من
متوسط الأموال، لا يأخذ الجيد إلا بإذن صاحبه ورضاه، ولا يأخذ الرديء؛
لأن هذا يضر الفقراء، بل يأخذ المتوسط، هذا هو العدل، قال: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ
الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» أنها لا ترد، دعوة المظلوم لا ترد،
ولو كان كافراً، فإن الله يتنصر للمظلوم إما عاجلاً وإما آجلاً.



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ عَدِيِّ بْنِ عُمَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَ مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

الشَّجَرُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَ مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، مخيطًا: الإبرة، وفي هذا تعظيم القليل من الغلول، وهذا وعيد شديد وزجر أكيد عن الخيانة من العامل في أخذ شيء مما ولي عليه، وأنها من أكبر الكبائر، فالواجب على الجباة - وهم: السعاة - ألا يأخذوا شيئًا من الناس من باب الهدية، أو من باب الرشوة، فإن من أخذ شيئًا - سواء أخذها من الناس، أو أخذها من الزكاة - بدون إذن ولي الأمر إن أخذها من الناس فهي رشوة، وإن أخذها من المال الذي جباه فهذا غلول، هذا يعد من الغلول، فإذا أخذ من مال الزكاة فهو كمن أخذ من الغنيمة قبل قسمتها دون إذن ولي الأمر فإن هذا غلول، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَدَايَا الْعُمَّالِ غُلُولٌ»^(٢)، هدايا العمال: وهم الذين يجبون الزكاة، إذا أخذوا الهدايا من الناس فإن هذا من الغلول ومن الرشوة، وقد استعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً يقال له ابن اللثبية على الزكاة، فجاء بالزكاة، وقال: «هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي إِلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَالُ الرَّجُلِ

(١) أخرجه مسلم (٣٠) (١٨٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٩/١٤) من حديث أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَسْتَعْمِلُهُ عَلَى الْعَمَالَةِ مِمَّا وَلَانِي اللَّهُ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي إِلَيَّ، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ، فَيَنْظُرُ هَلْ يُهْدَى إِلَيْهِ شَيْءٌ أَمْ لَا؟»^(١).

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اسْتَعْمَلَنَا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكْتَمَ مِنْهُ مَخِيطًا»، وهو الآلة التي تخاط بها الثياب ونحوها، «فَمَا فَوْقَهُ»، يعني: وما هو أكثر منه، «كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، يأتي به يوم القيامة يحمله على رقبتة، إن كان بغيراً، إن كان بقرةً، إن كان شاةً، إن كان غير ذلك يأتي به يوم القيامة، فليحذر من يتولى أموال الرعية وأموال الدولة، فليحذر من هذا الأمر، وأن يخون وأن يأخذ شيئاً لم يُأذن له فيه.



وَلَا حَمْدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «وَيْلٌ لِلْأَمْرَاءِ، وَيِلٌ لِلْعُرَفَاءِ، وَيِلٌ لِلْأَمْنَاءِ، لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ ذَوَائِبَهُمْ كَانَتْ مُعَلَّقَةً بِالثَّرِيَّا يَتَذَبذَبُونَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَكُونُوا عَمِلُوا عَلَى شَيْءٍ»^(١).

الشَّجَرُ

هذا الحديث فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَيْلٌ لِلْأَمْرَاءِ»، «وَيْلٌ» كلمة عذاب ووعيد، وقيل: وإد في جهنم، «وَيْلٌ لِلْأَمْرَاءِ»، يعني: إذا لم يعدلوا في إمارتهم.

«وَيْلٌ لِلْعُرَفَاءِ»، وهم المقدمون في القبائل الذين يكونون بين ولي الأمر وبين القبيلة، يعرفون بقبائلهم إذا لم يتحروا العدل في ذلك.

«وَيْلٌ لِلْأَمْنَاءِ»، وهم الذين يؤتمنون على أموال بيت المال، وكذلك الذين يؤتمنون على أموال الناس الخاصة، كل من أؤتمن على شيء على مال، سواء كان مالاً عاماً للدولة، أو كان مالاً خاصاً للأفراد فهذا ويل له إذا لم يحفظ هذا المال، إذا أخذ منه شيئاً أو ضيعه فإنه يلقي الويل يوم القيامة.

ثم أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ ذَوَائِبَهُمْ»، يعني: شعورهم، «كَانَتْ مُعَلَّقَةً بِالثَّرِيَّا» بنجم الثريا، «يَتَذَبذَبُونَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، وَلَمْ يَكُونُوا عَمِلُوا عَلَى شَيْءٍ»، تعلمون لو أن الإنسان علق بشعره ماذا يكون؟ فكيف إذا علق بالثريا؟ لو علق في جدار أو في خشبة، فكيف

إذا عُلِقَ بالثريا بين السماء والأرض؟ يتذبذب من شدة ما يلقي-والعياذ بالله- أنهم لو علقوا بالثريا لكان هذا أسهل عليهم من أن يتولوا أمراً، ولا يقوموا به في الدنيا.

فهذا فيه الوعيد الشديد على أن من تولى أمراً إماراً، وإما عرافة، وإما أمانة أن يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي مَسْئُولِيَّتِهِ، وأن يقوم بها على الوجه المطلوب، ولا يتخذها مغنماً يغتنمه، ويخون فيه، ويأخذ لنفسه أو لغيره، فهذا أمر خطير جداً.

فالولايات والوظائف ليست مغنماً أن الإنسان يأخذها؛ ليغنمها لنفسه ويترفه فيها، وإنما هي أمانة يُحْمَلُهَا ويتحملها، وهو مَسْئُولٌ عنها يوم القيامة، إذا غفل عنه ولي الأمر أو تساهل أو غفل عنه الرقباء في الدنيا فإن الله -سُبْحَانَهُ- ليس بغافل عنه، وهو يحصي عليه أعماله، ويحصي عليه تصرفاته، وسيحاسبه يوم القيامة عن ذلك.



بَابُ: وَلَايَةِ مَنْ لَا يُحْسِنُ الْعَدْلَ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّرْحُ

قال رحمه الله: (بَابُ: وَلَايَةِ مَنْ لَا يُحْسِنُ الْعَدْلَ)، لا يجوز أن يتولى الولاية من لا يُحسن القيام بها، وما عنده هوى، ولا عنده ظلم، ولا عنده إرادة سيئة، لكن هو لا يُحسن العمل، فإذا كان لا يُحسن العمل، لا يدخل فيها ولو كان نزيهاً وطيباً وتقياً، ولكنه لا يحسن العمل لا يدخل فيه، لا يتولى الشيء إلا من يحسن القيام به.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»، أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السابقين الأولين إلى الإسلام، ومن الزهاد الأتقياء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من فضلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا»، ضعيفاً عن القيام بالمهام، هو ليس ضعيفاً في دينه، ولا ضعيفاً في علمه، لكنه ضعيف في القيام بالمهمة لا يحسنها.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي»، هكذا ولي الأمر يجب للناس ما يجب لنفسه، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك، يجب لأئمة ما يجب

لنفسه، فهذا فيه أن ولي الأمر يكون ناصحاً لرعيته، فلا يولي أحداً؛ لأنه لا يجب لنفسه أن يتولى شيئاً لا يحسنه، فكَذلك لا يولي غيره من لا يحسن هذا الشيء.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ»، نهاه عن الإمارة -وهي الولاية- ولو على اثنين، فكيف الولاية على جماعة أو على دولة، وهو ضعيف، لا يُحسن تصريف الأمور؟

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَوَلَّيْنِ مَالَ يَتِيمٍ»؛ لأن مال اليتيم يجب حفظه، ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ٥، وَأَبْلُوا الِيتِمَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴿[النساء: ٥-٦]، فأموال اليتامى لا يجوز تركها تضيع، بل يجب حفظها، وأن يتولى عليها من هو كفء لحفظها وتنميتها ورعايتها، فلا يتولاها الضعيف الذي لا يُحسن التصرف في الأموال.

أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان منصرفاً إلى العبادة وإلى التقى والزهد والورع، ولم يكن مهتماً بأمور الدنيا، فلذلك ما كان يحسنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لذلك نصح له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا دليل على أن ولي الأمر لا يجوز له أن يولي الضعيف الذي لا يستطيع القيام بالمهمة الوظيفية.



وَلَا يَدَاوُدُ عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ، فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ، فَهُوَ فِي النَّارِ»^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ»، هذا خطر عظيم في أمر القضاء، لكنه لا بد منه، لا بد من قضاة للمسلمين، لكن هذا مما يؤكد على القاضي أن يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا تَوَلَّى الْقَضَاءَ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ»، فهو الذي عرف الحق، وقضى به هو عالم وقضى بالحق، هذا في الجنة. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ»، ورجل عرف الحق، وقضى بغيره - بخلافه -، هذا في النار - والعياذ بالله -؛ لأنه عصى الله على بصيرة، وظلم وجار فهو في النار.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ»، ورجل قضى بجهل، ليس عنده علم، قضى بجهل فهو في النار؛ لأنه لا يجوز له أن يقضي بغير علم حتى ولو أصاب، لا يجوز له ذلك، وهذا يدل على أنه يُشترط في القاضي أمران:

الأمر الأول: العلم فيما يقضي به.

الأمر الثاني: العدل في القضاء.

فإن اختل شرطٌ من هذين الشرطين، فإن القاضي يكون في النار، فإن
فقد العدل ووجد العلم فهو في النار، إن فقد الاثنين فهو في النار وحتى لو
فقد العلم حتى ولو كان عادلاً، فهو -أيضاً- في النار على ظاهر الحديث؛
لأنه لا يجوز له أن يقضي بجهل.



وَلَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ أَفْتِيَ فُتْيًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ ذَلِكَ عَلَى الَّذِي أَفْتَاهُ»^(١).

الشَّيْخُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَفْتِيَ فُتْيًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ ذَلِكَ عَلَى الَّذِي أَفْتَاهُ»، الإفتاء هو بيان الحكم الشرعي من غير إلزام به، والقضاء: هو بيان الحكم مع الإلزام به، وأما الإفتاء: فهو بيان الحكم من غير إلزام به^(٢)، هذا هو الإفتاء، الناس بحاجة إلى القضاة، وبحاجة إلى المفتين، ولكن يجب على المفتي أن يتقي الله، وألا يقول بغير علم، وألا يفتي الناس بجهل أو بهوى، يتقي الله فإنه يتحمل أثم من أفته.

وأما المستفتي إذا لم يكن يعلم أنه أفته بغير علم أو أفته بغير الحق، إذا لم يكن يعلم فإنه معذور وإثمه في ذمة المفتي، أما إذا كان يعلم أنه على غير علم، أو أنه على غير حق، وأنه أفته بغير حق، فلا يجوز له، فلا يقول: هذا في ذمة المفتي، إذا كان يعلم فهو في ذمته -أيضًا-، ذمة الاثنين المفتي والمستفتي، إنما هذا في الذي لا يعلم، أحسن الظن بهذا الشخص، وظنه عالمًا فسأله فأفته بغير الحق، وفي الحديث: «أَجْرُكُمْ عَلَى انْفُتْيَا أَجْرُكُمْ

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٧)، وابن ماجه (٥٣)، وأحمد (١٧/١٤).

(٢) انظر في القضاء والإفتاء والفرق بينهما: النجم الوهاج في شرح المنهاج (٨٨/٩)، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (٣١٤/٢٨)، والإقناع في فقه الإمام أحمد (٣٧١/٤)، وكشاف القناع (٢٩٩/٦).

عَلَى النَّاسِ^(١)، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾، فجعل القول على الله بغير علم فوق الشرك؛ ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

الإنسان في عافية ولا يقدم على الفتوى، كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتدافعون الفتوى وهم علماء، إذا سُئِلَ أحدهم أحاله على أخيه قَالَ: اسأَلْ فلان؛ لما يعلمون من خطر الفتوى، كانوا يتدافعونها كُلٌّ يدفعها إلى الآخر؛ ليتقي شرها^(٢).

أما في زماننا هذا فهم يتدافعون إلى الفتوى، ويتهافتون عليها من غير خوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكلٌ يفتي برأي حتى في المسألة الواحدة تجد أنهم مختلفون فيها؛ لأنهم ليس عندهم علم، والذي ليس عنده علم يضيع، أو إن عندهم العلم لكن يريدون الهوى والشهوة، ويريدون إرضاء الناس، والتماس ما يصلح للناس بزعمهم، وأنهم ليسوا متشددين ولا متحجرين ولا... إلى آخره.

(١) أخرجه الدارمي (١٥٩) مرسلًا عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ.

(٢) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢٨/١) عن عبد الرحمن بن أبي ليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَذْرَكْتُ عَشْرِينَ وَمِائَةً مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَدَّ أَنْ أَخَاهُ كَفَاهُ، وَلَا يُحَدِّثُ حَدِيثًا إِلَّا وَدَّ أَنْ أَخَاهُ كَفَاهُ».

الواجب على المسلم: أن يتقي الله وألا يدخل في الفتوى إلا عند الضرورة، وإذا كان عنده علم واضطر إلى أنه يفتي، أما مادام أنه في عافية أو ليس عنده علم فإنه لا يدخل فيها، ويتعد عنها مهما أمكن.

والمفروض أن تُوكل الفتوى إلى شخص معين، أو إلى جهة معينة، يضبطون الناس، ويضبطون الفتوى، لا تكون الفتوى فوضى، كل يفتي في الصحف والمجلات في الإذاعة والتلفاز والفضائيات، فهذه أمور خطيرة جداً، جعلت الناس الآن في حيرة وفي اضطراب، وفتحت المجال للمتلاعبين، ما أحزن! الآن ما يجد من يفتيه، الفتوى ميسورة، والمفتون - ما شاء الله - عدد النجوم، ضاعت الأمور، وضاعت الفتوى، ورخصت على الناس، صارت الفتوى أرخص شيء على الناس.

فالواجب تعظيم شأن الفتوى، والحذر منها، وأن تعلم أنك إذا أفتيت شخصاً فإنك تحملته أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنت تقول عن الله جَلَّ وَعَلَا إن هذا حرام، وهذا حلال، تقول الله حَرَّمَ هذا، أو إن الله أَباح هذا، فانظر موقفك أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولاً، ثم انظر موقفك من هذا الشخص الذي أضللت، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، فأمر الفتوى خطير جداً.



بَابُ: الْأَمَانَةِ فِي الْبَيْعِ وَالشُّرَاءِ وَالْكَيْلِ وَالْوُزْنِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الْأَذَىٰ أَوْثِمَنَ أَمْنَتِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْأَمَانَةِ فِي الْبَيْعِ وَالشُّرَاءِ وَالْكَيْلِ وَالْوُزْنِ)، كما سبق أن أنواع الأمانات كثيرة، ومنها هذا النوع الأمانة في البيع والشراء بأن يكون كل من البائع والمشتري أميناً في معاملاته لا يغش ولا يخدع، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لُهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»^(١)، فيكون البيع والشراء بين الناس وخصوصاً المسلمين مبنياً على الأمانة وعدم الغش وعدم الخيانة بيع الأخ لأخيه هكذا يجب.

وكذلك الأمانة في الكيل والوزن يكون الكيال والوزان أمينين في كيلهما ووزنهما، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

الكيل والوزن أمانة، الذي يخس الكيل والوزن وينقص منها الخائن والغاش، وقد أهلك الله أمة من الأمم؛ لبخسهم المكايل والموازين، كما ذكر

(١) سبق تخريجه (ص ٢٣٥).

الله عن قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَام، فهذه أمانة، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، أمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والوزن: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾، يعني: المعتدل الذي ليس فيه نقص، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨٣]، فهذه أمانة على العبد إذا كان يبيع ويشترى أولاً أن يفي بالعقد، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ثانياً: أن يفي بالكيل والوزن.

وقد قل هذا من الناس اليوم إلا ما شاء الله، فهم يغشون في الكيل والوزن، وفيما هو بمثابة الكيل والوزن في الأكياس في الصناديق ينقصونها خفية ويبيعونها بيع الكامل بيع الكيس الكامل، وبيع الصندوق الكامل، وهو قد أخذ منه بخسه فهذا من الغش، ومن بخص الناس أشياءهم، سواء في الحبوب والثمار، أو في الخضراوات، وغير ذلك، فيجب على المسلم أن يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيعه وشرائه، وفي كيله وفي وزنه، ولا يبخص الناس أشياءهم، أو يغشهم في معاملاتهم.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَقَوْلِ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَوَدَّ الَّذِي آوْتُمْنَ ءَمَنَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]).

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَءَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّوْا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٢) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيَوَدَّ الَّذِي آوْتُمْنَ ءَمَنَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢-٢٨٣]، إذا لم يكن هناك كتابة، ولم يكن هناك رهان، بل أمن بعض المتبايعين بعضاً، فإنه يجب على المؤمن أن يؤدي أمانته، وليتق الله ربه، أنت

لا تخاف من المشتري فقط، ولكن خف من الله جلَّ وعَلَا الذي هو رقيب عليك، أما المشتري فإنه قد لا يدري عما تفعل؛ لأنه ائتمنك، فإذا خنت الأمانة، ولم تتق الله جلَّ وعَلَا الذي يراك ويطلع عليك.

إذا فالتوثيق أولاً: يكون التوثيق بالكتابة، ثانياً: يكون بالإشهاد، ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، ثالثاً: إذا لم توجد الكتابة فإنه بالرهن يوثق بالرهن، رابعاً: إذا لم توجد هذه الأمور فإنه يوثق بالأمانة التي بين المسلمين، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَقَ أَمَنَتَهُ وَلْيَسْقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، هذا توجيه من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى للناس في معاملاتهم أن يبنوها على التوثيق، وعلى الائتمان بينهم، فمن فرط أو ضيع، فإن الله بما تعملون عليم، لا يخفى عليه خافية، سيجازيكم على ذلك.

ولنعلم أن المظلوم الذي أخذ حقه أو نقص أنه لا يسقط حتى لو تاب واستغفر هذا لا يسقط عنه حق المخلوق، لا بد من أداء حق المخلوق أو مسامحته، لا بد من هذا، فإن لم يؤد ولم يسمح فلا بد من القصاص يوم القيامة، ويوم القيامة ليس فيه دراهم ولا دنائير، إنما فيه الحسنات من حسنات الظالم تؤخذ للمظلوم.



وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ: حَدَّثَنَا: أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ، وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا، قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ، فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ، فَتَنْفُطُ فَتَرَاهُ مُتَبَرِّأً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلُهُ! وَمَا أَظْرَفُهُ! وَمَا أَجْلَدُهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيَّانٍ، وَلَقَدْ أَتَى عَلِيٌّ زَمَانًا، وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا، رَدَّ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا، رَدَّ عَلَيَّ سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا». أَخْرَجَاهُ^(١).

الْجَذْرُ: الْأَصْلُ^(٢)، الْوَكْتُ: الْأَثَرُ الْيَسِيرُ^(٣)، وَالْمَجْلُ: نَفْطٌ يَسِيرُ مِنْ أَثَرِ عَمَلٍ^(٤) وَمُتَبَرِّأً: مُرْتَفِعًا^(٥)، سَاعِيهِ: الْوَالِي عَلَيْهِ^(٦).

-
- (١) أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (٢٣٠) (١٤٣).
- (٢) انظر مادة (جذر) في: العين (٩٣/٦)، وتهذيب اللغة (٩/١١)، والصحاح (٦١٠/٢)، ومقاييس اللغة (٤٣٦/١)، ولسان العرب (١٢٣/٤).
- (٣) انظر مادة (وكت) في: العين (٣٩٧/٥)، وتهذيب اللغة (١٨٢/١٠)، والصحاح (٢٧٠/١)، ومقاييس اللغة (١٣٧/٦)، ولسان العرب (١٠٨/٢).
- (٤) انظر مادة (مجل) في: العين (١٤٠/٦)، وتهذيب اللغة (٧٣/١١)، والصحاح (١٨١٦/٥)، ومقاييس اللغة (٢٩٨/٥)، ولسان العرب (٦١٦/١١).
- (٥) انظر مادة (نبر) في: العين (٢٦٩/٨)، وتهذيب اللغة (١٥٤/١٥)، والصحاح (٨٢١/٢)، ومقاييس اللغة (٣٨٠/٥)، ولسان العرب (١٨٩/٥).
- (٦) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤٠/١٠)، ومطالع الأنوار على صحاح الآثار (٥٢٧/٥)، وفتح الباري لابن حجر (٣٣٤/١١).

الشَّجَرُ

هذا حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبر فيه: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذَرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»، وكانت الأمانة موجودة في صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتعامل ولا يسأل في عهد صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لَأَنَّ الْأَمَانَةَ موجودة، ثم ذكر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أخبر أنها ستنزح الأمانة من قلوب الرجال ويبقى أثرها ليس فيه شيء، وكما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنَ دِينِكُمُ الْأَمَانَةَ، وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ»^(١).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلُهُ! وَمَا أَظْرَفُهُ! وَمَا أَجْلَدُهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ قَالٍ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»، تنزع الأمانة، ويقل الأمانة في الناس، حتى يقال: «إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا»، أفراد من الناس فيهم أمانة، والكثير ليس عندهم أمانة، هذا مما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يكون -والله أعلم- في آخر الزمان يعني: بعد مضي القرون المفضلة في صدر الإسلام يخونون ولا يؤتمنون؛ كما في الحديث: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَذْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ «ثُمَّ

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤١/٩)، وعبد الرزاق (٣٦٢/٣)، وابن أبي شيبة (٢٥٦/٧)، وابن وضاح في البدع (ص ١١٥)، برقم (١٥٣)، والخلال في السنة (١٤٩/٤)، والحاكم (٥٤٩/٤)، والبيهقي في الكبرى (٤٧٢/٦)، وفي شعب الإيمان (٣٩٩/٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِنْ بَعَدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذَرُونَ وَلَا يَفُؤُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ^(١)، إِلَّا أَنَّهُ لَا تَفْقِدُ الْأَمَانَةَ نَهَائِيًّا تَوْجِدَ أَفْرَادَ مِنَ النَّاسِ عَلَى قَلَّةٍ بَعْدَمَا كَانَ كُلُّ النَّاسِ أَمْنًا فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَهْدَ الْقُرُونِ الْمَفْضِلَةِ.

وهذا الإخبار من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معناه التحذير من الخيانة، وألا يدخل الإنسان مع الناس إذا كانوا يخونون، يخون مثلهم، بعض الناس يقول: هذا شيء عليه كل الناس، أنا لا أكون من بينهم منفردًا، بل يعتبرون الخيانة من المهارة في المعاملة والبيع والشراء، والذي يكون أمينًا هذا عندهم يكون مغفلًا، وأما الخيانة وأما الاحتيالات فهذه من المهارة في البيع والشراء.

ثم أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه في آخر الزمان يُمدح الرجل ويُثنى عليه، وليس في قلبه من الإيمان حبة خردل، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ! وَمَا أَظْرَفَهُ! وَمَا أَجْلَدَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»، هذا من علامات الساعة أن يخون الأمناء ويؤتمن الخائن، هذا من علامات الساعة؛ كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢١٤) (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٦)، وأحمد (٢٩١/١٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْضَةُ»، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْضَةُ؟ قَالَ: «الرَّجُلُ النَّافِثُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ».

وَلِمُسْلِمٍ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «تُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ، فَيَقُومَانِ بِجَنْبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا»^(١).

الشَّرْحُ

حديث الشفاعة العظمى الثابت في الصحيح حينما يطول القيام في المحشر على الناس، فيتقدمون يطلبون من يشفع لهم عند الله؛ ليقضي بينهم، فيأتون إلى آدم فيعتذر، ثم إلى نوح، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى -عليهم الصلاة والسلام-، فكلهم يعتذرون، ثم يأتون إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيتقدم لها ويقول: «أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا»، هذا من خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلِّ تَظْعَةً، وَقُلْ يُسْمَعُ وَاشْفَعُ تُشْفَعُ، فَارْفَعْ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيُحْدِثُ لِي حَدًّا، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ»، فيخر ساجدًا بين يدي ربه، حتى يؤذن له، فيشفع عند الله، فيأتي الله جَلَّ وَعَلَا لفصل القضاء بين عباده، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، يأتي جَلَّ وَعَلَا، ويحيي مجيئًا وإتيانًا كما يليق بجلاله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فيفصل بين عباده ينصب الصراط على متن جهنم؛ لمرور الناس عليه، يمرون عليه على قدر إيمانهم، تحملهم أعمالهم ومنهم من ينجو ومنهم من يسقط^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٣٢٩) (١٩٥) من حديث حذيفة بن اليان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في حديث الشفاعة الذي ورد بعدة ألفاظ، منها: ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم [٣٢٢] (١٩٣)، و[٣٢٦] (١٩٢) بلفظ أتم، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه =

والشاهد من هذا: «تُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ، فَيَقُومَانِ بِجَنْبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا»، يطالبان بحقهما يطالبان المارة بحقهما، من ضيَع الأمانة تطالبه، ومن قطع الرحم تطالبه الرحم في هذا الموقف الحرج الذي تشيب منه النواصي، الخطر فيه عظيم، والهلاك فيه كثير، فيأتيان على جنبتي الصراط، يطالبان بحقهما، فهذا فيه عظم الأمانة أن الإنسان لا يتساهل فيها فإنها ستترصد له يوم القيامة في هذا الموقف الحرج.



بَابُ: قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ الآية

[التحریم: ٦].

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (باب: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١))، الرعاية هي الولاية على الشيء يحفظه ويصلحه، وكلُّ عليه رعاية بقدره من الراعي العام وهو ولي الأمر إلى صاحب البيت على أهل بيته إلى الزوجة في بيت زوجها هي راعية، إلى الخادم في مال سيده هو راع على مال سيده، والكل سيسأل عن رعيته يوم القيامة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦])، هذا فيه أن قيم الأسرة راع عليها، ومأمور بأن يقي نفسه ويقي رعيته - أهله - يقي أهله، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُكُمْ﴾؛ أي: اتخذوا وقاية بينكم وبين النار، تقيكم منها.

﴿أَنفُسُكُمْ﴾: ابدؤوا بأنفسكم أولاً، ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ من زوجة وولد، ومن في بيتك وتحت مسؤوليتك، تقيهم من النار، بمعنى: أنك تمنعهم من

المعاصي، وتأمرهم بالطاعات وأداء الواجبات والفرائض، ولا تهملهم فيهلكون، وتكون أنت مضيعة لرعيك.

وقد سبق حديث: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١)، فالذي يضيع أهل بيته متوعد بهذا الوعيد، غش يعني: ضيعها، لم يقم برعايتها، ترك الحبل على الغارب، ترك نساءه، وترك أولاده، وترك من تحت يده يسرحون ويمرحون لا يصلون، لا يؤدّون ما وجب الله عليهم، لا يتركون الحرام والمنكرات والمعاصي، بل تجدد البيت مملوءاً من المنكرات ومن المعاصي، وإذا لم يكن في البيت شيء منها خرجوا إلى الشوارع إلى المنتزهات إلى الاستراحات إلى التجمعات، ولا يقوم عليهم ويراعيههم ويمنعهم هم رعيته، يجب عليه أن يقوم عليهم ولا يهمل، ثم بعد ذلك يريد أن يستدرك لا يستطيع، يبدأ من الأول يعودهم على الطاعة، وعلى ترك المعصية، أول شيء يخلي بيته من المنكرات بحيث إنهم لا يعرفونها ولا يألفونها، أما إذا صارت وسائل الشر والتدمير والفضائيات في البيت فإنه لن يستطيع منعهم منها، لكن إذا لم يروها ولم يعرفوها سهل عليه أنه يسيطر عليهم، فهو يتجنب الأسباب التي تضيع الرعية حتى يسهل عليه رعايتها، أما أنه يهمل، ثم يريد أن يستدرك، فلن يستطيع ذلك، هذا صاحب البيت، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، وأما ما يتعلق بالراعي العام وولي الأمر فهذا سبق في الأبواب السابقة.

(١) سبق تخريجه (ص ٦٧٠).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَّةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، متفق عليه^(١).

الشَّيْخُ

هذا الحديث متفق على صحته كما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ، الرعاية مشتركة بين الناس، كلٌّ على حسب حاله، فالإمام راعٍ على رعيته ومسؤول عنها بأن يحوطها بنصحه، ويحوطها بحفظه لها، ويقيم العدل فيها، ويقيم الحدود على من يستحقها، فهو مسؤول عن هذا أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

صاحب البيت وهذا سبق في الآية ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، المرأة راعية في بيت زوجها وولده، هذا فيه أن المرأة في البيت، راعية على أولادها الصغار من ذكور وإناث، وراعية في شؤون البيت وترتيبه وحفظ محتوياته، هي راعية رعيته في البيت، وعملها في البيت، هذا هو الأصل.

فإن خرجت إلى الأعمال والوظائف وضيعت أولادها ضيعت بيتها، وأسندت هذا إلى مربية أو خادمة، فقد ضيعت رعيته، الواجب عليها في الدرجة الأولى مسؤولية البيت، فإن كان عندها زيادة فراغ أو استطاعة

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (٢٠) (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لا بأس أن تعمل خارج البيت فيما يناسبها، أما أنها تخرج للأعمال الوظيفية والتدريس وتترك البيت تكله إلى خادمة أو إلى مربية، أو تترك الأولاد ليس لهم من يقوم بشؤونهم، هذه خاتنة لرعيته.

فعلى نساء المسلمين أن يتنبهن لذلك، هذا هو عمل المرأة الصحيح، ما هو عمل المرأة أن تشارك الرجال كما يطالب به الفساق والجهال، يقولون: حرية المرأة، والمرأة معطلة، ونصف المجتمع معطل بهذه الأقاويل الباطلة يخدعون الناس، المرأة لها عمل جليل وهو عمل البيت، وهو ليس بالعمل السهل، بل هو عمل مهم جداً.

ويقول الشاعر^(١).

الْأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدَتْهَا أَعْدَدَتْ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَغْرَاقِ
أَنَا لَا أَقُولُ دَعُوا النِّسَاءَ سَوَافِرًا مِثْلَ الرِّجَالِ يَجْلُنَ فِي الْأَسْوَاقِ
فِي دُورِهِنَّ شُؤْنُهُنَّ كَثِيرَةٌ كَشُؤْنِ رَبِّ السَّيْفِ وَالْمِزْزَاقِ

كأعمال المرأة في بيتها هذا هو الأصل وهو الواجب عليها، فإذا ضيعت هذا فهي مَسْؤُولَةٌ أمام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم تنفعها وظيفتها ولا أعمالها التي خارج البيت، وهي مضیعة لعملها، وتأخذ عملاً ليس لها، أو عملاً لا تحتاج إليه.

والخادم راعٍ في مال سيده، المملوك راعٍ في مال سيده يحفظه ويراعيه ويقوم عليه، ولا يغفل عنه أو يتساهل حتى يسرق أو يضيع أو يهلك،

(١) الأبيات لشاعر النيل حافظ إبراهيم. انظر: تفسير المراغي (٢/ ١٦٨)، ونصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٤/ ١٧٤).

وأيضًا: مثل الخادم العامل الذي يوليه صاحب العمل على البيع والشراء والمتجر أيضًا هو راع؛ لأن صاحب المتجر استرعاه على ذلك فليكن أمينًا، وليقم برعيته، ثم ختم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، ما أحد يقول: أنا لست براع، بل كلكم راع على حسب أعمالكم، وعلى حسب مهماتكم، فلا أحد يتبرأ من الرعاية، ولو على نفسه، هو راع أول شيء على نفسه يرهاها يأخذها بالجد والاجتهاد، وعمل الطاعة، والبعد عن المعصية، فكلكم راع، لكن الرعايات تختلف بعضها أشد من بعض، وأوسع من بعض، وإلا فالمسؤولية عامة، لا أحد يسلم من المسؤولية في هذه الحياة.



بَابُ: الرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ ضَرَبَ عَبْدًا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»، قُلْتُ: هُوَ حُرٌّ لَوَجْهِ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلْفَحْتَكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسْتِكَ النَّارُ»^(١).

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ)، فقولهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» في كتاب الكبائر، معناه: أن من ضيع رعيته فقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وكذلك المملوك وهو الرقيق القن فسيده مأمور بالرفق به عدم المشقة عليه، وجعل الله له حقاً من جملة الحقوق العشرة في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].
﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، يعني: الممالك والأرقعة، فلا تقل: هذا مملوك لي، هذا ملكي، وأنا أتصرف فيه كيف أشاء، نعم لك التصرف في منافعهُ، ولكن لا تظلمهُ، لا تحملهُ ما لا يطيق، لا تجوعهُ، لا تهمله، فأنت مَسْئُولٌ عنه يوم القيامة، وفي الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ سَيِّئُ الْمَلَكَةِ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٣٤، ٣٥) (١٦٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٤٦)، وابن ماجه (٣٦٩١)، وأحمد (١/ ١٩١) من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا أبو مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يضرب غلامًا له مملوكًا له، فرآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يفعل ذلك، فقال: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ»، فالتفت فإذا هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»، قُلْتُ: هُوَ خُرٌّ لَوَجْهِ اللَّهِ، فندم أبو مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ما فعل وأعتقه لوجه الله؛ كفارة لما فعل، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّكَ تَوَلَّمْتَ فَعَلْتَ لَفَضَحْتَكَ النَّارَ، أَوْ لَمَسْتَكَ النَّارَ» على ما فعلت بهذا المملوك.

فهذا فيه الحث على الإحسان إلى المماليك، وهم الأرقعة الذين جعلهم الله تحت أيدينا، والرق أصله وسببه: الكفر كما عرفه العلماء، قالوا: الرق عجز حكمي يقوم بالإنسان سببه الكفر^(١)، وذلك أن المسلمين إذا قاتلوا الكفار، واستولوا على نسائهم وأولادهم، النساء والأولاد لا يقتلون، لكن يسترقون، وضع الله عليهم الرق بسبب الكفر، ولا يرتفع الرق إذا وضعه الله لا يرتفع إلا بالعتق، ويكون رقًا على نفس الشخص وعلى فروعه، مهما تناسلوا إلا من أعتق، هذا هو الرق في الإسلام، وهو من ثمرات الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن توابع الجهاد وأحكام الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

أما الرق الذي مصدره النهب السرقة فهذا حرام كما يأتي في الحديث: أن ثلاثة يكون الله خصمهم يوم القيامة: «قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ»^(٢)، هذا سيأتي -إن شاء الله-.

(١) انظر: المغني (١٤/٣٤٤)، والشرح الكبير (٥/١٩)، والشرح الممتع (١١/٣٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحاصل: أن الأصل في بني آدم الحرية؛ لأن الله خلقهم لعبادته، فلما عصوا الله وكفروا به وضع الله عليهم الرق؛ عقوبة لهم، وجعلهم عبيداً للمخلوقين؛ عقوبة لهم لما أنفوا من عبادة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالرق أصل شرعي لا ينكره إلا جاهل أو ملحد وزنديق، الرق الشرعي، أما الرق الباطل فهذا سيأتي بيانه.



بَابُ: الرَّفْقِ بِالْبَهَائِمِ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وُثِّمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، أَوْ لَيْسَ قَدْ نَهَيْتُ عَنْ هَذَا؟»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَّمَهُ»^(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: «نَهَى عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ، وَالْوُثْمِ فِيهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الرَّفْقِ بِالْبَهَائِمِ)، البهائم -أيضا- تدخل في الممالك؛ لأن الله ملكنا هذه البهائم، سخرها لنا نركبها ونحمل عليها ونتنفع بها، وهي بهائم لها أرواح، ولها إحساس، تجوع وتعطش وتتألم، فلا يجوز للإنسان أن يسيء إليها، ويقول: هذه بهائم، بل لها حق على مالكتها.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وُثِّمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، أَوْ لَيْسَ قَدْ نَهَيْتُ عَنْ هَذَا؟»)، من الإساءة إلى الحيوان أن يُضْرَبَ على وجهه، أو يُكوى بالوسم على وجهه، فالوجه لا يجوز؛ لأنه مجمع الحواس، وإحساسه أشد من غيره،

(١) أخرجه ابن حبان (١٢/٤٤٢)، واللفظ له، ومسلم (١٠٨) (٢١١٨)، والطبراني الكبير (١٠/٣٣٢)، والبيهقي في الكبرى (٧/٥٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٧) (٢١١٧) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٦) (٢١١٦) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلا يجوز أن يُضرب الحيوان على وجهه، أو يوسم على وجهه بالكي؛ لأن هذا تعذيب له، وتشويه له -أيضاً-.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَفِي رِوَايَةٍ: «لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَّمَهُ»)، هذا أشد، هذا دل على أنه من الكبائر، على أن الوسم في الوجه للحيوانات من كبائر الذنوب؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن من فعله، واللعن لا يكون إلا على كبيرة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (وَفِي رِوَايَةٍ: «نَهَى عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ، وَالْوَسْمِ فِيهِ»)، الضرب في الوجه أو الوسم في الوجه كله منهي عنه؛ لأن هذا فيه تعذيب للحيوان وتشويه له، وتعريض له للخطر؛ لأن الوجه هو مجمع الحواس.



وَلَهُمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ»^(١).

الشَّجَّ

وهذا يدل على أن من أمسك حيواناً حتى ولو هو ليس ملكاً له ليس مما لا يملك، يجوز أن تحبس الهرة أو تتخذ الهرة في البيت، يجوز هذا، وكذلك الطيور يجوز أن تحبسها، وأن تربطها، ولكن بشرط أن تؤمن لها الطعام والشراب، ولا تعذبها، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينكر على هذه المرأة أنها أمسكت الهرة، إنما أنكر عليها الإساءة إليها، وأنها لم تطعمها إذ حبستها، ولا هي تركتها، وأطلقتها تأكل من خشاش الأرض، فدخلت النار، وهذا وعيد شديد، ويدل على أن هذا كبيرة من كبائر الذنوب، فالذي يسيء إلى الحيوانات وإلى الطيور ويعذبها ويجوعها ويعطشها ويعرضها للحر والبرد الشديد، فإذا مات بسبب الجوع والعطش، أو بسبب شدة الحر أو البرد، فإنه يعذب بالنار يوم القيامة، وهذا يدل على أنها كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن من ضوابط الكبيرة: أن يرتب عليها دخول النار أو التعذيب بالنار، فيجب الفرق بالبهايم والإحسان إليها، فالإسلام دين الرحمة، حتى بالبهايم، والكفار الآن يتبجحون بأن عندهم جمعيات للرفق بالحيوان، الإسلام - والله الحمد - سبقهم إلى هذا، ويبيّن أن الحيوان له حق، وأنه لا يجوز تعذيبه، سواء كان من الحيوان الذي يملك، أو من الحيوان الذي لا يملك.

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (١٣٥) (٢٦١٩) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَخْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُ»^(١).

وَلِأَبِي دَاوُدَ: «أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»^(٢).

وَلَهُمَا عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّهُ قَالَ لِصَاحِبِ الْجَمَلِ الَّذِي لَمْ يَعْلِفْهُ: «أَمَا إِنَّهُ لَيَحَاجُّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

الشَّيْخُ

هذا عام، كل من أنت مكلف بالإنفاق عليه من الآدميين ومن البهائم ومن الطيور، كل من أنت مكلف بإعطائه نفقته، فإنك آثم إذا حبست عنه نفقته، «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَخْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُ».

(١) أخرجه مسلم (٤٠) (٩٩٦) عَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو إِذْ جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ: أُعْطِيتَ الرَّيْقُ قُوَّتُهُمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَانْطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَخْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُ».

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (٧٩) (٣٤٢)، و(٦٨) (٢٤٢٩) مختصرًا، وأخرجه أبو داود (٢٥٤٩)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٧٣، ٢٨١) من حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعًا بمعناه، قال: «أَرَدْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسْرَأَ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُخْبِرُ بِهِ أَحَدًا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ مَا اسْتَرَكَيْهِ فِي حَاجَتِهِ هَدَفٌ، أَوْ حَائِشٌ نَخْلٍ، فَدَخَلَ يَوْمًا حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَلَّ قَدِ آتَاهُ فَجَرَجَرٌ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - قَالَ بَهْزٌ، وَعَفَّانٌ: فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ - فَمَسَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَاتَهُ وَذَفَرَاهُ، فَسَكَنَ، فَقَالَ: «مَنْ صَاحِبُ الْجَمَلِ؟» فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَمَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَهَا اللَّهُ، إِنَّهُ شَكَأَ إِلَيَّ أَنَّكَ تُجْبِعُهُ وَتُذْنِبُهُ».

(وَلَهُمَا عَنِ الْحَسَنِ رَحِمَةُ اللَّهِ: أَنَّهُ قَالَ لِصَاحِبِ الْجَمَلِ الَّذِي لَمْ يَعْلِفْهُ: «أَمَّا إِنَّهُ لَيُحَاجُّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»)، كذلك الجمل، الإبل لا يجوز أنها تُعَذَّب، أو أنها تجوع أو تُعطش أو تُحمل ما لا تطيق، لا يجوز هذا حتى أولادها، ما يجوز أن تحلب لبنها، وتحرم أولادها، وتقصر عليهم بالرضاعة أو الحليب، بل إنما تأخذ ما زاد عن نفقة أولادها، فأنت مسؤول عنها يوم القيامة، الجمل لما رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شكاه إليه، فقال لصاحبه: إنه يشكو أنك تجوعه، وأمره بإعلافه، فدل هذا على أن كل الحيوانات -كبيرة كانت أو صغيرة، من الجمل إلى الهرة، وما دونها-، كلها لا يجوز تعذيبها.

«لَمْ يَعْلِفْهُ»، يعني: لم يعطه العلف الكافي، أو قطع عنه العلف حتى جاع، وشكا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَمَّا إِنَّهُ لَيُحَاجُّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فهذا دليل على أن هذه الحيوانات إذا أسأت إليها أو عذبتها أو جوعتها، أنها ستأخذ حقها منك يوم القيامة.



بَابُ: إِبَاقِ الْعَبْدِ

عَنْ جَرِيرٍ مَرْفُوعًا: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذُّمَّةُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّيْخُ

قال رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ: إِبَاقِ الْعَبْدِ)، العبد المراد به المملوك، وإبقاه: شروده عن سيده، الواجب على العبد أن يستسلم لحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يخضع للرق الذي وضعه الله عليه يخضع لذلك، وأن يقوم بعمل سيده، فكما أن السيد مأمور أن يحسن إلى مملوكه فكذلك المملوك مأمور أن يحسن إلى سيده، وأن يقوم بخدمته وبالعمل الذي يكله إليه، فإذا هرب فإنه فاعل لكبيرة من كبائر الذنوب.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ»، يعني: هرب من سيده.
قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذُّمَّةُ»، قيل: المراد ذمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحفظه، وكلاءته للعبد. وقيل: المراد ذمة سيده تبرأ ذمة سيده من مَسْئُولِيَّتِهِ، حتى يرجع إلى مالكه، والإباق كبيرة من كبائر الذنوب.



(١) أخرجه مسلم (١٢٣) (٦٩).

بَابُ: ظُلْمِ الْأَجِيرِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا، فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

الشَّرْحُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: ظُلْمِ الْأَجِيرِ)، كذلك الأجير ظلمه بمنع حقه ومنع أجرته، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرْقُهُ»^(٢)؛ لأنه أدى لك العمل، فاستحق عليك الأجرة، فإذا لم تعطه أجرته، فقد ظلمته، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، ويتساهل كثير من الناس في أجور العمال، ويستغل ضعفهم وحاجتهم فيباطل بهم، وهم فقراء محتاجون، وقد يبخسهم شيئاً من حقوقهم، ولا يعطيهم كاملاً أو يطردهم، ولا يعطيهم شيئاً مستغلاً قوته وضعفهم، هذا من كبائر الذنوب، وسيكون الله خصمهم يوم القيامة؛ كما في الحديث هنا.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ»)، هذا الحديث فيه أن الله جَلَّ وَعَلَا

(١) سبق تخرجه (ص ٧١٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٣) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يقول ويتكلم، هذا فيه إثبات الكلام لله، وإثبات القول لله عزَّ وجلَّ، ومثل هذا الحديث يُسمى بالحديث القدسي، الذي يرويه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أي: خصيمهم يوم القيامة، بدلاً من أصحاب الحقوق، الله جَلَّ وَعَلَا يخاصم عنهم يوم القيامة، يستضعفهم في الدنيا، ولا يقدرّون يخاصمونه في الدنيا، الله جَلَّ وَعَلَا يكون خصمه يوم القيامة، ومن كان الله خصمه خصمه، أي: غلبه في الحجة.

قال: «رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ»؛ من أعطى به، ثم غدر، بمعنى: أنه خان العهد، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، فالواجب الوفاء بالعهد الذي يكون بين الراعي والرعية، والذي يكون بين الناس بعضهم مع بعض، وقبل ذلك كله العهد مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فهو عليه عهد: عهد الله أن يعبدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ويكون بينه وبين الناس عهد، بين الراعي والرعية، بين الأفراد بعضهم مع بعض، فيجب الوفاء بالعهد، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١]، فمن خان العهد فإن الله يكون خصمه يوم القيامة.

قال: «وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا، فَأَكَلَ ثَمَنَهُ»، كما سبق أن الأصل في بني آدم الحرية؛ لأن الله خلقهم لعبادته، فهم أحرار، لكن إذا حصل جهاد بين المسلمين والكفار، وسبى المسلمون ذراري الكفار ونساءهم فلا يقتلون مثل المقاتلة، وإنما يوضع عليهم الرق، ويستقر عليهم وعلى فروعهم ولا يرتفع إلا بالعتق.

فالرق الشرعي هذا مشروع، أما الرق غير الشرعي -وهو النهب والسلب والسيطرة على الضعفاء وبيعهم وأكل ثمنهم، وأخذ ذراري الناس والصغار والمستضعفين-، فهذا يدخل تحت هذا الوعيد: «وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا، فَأَكَلَ ثَمَنَهُ»، حتى الإنسان ما يجوز له أن يرقق نفسه للناس، لا يجوز أن يوافق على أن أحداً يملكه؛ لأنه حر عبد الله، لا يتصرف في نفسه، فكيف إذا غصبه أحد وسيطر عليه وأخذه وهو صغير لا يدري، ثم باعه، ثم باعه الثاني، وباعه الثالث، يأثم الأول الذي وضع الرق عليه بغير حق شرعي، ويكون الله خصمه، كل من علم أن هذا حر لا يجوز له أن يشتريه، لا يجوز له أن يسترقه، كل من علم بهذا، «بَاعَ حُرًّا، فَأَكَلَ ثَمَنَهُ».

قال: «وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ»، والثالث: أن يستأجر أجيرًا فاستوفى منه العمل ولم يعطه أجره يكون الله خصمه يوم القيامة، إذا عجز الأجير عن مخاصمة المستأجر، وترك حقه بدون اختياره، وبدون رضاه، إنما تركه عجزاً عن هذا الظالم، فإن الله جَلَّ وَعَلَا يخاصم عنه يوم القيامة، ومن كان الله خصمه فقد خَصَّمَهُ، فهذا محل الشاهد من الحديث أن منع أجر العمال الذين يعملون بالأجرة بغير حق من كبائر الذنوب.



بَابُ: سُؤَالِ الْمَرْأَةِ الطَّلَاقَ

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ وَابْنُ حِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»^(١).



قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: سُؤَالِ الْمَرْأَةِ الطَّلَاقَ)، المرأة يجب عليها أداء حقوق الزوج وعدم النشوز، ويحرم عليها النشوز، وهو الامتناع عن حقوقه عليها، ومن ذلك: أنها لا تسأله الطلاق من غير سبب، فإن سألته الطلاق من غير سبب فالجنة حرام عليها، هذا وعيد شديد، أما إذا كان سؤال المرأة من الزوج الطلاق لسبب من الأسباب أنها تكرهه ولا تلائمها، فلها أن تفتدي منه، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فإذا كانت لا تطيقه ولا تحبه وتريد أن تتخلص منه، فلها ذلك ويكون هذا بالخلع إلا إن سمحت نفسه هو، وطلقها بدون شيء، هذا شيء طيب.

أو أنه مقصر في حقها، مقصر في حق من حقوقها، فلها أن تطلب الطلاق تفاديًا للنقص الذي يحصل عليها، أو الظلم الذي يحصل عليها، أما إذا كان

(١) أخرجه أبو داود (٢٢٢٦)، والتِّرْمِذِيُّ (١١٨٧)، وابن ماجه (٢٠٥٥)، وأحمد (٦٢/٣٧)، وابن حبان (٤٩٠/٩).

الزوج قائماً بحقوق الزوجة، ولم يقصر في شيء، فحرام عليها أن تطلب منه الطلاق، فإن طلبته فعليها هذا الوعيد الشديد.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»، هذا وعيد شديد، «فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»، وريح الجنة توجد من مسيرة سبعين خريفاً، وهذا وعيد شديد؛ لأنها لا تدخل الجنة من باب الوعيد لا أنها تكفر بذلك، لكن إما أنها لا تدخل الجنة مع أول الداخلين، تعذب في النار، وهذا هو الظاهر -والله أعلم-؛ لأن نشوزها عن زوجها لا يقتضي الكفر، إنما هو كبيرة من كبائر الذنوب، وأصحاب الكبائر لا يخلدون في النار، ولا يخرجون من الإسلام إلا إذا كانت الكبيرة من الشرك الأكبر، أو الكفر بالله عَزَّجَلَّ، فما دون الشرك والكفر من الكبائر فهو تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، لكنه لا يخلد إذا عذبه لا يخلد في النار.

الحاصل: أن هذا وعيد شديد على المرأة التي تطلب الطلاق من غير بأس.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي الدِّيُوثِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُ بِوَالِدَيْهِ،
وَالدِّيُوثُ، وَرَجُلَةُ النِّسَاءِ». رَوَاهُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ^(١).

وَالطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ قَالَ الْمُنْدَرِيُّ: لَا أَعْلَمُ فِيهِ مَجْرُوحًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَفِيهِ: «فَمَا
الدِّيُوثُ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يُبَالِي مَنْ دَخَلَ عَلَى أَهْلِهِ»، قِيلَ، فَمَا الرِّجْلَةُ مِنَ
النِّسَاءِ؟ قَالَ: «الَّتِي تَتَشَبَّهُ بِالرِّجَالِ»^(٢).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي الدِّيُوثِ)، الدِّيُوثُ هُوَ الَّذِي يَقْرُ السُّوءَ فِي
أَهْلِهِ، يَرَى أَحَدًا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَمْنَعُهُ وَلَا يُبَالِي، فَهُوَ يَقْرُ السُّوءَ فِي أَهْلِهِ،
هَذَا هُوَ الدِّيُوثُ، وَلَأنَّهُ سَبَقَ أَنَّ الرَّجُلَ رَاعَ وَمَسْئُولٌ عَنْ أَهْلِهِ، مَسْئُولٌ عَنْ
رَعِيَّتِهِ، ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التَّحْرِيمُ: ٦]، فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتْرَكَ أَهْلَهُ عَلَى
السُّوءِ، وَعَلَى مُصَاحَبَةِ الرِّجَالِ، فَهَذَا أَمْرٌ خَطِيرٌ جَدًّا، وَكَذَلِكَ وَسَائِلُ الدِّيَاثَةِ
كَأَنْ يَقْرُ أَهْلَهُ عَلَى السُّفُورِ، عَلَى الْخُرُوجِ وَالِاخْتِلَاطِ بِالرِّجَالِ، يَقْرَهُمْ عَلَى
ذَلِكَ، هَذَا لَا يُسَمَّى دِيُوثًا، لَكِنْ هَذَا مِنْ أَسْبَابِ الدِّيَاثَةِ؛ لِأَنَّ عَدَمَ الْحِجَابِ،

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ (١/١٤٤)، وَالنَّسَائِيُّ (٢٣٥٧)، وَأَحْمَدُ (١٠/٣٢١)، وَابْنُ حَبَانَ (١٦/٣٣٤)، وَالتَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (١٢/٣٠٢).

(٢) قَالَ الْمُنْدَرِيُّ: (رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَرَوَاتُهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَجْرُوحٌ). انْظُرْ: التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيْبُ (٣/٧٧). وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ (١٣/٢٦١).

ولأن الاختلاط، ولأن السفر بدون محرم هذه أسباب للوقوع في الفاحشة فهي أسباب للديانة.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُ بِوَالِدَيْهِ، وَالْدِّيُوثُ، وَرَجُلَةٌ النَّسَاءِ»).

الديوث عرفناه: الذي يقر السوء في أهله، ولا يغار عليهم، يتركهم يختلطون بالرجال، أو الرجال يختلطون بهن، ويدخلون عليهن، هذا مضيع لمحارمه، «وَرَجُلَةٌ النَّسَاءِ»، هي التي تشبه بالرجال في ملابسهم في كلامهم، في أعمالهم، وفي الحديث: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»^(١)، فلعن المتشبه من أحد الجنسين بالآخر، واللعنة تقتضي أن هذه كبيرة من كبائر الذنوب، ومنها الديانة: وهو عدم الغيرة، وإقرار السوء في أهله.



(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

بَابُ ظُلْمِ الْمَرْأَةِ

أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى مَا قَلَّ مِنَ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ، وَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا حَقَّهَا، خَدَعَهَا فَمَاتَ، وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٌ»^(١).

الشَّرْحُ

هذا فيه وعيد شديد على من منع حق زوجته، الله جَلَّ وَعَلَا جعل للرجال حقوقاً على الزوجات، وجعل للزوجات حقوقاً على أزواجهن، وأمر كلاً من الصنفين أن يؤدي الحقوق التي عليه، فمن منع حق الآخر عليه، فهذه كبيرة من كبائر الذنوب، فإذا تزوج المرأة وهو يضمن في نفسه - ما صرح بهذا - أنه لا يؤدي إليها حقها، تزوجها على مهر قليل أو كثير، هي وثقت منه على أنه سيقوم بحقوقها، لكنه هو يضمن في نفسه أنه لا يقوم بحقوقها، ثم مات على هذه النية - والعياذ بالله - فإنه متوعد بأشد الوعيد.

الرجل يتزوج المرأة يريد بذلك أن يؤدي إليها حقوقها الزوجية، كما أنها هي تتزوجه تريد أن تؤدي حقوقه عليها، أما من بَيَّتَ نية خبيثة ونية سيئة لا يدري عنها الطرف الآخر فإن هذه خيانة وغدر.

ولعل مما يدخل في ذلك الآن الذين يتزوجون بنية الطلاق، فإن المرأة لا تدري عن هذه النية تظن أنه زوج سيبقى معها، وسيستمر معها ويقوم

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ٨٤)، وفي الأوسط (٢/ ٢٣٧).

بكفائتها، بينما هو يريد لها لوقت محدد، ثم يطلقها ويحرمها من الزوجية، فلا يبعد أنه يدخل في هذا الوعيد.

«أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى مَا قُلْنَا مِنَ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ، وَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا حَقَّهَا خَدَعَهَا فَمَاتَ وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ»؛ لأنه ما وفي بالعقد الذي عاقدتها عليه، فكان استمتاعه بها بغير مقابل، هذه خدعة، هي تزوجته على أنه يؤدي لها المهر، وعلى أنه ينفق عليها، وعلى أنه يقوم عليها، تزوجته على هذا، وهو لا يريد شيئاً من ذلك، خدعها فيكون استمتع بها من غير مقابل، بل بالخدعة، فيكون له نصيب من الزنا؛ لأنه استمتع بغير حق، هذا وعيد شديد.

ولا يقول: أنا عاقد عليها، والعقد محلها، نعم، محلها العقد، لكن لازم من الالتزام بواجبات العقد وحقوق العقد، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].



بَابُ: الْإِشَارَةُ بِالسَّلَاحِ عَلَى وَجْهِ اللَّعِبِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «لَا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَذَرِي لَعْلَ الشَّيْطَانِ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ». أَخْرَجَاهُ^(١).

وَلِمُسْلِمٍ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»^(٢).

الشَّيْخُ

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: الْإِشَارَةُ بِالسَّلَاحِ عَلَى وَجْهِ اللَّعِبِ)، تَرْوِيعُ الْمُسْلِمِ لَا يَجُوزُ بِأَيِّ صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ لَا بِالْمَزْحِ وَلَا غَيْرِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِالسَّلَاحِ وَلَوْ كَانَ يَمْزَحُ لَا يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا أَنْ السَّلَاحَ يَصِيبُ الشَّخْصَ إِذَا أَشَارَ إِلَيْهِ، رُبَّمَا يَفْلِتُ مِنْ يَدِهِ، فَالشَّيْطَانُ -أَيْضًا- يَدْخُلُ بَيْنَهُمَا، فَيَحْصُلُ الْمَحْذُورُ، فَلَا يَجُوزُ الْإِشَارَةُ إِلَى أَحَدٍ بِالسَّلَاحِ، بَلِ السَّلَاحُ يُضْبَطُ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ السُّوقَ أَوْ أَرَادَ أَنْ يَضْبُطَهُ وَيُؤْمِنَهُ، وَلَا يَتْرَكُهُ مَهْمًا لِلانْطِلَاقِ وَالضَّرَرِ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَذَرِي لَعْلَ الشَّيْطَانِ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ، فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»؛ لِأَنَّهُ قَتَلَ أَخَاهُ بَغَيْرِ حَقٍّ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٠٧٢)، وَمُسْلِمٌ (١٢٦) (٢٦١٧).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٢٥) (٢٦١٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قتله بالسلاح، وإن كان هو يمزح أو لا يريد القتل، لكن هذا وسيلة إلى القتل والتعرض للخطر، فلا يجوز التلاعب بالسلاح، بل يجب تأمينه وضبطه.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدْعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»، من أشار إلى أخيه بحديدة - هو يمزح -، فإن الملائكة تلعنه، وهذا وعيد شديد، وهي كبيرة من كبائر الذنوب، فدل على أنه لا يشار إلى المسلم بالسلاح أو بالحديد أو بما فيه خطر، هذا لا يجوز التلاعب فيه أو المزاح فيه، وربما أنه يقع المحذور.



وَلِلَّزْمِذِيِّ وَحَسَنُهُ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَعَاطِي السَّيْفِ مَسْلُولًا»^(١).

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ يَتَعَاطُونَ سَيْفًا مَسْلُولًا، فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا أَوْ لَيْسَ قَدْ نَهَيْتُ عَنْ هَذَا؟» ثُمَّ قَالَ: «إِذَا سَلَ أَحَدُكُمْ سَيْفَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَأَرَادَ أَنْ يُنَاوِلَهُ أَخَاهُ، فَلْيُغْمِذْهُ، ثُمَّ يُنَاوِلْهُ إِيَّاهُ»^(٢).

الشَّيْخُ

كذلك السيف لا يكون مسلولاً يتبادلّه الناس بعضهم من بعضهم مسلولاً؛ لأنه ربما يقع فيصيب أحداً، فلا بد أن يوضع في جرابه، ولا يحصل تعاطيه وهو مسلول؛ لئلا يحصل المحذور، والشرع جاء بسد الذرائع المفضية إلى المحاذير وهذا منها.

الحاصل: أنه لا يجوز التلاعب بالسلاح والتهاون بشأنه، بل يجب ضبطه وتأمينه وسد خطره عن الناس.

«إِذَا سَلَ أَحَدُكُمْ سَيْفَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَأَرَادَ أَنْ يُنَاوِلَهُ أَخَاهُ فَلْيُغْمِذْهُ، ثُمَّ يُنَاوِلْهُ إِيَّاهُ»، فليغمده يعني: فليؤمنه، ويكف خطره، ولا يتركه مسلولاً، ورتب عليه وعيدين:

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٨٨)، والترمذي (٢١٦٣)، وأحمد (١١٣/٢٢)، وأحمد (١٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٧٤/٣٤)، والحاكم (٣٢٣/٤).

أولاً: أنه يقع في حفرة من النار.

والثاني: اللعن، لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا يدل على أن تعاطي السلاح من غير ضبط له أنه كبيرة من كبائر الذنوب، ولا يتهاون بذلك.



بَابُ: الْعَصَبِيَّةِ

عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ قَتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقَتَلَهُ جَاهِلِيَّةٌ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّجَرُ

من الكبائر التي نهى عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: العصبية الجاهلية، وهو أن يتعصب المرء لقومه أو قبيلته أو شيخه أو مذهبه، سواء كانوا على حق أو باطل، والأصل في المسلم أن يكون مع الحق أينما دار، فإن كان الحق مع قومه صار معه، وإن صار مع غير قومه دار مع الحق.

أما الذي يكون مع قومه مطلقاً، سواء كانوا على حق أو باطل، كان هذا من العصبية الجاهلية، وكذلك الذي يتعصب لشيخه أو إمامه ولو كان خطأ، فإنه لا يجوز للمسلم أن يكون كما قال الشاعر الجاهلي^(٢):

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرُشِدَ

هذه عصبية الجاهلية، وكذلك الذي يتعصب لحزبه، فهو مع حزبه وإن كان الحق مع غيره، في حين أن الأصل في المسلم أن يبحث عن الحق ويتبعه أينما كان.

(١) أخرجه مسلم (٥٧) (١٨٥٠).

(٢) البيت للشاعر الجاهلي دريد بن الصمة. انظر: جمهرة أشعار العرب (١/٤٦٨)، والأصمعيات (١/١٠٧)، والشعر والشعراء (٢/٧٣٨)، والصحاح (٦/٢٤٤٦).

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ»، العمية: بكسر العين وضمها وجهان، والمراد بها: الضلالة، فهذا الحديث فيه التنفير من العصبية الجاهلية، وأن الأصل في المسلم أن يقاتل تحت راية الحق، ولا يقاتل تحت راية الباطل والضلالة، وهي العمية، فمن قتل تحتها ينصر باطلاً أو يذل حقاً، «فَقَتِلَ جَاهِلِيَّةً»، يعني: يموت ميتة أهل الجاهلية، وفي هذا وعيد شديد، وقد حصل هذا في عصرنا الحاضر عند أصحاب الأفكار المنحرفة والهدامة التي يدافعون عنها، ويقاتلون دونها فيقتلون ويعتبرون أنفسهم شهداء.

والحق: أن هؤلاء قد قتلوا تحت راية عمية مخالفة لرأي الجماعة، وشاقة لعصا الطاعة فتكون قتلهم جاهلية.



وَلَا بِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا: «فَمَنْ
نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ، فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الَّذِي رُدِّيَ فَهُوَ يُنْزَعُ بِذَنْبِهِ»^(١).

الشَّيْخُ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ، فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الَّذِي
رُدِّيَ، فَهُوَ يُنْزَعُ بِذَنْبِهِ»، الواجب على المسلم أنه إذا رأى قومه على غير الحق
أن يناصرهم ويبين خطأهم، فإن قبلوا منه فالحمد لله، وإن لم يستمعوا له
اعتزلهم ولا يقاتل معهم على الباطل، فإذا قاتل معهم وهم على غير الحق فهو
كالبعير الذي يسقط في بئر، ويحرك ذنبه يريد النجاة، وهذه الحركة غير منجية
له، وكذلك الذي يقاتل مع قومه على غير الحق يريد بذلك العزة، وهو في
الحقيقة يذل نفسه وقتاله قتال ذلة.



(١) أخرجه أبو داود (٥١١٧)، وأحمد (٢٧٢/٦).

بَابُ: مَنْ آوَى مُحَدِّثًا

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَإِلَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١)

الشَّيْخُ

المُحَدِّثُ: هو الذي فعل جريمة يستحق عليها الحد، كالزاني، أو السارق، أو شارب الخمر.

فالذي وجب عليه حد من الحدود التي شرعها الله -سُبْحَانَهُ-، وهي رادعة للناس عن الجرائم والفواحش، لا بُدَّ من تنفيذها، ولا يجوز حماية من وجبت عليه أو الشفاعة فيه.

وفي الحديث: «مَنْ حَاطَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ»^(٢)، فالحدود لا يجوز لأحد أن يتدخل لإسقاطها، بل يجب تنفيذها؛ طاعة لله، وردعاً للمجرمين، فإذا قطعت يد السارق أمن الناس على أموالهم، وإذا جلد الزاني أو رجم أمن الناس على أعراضهم وأنسابهم، بخلاف ما إذا عطل الناس الحدود فإن الفوضى تعم، وستنتشر الجريمة.

(١) أخرجه مسلم (٤٣) (١٩٧٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٩٧)، وأحمد (٢٨٣/٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لا كما يقول البعض إن إقامة الحدود وحشية، بل إن فعل الجرائم هو الوحشية، والحدود رحمة، فكيف يرحمون المجرم، ولا يرحمون من وقع عليه الظلم؟

ولذلك قال النبي ﷺ: «حَدُّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِلنَّاسِ مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا ثَلَاثِينَ، أَوْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»^(١).

وقوله ﷺ في حديث علي رضي الله عنه: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ...»، هذا الحديث فيه أنه حدثه النبي بأربع كلمات، يعني: أربع جمل: الأولى: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ» الذبح لغير الله بدأ به؛ لأنه شرك، وهو أعظم الذنوب، كأن يذبح تقريباً لغير الله، فيذبح للجن أو للصنم أو للشياطين كي يأمن إيذاءهم.

والذبح عبادة لا تجوز إلا لله، قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، كما أن الصلاة لا تكون إلا لله، وكذلك الذبح، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، فقرن الله تعالى النسك مع الصلاة، والنسك هو الذبح، فدل على أنه عبادة عظيمة لا تجوز لغير الله، فمن ذبح لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر المخرج من الدين، وهو ملعون، أي: مطرود من رحمة الله، فدل على أن الذبح لغير الله من أكبر الكبائر.

والثانية: «وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»، لعن الوالدين كبيرة؛ لأن الله لعن من يلعنهما؛ لأن هذا ينافي ما أمر الله به من الإحسان إليهما وبرهما

(١) أخرجه أحمد (٣٥١ / ١٤)، وابن حبان (٢٤٤ / ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالقول والفعل، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفِي وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فإذا خالف هذه الأوامر، ودعا عليهما باللعنة فإن الله يلعنه، يعني: يطرده من رحمته، وقد لا يلعن الرجل والديه مباشرة، ولكن يلعن أبا الرجل، فيلعن أباه أو أمه فقد تسبب بلعنهما فإن الله يلعنه^(١).

والثالثة: «وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ»، والمراد بها: المراسيم التي تكون على حدود الأملاك بأن تكون الأرض مشتركة، ثم تقسم وتوضع علامات على حدودهم، فمن غير هذه المراسيم لعنه الله؛ لأن في ذلك تضييعاً لحقوق الناس.

والرابعة: «وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُخْدِثًا»، تحدثنا عنها في شرح الباب، وهي إيواء المحدث.



(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَكْثَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يُسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيُسَبُّ أَبَاهُ، وَيُسَبُّ أُمَّهُ».

كِتَابُ الْمَظَالِمِ

بَابُ ظُلْمِ الْيَتِيمِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

الشَّرْحُ

المظالم: جمع مظلمة، مأخوذ من الظلم، وهو: وضع الشيء في غير موضعه^(١). والظلم موبقة كبيرة عظيمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وَقَالَ: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ [الحج: ٤٨]، فالآيات والأحاديث كثيرة في النهي عن الظلم والتحذير منه، والله قد لعن الظالمين، واللعن على الذنب يدل على أنه كبيرة.

وأما قوله في الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، فهذا وعيد من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى للذين يأكلون أموال اليتامى بغير حق أنهم يأكلون في بطونهم ما يوردهم النار، وهم يظنون أنهم يأكلون طعامًا هنيئًا، ولكنهم إنما يأكلون نارا، وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة فقال: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾؛ سيدخلون نارا شديدة يحترقون فيها ويصلاهم حرها.

وَلَهُمَا عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَאֲكُلُ الرِّيَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزُّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»^(١).

الشَّجَّ

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، الموبقات: المهلكات.

وأولها: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ»، وقد سلف الحديث عنه.

والثانية: «السَّحَرُ»، والسحر في اللغة: ما خفي ولطف سببه^(٢).

وأما في الشرع فهو على قسمين^(٣):

القسم الأول: حقيقي يؤثر بالأبدان إما يقتل المسحور، أو يمرض الجسم، وهو عبارة عن رقى وعقد وعزائم تؤثر في بدن المسحور وعقله، وهذا أعظم أنواع السحر.

القسم الثاني: سحر تخيلي، وهو أن يخيل الساحر للناس الأمور على غير حقيقتها، فيخيل للناس أنه يسحب السيارة بشعره، أو أنه يطعن عينه بأسياخ الحديد، ولا تؤثر فيه أو يأكل الجمر.

(١) سبق تخريجه (ص ٤٠٨).

(٢) سبق تعريفه (ص ٤١٣).

(٣) انظر: (ص ٤١٣).

وهذا مثل سحر سحرة فرعون لما ألقوا جبالهم وعصيهم وقد حشوها بالزئبق، فخیل للناس أنها تسعى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

والسحر بنوعيه كفر بالله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فجعل تعلمه وتعليمه كفراً، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والسحر ضرر محض، قال الله تعالى: ﴿وَيَنَعَلُونَ مَا يَصُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وهذا الساحر إذا ثبت عليه السحر إما بإقراره أو بالبينة فإنه يقتل حتماً ولا يستتاب، قال صلى الله عليه وسلم: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ»^(١).

وقد قتل ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الساحر عمر وابنته حفصة، وجندب بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد كتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عماله: «أَنْ ااقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ. قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرٍ»^(٢).

وحفصة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَمَرْتُ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتَهَا فَقَتَلْتُ»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والدارقطني (٤/١٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٣٤)، والطبراني في الكبير (٢/١٦١)، وعبد الرزاق في المصنف (١٠/١٨٤)، والحاكم (٤/٤٠١) عن جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٤٣)، وأحمد في المسند (١/١٩٠)، والشافعي في مسنده (ص ٣٨٣). وأخرجه البخاري بغير هذا اللفظ، ولم يذكر قتل السواحر (٣١٥٦).
(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٧٨١)، والشافعي في مسنده (ص ٣٨٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/٤٥٣)، والبيهقي في الكبرى (٨/١٣٦).

وجندب بن كعب قتل ساحراً بحضرة أحد أمراء بني أمية، كان يخيل للناس أنه يقتل الشخص، ثم يحويه ف قرب منه جندب وقتله، وَقَالَ: إِنْ كَانَ صَادِقًا، فليحي نفسه^(١).

والثالث: «وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ»، فالمؤمن لا يجوز قتله إلا بإحدى ثلاث؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: الثَّيْبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، هذا في المؤمن.

وكذلك الكافر المعاهد والمستأمن، فهو داخل في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(٣)، وأما قتل الخطأ فإنه إذا قتل المعاهد خطأ، ففيه دية مسلمة إلى أهله وكفارة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ»

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه (ص ٤١٤).

وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴿
[النساء: ٩٢]، هذه النفس التي حرم الله التي لا يجوز قتلها إلا بالحق، وهو ما ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث.

والرابع: «وَأَكُلُ الرِّبَا»، وهو من أخبث المأكَل والمكاسب، وقد جاء الوعيد الشديد عليه في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨].

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والربا محقوق ولو تضخمت الأموال العائدة منه، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، بالإتلاف والنكسات الاقتصادية، أو يمحقها بنزع البركة منها.

فأكلو الربا لا يتفعون بالأموال؛ لأن الله يذهب بركتها ويمحقها ولا تقبل منهم الصدقات منها، ولا يقبل حجهم منها، ولا صلاتهم منها، وإنما يبارك الله في المال الطيب المكتسب من الحلال، فينميهِ في الدنيا بالبركة، ويثيب عليه في الآخرة.

الخامس: «وَأَكُلُ مَالِ الْيَتِيمِ»، وقد سبق الحديث عنه.

السادس: «وَالْتَوَلَّيْ يَوْمَ الزَّحْفِ»، وذلك إذا التقى المؤمنون والكفار، والتحم القتال بينهم، أو تقابل الجيشان فلا يجوز لمن حضر من المسلمين أن ينصرف ويترك القتل.

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمْ الْأَذْبَارَ ۝١٥ وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]، فالتولي يوم الزحف من السبع الموبقات.

السابعة: «وَقَدْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»، يعني: أن يرمي بالزنا امرأة عفيفة مسلمة غافلة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٣-٢٤]، هذه هي السبع الموبقات -والعياذ بالله-.



بَابُ غَضَبِ الْأَرْضِ

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ». أَخْرَجَاهُ^(١).

الشَّرْحُ

ومن المظالم التي هي من كبائر الذنوب: غضب الأرض، وهو: الاستيلاء عليها بغير حق، فإن من غضب شيئاً منها «طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»، يعني: تحسف به الأرض، فتصير البقعة المغصوبة في عنقه كالطوق يحمله فيعذب به.

وسعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو ابن عم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ خَاصَمْتُهُ أَرَوَى فِي حَقِّ زَعَمْتِ أَنَّهُ انْتَقَصَهُ لَهَا إِلَى مَرْوَانَ، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أَنْتَقِصُ مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٢)، هذا في أمر المساحة الكلية، فكيف بالذي يقتطع المساحات؟ فإنه يطوقها من سبع أرضين يوم القيامة.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٣٧) (١٦١٠)، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٣٨) (١٦١٠) من حديث سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ودل الحديث على أن الغضب كبيرة، وأن غضب الأرض أعظم من غضب غيرها؛ إذ لم يرو فيه هذا الوعيد الشديد.

ودل الحديث على أن الأرض طباق كالسماوات، وأن من ملك أرضًا ملك ما تحتها، فله أن يحفر فيها وما وجد فيها من كنوز أو معادن جامدة فهي ملكه؛ لأنها من أجزاء أرضه، وكذلك يملك هواءها فله أن يبني فوقها ما لم يضر بمن يجاوره.



بَابُ: الظُّلْمُ فِي الْأَبْدَانِ

عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «ثَلَاثَةٌ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ صَلَاةً: مَنْ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، وَرَجُلٌ أَتَى الصَّلَاةَ دِبَارًا، وَالدُّبَارُ: أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ أَنْ تَفُوتَهُ، وَرَجُلٌ اعْتَبَدَ مُحَرَّرُهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّطَبَّرَانِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ^(١).

الشَّيْخُ

الظلم في الأبدان يكون بالقتل أو بالضرب، وأما هذا الحديث: «ثَلَاثَةٌ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ صَلَاةً»، فهذا فيه وعيد شديد لهؤلاء الثلاثة الوارد ذكرهم: وأولهم: «مَنْ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ»، أي: يكرهونه بحق، أما إن كانوا يكرهونه عن هوى بغير حق فلا فإنه لا يدخل في الوعيد الوارد في هذا الحديث، وأما إن كانوا يكرهونه بحق كأن يكون لأمر مذموم في الشرع؛ لبدعته مثلاً أو فسقه، فهذا لا تقبل صلاته، فلقد جاء في الحديث كذلك أن صلاته لا ترفع فوق رأسه^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٥٩٣)، وابن ماجه (٩٧٠)، والطبراني في الكبير (٧١٠/١٣)، والبيهقي في الكبرى (١٨٢/٣).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٥٩٣) عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ آدَانَهُمْ: الْعَبْدُ الْأَبْقَى حَتَّى يَرْجِعَ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ، وَإِمَامٌ قَوْمٌ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ».

وكما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٩٧١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا تَرْفَعُ صَلَاتُهُمْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ شَيْئًا: رَجُلٌ أَمَّ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ، وَأَخَوَانِ مُتَصَارِمَانِ».

والثاني: «وَرَجُلٌ أَتَى الصَّلَاةَ دِبَارًا، وَالدَّبَارُ: أَنْ يَأْتِيَهَا بَعْدَ أَنْ تَفُوتَهُ»،
يعني: يتأخر عن الصلاة مع الجماعة حتى تفوته، أو يتأخر عن الصلاة في وقتها حتى يخرج الوقت، هذا لا تقبل صلاته.

والثالث: «وَرَجُلٌ اغْتَبَدَ مُحَرَّرُهُ»، أي: اتخذ الحر عبدًا، فالأصل في الإنسان الحرية، فلا نسلب حريته إلا بأمر شرعي كأن يُسبى في الجهاد في سبيل الله، ولهذا فإن الذين يسرقون الأحرار الصغار، ثم يبيعونهم فهو لاء لا تقبل صلاتهم.



وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ جَرَّدَ ظَهَرَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»^(١).

الشَّجَرُ

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ جَرَّدَ ظَهَرَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»، يعني: عراه من ثيابه؛ ليضربه بغير حق؛ ليشتد عليه الألم «لَقِيَ اللَّهَ»، أي: يوم القيامة «وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»، فقد دل الحديث على أن من فعل هذا فإنه قد ارتكب كبيرة من الكبائر.



(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٠/٣)، وفي الكبير (١١٦/٨)، وفي مسند الشاميين (٩/٢).

بَابُ الظُّلْمِ فِي الْأَمْوَالِ

فِي الصَّحِيحِ: «وَلَا يَنْتَهَبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارُهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١).

الشَّجُّ

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يَنْتَهَبُ نُهْبَةً» الانتهاب هو الاغتصاب مثلما كانت العرب عليه في الجاهلية من الغارات، وأخذ أموال الناس قهراً. وكذلك من يسرق الأموال، أو يأخذها بالخدعة والغش، فمال المسلم حرام لا يؤخذ إلا بالحق.

وقوله: «يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارُهُمْ»، يعني: هي ذات قيمة تستتبع أنظار الناس، وتجعلهم يطلبونها، أما إن كان ما أخذه يسيراً لا يطمع فيه فلا يدخل في هذا الوعيد، لكنه لا يجوز له ذلك.

وقوله: «يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»، أي: الإيمان الكامل، وهذا يدل على أن الانتهاب كبيرة.



(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (١٠٠) (٥٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارُهُمْ حِينَ يَنْتَهَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ».

بَابُ خَذْلَانِ الْمَظْلُومِ

عَنْ سَهْلِ بْنِ حَنِيفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ أَذِلَّ عِنْدَهُ مُسْلِمٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُ أَذَلَّهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ^(١).

وَلِأَبِي دَاوُدَ عَنْ جَابِرٍ وَأَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا عِنْدَ مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نَصْرَتَهُ»^(٢).

الشَّيْخُ

من الواجب على المسلم: نصر المظلوم، فيتعين على المسلم أن يساعد المظلوم، ويخلصه من ظلمه إذا كان يقدر، فإن تركه وهو يقدر فقد ارتكب كبيرة من الكبائر.

وقوله: «مَنْ أَذِلَّ عِنْدَهُ مُسْلِمٌ»، يعني: في بدنه أو ماله أو عرضه، «فَلَمْ يَنْصُرْهُ»، أي: يدفع عنه الظلم، «وَهُوَ»، أي: والحال أنه «يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُ أَذَلَّهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فدل الحديث على أن هذا

(١) أخرجه أحمد (٢٥ / ٣٦١)، والطبراني في الكبير (٦ / ٧٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٨٤)، وأحمد (٢٦ / ٢٨٨).

من كبائر الذنوب، فإن الأصل في المسلم أنه يدافع عن أخيه كما يدافع عن نفسه.

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا عِنْدَ مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نَصْرَتَهُ»، هذا كالحديث الذي قبله.

فمن تكلم عنده في عرض مسلم، فلا بد له أن يذب عن عرض أخيه، فإن ترك ذلك وهو يقدر كان جزاؤه أن الله يخذله في موضع يجب أن ينصر فيه، ومن نصر أخاه في موضع يذل فيه، فإن الله ينصره في موضع يجب أن ينصر فيه فإن الجزاء من جنس العمل.

وعلى هذا فالذين يحضرون المجالس التي يقع فيها غيبة ونميمة، ولا ينكرون ذلك، ولا سيما إذا كان من اغتیب من ولاية أمور المسلمين وعلمائهم، فالأمر أشد، وذلك لأن العلماء والولاة هم الذين بهم يستقيم أمر الأمة، فلا بد من الدفاع عنهم؛ لأن ذلك دفاع عن الدين وحماية له.



بَابُ: مَا جَاءَ فِي أُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ

وَحَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾
[الحجرات: ١٠] الآية، وَقَوْلِهِ: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الآية
[المائدة: ٥٤].

الشَّرْحُ

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ: مَا جَاءَ فِي أُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ)،
هذا الباب الأخير من هذا الكتاب المبارك كتاب (الكبائر)، وهو (بَابُ: مَا
جَاءَ فِي أُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَحَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ)؛ يتضمن مسألتين:
المسألة الأولى: الأخوة في الإسلام.
المسألة الثانية: حق المسلم على المسلم.

الأخوة في الإسلام: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةً لَا فِي النَّسَبِ وَإِنَّمَا
فِي الْإِسْلَامِ، فالإسلام يجمع بين العربي والعجمي، والغني والفقير، والذكر
والأنثى، والحرُّ والعبد دون نظيرٍ إلى الأنساب، أو إلى المال، أو إلى الجاه، وإنما
النظر إلى شيء واحد يتأخون فيه، وهو الإسلام، وهذا شيء واجبٌ ودائم،
فالؤمن أخو المؤمن من أول الخلق إلى آخرهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا
مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: ١٠]،
فالمؤمنون إخوة في الماضي والحاضر والمستقبل لا تنفصل هذه الأخوة حتى
في الجنة، قال تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

قال الله جلَّ وعَلَا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فكانوا في الأول قبل
الإسلام متعادين متقاطعين متناحرين متباغضين، فلما جاء الإسلام وحَّد
بينهم بالإيمان ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، كانوا من قبل أعداء ﴿وَاذْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فانقلبت هذه العداوة إلى
أخوة، ما الذي قلبها؟ الذي قلبها هو الإيمان، فهذه نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:
﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، مَنْ عَلَيْكُمْ بهذه النعمة بأن أَلَّفَ بين قلوبهم،
ولا يُولف بين القلوب إلا الله، لا أحد يستطيع أن يُولف بين القلوب مهما
فعل إلا الله جلَّ وعَلَا الذي خلقها ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَكْثَرُ يَعْلَمُ﴾ [الأنفال: ٦٣] أَلَّفَ بينهم بالإيمان.

فالأخوة بين المؤمنين ثابتة وراسخة مادام الإيمان موجودًا لا يزحزحها
شيء إلا الكفر بالله عَزَّ وَجَلَّ، هذا هو الذي يقطع الأخوة، أما المؤمنون فإنها
لا تنقطع الأخوة بينهم، وإن حصل بينهم سوء تفاهم أو حصل بينهم خلاف
فإنهم إخوة ويعملون على إزالة هذا العارض، يعملون على إزالته بسرعة
ولهذا سورة الحجرات كلها في هذا الموضوع، نهى الله -سُبْحَانَهُ- عن كل ما
يؤثر على هذه الأخوة.

أولاً: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وهذا فيه الحذر من النمامين، النمام: الفاسق الذي يحرش بين المسلمين ليوقع العداوة بينهم، لكن الله جلَّ وعلا قال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، يعني: تثبتوا، ودلَّ على أن هذا موجود، أن هناك نمامين يسعون بالوشاية بين المسلمين، فالواجب على المسلمين أن يتثبتوا من خبر هذا الفاسق، سباه الله فاسقاً، والفاسق لا يقبل خبره حتى يتثبت منه.

﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦]، أي: لا تصيبوا قوماً بجهالة اعتماداً على خبر هذا الفاسق، ﴿فُضِّحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] من الأول تداركوا هذا الأمر، ثم لو حصل بين المسلمين اختلافٌ وقاتل حصل قتال، الذي يقاتل المسلمين هذا باغ.

يجب أولاً: أن يسعى للصالح بين المتقاتلين -بين البغاة وأهل العدل-، يسعى للصالح؛ لقطع هذا النزاع، ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، فإذا لم تقبل الفئة الباغية الصلح، ﴿فَقَاتِلُوا آلَئِي تَبَغَى﴾ انضموا مع الفئة العادلة، وقاتلوا الباغية ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: ترجع عن بغيتها وعدوانها إلى ساحة الإيمان والتأخي، ﴿فَقَاتِلُوا آلَئِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ يستمر القتال معها حتى ترجع، ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾، أي: رجعت، ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾، العدل بين هؤلاء وهؤلاء لا يحيف مع طائفة دون طائفة، بل يتبع العدل، ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩-١٠] إذا كانوا إخوة، فيلزم الإصلاح بين الأخوين، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[الحجرات: ١٠].

ثم نهى عن السخرية، من أسباب الفرقة والعداوة: أن تسخر بأخيك؛ لأن هذا يوجب الفراق والعداوة وشحن الأنفس بالبغضاء، ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ ﴾ [الحجرات: ١١] ما دام أنه مؤمن فلا تسخر منه؛ لأن الله أكرمه بالإيمان، وربما يكون فقيراً، أو مظهره ليس مظهرًا مرغوبًا للناس، لكن عنده الإيمان، العبرة ليست بالمظاهر، العبرة بما في القلوب، وربما من تسخر منه يكون خيراً منك، ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات: ١١]، السخرية يجب أن تنقطع بين المؤمنين، وأن يُجِلَّ بعضهم بعضاً، ويحترم بعضهم بعضاً مهما اختلفت مظاهرهم، ومهما اختلفت مناصبهم ومراتبهم فهم إخوة، فالسخرية بأخيك المسلم هي كبيرة من كبائر الذنوب.

ثم قال: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ [الحجرات: ١١]، كذلك من أسباب العداوة وإثارة المحن: لزم المؤمنين، لزمهم بالتنقص، إنما هذه صفة المنافقين الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين، صفة المنافقين هم الذين يلمزون، حتى لمزوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨]؛ وقال تعالى: ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴾ [الهمزة: ١]، كثير اللمز للناس يتلمس عيوبهم، ما من أحدٍ كامل، الكمال لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، يوجد في المؤمن بعض العيوب وبعض النقائص لكن ما معه من الإيمان يستره،

ويضفي على هذه النقائص، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] المكروهة،
 اللقب هو: ما أشعر بمدح أو ذم، إن كان اللقب يشعر بالمدح فهذا طيب،
 وإن كان اللقب يشعر بدم فتجنبه ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]
 التي تشعر بالذم، تجنب أن تلقب أخيك بلقب يكرهه، ويشعره بالذم، أو
 تلقب إخوانك الجماعة الفلانية، تلقبها بلقب يتقصها، هم إخوانك مهما
 اختلفت معهم فهم إخوانك، والواجب إزالة هذا الاختلاف، والرجوع إلى
 الحق ﴿فَإِنْ نَنزَعُكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ثم قال جل وعلا: ﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ﴾ [الحجرات: ١١]؛ يسمى هذا
 فسوقاً، التناز بالالألقاب من الفسوق، والخروج عن طاعة الله عز وجل، ثم قال:
 ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ﴾ من هذا التناز، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ حصر الله الظلم
 فيهم؛ لشدة جرمهم، الذين لا يزالون ينبزون بالألقاب التي تُشعر بالذم هم
 الظالمون لإخوانهم؛ لأن الظلم - كما سبق - منه نوع يكون بين الناس فيجب
 ألا تظلم الناس.

ثم أمر باجتناز كثير من الظن، لا تسئ الظن بإخوانك، قال
 صلى الله عليه وسلم: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(١)، فلا تسئ الظن
 بإخوانك المؤمنين ما دام لم يتحقق لديك شيء، فإنك لا تسئ الظن بهم،
 الأصل في المسلم العدالة والخير، فلا تسئ الظن به، ﴿أَجَبْنَا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ

(١) سبق تخريجه (ص ٣٧٦).

إِنَّكَ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴿[الحجرات: ١٢] اجتنب الكثير؛ لئلا تقع في الإثم القليل، اجتنب الكثير من الظن، وأحسن الظن بإخوانك المؤمنين.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ لا تبحث عن عورات إخوانك، لا تنقب عنها، اغفل عنها، ﴿وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا﴾، نهى -أيضاً- عن الغيبة، وهى: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يكره بالمجالس، إذا علمت عليه نقصاً فناصحه، ولا تتحدث عنه بالمجالس، هذه غيبة، والغيبة كبيرة من كبائر الذنوب، ﴿وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ثم أرجعهم إلى الأصل، لا فضل لبعضهم على بعض من ناحية الأصل، كلهم بنو آدم، وإنما تفاضلهم بالتقوى، أما من ناحية الأصل، فكلهم آدميون عربهم وعجمهم، وذكرهم وإنائهم، وأحرارهم وعبيدهم كلهم من بني آدم؛ كما في الحديث: «لَا فَضْلَ عَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى»^(١)، ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ [الحجرات: ١٣]، الشعوب للعجم، والقبايل للعرب لأي شيء؟ للتفاخر؟ لا، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، فقط للتعارف، تعرف أنك من القبيلة الفلانية، وأنت من بني فلان، وكل واحد يعرف نسبه، هذا لا بأس به، تعلم الأنساب من أجل التعارف والتواصل، هذا لا بأس به، بل هو شيء طيب، أما معرفة الأنساب ودراسة الأنساب؛ لأجل التفاخر، فهذا لا يجوز، هذا من أمور الجاهلية، ثم قَالَ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ﴾، فليس الفضل

في النسب، إنما الفضل في التقوى، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى»، هذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣].

هذه سورة عظيمة دستور للمسلمين يمشون عليه فيما بينهم، لو أنهم رجعوا إلى هذه السورة وعملوا بها لزال ما بينهم من الحزازات ومن الاختلافات ولتحققت الإخوة الإيمانية بينهم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]).

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، هذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [حمد: ٣٨]، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾، هذا فيه أن الله يحب -سُبْحَانَهُ-، هذا من صفات الله جَلَّ وَعَلَا أنه يحب المؤمنين والمتقين والمحسنين والمتطهرين، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وهم يحبون الله جَلَّ وَعَلَا حبًّا شديدًا، أحب من غيره، لا تعدل محبتهم لشيء أبدًا محبتهم لله عَزَّ وَجَلَّ، لا تعدل محبة الله، وهذا من أعظم أنواع العبادة محبة الله هي أعظم أنواع العبادة، والعبادة مبنية على محبة الله؛ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ^(١):

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ	مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلَيْكُ الْعِبَادَةُ دَائِرٌ	مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ
وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرُ رَسُولِهِ	لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٢٥٣).

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ من صفاتهم - وهذا محل الشاهد - أنهم أذلة على المؤمنين، المؤمنون يذلون لإخوانهم، ويتواضعون لهم ويكرمونهم، هذا محل الشاهد من الآية: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ﴾، أي: أقوىاء الجانب على الكافرين، هذا فيه الولاء والبراء، الولاء للمؤمنين، والبراء من الكافرين.



وَفِي الصَّحِيحِ: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمْتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ»^(١).

الشَّيْخُ

فِي الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ مَوْتِهِ قَالَ: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمْتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ»، وَالْخَلِيلُ هُوَ الَّذِي نَالَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَحَبَّةِ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ أَفْضَلُ الْأُمَّةِ، وَهُوَ الَّذِي نَاصَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَوَّلِ بَعْثَتِهِ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ نَاصَرَ هَذَا الدِّينَ وَقَمَعَ الرَّدَّةَ، ثَبَّتَ اللَّهُ بِهِ هَذَا الدِّينَ، مَوَاقِفُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوَاقِفَ عَظِيمَةٍ، مَوَاقِفَ الْجِبَالِ الرُّوَاسِي، وَلِهَذَا أَحَبَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُبًّا شَدِيدًا، وَلَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَلِيلَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا قَالَ: «فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(٢)، فَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلِيلُ اللَّهِ، وَالْخُلَّةُ لَا تَقْبَلُ الْإِشْتِرَاكَ، فَلِذَلِكَ يَجِبُ تَخْلِيصُهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ»، فَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ أَخٌ لِأَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْإِيمَانِ، هَذِهِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ نَالَهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا مَحَلُّ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ: أَنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي أَنْ نَكُونَ إِخْوَةً فِيمَا بَيْنَنَا، وَهَذِهِ الْأُخُوَّةُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَالَ بِهَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشَّرَفَ عَلَى غَيْرِهِ فَفَازَ بِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٦)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٨٢) (٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٣) (٥٣٢) مِنْ حَدِيثِ جَنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هل الأخوة في الإسلام أفضل من الحُلة؟ لا، الحُلة أفضل، كلمة «أفضل» ليست للتفضيل؛ لأن أفضل تأتي أحياناً على غير بابها، مثل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فتأتي أفضل على غير بابها، وهذا هو المراد هنا - والله أعلم -.



وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(١).

الشَّجَرُ

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، يعني: أن المؤمنين يتعاونون فيما بينهم، ويكمل بعضهم نقص الآخر حتى يصبحوا كالبنیان المترابط، البنيان يتكون من اللبنة، فإذا ترابطت اللبنة ترابطاً تاماً قام البنيان واشتد، وإذا اختلت اللبنة اختل البنيان، كذلك المؤمنون يجب أن يكونوا كالبنیان، حينما يكون البنيان مستقيماً ومتربطاً فإنه يشتد ويقوم ويتنفع به ويبقى، أما إذا اختل ما بين اللبنة في البنيان سقط البنيان أو اختل ولا يتنفع به ولا يبقى، فهذا تشبيهٌ بليغ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، فيقوم ويتماسك.



(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَهُمَا عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» (١).

الشَّجَرُ

وهذا حديث آخر فيه مثل آخر ضربه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمؤمنين فيما بينهم: «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَادُّهِمْ»، محبة بعضهم لبعض، «وَتَرَاحُمِهِمْ»، رحمة قويهم لضعيفهم، «وَتَعَاطُفِهِمْ»، عطف بعضهم على بعض، «كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ»، الجسد الواحد للحيوان، أو للإنسان، «إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»، إذا اشتكى عضو من الجسد أصابه مرض أصابه ألم فإنك تجد الجسم كله تأخذه الحمى والسهر، مع أن بقية الأعضاء سليمة ليس فيها شيء، لكن لكون عضو واحد منها أصيب فإن بقية الأعضاء تتألم لألمه، ويسهر الإنسان لأجل بعضه لأجل وجع في بعضه؛ كالزرس -مثلاً- أو الأصبع أو العين، ربما يكون شيء صغير يتألم، فالجسد كله يتألم، هذا مثلٌ بليغ ضربه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمؤمنين أنه إذا حصل على أحدٍ منهم نقص، أو حصلت له مصيبة، فإنهم يتألمون لألمه، ويشعرون بشعوره، أما من يفرح على أخيه بالمصيبة، ويفرح على أخيه بالنازلة فهذا نقصٌ في إيمانه، هذا ناقص الإيمان، أو ليس عنده إيمانٌ أصلاً، إنما يفرح بهذا

المنافقون، ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَلَئِنْ تَصَبَّكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾
 [آل عمران: ١٢٠]، هذا شأن المنافقين، أما المؤمنون فإنهم يتألمون بعضهم لبعض،
 ولا يكفي أنه يتألم فقط، بل يسعى في إزالة هذا الألم عن أخيه، يسعى في
 إزالته، إن كان في هذا الألم في ماله يواسيه، إن كان هذا الألم في بدنه يرقيه
 بالرقية الشرعية أو يعالجه، إن كان يُحَسِّنُ العلاج أو يسعى في علاجه في
 المستشفيات فلا يتركه، بل يقوم بإزالة هذا الألم عنه، هذا من أبلغ الأمثال
 التي ضربها النبي ﷺ للمسلمين والمؤمنين فيما بينهم.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِيعَ بَغْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَغْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا؛ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَهُنَا». وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلَّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

الشَّيْخُ

هذا حديثٌ عظيمٌ ومنهجٌ يسيرٌ عليه المسلمون فيما بينهم يتجنبون ما يضر إخوانهم، ويسعون فيما ينفعهم، فالمسلمون كالنفس الواحدة، وكالجسم الواحد، وكالبنيان الواحد، فهذا حديثٌ عظيمٌ ومنهجٌ قويمٌ يسيرٌ عليه المسلمون فيما بينهم، نأخذه جملةً جملةً.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحَاسَدُوا»، الحسد داءٌ قديمٌ، والحسد هو: تمنى زوال النعمة عن المنعم عليه، يتمنى زوال النعمة عن أخيه التي أنعم الله بها عليه، أما لو تمنى مثلها فهذا ليس بحسدٍ مذموم، لو تمنى أن يكون مثل أخيه العالم يكون مثل أخيه العابد، مثل أخيه المتصدق والمنفق، هذه تسمى غبطة، هذا شيء طيب، فإذا تمنيت أن يكون لك مثل ما لأخيك؛ لأجل أن تحسن به مثل ما أحسن، فهذا شيء طيب، وأنت شريكه في الأجر، لك مثل أجره، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٧٣).

إنما الحسد المذموم هو تمنى زوال النعمة عن المحسود، سواء حصلت له، أو لم تحصل، المهم أنها تزول هذه النعمة عن أخيه، هذا هو الحسد المذموم.

وأول ما وقع الحسد من إبليس -لعنه الله-، حينما حسد أبانا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وماذا جرَّ عليه الحسد -والعياذ بالله-؟ جره إلى الكفر إلى أن كفر، فسق عن أمر ربه، أبى أن يمثل أمر الله بالسجود آدم حمله الحسد على الكفر، والخروج عن طاعة الله عَزَّجَلَّ وجرَّ عليه غضب الله ولعنته وعقابه وأنه صار قوادًا لكل شر، يدعو إلى النار، ويدعو إلى الضلال، ويدعو إلى الكفر، ويدعو إلى الفجور والفسق هذه مهنته، كل هذا بسبب الحسد الذي سبب له هذا هو الحسد، أما لو أنه سجد مثل الملائكة -طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لما زالت عنه هذه النعمة، ولما صار إلى هذا المصير المؤلم.

كذلك ابنا آدم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ [المائدة: ٢٧]، حسد أحدهما الآخر، ﴿فَقُتِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧]، هدده بالقتل؛ حسدًا منه، ثم آل به الأمر إلى أن نفذ وقتل أخاه، وصار ما صار، وأخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ»^(١)؛ لأنه أول من سنَّ القتل.

كذلك الحسد سبَّب لبني إسرائيل الكفر -والعياذ بالله- لما حسدوا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحسدوا هذه الأمة على ما أعطاهم الله من فضله، كفروا

بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يعلمون أنه رسول الله ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، حملهم الحسد فنالوا لعنة الله وغضبه - نسأل الله العافية - بسبب الحسد، هذا ما يجره الحسد، فعلى المسلم أن يحذر من الحسد.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ»^(١)، فهو داءٌ قديم من عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَام.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَبَاغَضُوا»، الواجب العكس التحاب بين المؤمنين، المؤمنون يحبون بعضهم بعضاً بدل التباغض، «وَلَا تَبَاغَضُوا»، يعني: لا تعملوا أشياء تسبب التباغض بينكم، اجتنبوا الأشياء التي تسبب التباغض: كالغيبة، والنميمة، والظلم، وغير ذلك، اجتنبوا ما يسبب التباغض بينكم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَنَاجَشُوا»، النجش هو: الزيادة في اللغة^(٢)، والمراد به هنا: الزيادة في سوم السلعة، السلعة معروضة في المزاد للبيع، فيأتي إنسانٌ لارغبة له في شرائها، وإنما يسومها ليرفع السعر على من يريدّها، إما لينفع صاحب السلعة، أو ليلضر المشتري، هذا منهى عنه، «وَلَا تَنَاجَشُوا».

إن كان لك رغبة في السلعة فزد فيها ما دامت معروضة بالزيادة، زد فيها وإن لم يكن لك فيها رغبة فاتركها، ولا تناجش فيها من أجل مضرة

(١) سبق تخريجه (ص ٣٧٢).

(٢) قال أبو عبيد: هُوَ أَنْ يَزِيدَ الرَّجُلُ فِي ثَمَنِ السَّلْعَةِ وَهُوَ لَا يُرِيدُ شَرَاءَهَا، وَلَكِنْ لِيَسْمَعَهُ غَيْرُهُ فَيَزِيدُ بِزِيَادَتِهِ. انظر مادة (نجش) في: العين (٣٨/٦)، وتهذيب اللغة (١٠/٢٨٨)، والصحاح (٣/١٠٢١)، ومقاييس اللغة (٥/٣٩٤)، ولسان العرب (٦/٣٥١).

أحد أو منفعة أحد، هذا التناجش، وهذا مع الأسف كثير اليوم بين المسلمين، ربما إذا جلب الجالب للسلعة اشتركوا فيها وقالوا لأحدهم تسومها أنت، ونحن نسكت، ولا نزيد فيها؛ من أجل أن يبيعها برخص يتأمرون عليه، ولا يزدون في السلعة حتى يضطر إلى بيعها بأرخص سعر، ثم يشتركون فيها، هذا من النجش -أيضاً-، هذا من النجش ومن الضرر للمسلم، ويمنعون الناس أنهم يزدون فيها، يقول له لا تزدد ونحن نعطيك منها، لكن لا تزدد فترفعها علينا.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا تَدَابَرُوا»، التدابر هو الإعراض، لا يعرض بعضكم عن بعض عند اللقاء عند السلام، فليقبل بعضكم على بعض بالبشاشة والسرور والاطمئنان، فإن هذا مما يريح القلوب، ويزيل الشحنة منها حينما تسلم على أخيك، تقبل عليه يزول ما في نفسه، أما حينما تعرض عنه فإنه يتأثر ويكون في نفسه شيء.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَا يَبِغْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ»، هذا من نفي الضرر عن المسلمين، إذا إنسان باع سلعة بثمن وشرط له الخيار مدة يوم أو يومين، وجاء واحد، وَقَالَ له افسخ البيع، وأنا آخذها منك بأكثر مما اشتراها منك، هذا بيعٌ على بيع، لا يجوز، هو باع لكن شرط الخيار ليتروى في هذا البيع هل يمضيه أو لا، هذا البيع. فلا يأتيه أحد، ويقول له افسخ، خذ بالخيار وافسخ، وأنا أشتريها منك بأكثر من هذا، هذه ناحية لا يشتري على شراء أخيه.

أما لا يبيع على بيع أخيه، العكس يريد أن يبيع سلعة بثمن، ويجعل مدة للخيار، ثم يذهب إلى المشتري، يذهب هذا المفسد إلى المشتري، ويقول له افسخ البيع، وأنا أبيع عليك سلعة أحسن منها وأرخص منها، افسخ البيع مع فلان، هذا هو البيع على البيع.

فلا يجوز لا الشراء على شراء أخيه، ولا البيع على بيع أخيه حتى السوم، جاء في الرواية: «وَلَا يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ»^(١)، إذا انتهى المزداد، وأراد أن يبيعه، لا تقل له اصبر، اصبر، أنا عندي زود، ما دام أنه أنهى المزداد، وأراد أن يبيعه اتركه، ولا تقل عندي زيادة سوم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»، كما أمر الله بذلك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»، فدل على أن هذه الأمور تنافي الأخوة: التحاسد، التدابر، التباغض، البيع على بيع الآخر، التناجش، كل هذه تنافي الأخوة، أو تنقصها.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ».

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»، هذا هو الواجب، الأخوة في الإسلام، وما دام أنه أخوه فلا يحقره، لا يحقر أخاه ويستصغره ويقلل من شأنه؛ لأنه عند الله عظيم، فلا تحقر من هو عند الله عظيم، وعند الله له قدر ومكانة لا تحقره.

(١) أخرجه مسلم (٣٨) (١٤٠٨): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ، وَلَا يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ، وَلَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلَا عَلَى خَالَتِهَا، وَلَا تَسْأَلُ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أَخِيهَا لِتُكْتَفَى صَخْفَتُهَا وَلِتُنْكِحَ، فَإِنَّمَا هَا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهَا».

«وَلَا يَخْذُلُهُ»، إذا حصل عليه ظلمٌ من أحد فلا تترك الظالم، بل انصر أخاك المظلوم، دافع عنه بالقول أو بالفعل، وأيضاً: انصر الظالم بمنعه من الظلم، «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»^(١)، فلا تخذل أخاك، وتتركه يُظلم، وعندك القدرة على نصرته، بل دافع عنه وادفع الظلم عنه مهما أمكن، أول شيء يدفع الظلم عنه، «وَلَا يَخْذُلُهُ»، يعني: لا يتركه يظلم ولا يظلمه هو فلا يتركه يظلمه أحدٌ غيره، ولا يظلمه هو، هذا من باب أولى.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّقْوَى هَهُنَا»، ما مناسبة قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّقْوَى هَهُنَا» بعد أنه لا يخذل أخاه المسلم، ولا يحقره، ما المناسبة؟

المناسبة: أنك ربما تحقر أخاك وهو تقيٌّ في قلبه، في قلبه تقوى لله عَزَّ وَجَلَّ وهو أحسن منك، فليست العبرة بالمظهر أنك تحقره لمظهره أو لسمعته عند الناس، أو ما أشبه ذلك، العبرة بما في القلوب لا بالمظاهر، فربما تحقر من هو تقي القلب فيما بينه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكررها ثلاث مرات أن العبرة بما في القلوب، لا العبرة بالمظاهر «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٢)، فالقلب هو محل النظر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما المظاهر فلا قيمة لها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، يعني: المنافقين، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، جميل المظهر، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، عندهم فصاحة أو تزوير للكلام يجذب السامع، لكنهم

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٣، ٦٩٥٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص ٣٠).

في الدرك الأسفل من النار لماذا؟ لفساد قلوبهم، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «التَّقْوَى هَهْنَا»، التقوى في القلب، لكن يغلط بعض المغالطين، إذا نهي عن معصية، عن حلق لحية، أو عن مظهر سيئ أو عن معصية، يقول ما يضر هذا التقوى ههنا، ويفسر كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغير معناه أن المعاصي لا تضر، وأن المدار على القلب، نعم المدار على القلب، لكن المعاصي تدل على أن القلب فيه فساد، وقلة تقوى لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لو كان القلب تقيًا لتجنبنا هذه المعاصي، هو يحرف كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويستدل به في غير مدلوله.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «(التَّقْوَى هَهْنَا)، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) من باب التأكيد، «وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ» من باب التأكيد «ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» أن العبرة ليست بالمظاهر، وإنما العبرة بما في القلوب، وأنه إذا كان القلب تقيًا ظهرت آثار التقوى على الأفعال والأقوال، وإذا كان القلب فاسدًا ظهرت آثار فساد القلب على الأقوال والأفعال.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِحَسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ»، يعني: يكفي المسلم من الشر أن يحقر أخاه المسلم، هذا رجوع إلى قوله: «وَلَا يَحْقِرْهُ»، فإذا حقره فإن هذا دليل على كثرة الشر عنده، بحسبه يعني: يكفيه من الشر أنه يحقر أخاه المسلم، إذا احتقار المسلم شر.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»، وهذا صرح به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عدة مناسبات، ومنها في خطبته في حجة الوداع لما خطب في عرفة، وخطب في منى يوم النحر، ويوم النفر خطب

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حُجَّةِ الْوُدَاعِ ثَلَاثَ خُطَبٍ كُلُّهَا يَقُولُ فِيهَا: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلِّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى مِمَّنْ سَمِعَهُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قَالَهَا ثَلَاثًا^(١).

«دِمَاءَكُمْ»، لَا يَجُوزُ الْاِعْتِدَاءُ عَلَى الْمُسْلِمِ بِالْقَتْلِ وَسْفِكِ دَمِهِ، «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا يَأْخُذَ ثَلَاثُ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٢)، وَمَا عَدَا ذَلِكَ ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ.

«وَأَمْوَالَكُمْ»، الْأَمْوَالُ حَرَامٌ، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطَيْبٍ مِّنْ نَفْسِهِ»^(٣)، هَذِهِ الْأَمْوَالُ.

(١) سبق تخريجه (ص ٥٣١).

(٢) سبق تخريجه (ص ٧٤٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٧٢/٥)، (٤٢٥/٥)، وأبو يعلى في مسنده (١٤٠/٣)، والدارقطني في سننه (٢٦/٣)، والبيهقي في الكبرى (١٠٠/٦)، من حديث أبي حرة الرقاشي عن عمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«وَأَعْرَاضُكُمْ»، والعرض هو ما يقبل المدح والذم، لا يجوز للإنسان أن ينتهك عرض أخيه بالقذف أو بالغيبة أو بالنميمة أو بفعل الفاحشة، كل هذا حرام، «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرْضُهُ».



وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

الشَّجَرُ

هذا كالحديث الذي قبله إلا أنه يختلف في بعض الألفاظ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»، هذا تقرر، ثبت أن الإسلام يقتضي الأخوة، الإيمان والإسلام يقتضيان الأخوة بين المسلمين والمؤمنين بموجب الإيمان والإسلام.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ»، لا يقع منه ظلمٌ عليه في نفسه أو ماله أو عرضه، «وَلَا يُسْلِمُهُ»، هذا مثل «وَلَا يَخْذُلُهُ» فيما سبق، يعني: لا يتركه يُظلم، وهو يقدر على نصرته، «وَلَا يُسْلِمُهُ» لظالم يتركه يُظلم، وهو يقدر على نصرته.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ»، من سعى في حاجة أخيه لإزالة الحاجة عنه، من سعى في قضاء حاجة أخيه فإن الله يكون في حاجته، يعني: يعينه، ويسر له حاجته؛ لأن الجزء من جنس العمل، فكما تقضي حاجة أخيك المؤمن، فإن الله -سُبْحَانَهُ- يجازيك على ذلك، ويقضي حاجتك وأنت المحتاج إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٥٨)(٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، الكربة هي: الشدة في الأمر كأن ينزل بالمسلم شدة في أمرٍ من الأمور إما عُسرة، وليس عنده شيء، أو دينٌ ركه ولا يقدر على سداذه، وضايقه الغرماء، أو احتاج حاجةً شديدةً لإنفاقٍ على نفسه أو على ضيفه، فإذا قضيت حاجته في هذه الكربة التي أصابته ونفستها عنه، فإن الله جَلَّوَعَلَا ينفس عنك كربةً أنت نفست عن أخيك كربة من كرب الدنيا، فجزاؤك أن الله ينفس عنك كربةً من كرب يوم القيامة، كرب يوم القيامة أشد من كرب الدنيا.

فهذا فضلٌ عظيم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويدل على الحث على تفريج كربات المكروبين.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». كذلك من حق المسلم على المسلم أن يستره، إذا رأى منه ذلة أو هفوة فإنه يناصحه فيما بينه وبينه، ولا يتحدث عنه في المجالس، أو ينشر ما حصل منه بالغيبة والنميمة، فإذا سترت على أخيك ما رأيت عليه وناصحته فإن الله يسترك في الدنيا والآخرة، يسترك إذا حصل منك ذلة سترها الله عليك ولم يفضحك.

كذلك في الآخرة يسترها الله عليك، ولا يحاسبك عليها، ولا يعاقبك عليها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهذا فيه الترغيب في الستر على المسلمين مهما أمكن الستر، فإنه يستر على المسلم، وما من أحدٍ يسلم من الزلات والأخطاء، فعليك بمعالجة الأمر بدون الفضيحة وبدون الإشهار.

وَلَهُمَا عَنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١).

وَلِلْبُخَارِيِّ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزْهُ، أَوْ تَمْنَعْهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»^(٢)، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمِثَّتِهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

الشَّيْخُ

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، هَذِهِ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ، اجْعَلْ أَخَاكَ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِكَ، فَمَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ تَحِبُّ لِأَخِيكَ، وَمَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ تَكْرَهُ لِأَخِيكَ، اجْعَلْ نَفْسَكَ هِيَ الْمِيزَانُ فَمَا لَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ لَا تَرْضَاهُ لِأَخِيكَ، وَمَا رَضِيْتَهُ لِنَفْسِكَ فَارْضَاهُ لِأَخِيكَ مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَرْغُوبَاتِ.

«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»؛ الْمَظْلُومُ نَصْرُهُ عَرَفْنَاهُ تَدْفَعُ عَنْهُ الظُّلْمَ مَهْمَا اسْتَطَعْتَ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ، وَبِمَا تَسْتَطِيعُ بِدَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُ وَلَا تَسْلَمُهُ أَوْ تَخْذُلُهُ - تَتْرَكَهُ لِلظُّلْمَةِ - مَهْمَا أَمَكَّنَكَ.

(١) سبق تخريجه (ص ٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن الظلم الذي يقع على أخيك: إذا سمعت أحداً يغتابه في مجلس أو يتكلم به في مجلس، فمن نصرته أنك تدافع عنه، وتنكر على هذا المغتاب، هذا من نصرة أخيك، «مَنْ رَدَّ عَنْ غِرَضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

أما نصرة الظالم فهذه مشكلة، كيف تنصر الظالم؟ يعني: تساعد الظالم على ظلمه؟ لا، بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نصرته أن: «تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ»، منعه من الظلم ذلك هو نصرته، فإذا رأيت أحداً يظلم الناس، أو رأيت أحداً يغتاب الناس، أو يشي بهم فإنك لا تتركه على ظلمه، أو رأيت أحداً يضرب أحداً ظلماً، فإن من نصرة أخيك الظالم؛ لأن الظالم أخٌ لك، الظالم لا يخرج من الإخوة أو عن الإسلام، هو أخٌ لك فتمنعه من الظلم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، فدل على أن الظالم أخٌ لك، فإنك يجب عليك أن تمنعه من الظلم، هذا نصره، أما إذا ساعدته على الظلم فقد خذلته.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ)، انتهى الكتاب -والحمد لله-، ونسأل الله أن يغفر للمؤلف الشيخ، ويجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فنسأل الله لنا ولكم التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، وصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مراجع الكتاب

☆ اجتماع الجيوش الإسلامية، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، الناشر: مطابع الفرزدق التجارية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ٢ (الجزء الأول دراسة من المحقق).

☆ الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرج به البخاري ومسلم في صحيحيهما، المؤلف: ضياء الدين أبو عبد الله محمد ابن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: ٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١٣.

☆ أحكام القرآن، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

☆ الإخلاص والنية، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى:

٢٨١هـ)، حققه وعلق عليه: إياد خالد الطباع، الناشر: دار البشائر، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، عدد الأجزاء: ١.

☆ الأداب للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، اعتنى به وعلق عليه: أبو عبد الله السعيد المندوه، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ أدب الدنيا والدين، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩، عدد الأجزاء: ١.

☆ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ، عدد الأجزاء: ١٠.

☆ الأصمعيات اختيار الأصمعي، المؤلف: الأصمعي أبو سعيد عبد الملك ابن قريب بن علي بن أصمع (المتوفى: ٢١٦هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار المعارف - مصر، الطبعة: السابعة، ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ إعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٢.

☆ الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: موسى بن أحمد بن موسى ابن سالم بن عيسى بن سالم الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين، أبو النجا (المتوفى: ٩٦٨هـ)، المحقق: عبد اللطيف محمد موسى السبكي، الناشر: دار المعرفة بيروت - لبنان، عدد الأجزاء: ٤.

☆ الأمثال، المؤلف: أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، المحقق: الدكتور عبد المجيد قطامش، الناشر: دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، عدد الأجزاء: ١.

☆ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (المتوفى: ٩٢٨هـ)، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، الناشر: مكتبة دنديس - عمان، عدد الأجزاء: ٢.

☆ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المؤلف: علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالح الحنبلي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية - بدون تاريخ، عدد الأجزاء: ١٢.

☆ الأولياء، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣، عدد الأجزاء: ١.

☆ الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل - بيروت، الطبعة: الثالثة، عدد الأجزاء: ٣.

☆ بحر الدموع، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: جمال محمود مصطفى، الناشر: دار الفجر للتراث، الطبعة: الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ١.

☆ البحر المحيط في أصول الفقه، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد ابن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ٨.

- ☆ البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.
- ☆ البدء والتاريخ، المؤلف: المطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى: نحو ٣٥٥هـ)، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، عدد الأجزاء: ٦.
- ☆ البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- ☆ البدع والنهي عنها، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي (المتوفى: ٢٨٦هـ)، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة - مصر، مكتبة العلم، جدة - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ، عدد الأجزاء: ١.
- ☆ البرهان في أصول الفقه، المؤلف: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)، المحقق: صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٢.
- ☆ البعث والنشور للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق:

الشيخ عامر أحمد حيدر، الناشر: مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، المؤلف: أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب المعروف بابن أبي أسامة (المتوفى: ٢٨٢ هـ)، المتتقي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧ هـ)، المحقق: د. حسين أحمد صالح الباكري، الناشر: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ - ١٩٩٢، عدد الأجزاء: ٢.

☆ تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥ هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

☆ تاريخ أبي زرعة الدمشقي، المؤلف: عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله ابن صفوان النصري المشهور بأبي زرعة الدمشقي الملقب بشيخ الشباب (المتوفى: ٢٨١ هـ)، رواية: أبي الميمون بن راشد، دراسة وتحقيق: شكر الله نعمة الله القوجاني (أصل الكتاب رسالة ماجستير بكلية الآداب - بغداد)، الناشر: مجمع اللغة العربية - دمشق، عدد الأجزاء: ١.

☆ التاريخ الكبير، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦ هـ)، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، عدد الأجزاء: ٨.

☆ تاريخ المدينة لابن شبة، المؤلف: عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة بن ربيعة النميري البصري، أبو زيد (المتوفى: ٢٦٢هـ)، حققه: فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد - جدة، عام النشر: ١٣٩٩هـ.

☆ تاريخ بغداد، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ١٦.

☆ تاريخ دمشق، المؤلف: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م، عدد الأجزاء: ٨٠ (٧٤ و ٦ مجلدات فهارس).

☆ التحرير شرح التحرير في أصول الفقه، المؤلف: علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، الناشر: مكتبة الرشد - السعودية / الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٨.

☆ تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، المؤلف: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ١٠.

☆ تحفة المحتاج في شرح المنهاج، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي، روجعت وصححت: على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى بمصر لصاحبها مصطفى محمد، الطبعة: بدون طبعة، عام النشر: ١٣٥٧ هـ - ١٩٨٣ م، (ثم صورتها دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ)، عدد الأجزاء: ١٠.

☆ التحقيق والبيان في شرح البرهان في أصول الفقه، المؤلف: علي بن إسماعيل الإبياري (المتوفى ٦١٦ هـ)، (تنبيه) / ورد على الغلاف عام الوفاة ٦١٨ لكن المحقق رجح في المقدمة أن الوفاة عام ٦١٦، المحقق: د. علي بن عبد الرحمن بسام الجزائري، أصل التحقيق: أطروحة دكتوراه للمحقق، الناشر: دار الضياء - الكويت (طبعة خاصة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ التذكرة الحمدونية، المؤلف: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢ هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ، عدد الأجزاء: ١٠.

☆ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، المؤلف: عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري (المتوفى: ٦٥٦ هـ)، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ، عدد الأجزاء: ٤.

☆ التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

☆ تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ٢٦ مجلدًا، ٢٤ مجلدًا ومجلدان فهارس.

☆ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن ابن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧ هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.

☆ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٨.

☆ تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩ هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

☆ تفسير المراغي، المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)،
الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر،
الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، عدد الأجزاء: ٣٠.

☆ تفسير عبد الرزاق، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري
اليمني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، دراسة
وتحقيق: د. محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت،
الطبعة: الأولى، سنة ١٤١٩ هـ، عدد الأجزاء: ٣.

☆ تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، المؤلف: محمد بن فتوح
ابن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحميدي أبو عبد الله
ابن أبي نصر (المتوفى: ٤٨٨هـ)، المحقق: الدكتورة: زبيدة محمد سعيد
عبد العزيز، الناشر: مكتبة السنة - القاهرة - مصر، الطبعة: الأولى،
١٤١٥ - ١٩٩٥، عدد الأجزاء: ١.

☆ التمثيل والمحاضرة، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي
(المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية
للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، المؤلف: أبو عمر يوسف
ابن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى:
٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري،
الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر:
١٣٨٧ هـ، عدد الأجزاء: ٢٤.

- ☆ تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٨.
- ☆ توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى (المتوفى: ١٣٢٧هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٦، عدد الأجزاء: ٢.
- ☆ التوقيف على مهمات التعاريف، المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، الناشر: القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ١.
- ☆ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، المؤلف: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: ١٢٣٣هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
- ☆ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد).

☆ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ، عدد الأجزاء: ٩.

☆ جامع بيان العلم وفضله، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، عدد الأجزاء: ٢.

☆ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١ هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءاً (في ١٠ مجلدات).

☆ الجمل في النحو، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠ هـ)، المحقق: د. فخر الدين قباوة، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ جمهرة أشعار العرب، المؤلف: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: ١٧٠ هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، عدد الأجزاء: ١.

☆ جمهرة الأمثال، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت، عدد الأجزاء: ٢.

☆ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، أو الداء والدواء، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة - المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ١.

☆ جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت، عدد الأجزاء: ٢.

☆ حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، المؤلف: محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (المتوفى: ١٣٨هـ)، الناشر: دار الجليل - بيروت، بدون طبعة، (نفس صفحات دار الفكر، الطبعة - الثانية).

☆ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها، ١ - دار الكتاب العربي - بيروت. ٢ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ٣ - دار الكتب العلمية - بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)، عدد الأجزاء: ١٠.

☆ خلق أفعال العباد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار المعارف السعودية - الرياض، عدد الأجزاء: ١.

☆ الدر الفريد وبيت القصيد، المؤلف: محمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩هـ - ٧١٠هـ)، المحقق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، عدد الأجزاء: ١٣ (آخر جزأين فهارس).

☆ الدعاء للطبراني، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣، عدد الأجزاء: ١.

☆ دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات، المؤلف: منصور بن يونس بن صلاح الدين بن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: ١٠٥١هـ)، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٣.

☆ ديوان الأفوه الأودي، شعر الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي، صلاة بن عمرو بن مالك اليميني (المتوفى: ٥٦٠ م)، شرح وتحقيق: الدكتور محمد ألتونجي، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ رسائل ابن حزم الأندلسي، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، المحقق: إحسان

عباس، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء: ١ - الطبعة: ١، ١٩٨٠، الجزء: ٢ - الطبعة: ٢، ١٩٨٧، الجزء: ٣ - الطبعة: ١، ١٩٨١، الجزء: ٤ - الطبعة: ١، ١٩٨٣، عدد الأجزاء: ٤.

☆ الرسائل الأدبية، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناشي بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ، عدد الأجزاء: ١.

☆ الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ١.

☆ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٧.

☆ الروض الداني (المعجم الصغير)، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: محمد شكور محمود الحاج أمير، الناشر: المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥، عدد الأجزاء: ٢.

☆ روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن

قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ٢.

☆ زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ.

☆ السنة، المؤلف: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الحلال البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: د. عطية الزهراني، الناشر: دار الراية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، عدد الأجزاء: ٧.

☆ السنة، المؤلف: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك ابن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠، عدد الأجزاء: ٢.

☆ سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، عدد الأجزاء: ٢.

☆ سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير ابن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

☆ السنن الأبين والمورد الأمعن في المحاكمة بين الإمامين في السند المعنعن، المؤلف: محمد بن عمر بن محمد، أبو عبد الله، محب الدين ابن رشيد الفهري السبتي (المتوفى: ٧٢١هـ)، المحقق: صلاح بن سالم المصري، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧، عدد الأجزاء: ١.

☆ سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، عدد الأجزاء: ٥ أجزاء.

☆ سنن الدارقطني، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ابن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ٥.

☆ السنن الصغير للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد المغطي أمين قلعجي، دار النشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي - باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، المحقق: حسن عبد المنعم شلبي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: (١٠ و ٢ فهارس).

☆ السنن الكبرى، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجَردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

☆ سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الحديث - القاهرة، الطبعة: ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، عدد الأجزاء: ١٨.

☆ سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، المؤلف: محمد بن إسحاق ابن يسار المطلبى بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ)، تحقيق: سهيل زكار، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م، عدد الأجزاء: ٢.

☆ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ١١.

☆ شرح أصول اعتقاد أهل السنة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ)، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.

☆ شرح السنة، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، عدد الأجزاء: ١٥.

☆ شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ ابن محمد بن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء: ١.

☆ شرح الكوكب المنير، المؤلف: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (المتوفى: ٩٧٢هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الثانية ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ الشرح الممتع، للشيخ محمد بن عثيمين، تحقيق د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل، د. خالد بن علي بن محمد المشيقح، مؤسسة آسام للنشر، الطبعة الرابعة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

☆ شرح النووي على مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢، عدد الأجزاء: ١٨ (في ٩ مجلدات).

☆ شرح ديوان الحماسة، المؤلف: أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١ هـ)، المحقق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ شرح صحيح البخاري لابن بطلال، المؤلف: ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩ هـ)، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، عدد الأجزاء: ١٠.

☆ شرح مختصر الروضة، المؤلف: سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى: ٧١٦ هـ)، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٣.

☆ شرح مشكل الآثار، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤ م، عدد الأجزاء: ١٦ (١٥) وجزء للفهارس).

☆ شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوِجَردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخراج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، عدد الأجزاء: ١٤ (١٣)، ومجلد للفهارس).

☆ الشعر والشعراء، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، الناشر: دار الحديث، القاهرة، عام النشر: ١٤٢٣ هـ عدد الأجزاء: ٢.

☆ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٦.

☆ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣، عدد الأجزاء: ١٨ (١٧ جزء ومجلد فهرس).

☆ صحيح ابن خزيمة، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

☆ صحيح مسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء: ٥.

☆ طبقات الشافعية الكبرى، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ، عدد الأجزاء: ١٠.

☆ الطبقات الكبرى، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م، عدد الأجزاء: ٨.

☆ طريق المهجرتين وباب السعادتين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ، عدد الأجزاء: ١.

☆ العدة في أصول الفقه، المؤلف: القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وعلق عليه وخرج نصه: د أحمد بن علي بن سير المباركي، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة بالرياض - جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، الناشر: بدون ناشر، الطبعة: الثانية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ٥ أجزاء في ترقيم مسلسل واحد.

☆ العقد الفريد، المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب بن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ، عدد الأجزاء: ٨.

☆ العلل الواردة في الأحاديث النبوية، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر ابن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المجلدات من الأول، إلى الحادي عشر تحقيق وتخريج: محفوظ الرحمن زين الله السلفي، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، والمجلدات من الثاني عشر إلى الخامس عشر علق عليه: محمد بن صالح بن محمد الدباسي، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.

☆ العلل ومعرفة الرجال، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل
ابن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: وصي الله بن
محمد عباس، الناشر: دار الخاني - الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ -
٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٣.

☆ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أبو محمد محمود بن أحمد
ابن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى:
٨٥٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، عدد الأجزاء: ٢٥.
☆ عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عزَّجَلَّ ومعاشرته مع العباد،
المؤلف: أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط بن عبد الله بن
إبراهيم بن بُدَيْح، الدِّيْنَوْرِيّ، المعروف بابن السُّنِّي (المتوفى: ٣٦٤هـ)،
المحقق: كوثر البرني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة
علوم القرآن - جدة / بيروت، عدد الأجزاء: ١.

☆ العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم
الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي،
د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: ٨.

☆ عيون الأثر في فنون المغازي والشئال والسير، المؤلف: محمد بن محمد بن
محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين
(المتوفى: ٧٣٤هـ)، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، الناشر: دار القلم -
بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ / ١٩٩٣، عدد الأجزاء: ٢.

☆ غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، المؤلف: شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ)، الناشر: مؤسسة قرطبة - مصر، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٢.

☆ غريب الحديث، المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨ هـ)، المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، الناشر: دار الفكر - دمشق، عام النشر: ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، عدد الأجزاء: ٣.

☆ غريب الحديث، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقق: الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥، عدد الأجزاء: ٢.

☆ الغريين في القرآن والحديث، المؤلف: أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي (المتوفى ٤٠١ هـ)، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعته: أ. د. فتحي حجازي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٦ (في ترقيم واحد متسلسل).

☆ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

☆ فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.

☆ الفردوس بمأثور الخطاب، المؤلف: شيرويه بن شهردار بن شيرويه ابن فناخسرو، أبو شجاع الديلمي الهمداني (المتوفى: ٥٠٩هـ)، المحقق: السعيد بن بسبوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ٥.

☆ الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، المؤلف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الإسفراييني، أبو منصور (المتوفى: ٤٢٩هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٧ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ الفقيه والمتفقه، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١ هـ، عدد الأجزاء: ٢.

☆ الفهرست، المؤلف: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (المتوفى: ٤٣٨هـ)، المحقق: إبراهيم رمضان، الناشر: دار المعرفة بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ فيض القدير شرح الجامع الصغير، المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي

القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر،
الطبعة: الأولى، ١٣٥٦، عدد الأجزاء: ٦.

☆ الكافي في فقه الإمام أحمد، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد
ابن محمد بن قدامة الجماعلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن
قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة:
الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ الكامل في اللغة والأدب، المؤلف: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى:
٢٨٥هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي -
القاهرة، الطبعة: الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ الكامل في ضعفاء الرجال، المؤلف: أبو أحمد بن عدي الجرجاني (المتوفى:
٣٦٥هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، شارك في
تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، الناشر: الكتب العلمية - بيروت - لبنان،
الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

☆ الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة،
عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى:
٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد -
الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩، عدد الأجزاء: ٧.

☆ الكتاب، المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر،
الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون،
الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م،
عدد الأجزاء: ٤.

☆ كشف القناع عن متن الإقناع، المؤلف: منصور بن يونس بن صلاح الدين بن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: ١٠٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، عدد الأجزاء: ٦.

☆ كشف الأستار عن زوائد البزار، المؤلف: نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ كشف المشكل من حديث الصحيحين، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن - الرياض، عدد الأجزاء: ٤.

☆ اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي ابن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٢٠.

☆ لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ، عدد الأجزاء: ١٥.

☆ اللمع في أصول الفقه، المؤلف: أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (المتوفى: ٤٧٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية ٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ، عدد الأجزاء: ١.

☆ لمعة الاعتقاد، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، عدد الصفحات: ٤٦.

☆ المبدع في شرح المقنع، المؤلف: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (المتوفى: ٨٨٤هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ٨.

☆ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: نصر الله بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ.

☆ المجالسة وجواهر العلم، المؤلف: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، تاريخ النشر: ١٤١٩هـ، عدد الأجزاء: ١٠ (٨ أجزاء ومجلدان للفهارس).

☆ المجتبي من السنن = السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد

الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة:

الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦، عدد الأجزاء: ٩ (٨ ومجلد للفهارس).

☆ مجمع الأمثال، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني

النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد،

الناشر: دار المعرفة - بيروت، لبنان، عدد الأجزاء: ٢.

☆ مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد

ابن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة

النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.

☆ المجموع المغيث في غريب القرآن والحديث، المؤلف: محمد بن عمر بن

أحمد بن عمر بن محمد الأصبهاني المدني، أبو موسى (المتوفى: ٥٨١هـ)،

المحقق: عبد الكريم العزباوي، الناشر: جامعة أم القرى، مركز البحث

العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

- مكة المكرمة، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة - المملكة

العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ج ١ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)، ج

٢، ٣ (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، عدد الأجزاء: ٣.

☆ المجموع شرح المذهب (مع تكملة السبكي والمطيعي)، المؤلف: أبو زكريا

محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار الفكر.

☆ المحكم والمحيط الأعظم، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده

المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب

العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء:

١١ (١٠ مجلد للفهارس).

☆ مختار الصحاح، المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١.

☆ المخصص، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: خليل إبراهيم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٥.

☆ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المؤلف: أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (المتوفى: ٧٤٩هـ)، الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ، عدد الأجزاء: ٢٧.

☆ مساوئ الأخلاق ومذمومها، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد ابن سهل بن شاکر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ)، حققه وخرج نصوصه وعلق عليه: مصطفى بن أبي النصر الشلبي، الناشر: مكتبة السوادى للتوزيع، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ١.

☆ المستدرک على الصحيحین، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠، عدد الأجزاء: ٤.

☆ المستصفي، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ١.

☆ مسند أبي داود الطيالسي، المؤلف: أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (المتوفى: ٢٠٤هـ)، المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر - مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ مسند أبي يعلى، المؤلف: أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى ابن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤، عدد الأجزاء: ١٣.

☆ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ابن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

☆ مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو ابن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق

الشافعي (حقق الجزء ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م)، عدد الأجزاء: ١٨.

☆ مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، المؤلف: أبو محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ مسند الشاميين، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٤، عدد الأجزاء: ٤.

☆ مسند الشهاب، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي ابن حكيمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٦، عدد الأجزاء: ٢.

☆ المسند، المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، صححت هذه

النسخة على النسخة المطبوعة في مطبعة بولاق الأميرية والنسخة المطبوعة في بلاد الهند، عام النشر: ١٤٠٠ هـ.

☆ مصباح الزجاجاة في زوائد ابن ماجه، المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكتاني الشافعي (المتوفى: ٨٤٠ هـ)، المحقق: محمد المنتقى الكشناوي، الناشر: دار العربية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ، عدد الأجزاء: ٤.

☆ المصنف، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١ هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي - الهند، يطلب من المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ، عدد الأجزاء: ١١.

☆ مطالع الأنوار على صحاح الآثار، المؤلف: إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي، أبو إسحاق بن قرقول (المتوفى: ٥٦٩ هـ)، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، عدد الأجزاء: ٦.

☆ المطلع على ألفاظ المقنع، المؤلف: محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي، أبو عبد الله، شمس الدين (المتوفى: ٧٠٩ هـ)، المحقق: محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، الناشر: مكتبة السوادى للتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ، عدد الأجزاء: ٥.

☆ المعجم الأوسط، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة، عدد الأجزاء: ١٠.

☆ معجم الفروق اللغوية، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ابن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ(قم)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ، عدد الأجزاء: ١.

☆ المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية، عدد الأجزاء: ٢٥، ويشمل القطعة التي نشرها لاحقاً المحقق الشيخ حمدي السلفي من المجلد ١٣ (دار الصميعي - الرياض / الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م).

- ☆ المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.
- ☆ معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٦.
- ☆ معرفة السنن والآثار، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي - باكستان)، دار قتيبة (دمشق - بيروت)، دار الوعي (حلب - دمشق)، دار الوفاء (المنصورة - القاهرة)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ١٥.
- ☆ المُعْلَم بفوائد مسلم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التَّمِيمِي المازري المالكي (المتوفى: ٥٣٦هـ)، المحقق: فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الناشر: الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة، الطبعة: الثانية، ١٩٨٨م، والجزء الثالث صدر بتاريخ ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ٣.
- ☆ المغازي، المؤلف: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (المتوفى: ٢٠٧هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، الناشر: دار الأعلمي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٩ / ١٩٨٩، عدد الأجزاء: ٣.

☆ المغني لابن قدامة، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجنايعلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: مكتبة القاهرة، عدد الأجزاء: ١٠، تاريخ النشر: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

☆ المفاتيح في شرح المصابيح، المؤلف: الحسين بن محمود بن الحسن، مظهر الدين الزيداني الكوفي الصّريّ الشّيرازي الحنفيّ المشهور بالمظْهري (المتوفى: ٧٢٧هـ)، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية - وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، عدد الأجزاء: ٦.

☆ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي الأشعري، تحقيق هلموت ريتز، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا).

☆ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، المؤلف: إبراهيم بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (المتوفى: ٨٨٤هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ٣.

☆ الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي، عدد الأجزاء: ٣.

- ☆ منار السبيل في شرح الدليل، المؤلف: ابن ضويان، إبراهيم بن محمد ابن سالم (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: السابعة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، عدد الأجزاء: ٢.
- ☆ مناقب الشافعي للبيهقي، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: مكتبة دار التراث - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م، عدد الأجزاء: ٢.
- ☆ المنتخب من مسند عبد بن حميد، المؤلف: أبو محمد عبد الحميد بن حميد ابن نصر الكسبي ويقال له: الكسبي بالفتح والإعجام (المتوفى: ٢٤٩هـ)، المحقق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، الناشر: مكتبة السنة - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨، عدد الأجزاء: ١.
- ☆ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ١٩.
- ☆ منتهى الإرادات، المؤلف: تقي الدين محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي الشهير بابن النجار (٩٧٢هـ)، المحقق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٥.
- ☆ المنحة الربانية شرح الأربعين النووية، تأليف الشارح الشيخ العلامة صالح بن فوزان الفوزان - حفظه الله عَزَّجَلَّ - اعتنى به عادل بن محمد مرسي رفاعي، الدار الأثرية، والميراث النبوي.

☆ المنصف للسارق والمسروق منه، المؤلف: الحسن بن علي الضبي التنيسي أبو محمد، المعروف بابن وكيع (المتوفى: ٣٩٣هـ)، حققه وقدم له: عمر خليفة بن إدريس، الناشر: جامعة قات يونس، بنغازي، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م، عدد الأجزاء: ١.

☆ موطأ الإمام مالك، المؤلف: مالك بن أنس، أبو عبد الله الأصبغي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - مصر، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء: ٢.

☆ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م، عدد الأجزاء: ٤.

☆ النبوات، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٢.

☆ النجم الوهاج في شرح المنهاج، المؤلف: كمال الدين، محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري أبو البقاء الشافعي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، الناشر: دار المنهاج (جدة)، المحقق: لجنة علمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ١٠.

☆ نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، المؤلف: عدد من المختصين بإشراف الشيخ / صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة، عدد الأجزاء: ١٢ (١١) ومجلد للفهارس).

☆ نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، المؤلف: شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي (المتوفى: ١٠٠٤ هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأخيرة - ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، عدد الأجزاء: ٨.

☆ النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦ هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، عدد الأجزاء: ٥.

☆ الوافي بالوفيات، المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤ هـ)، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٢٩.

☆ الورقات، المؤلف: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨ هـ)، المحقق: د. عبد اللطيف محمد العبد، عدد الأجزاء: ١.

☆ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت، عدد الأجزاء: ٧.



فهرس الموضوعات

٥.....	مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ
٩.....	مقدمة الشارح
٢١.....	كِتَابُ الْكَبَائِرِ
٢٧.....	بَابُ: أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ
٣٠.....	بَابُ: كَبَائِرُ الْقَلْبِ
٣٧.....	بَابُ: ذِكْرُ الْكِبْرِ
٤٥.....	بَابُ: ذِكْرُ الْعُجْبِ
٥٧.....	بَابُ: ذِكْرُ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ
٧٠.....	بَابُ: الْفَرَحِ
٧٥.....	بَابُ: ذِكْرُ الْيَأْسِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ
٨٠.....	بَابُ: ذِكْرُ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ
٨٨.....	بَابُ: ذِكْرُ إِرَادَةِ الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ
٩١.....	بَابُ: الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ
٩٤.....	بَابُ: الْفُحْشِ
٩٧.....	بَابُ: ذِكْرُ مَوَدَّةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ
١٠٥.....	بَابُ: ذِكْرُ قَسْوَةِ الْقَلْبِ
١١٢.....	بَابُ: ذِكْرُ ضَعْفِ الْقَلْبِ

- أَبْوَابُ كِبَائِرِ اللِّسَانِ..... ١٢٠
- بَابُ: التَّحْذِيرِ مِنْ شَرِّ اللِّسَانِ..... ١٢٠
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْكَلَامِ..... ١٣٤
- بَابُ: التَّشْدُّقِ وَتَكْلُفِ الْفَصَاحَةِ..... ١٥٢
- بَابُ: شِدَّةِ الْجِدَالِ..... ١٦٢
- بَابُ: مَنْ هَابَهُ النَّاسُ خَوْفًا مِنْ لِسَانِهِ..... ١٧١
- بَابُ: الْبَذَاءِ وَالْفُحْشِ..... ١٧٨
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْكَذِبِ..... ١٩١
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي إِخْلَافِ الْوَعْدِ..... ٢٠٢
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي زَعْمُوا..... ٢٠٩
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْكَذِبِ وَالْمَرْحِ وَنَحْوِهِ..... ٢١٩
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّمَلُّقِ وَمَدْحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ..... ٢٢٩
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ كَوْنِ الْإِنْسَانِ مَدَّاحًا..... ٢٣٣
- بَابُ: مَا يَمْحَقُ الْكَذِبُ مِنَ الْبَرَكَاتِ..... ٢٣٥
- بَابُ: مَنْ تَحَلَّمَ وَلَمْ يَرِ شَيْئًا..... ٢٣٩
- بَابُ: ذِكْرِ مَرَضِ الْقَلْبِ وَمَوْتِهِ..... ٢٤١
- بَابُ: ذِكْرِ الرِّضَاءِ بِالْمَعْصِيَةِ..... ٢٥٦
- بَابُ: ذِكْرِ تَمَنِّيِ الْمَعْصِيَةِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا..... ٢٧٠

- بَابُ: ذِكْرِ الرَّيْبِ ٢٧٦
- بَابُ: السُّخْطِ ٢٩٧
- بَابُ: الْقَلَقِ وَالْأَضْطِرَابِ ٣٠٢
- بَابُ: الْجَهَالَةِ ٣١٧
- بَابُ: الْقِحَةِ ٣٢٩
- بَابُ: الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ ٣٣٣
- بَابُ: اِهْلَاعِ وَاجْتِنِ ٣٣٦
- بَابُ: الْبُخْلِ ٣٤٣
- بَابُ: عُقُوبَةِ الْبُخْلِ ٣٤٩
- بَابُ: اَزْدِرَاءِ النُّعْمَةِ وَالْاِسْتِخْفَافِ بِحُرْمَاتِ اللَّهِ ٣٥٦
- بَابُ: بُغْضِ الصَّالِحِينَ ٣٥٨
- بَابُ: الْحَسَدِ ٣٦٤
- بَابُ: سُوءِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ ٣٧٣
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ أَوْ عَلَى رَسُولِهِ ٣٧٧
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِلا عِلْمٍ ٣٨٦
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي شَهَادَةِ الزُّورِ ٣٩٦
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْيَمِينِ الْغَمُوسِ ٤٠٢
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي قَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ ٤٠٨

- بَابُ: مَا جَاءَ فِي ذِي الْوُجْهِينِ..... ٤١٨
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي النَّمِيمَةِ..... ٤٢٦
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْبُهْتَانِ..... ٤٣١
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي اللَّعْنِ..... ٤٣٨
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي إِفْشَاءِ السَّرِّ..... ٤٤٢
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي لَعْنِ الْمُسْلِمِ..... ٤٤٦
- بَابُ: ذِكْرُ تَأْكُذِهِ فِي الْأَمْوَاتِ..... ٤٥١
- بَابُ: ذِكْرُ قَوْلِ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، أَوْ يَا فَاسِقُ، أَوْ يَا كَافِرُ، وَنَحْوَهُ..... ٤٥٢
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي لَعْنِ الرَّجُلِ وَالِدِيهِ..... ٤٥٥
- بَابُ: النَّهْيُ عَنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ..... ٤٥٦
- بَابُ: النَّهْيُ عَنِ الشَّفَاعَةِ فِي الْحُدُودِ..... ٤٥٨
- بَابُ: مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ فِي الْبَاطِلِ..... ٤٦٠
- بَابُ: مَنْ شَهِدَ أَمْرًا فَلَيْتَ كَلَّمُ بِخَيْرٍ أَوْ لَيْسَ كُنْتُ..... ٤٧٠
- بَابُ: مَا يَخْذُرُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْفِتَنِ..... ٤٧١
- بَابُ: قَوْلِ: هَلَكَ النَّاسُ..... ٤٧٥
- بَابُ: الْفَخْرِ..... ٤٧٧
- بَابُ: الطَّعْنِ فِي الْأَنْسَابِ..... ٤٨٥
- بَابُ: مَنْ ادَّعَى نَسَبًا لَيْسَ لَهُ..... ٤٨٧

- بَابُ: مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ نَسَبِهِ..... ٤٩٠
- بَابُ: مَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَمَنْ إِذَا خَاصَمَ فَجَرَ..... ٤٩٣
- بَابُ: الدَّعْوَى فِي الْعِلْمِ افْتِخَارًا..... ٤٩٨
- بَابُ: ذِكْرُ جُحُودِ النُّعْمَةِ..... ٥٠٢
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي لَمَزِ أَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالْأَسْتِهْزَاءِ بِضَعْفِهِمْ..... ٥٠٧
- بَابُ: الْأَسْتِهْزَاءِ..... ٥١٠
- بَابُ: تَرْوِيعِ الْمُسْلِمِ..... ٥١٥
- بَابُ: الْمُتَشَبِّعِ بِمَا لَمْ يُعْطَ..... ٥١٧
- بَابُ: التَّحَدُّثِ بِالْمَعْصِيَةِ..... ٥١٨
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الشُّتْمِ بِالزَّنَا..... ٥٢١
- بَابُ: النَّهْيِ عَنِ تَسْمِيَةِ الْفَاسِقِ سَيِّدًا..... ٥٢٤
- بَابُ: النَّهْيِ عَنِ الْحَلْفِ بِالْأَمَانَةِ..... ٥٢٦
- بَابُ: النَّهْيِ عَنِ الْحَلْفِ بِمَلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ..... ٥٢٨
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْغِيَةِ..... ٥٢٩
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي إِضْلَالِ الْأَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ..... ٥٤٣
- بَابُ: تَشْيِيعِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ..... ٥٤٦
- بَابُ: الرِّشْوَةِ..... ٥٤٧
- بَابُ: هَدَايَا الْأَمْرَاءِ غُلُولٌ..... ٥٤٩

- بَابُ: اِهْدِيَّةٌ عَلَى الشَّفَاعَةِ..... ٥٥١
- بَابُ: الْغُلُولُ..... ٥٥٤
- بَابُ: طَاعَةُ الْأُمَرَاءِ..... ٥٥٧
- بَابُ: الْخُرُوجُ عَنِ الْجَمَاعَةِ..... ٥٦٨
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْفِتَنِ..... ٥٨٠
- بَابُ: تَعْظِيمُ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ..... ٦٠٧
- بَابُ: تَكْثِيرُ السَّوَادِ فِي الْفِتَنِ..... ٦١٩
- بَابُ: ذِكْرُ الْعُقُوقِ..... ٦٢٤
- بَابُ: ذِكْرُ الْقَطِيعَةِ..... ٦٣٣
- بَابُ: أَذَى الْجَارِ..... ٦٣٧
- بَابُ: الْأَسْتِخْفَافُ بِأَهْلِ الْفَضْلِ..... ٦٤٥
- بَابُ: إِغْصَابُ الزَّوْجِ..... ٦٥٢
- بَابُ: أَذَى الصَّالِحِينَ..... ٦٥٥
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْأَمَانَةِ وَالْخِيَانَةِ فِيهَا وَتَفْسِيرُ الْأَمَانَةِ..... ٦٥٩
- بَابُ: الْوَلَايَاتِ مِنَ الْأَمَانَةِ..... ٦٦٤
- بَابُ: النَّهْيُ عَنْ طَلَبِهَا..... ٦٦٦
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي غِشِّ الرَّعِيَّةِ..... ٦٧٠
- بَابُ: الشَّفَقَةُ عَلَى الرَّعِيَّةِ..... ٦٧٣

- بَابُ: الْأَحْتِجَابِ دُونَ الرَّعِيَّةِ..... ٦٧٦
- بَابُ: الْمَحَابَاةِ فِي الْوِلَايَةِ..... ٦٧٩
- بَابُ: الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ وَخَطَرِ الْوِلَايَةِ..... ٦٨٣
- بَابُ: وَِلَايَةِ مَنْ لَا يُحْسِنُ الْعَدْلَ..... ٦٩٢
- بَابُ: الْأَمَانَةِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْكَيْلِ وَالْوِزْنِ..... ٦٩٩
- بَابُ: قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»..... ٧٠٧
- بَابُ: الرَّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ..... ٧١٢
- بَابُ: الرَّفْقِ بِالْبَهَائِمِ..... ٧١٥
- بَابُ: إِبَاقِ الْعَبْدِ..... ٧٢٠
- بَابُ: ظُلْمِ الْأَجِيرِ..... ٧٢١
- بَابُ: سُؤَالِ الْمَرْأَةِ الطَّلَاقَ..... ٧٢٤
- بَابُ: مَا جَاءَ فِي الدِّيَوْتِ..... ٧٢٦
- بَابُ: ظُلْمِ الْمَرْأَةِ..... ٧٢٨
- بَابُ: الْإِشَارَةِ بِالسَّلَاحِ عَلَى وَجْهِ اللَّعِبِ..... ٧٣٠
- بَابُ: الْعَصِيَّةِ..... ٧٣٤
- بَابُ: مَنْ أَوَى مُحْدِثًا..... ٧٣٧
- كِتَابُ الْمَظَالِمِ..... ٧٤٠
- بَابُ: ظُلْمِ الْيَتِيمِ..... ٧٤٠

٧٤٦.....	بَابُ: غَضَبِ الْأَرْضِ
٧٤٨.....	بَابُ: الظُّلْمِ فِي الْأَبْدَانِ
٧٥١.....	بَابُ: الظُّلْمِ فِي الْأَمْوَالِ
٧٥٢.....	بَابُ: خِذْلَانِ الْمَظْلُومِ
٧٥٤.....	بَابُ: مَا جَاءَ فِي أُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَحَقِّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ
٧٨١.....	مراجع الكتاب
٨٢٣.....	فهرس الموضوعات